

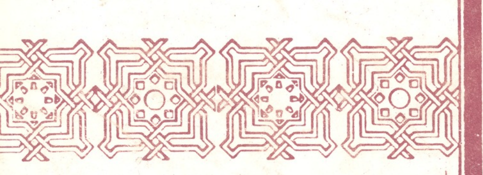


صيد الخاطر

لشيخ العراق أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا



طبعة محققة تحقيقاً علمياً على مخطوطاتها
تبرز في صورة مخالفة لجميع الطبعات السابقة



الأزهرية
سين محمد امبابي المنياوي
٩ شارع الصنادقية ميدان الأزهر





طبعة محققة تحقيقاً علمياً على مخطوطاتها
تبرز في صورة مخالفة لجميع الطبعات السابقة

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
لصاحبها
حسنين محمد إمبابي المنياوي
٩ شارع الصنادقية ميدان الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يثقل بها ربنا لنا ميزان الحسنات وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله ربنا بالآيات البينات، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الذين عرفوا الله ورسوله فعرفهم الله ورسوله، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون. وبعد.

إن نعم الله كثيرة وخيره عميم. وكان من نعم الله أن اختارنا لأشرف مهنة على وجه البسيطة، ألا وهي إخراج الكتب العلمية الإسلامية النافعة للمسلمين في كافة أنحاء البسيطة.

ومن فضل الله الجزيل أن وفقنا إلى جمال الاختيار وحسن الانتقاء باختيار هذا الكتاب الجليل والسفر العظيم في الوقت الذي ادلهمت فيه الدنيا بدياجير الظلام، فجاء هذا الكتاب كالقبس المنير والضياء المبين، ألا وهو كتاب «صيد الخاطر» للإمام الكبير والعالم الخطير «ابن الجوزي» وهو من هو في علمه الغزير وفضله الجليل. وهذا الكتاب يأتي صورة مشرقة وتجارب حية لهذا الإمام الذي كأنه دائرة معارف حية تمشي على رجلين.

وعلى الرغم من أن الكتاب له أصل مخطوط وطبعات ثلاث إحداها الطبعة البيروتية التي جاءت كالأصل المنسوخ منه الكتاب في ثلاثة أجزاء صغيرة. وثاني الطبعات طبعة مكتبة الخانجي، والطبعة الثالثة لدار الكتب

الحديثة فقد جاء الأستاذ المحقق شكر الله له واطلع على المخطوطة والمطبوعات، حتى يتلافى ما بها من سقطات ، ووضع العناوين المناسبة لمواضيع الكتاب المختلفة ، وشرح ما يحتاج إلى شرح من جمل هذا الكتاب ، حتى جاءت هذه الطبعة المتفوقة فى الإخراج أقرب إلى ما كتبه مؤلفها رحمه الله .

ونحن إذ نقدمها إلى القارىء درة يتيمة وجوهرة ثمينة لندعوا الله أن ينفعنا وقارءنا الكريم بما فيه، وأن يوفقنا للعمل فى هذا الطريق ونعم الطريق فى نشر العلم وتحصيله والانتفاع والعمل به .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

الناشر

(التعريف بابن الجوزى)

نسبه :

عبد الرحمن بن على أبى الحسن بن محمد بن على بن عبيد الله بن عبد الله ابن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق عبد الله بن أبى قحافة . الحافظ العلامة جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزى القرشى التيمى البكرى البغدادى الحنبلى الواعظ . صاحب التصانيف المشهورة فى أنواع العلوم من التفسير والحديث والفقه والوعظ والزهد والتاريخ والطب وغير ذلك .

مولده :

ولد سنة ثمان أو عشر وخمسمائة .

شيوخه :

كان أول سماعه سنة ست عشرة وخمسمائة ، وقيل سنة عشرين وخمسمائة وبعدها . فسمع من أبى الحصين وعلى بن عبد الواحد الدينورى ، والحسين ابن محمد البارع ، وأبى السعادات أحمد بن أحمد المتوكلى . وأبى سعد إسماعيل ابن أبى صالح المؤذن ، وأبى الحسن على بن الزاغونى الفقيه وأبى غالب بن البنا وأخيه يحيى ، وأبى بكر محمد بن الحسين ، وهبة الله بن الطبرى ، وأبى غالب محمد بن الحسن الماوردى ، وخطيب أصبهان ، أبى القاسم عبد الله بن الراوى ، وأبى السعود أحمد بن المجلى ، وأبى منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز ، وعلى بن أحمد الموحد ، وأبى القاسم ابن السمرقندى ، وابن ناصر ، وأبى الوقت .

وخرج لنفسه مشخية عن سبع وثمانين نفساً . وكتب بخطه مالا يوصف، ووعظ وهو صغير جداً ، قرأ الوعظ على الشريف أبى القاسم على بن يعلى ابن عوض العلوى الهروى ، وأبى الحسن بن الزاغونى وتفقه على أبى بكر أحمد بن محمد الدينورى ، وتخرج فى الحديث بابن ناصر . وقرأ الأدب على أبى منصور موهوب بن الجواليقى .

روى عنه ابنه محي الدين يوسف وسبطه شمس الدين يوسف الواعظ ، والحافظ عبد الغنى والشيخ الموفق، والبهاء عبد الرحمن ، والضيا محمد، وابن خليل والدبيثى وابن النجار والبلدانى والزين بن عبد الكريم ، والنجيب عبد اللطيف ، وخلق سواهم .

وبالإجازة الشيخ شمس الدين عبد الرحمن ، وأحمد بن أبى الخير ، والعز عبد العزيز بن الصيقل ، وقطب الدين أحمد بن عبد السلام المصرونى ، وتقى الدين إسماعيل بن أبى اليسر ، والخضر بن عبد الله بن حمويه ، والفخر على بن البخارى .

وكان الذى حرص على تسميعه وأفاده الحافظ ابن ناصر . وقرأ القراءات على أبى محمد سبط الخياط .

وكان فريد عصره فى الوعظ ، وهو آخر من حدث عن الدينورى والمتوكلى .

من تصانيفه :

(١) كتاب المغنى . فى علم القراءات. (٢) كتاب زاد المسير فى علم التفسير. (٣) تذكرة الأديب فى شرح الغريب . (٤) نزهة النواظر فى الوجوه والنظائر . (٥) عيون علوم القراءات وهو فنون الأفنان . (٦) الناسخ والمنسوخ . (٦) منهاج الوصول إلى علم الأصول . (٧) نفى التشبيه .

(٨) جامع المسانيد (٩) الحدائق (١٠) نفى النقل . (١١) المجتبى . (١٢) النزهة .
(١٣) عيون الحكايات (١٤) الموضوعات . (١٥) الأحاديث الرائقة .
(١٦) الضعفاء . (١٧) تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير .
(١٨) المنتظم فى أخبار الملوك والأمم . (١٩) شذور العقود فى تاريخ اليهود .
(٢٠) مناقب بغداد (٢١) المذهب فى المذهب . (٢٢) الانتصار فى مسائل الخلاف
(٢٣) الدلائل فى مشهور المسائل (٢٤) اليواقيت فى الخطب الوعظية .
(٢٥) المنتخب . (٢٦) نسيم السحر . (٢٧) المختار فى اختيار الأخبار
(٢٨) صفوة الصفوة . (٢٩) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن
(٣٠) المقعد المقيم (٣١) تبصرة المبتدى . (٣٢) تحفة الواعظ . (٣٣) ذم الهوى
(٣٤) تلبيس إبليس (٣٥) الأذكياء . (٣٦) الحمقى والمغفلين .
(٣٧) المنافع فى الطب . (٣٨) الشيب والخضاب . (٣٩) روضة الناقل .
(٤٠) تقويم اللسان . (٤١) منهاج الإصابة فى محبة الصحابة . (٤٢) صبا نجد .
(٤٣) المزعج . (٤٤) الملهب . (٤٥) المطرب . (٤٦) منتهى المشتهى .
(٤٧) فنون الألباب . (٤٨) الظرفاء والمتماجنين (٤٩) تقريب الطريق
الأبعد فى فضل مقبرة أحمد . (٥٠) العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية
(٥١) أسباب البداية لأرباب الهداية (٥٢) سلوة الأحزان . (٥٣) ياقوتة
المواعظ . (٥٤) منهاج القاصدين (٥٥) اللطائف . (٥٦) واسطات العقود .
(٥٧) الخواتيم . (٥٨) المجالس اليوسفية ، (٥٩) المحادثة (٦٠) إيقاظ
الوسنان . (٦١) نسيم الرياض . (٦٢) الثبات عند الممات (٦٣) الوفا بفضائل
المصطفى . (٦٤) مناقب أبى بكر (٦٥) المعاد . (٦٦) مناقب عمر بن عبد العزيز .
(٦٧) مناقب سعيد بن المسيب (٦٨) مناقب الحسن البصرى . (٦٩) مناقب
إبراهيم بن أدهم ، (٧٠) مناقب الفضيل . (٧١) مناقب أحمد . (٧٢) مناقب
الشافعى (٧٣) مناقب معروف . (٧٤) مناقب الثورى (٧٥) مناقب بشر
(٧٦) مناقب رابعة . (٧٧) العزلة ، (٧٨) مرافق الموافق (٧٩) الرياضة

(٨٠) النصر على مصر . (٨١) كان وكان فى الوعظ . (٨٢) مواسم العمر (٨٣) صيد الخاطر ، وهو الكتاب الذى نقدم له .

وله تصانيف أخرى كثيرة .

* * *

و(جعفر) فى أجداده هو الجوزى : منسوب إلى فُرضة من فرض البصرة يقال لها جوزة . وفرضة النهر ثلمته ، وفرضة البحر محط السفن . أو لجوزة كانت فى دارهِ ، ولم يكن بواسط غيرها .

نشأته :

وقد توفى والد أبى الفرج أبو الحسن وله ثلاث سنين ، وكانت له عمة صالحة ، وكان أهله تجاراً فى النحاس ، ولهذا نجده ألف فى بعض الصناعات ، ولما ترعرع حملته عمته إلى ابن ناصر فاعتنى به ، وقد رزق القبول فى الوعظ .

مكانته :

حضر مجلس الخلفاء والوزراء والكبار ، وحضروا مجالس وعظه ، وأقل ما كان يحضر مجلسه الألوف .

قال سبطه شمس الدين أبو المظفر : سمعته مرة يقول على المنبر فى آخر عمره كتبت بأصبعى هاتين ألفى مجلد . وتاب على يدى مائة ألف . وأسلم على يدى عشرون ألف يهودى ونصرانى .

وكان يجلس بجامع القصر والرصافة والمنصور وباب بدر وتربة أم الخليفة ، وكان يختم القرآن فى كل أسبوع ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس .

نماذج من وعظه :

قال فى بعض مجالس وعظه :

عقارب المنايا تلسع . واحذر : إن جسم الأمل يمنع الإحساس ، وماء الحياة فى إناء العمر يرشح بالأنفاس .

وقال يعظ بعض الولاة : اذكر عند القدرة عدل الله فيك ، وعند العقوبة قدرة الله عليك . وإياك أن تشفى غيظك بسقم دينك .

وقال له قائل : ما نمت البارحة من شوقى إلى المجلس . قال : لأنك تريد أن تتفرج ، وإنما ينبغى ألا تنام الليلة لأجل ما سمعت .

وقال له قائل : أيهما أفضل : أسبح أو أستغفر ؟ فقال : الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور .

* * *

ومن مناجاته : إلهى لا تعذب لساناً يخبر عنك ، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك ، ولا قدماً تمشى إلى خدمتك . ولا يداً تكتب حديث رسولك ، فبعزتك لا تدخلنى النار ، فقد علم أهلها أنى كنت أذب عن دينك .

نماذج من شعره :

ذكر العماد الكاتب له هذه الأبيات :

يود حسودى أن يرى لى زلة
إذا ما رأى الزلات جاءت أكاذيب
أرد على خصمى وليس بقادر
على رد قولى فهو موت وتعذيب

ترى أوجه الحساد صفراً لرؤيتى

فإن فهمت عادت وهى سود غرابيب

وقال أيضاً :

ياصاحبي إن كنت لى أو معى	فعج إلى وادى الحمى نرتع
وسل عن الوادى وسكانه	وانشد فؤاداً فى ربا لعلع
حتى كثيب الرسل رسل الحمى	وقف وسلم لى على المجمع
وسمع حديثا قد روته الصبا	تسنده عن بانة الأجرع
وإياك فما فى العين من فضلة	وتب فدتك النفس عن مدمعى
وانزل على الشيخ أبي أديهم	واشمم عشيب البلد البلقع
رفقاً بنضو قد براه الأسى	ياعاذلى لو كان قلبى معى
لهفى على طيب ليال خلت	عودى تعودى مدنفا قد نعى
إذا تذكرت زمانا مضى	فويح أجفانى من أدمعى

محنته :

وقد نالته فى أواخر عمره محنة . فقد وشوا به إلى الخليفة فى أمر اختلف فى حقيقته ، وذلك فى الصيف . فبينما هو جالس فى داره فى السرداب يكتب ، جاءه من أسمعه غليظ الكلام وشتمه ، وختم على كتبه وداره ، وشتت عياله ، فلما كان أول الليل حملوه فى سفينة وأحدروه إلى واسط ، فأقام خمسة أيام ما أكل طعاماً وهو يومئذ ابن ثمانين سنة وحبسوه فى دار بواسط ، وجعلوا عليها بواباً . وكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه ويطبخ ويستقى الماء من البئر ، فبقى كذلك خمس سنين . وكان من جملة أسباب القضية أن الوزير ابن يونس قبض عليه فتتبع ابن القصاب : أصحاب ابن يونس ، وكان الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي المتهم بسوء العقيدة واصلا عند ابن القصاب

فقال له : أين أنت عند ابن الجوزى فهو من أكبر أصحاب ابن يونس . وأعطاه مدرسة جدى وأحرقت كتبى بمشورته وهو ناصبى من أولاد أبى بكر. وكان ابن القصاب شيعياً فكتب إلى الخليفة وساعده جماعة ولبسوا على الخليفة فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام . وكان ابنه محيى الدين يوسف قد ترعرع وقرأ الوعظ وكان صبياً ذكياً فوعظ ، وتكلمت أم الخليفة فى خلاص ابن الجوزى فأطلق وعاد إلى بغداد .

وفاته :

قال سبطه أبو المظفر : جلس رحمه الله يوم السبت سابع رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخى وأنشد أبياتاً وهى :

الله أسأل أن يطول مدتى وأنال بالإنعام مافى نيتى
لى همة فى العلم ما من مثلها وهى التى جنت النحول هى التى
كم كان لى من مجلس لو شبهت حالاتــه لتشبهت بالجنـة

ونزل فمرض خمسة أيام وتوفى ليلة الجمعة بين العشاءين فى الثالث عشر من رمضان . وحضر غسله ضياء الدين ابن سكينة وضياء الدين ابن الحبير وقت السحر . واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق . وحمله الناس إلى مقبرة أحمد ابن حنبل .

وشيعه خلق كثير : وكان قد أوصى أن يكتب على قبره :

يا كثير الصفح عمن كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو الـ عفو عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء الـ ضيف إحسان إليه

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه المستعان وعليه التكلان)

قال[الشيخ الإمام العالم [1]] أبو الفرج ؛ عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى رحمة الله عليه (٢) .

الحمد لله حمداً يبلغ رضاه ، وصلى الله على أشرف من اجتباه ، وعلى من صاحبه ووالاه ، وسلم تسليما لايدرك منتهاه .

لما كانت الخواطر تجول فى تصفُّح أشياء تَعرِض لها ، ثم تُعرِض عنها فتذهب ، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطُر لكيلا يُنسى .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : قيِّدو العلم بالكتابة .

وكم قد خطرلى شيء ، فأتشاغل عن إثباته فيذهب ، فأتأسف عليه ، ورأيته من نفسى أننى كلما فتحت بصر التفكر ، سنح له من عجائب الغيب ، مالم يكن فى حسابه [3] ، فأنثال عليه من كثيب التفهم مالا يجوز التفريط فيه ، فجعلت هذا الكتاب قيداً ـ لصيد الخاطر ـ والله ولى النفع ، إنه قريب مجيب .

١ ـ فصل : تفاوت الناس فى تقبل المواعظ

قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة،فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القساوة والغفلة ! فتدبرت السبب فى ذلك فعرفته .

---

(١) ساقط من الدمشقية .

(٢) السطر أكله ساقط من الحديثة .

(٣) فى الحديثة : فى حساب .

ثم رأيت الناس يتفاوتون فى ذلك ، فالحالة العامة أن القلب لايكون على صفته (١) من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها ، لسببين :

أحدهما : أن المواعظ كالسياط ، والسياط لاتؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها .

والثانى : أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة ، قدتخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا ، وأنصت(٢) بحضور قلبه ، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها ، وكيف يصح أن يكون كما كان(٣) ؟! .

وهذه حالة تعم الخلق ، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون فى بقاء الأثر .
فنهم من يعزم بلا تردد ، ويمضى من غير التفات ، فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا ، كما قال حنظلة عن نفسه : نافق حنظلة ! ومنهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً ، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحيانا ، فهم كالسنبلة تميلها الرياح ! وأقوام لايؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه ، كماء دحرجته على صفوان .

٢ — فصل : جواذب النفس بين الدنيا والآخرة

جواذب الطبع إلى الدنيا كثيرة ، ثم هى من داخل ، (و) ذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع من خارج (٤) وربما ظن من لاعلم له أن جواذب الآخرة أقوى ، لما يسمع من الوعيد فى القرآن .وليس كذلك . لأن مثل الطبع فى ميله

---

(١) (صفته) وزاد فى الحديثة واحدة ولا أصل لها .
(٢) فى ت : والصب .
(٣) فى الحديثة : وكيف يصح مع تلك الجواذب أن يبقى الخ ، ولا أصل لها فى المخطوطات .
(٤) فى الحديثة : ثم هى غيب . ولا أصل لها فى الأصول .

إلى الدنيا ، كالماء الجارى (فإنه)(١) يطلب الهبوط ، وإنما رفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلف .

ولهذا أجاب معاون الشرع: بالترغيب والترهيب يقوى جند العقل . فأما الطبع فجواذبه كثيرة ، وليس العجب أن يَغلِبَ ، إنما العجب أن يُغلب .

٣ — فصل : البصر فى العواقب

من عاين بعين بصيرته تناهِىَ الأمور فى بداياتها ، نال خيرها ، ونجا من شرها . ومن لم ير العواقب غلب عليه الحس ، فعاد عليه بالألم ما طلب منه السلامة ، وبالنَّصَب مارجامنه الراحة .

وبيان هذا فى المستقبل ، يتبين بذكر الماضى ، وهو أنك لا تخلو ، أن تكون عصيتَ الله فى عمرك ، أو أطعتَه . فأين لذة معصيتك ؟ وأين تعب طاعتك ؟ هيهات رحل كلٌّ بما فيه !

فليت الذنوب إذ تخلّت خلت !

وأزيدك فى هذا بياناً بمثّل(٢) ساعة الموت ، وانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط ، ولا أقول كيف تغلب(٣) حلاوة اللذات ، لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلا ، فبقيت مرارة الأسى بلامقاوم . أتراك ما علمت، أن الأمر بعواقبه ؟ فراقب(٤) العواقب تسلم ، ولا تمل مع هوى الحس فتندم .

٤ — فصل : متاع الغرور

من تفكر فى عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول الطريق تأهب

---

(١) ساقطة من الحديثة والخانجى .

(٢) فى الحديثة : تمثل .

(٣) فى الحديثة : أين ذهبت . ولا أصل لها .

(٤) فى ت : فرأيت العواقب تسلم .

السفر. ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه!
(وتخشى الناسَ والله أحق أن تخشاه(١)).

تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن. أعجب العجائب:
سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خُبيء لك. تغتر بصحتك وتنسى
دُنُوّ السقم (٢)، وتفرح بعافيتك غافلا عن قرب الألم. لقد أراك مصرعُ
غيرك مصرعك، وأبدى مضجعُ سواك — قبل الممات — مَضجعَك. وقد
شغلك نيل لذاتك، عن ذكر خراب ذاتك:

كأنَّكَ لمْ تسمَعْ بِأخبارِ مَنْ مَضى
وَلمْ تَرَ في الباقِينَ مَا يَصنَعُ الدَّهرُ!
فإنْ كُنتَ لا تَدْرِي فَتلكَ دِيارُهُمْ
مَحاها مَجالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ وَالقَبْرُ!

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لحدَهُ، حتى نزل! وكم شاهدت والىَ قصر
وليه عدوُّه لما عُزِل! فيا من كل لحظة إلى هذا يسرى، وفعله فعل من لا يفهم
ولا يدرى....

وكيف تنامُ العينُ وهى قريرةٌ؟
ولم تدرِ من أىِّ المحلين تنزلُ؟

٥ — فصل: الحذر طريق السلامة

من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة. ومن ادَّعى الصبر، وُكل إلى نفسه.
وربَّ نظرة لم تناظر! وأحق الأشياء بالضبط والقهر: اللسان والعين.

(١) جزء من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب.
(٢) فى ت: دنس السقم.

فإياك إياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى ، مع مقاربة الفتنة . فإن الهوى مكايد .

وكم من شجاع فى صف الحرب اغتيل، فأتاه ما لم يحتسب ممن يأنف النظر إليه ! واذكر حمزة مع وحشى .

فتبصَّرْ ولا تَشِمْ كلَّ برق
رُبَّ برق فيه صواعق حَينِ
وَاغضُضِ الطرْفَ تسترح من غرَامٍ
تكتسى فِيه ثوبَ ذُلٍّ وشينِ
فبَلاءُ الفتَى مُوافقةُ النفْس
وَبَدْءُ الهوَى طمُوحُ العَينِ

٦ ـ فصل : لا تأخذك العزة بالإثم

أعظم المعاقبة ألا يحس المعاقب بالعقوبة . وأشد من ذلك نفع[1] السرور بما هو عقوبة ، كالفرح بالمال الحرام ، والتمكن من الذنوب . ومَن هذه حاله ، لا يفوز بطاعة . وإنى تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين فرأيتهم فى عقوبات لا يحسون بها ، ومعظمها من قِبل طلبهم للرياسة .

فالعالم منهم ، يغضب إن رُدَّ عليه خطؤه ، والواعظ متصنع بوعظه ، والمتزهد منافق أومراء . فأول عقوباتهم ، إعراضهم عن الحق شغلا بالخلق . ومن خفىّ عقوباتهم ، سلب حلاوة المناجاة ، ولذة التعبد . إلا[2] رجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات ، يحفظ الله بهم الأرض ، بواطنهم كظواهرهم ، بل أجلى ، وسرائرهم كعلانيتهم ، بل أحلى ، وهممهم عند الثريا ، بل أعلى .

---

(١) فى المطبوعات : يقع السرور ، وزيدت (أن) فى الحديثة دون تنبيه.
(٢) فى ت : ولولا .

إن عرُفوا تنكروا[1] ، وإن رئيت لهم كرامة ، أنكروا . فالناس فى غفلاتهم ، وهم فى قطع فلاتهم ، تحبهم بقاع الأرض ، وتفرح بهم أملاك[2] السماء . نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم ، وأن يجعلنا من أتباعهم .

٧ ـ فصل : كمال العقل

من علامة كمال العقل : علو الهمة ! والراضى بالدون دنىء ! !

وَلَمْ أرَ فِى عُيُوب النَّاسِ عَيْباً   كَنَقصِ الْقَادِرِين عَلى التمَّام

٨ ـ فصل : يحبهم ويحبونه

سبحان من سبقت محبته لأحبابه ، فمدحهم على ماوهب لهم ، واشترى منهم ما أعطاهم ، وقدم المتأخر من أوصافهم ، لموضع إيثارهم ، فباهى بهم فى صومهم ، وأحب خُلوف أفواههم . يالها من حالة مصونة لا يقدر عليها كل طالب ! ولا يبلغ كنه وصفها كل خاطب .

٩ ـ فصل : ضع الموت نصب عينيك

الواجب على العاقل أخذ العُدة لرحيله ، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمرُ ربه ، ولا يدرى متى يُستدعى ؟

وإنى رأيت خلقاً كثيراً غرّهم[3] الشباب ، ونسوا فقد الأقران ، وألهاهم طول الأمل .

وربما قال العالم المحض لنفسه : أشتغل بالعلم اليوم ثم أعمل به غداً ،

---

(١) فى ت : تفكروا .

(٢) فى ت : أفلاك .

(٣) فى الدمشقية : غيرهم .

فيتساهل فى الزلل بحجة الراحة ، ويؤخر الأهبة(١) لتحقيق التوبة ، ولا يتحاشى من غيبة أو سماعها ، ومن كسب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع(٢) .

وينسى أن الموت قد يبغت . فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه . فإن بغته الموت رؤى مستعداً ، وإن نال الأمل ازداد خيراً .

١٠ ــ فصل : من أعمالكم سلط عليكم

خطرت لى فكرة فيما يجرى على كثير من العالم من المصائب الشديدة ، والبلايا العظيمة ، التى تتناهى إلى نهاية الصعوبة فقلت : سبحان الله ! إن الله أكرم الأكرمين ، والكرم (٣) يوجب المسامحة .

فما وجه هذه المعاقبة ؟

فتفكرت ، فرأيت كثيراً من الناس (فى)(٤) وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة(٥) الوحدانية ، ولا ينظرون فى أوامر الله تعالى ونواهيه ، بل يجرُون ــ على عاداتهم ــ كالبهائم .

فإن وافق الشرع مرادهم ، وإلا فعوَّلهم على أغراضهم . وبعد حصول الدينار ، لا يبالون ، أمن حلال كان أم من حرام . وإن سهلت عليهم الصلاة فعلوها ، وإن لم تسهل تركوها . وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة ، مع (نوع)(٦) معرفة الناهى (٧) . وربما قويت معرفة عالم منهم ، وتفاقت ذنوبه ، فعلمت أن

(١) فى ت : الرجاء .
(٢) فى الحديثة : أن يمحوها بعمل فى غد .
(٣) فى الدمشقية : الكريم .
(٤) ساقطة من الحديثة .
(٥) فى ت : إدامة .
(٦) ساقطة من الحديثة .
(٧) فى المطبوعات : المناهى .

العقوبات ، وإن عظمت دون إجرامهم . فإذا وقعت عقوبة لتمحص ذنباً ، صاح مستغيثهم : ترى هذا بأى ذنب ؟ وينسى ماقد كان ، مما تتزلزل الأرض لبعضه .

وقد يهان الشيخ فى كبره حتى ترحمه القلوب ، ولا يدرى أن ذلك لإهماله حق الله تعالى فى شبابه . فمتى رأيت معاقباً ، فاعلم أنه لذنوب .

١١ ـ فصل : المقارنة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة

تأملت التحاسد بين العلماء ، فرأيت منشأه من حب الدنيا ، فإن علماء الآخرة يتوادّون ولا يتحاسدون ، كما قال عز وجل « ولا يجدُونَ فى صدُورِهِمْ حاجَةً ممَّا أوتُوا (١) » .

وقال تعالى : « وَالذِين جاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبّنَا اغْفِرْ لنا ولإخوانِنَا الذِينَ سَبَقُونا بِالإيمان ولا تجعَلْ فى قلُوبِنَا غِلاًّ للّذِينَ آمنُوا (٢) » .

وقد كان أبو الدرداء : يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعى : أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر .

والأمر الفارق بين الفئتين : أن علماء الدنيا ينظرون إلى الرياسة فيها ، ويحبون كثرة الجمع والثناء . وعلماء الآخرة ، بمعزل من إيثار ذلك ، وقد كانوا يتخوفونه ؛ ويرحمون من بلى به .

وكان النخعى : لا يستند إلى سارية . وقال علقمة : أكره أن يوطأ عقبى . ويقال علقمة . وكان بعضهم : إذا جلس إليه أكثر من أربعة ، قام

(١) جزء من الآية ٩ من سورة الحشر .

(٢) جزء من الآية ١٠ من سورة الحشر .

عنهم . وكانوا يتدافعون الفتوى ، ويحبون الخمول ، مثل القوم ، كمثل راكب البحر ، وقد خِبَّ(١) ، فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة .

وإنما كان بعضهم يدعو لبعض ، ويستفيد منه لأنهم ركب تصاحبوا فتزاودوا ، فالأيام والليالى مراحلهم إلى سفر الجنة .

١٢ ـ فصل : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

من أحب تصفية الأحوال ، فليجتهد فى تصفية الأعمال .

قال (الله)(٢) عز وجل : « وأن لو استقاموا على الطريقة ، لأسقيناهم ماءً غدقاً(٣) » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل : « لو أن عبادى أطاعونى اسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم أسمعهم صوت الرعد (٤) وقال صلى الله عليه وسلم : « البر لا يبلى ، والإثم لا ينسى ، والديان لا ينام ، وكما تدين تدان » .

وقال أبو سليمان الدارانى :من صَفَّى صُفِّىَ له، ومن كَدَّر كُدِّر عليه ، ومن أحسن فى ليله كوفىء فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كوفىء فى ليله . وكان شيخ يدور فى المجالس ، ويقول : من سره أن تدوم له العافية ، فليتق الله عزوجل . وكان الفضيل بنعياض ، يقول : إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق دابتى ، وجاريتى . واعلم ـ وفقك الله ـ أنه لا يُحس بضربةٍ مبنَّج ،

(١) الخب : ثوران البحر

(٢) ساقطة من المطبوعات .

(٣) آية ١٦ من سورة الجن .

(٤) فى الاربعين القدسية : « لو أن عبادى أطاعونى لاسقيتهم المطر بالليل ، ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد » .

وإنما يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه ومتى رأيت تكديراً فى حال، فاذكر نعمة ماشُكرت، أو زلة قد فعُلت، واحذر من نفار النعم، ومفاجأة النقم، ولا تغتر (١) بسعة بساط الحلم؛ فربما عجل انقباضه.

وقد قال الله عز وجل: « إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ، حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٢) ».

وكان أبو على الروذبارى يقول « من الاغترار أن تسيء، فيحسن إليك، فتترك التوبة، توهما أنك تسامَحُ فى العقوبات (٣) .

١٣ ـ فصل: غوامض تحير الضال

تفكرت يوما فى التكليف، فرأيته ينقسم إلى سهل، وصعب. فأما السهل فهو أعمال الجوارح، إلا أن منه ما هو أصعب من بعض، فالوضوء والصلاة أسهل من الصوم، والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة. وأما الصعب فيتفاوت، فبعضها أصعب من بعض. فمن المستصعب، النظر، والاستدلال، الموصلان إلى معرفة الخالق. فهذا صعب عند من غلبت عليه أمور الحس. سهل عند أهل العقل. ومن المستصعب غلبة الهوى، وقهر النفوس، وكف أكفّ الطباع (٤) عن التصرف فيما يؤثره.

وكل هذا يسهل على العاقل النظر فى ثوابه، ورجاء عاقبته، وإن شق عاجلا.

وإنما (٥) أصعب التكاليف وأعجبها: أنه قد ثبتت حكمة الخالق عند العقل،

(١) فى ت: ولا تغترر.
(٢) جزء من الآية ١١ من سورة الرعد.
(٣) فى المطبوعات: فى الهفوات.
(٤) فى الدمشقية: الطبع.
(٥) فى الحديثة والدمشقية: ولنا. ولا معنى لها.

ثم نراه يُفقر المتشاغل بالعلم ، المقبل على العبادة ، حتى يعضه الفقر بناجذيه ، فيذل للجاهل فى طلب القوت . ويغنى الفاسق مع الجهـــل ، حتى تفيض الدنيا عليه .

ثم نراه(١) ينشىء الأجسام ويحكمها، ثم ينقض بناء الشباب فى مبدأ أمره، وعند استكمال بنائه ، فإذا به قد عاد هشيما . ثم نراه يؤلم الأطفال، حتى يرحمهم كل طبع . ثم يقال له : إياك أن تشك فى أنه أرحم الراحمين . ثم يسمع بإرسال موسى إلى فرعون ، ويقال له : اعتقد أن الله تعالى أضل فرعون ، واعلم أنه ما كان لآدم بدّ من أكل الشجرة وقد وبخ بقوله : « وعصى آدم ربه(٢) » .

وفى مثل هذه الأشياء تحير خلق ، حتى خرجوا إلى الكفر والتكذيب .

ولو فتشوا على سر هذه الأشياء ، لعلموا أن تسليم هذه الأمور ، تكليف العقل ليذعن ، وهذا أصل، إذا فهم ، حصل (منه) ٣) السلامة والتسليم .

نسأل الله عز وجل أن يكشف لنا الغوامض ، التى حيرت من ضل ، إنه قريب مجيب .

١٤ ــ فصل : المحافظة على الوقت

ينبغى للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته ، فلا يضيع منه لحظة فى غير قربة . ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل . ولتكن نيته فى الخير قائمة ، من غير فتور بما(لا) (٤) يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء فى الحديث : نية المؤمن خير من عمله . وقد كان جماعة من السلف ، يبادرون اللحظات .

(١) فى الدمشقية : وتراه إلى نهاية الفصل .
(٢) جزء من الآية ١٢١ من سورة طه .
(٣) ساقطة من الحديثة .
(٤) ساقطة من الحديثة والخانجى وبدونها يفسد المعنى وينعكس .

فنقل عن عامر بن عبد قيس أن رجلا قال له : كلمنى ، فقال له : أمسك الشمس. وقال ابن ثابت البنانى : ذهبت ألقن أبى ، فقال : يا بنى دعنى ، فإنى فى وردى السادس .

ودخلوا على بعض السلف عند موته، وهو يصلى ، فقيل له . فقال : الآن تطوى صحيفتى .

فإذا علم الإنسان — وإن بالغ فى الجد — بأن(١) الموت يقطعه عن العمل ، عمل فى حياته ما يدوم له أجره بعد موته . فإن كان له شىء من الدنيا وقف وقفا ، وغرس غرسا ، وأجرى نهراً(٢) ، ويسعى فى تحصيل ذرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له . أو أن يصنف كتابا من العلم ، فإن تصنيف العالم ولده المخلد . وأن يكون عاملا بالخير ، عالما فيه ، فينقل من فعله ما يقتدى الغير به .

فذلك الذى لم يمت .

[قد مات قوم وهم فى الناس أحياء]

١٥ ـ فصل : شرف الغنى ومخاطرة الفقر

رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره ، أن يحيط(٣) أرباب الأموال بالآمال ، والتشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها .

فإذا شغلهم(٤) بالمال ـ تحريضاً على جمعه ، وحثاً على تحصيله ـ وأمرهم بحراسته بخلاً به .

فذلك من متين حيله ، وقوىّ مكره . ثم دفن فى هذا الأمر من دقائق

---

(١) فى ت : فإن .   (٢) فى ت : وكرى .

(٣) فى الحديثة : يحيط ،

(٤) فى الحديثة : علقهم وفى الخانجى : أعلمهم . وفى ت . أملكهم .

الحيل الخفية ، أن خوّف من جمعه المؤمنين ، فنفر طالب الآخرة منه ، وبادر التائب (بأن)(١) يخرج ما فى يده .

ولا يزال الشيطان ، يحرضه على الزهد ، ويأمره بالترك ، ويخوفه من طرقات الكسب ، إظهاراً لنصحه وحفظ دينه . وفى خفايا ذلك عجائب من مكره .

وربما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدى بهم التائب ، فيقول له : اخرج من مالك وادخل فى زمرة الزهاد .

ومتى كان لك غداء أو عشاء ، فلست من أهل الزهد ، فلا(٢) تنال مراتب العزم .

وربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن الصحة والواردة على سبب ولمعنى .

فإذا أخرج ما فى يده ، وتعطل عن مكاسبه ، عاد يعلق طمعه بصلة الإخوان . أو يحسّن عنده صحبة السلطان ، لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أياما ، ثم يعود الطبع فيتقاضى(٣) مطلوباته ، فيقع فى أقبح مما فرّ منه .

ويبذل أول السلع فى التحصيل دينه وعرضه ، ويصير متمبدلا به ، ويقف فى مقام اليد السفلى .

ولو أنه نظر فى سير الرجال ونبلائهم ، وتأمل صحاح الأحاديث ، عن رؤسائهم ، لعلم أن الخليل عليه الصلاة والسلام كان كثير المال ، حتى ضاقت بلدته بمواشيه .

وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام ، [وكثير من الأنبياء عليهم الصلاة

---

(١) ساقطة من الحديثة ، والخانجى ، و ت .

(٢) فى الحديثه ، ولا .

(٣) فى الحديثة والخانجى : فيقاضى .

والسلام](١) ، والجم الغفير من الصحابة . وإنما صبروا عند العدم ، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم ، ولا من تناول المباح عند الوجود . وكان أبو بكر رضى الله عنه يخرج للتجارة والرسول صلى الله عليه وسلم حى .

وكان أكثرهم يخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال، ويسلم من ذل الحاجة إلى الإخوان . وقد كان ابن عمر لا يرد شيئا ، ولا يسأله .

وإنى تأملت (على)(٢) أكثر أهل الدين والعلم هذه الحال ، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب فى بداياتهم ؛ فلما احتاجوا إلى قوام نفوسهم ذلوا ، وهم أحق بالعز .

وقد كانوا قديما يكفيهم (من)(٣) بيت المال فضلا (عن) الإخوان(٤) ، فلما عدم(٥) فى هذا الأوان ، لم يقدر متدين على شىء إلا ببذل شىء من دينه . وليته قدر فربما تلف الدين ولم يحصل له شىء . فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه ، وأن يجتهد فى الكسب ليربح مداراة ظالم ، أو مداهنة جاهل ، ولا يلتفت إلى تُرّهات المتصوفة ، الذين يدّعون فى الفقر ما يدّعون .

فما الفقر إلا مرض العجز، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض . اللهم إلا أن يكون جبانا عن التصرف ، مقتنعاً بالكفاف ، فليس ذلك من مراتب الأبطال ، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد .

وأما الكاسب ليكون المعطِى لا المعطَى ، والمتصدِّق، لا المتصدَّق عليه ،

---

(١) مابين الحاصرتين ساقط من المخطوطة .

(٢) ساقطة من الحديثة .

(٣) ساقطة من الحديثة .

(٤) فى الحديثة : فضلات الأخوان .

(٥) فى الحديثة : فلما عدمت

فهى من مراتب الشجعان الفضلاء . ومن تأمل هـذا ، علم شرف الغنى ومخاطرة الفقر .

١٦ ـ فصل : فضول الدنيا

تأملت أحوال الفضلاء ، فوجدتهم ـ فى الأغلب ـ قد بخسوا من حظوظ الدنيا ، ورأيت الدنيا ـ غالبا ـ فى أيدى أهل النقائص .

فنظرت فى الفضلاء ، فإذاهم يتأسفون على مافاتهم مما ناله أولو النقص ، وربما تقطع بعضهم أسفاً على ذلك . فخاطبت بعض المتأسفين فقلت له : ويحك تدبر أمرك ، فإنك[1] . غالط من وجوه :

أحدها : أنه إن كانت لك همة فى طلب الدنيا ، فاجتهد فى طلبها تربح التأسف على فوتها ، فإن قعودك ـ متأسفاً على ما ناله غيرك ، مع قصور اجتهادك ـ غايةُ العجز .

والثانى : أن الدنيا إنما تراد لتعبَر[2] لا لتعمر ، وهذا هو الذى يدلك عليه علمك ويبلغه فهمك .

وما يناله أهل النقص من فضولها يؤذى أبدانهم وأديانهم . فإذا عرفت ذلك ثم تأسفت على فقد ما فَقْدهُ أصلحُ لك ، كان تأسفك عقوبة (لتأسفك)[3] على ما تعلم المصلحة فى بُعده ، فاقنع بذلك عذابا عاجلا ، إن سلمت من العذاب الآجل .

والثالث : أنك قد علمت بخس حظ الآدمى فى الجملة ، من مطاعم الدنيا

---

(١) فى المطبوعات : فأنت .

(٢) فى الحديثة : لتعبر . ولا معنى لها . وفى ت : لتعتبر .

(٣) سـ قطة من الحديثة .

ولذاتها بالإضافة إلى الحيوان البهيم ، لأنه ينال ذلك أكثر مقداراً ، مع أمن ، وأنت تناله مع خوف ، وقلة مقدار .

فإذا ضوعف حظك من ذلك كان ذلك لاحقاً(١) بالحيوان البهيم ، من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل الفضائل(٢). وتخفيف المؤن يحث صاحبه على نيل المراتب(٣) . فإذا آثرت الفضول(٤) مع قلة الفضول ـ عُدتَ على ما علمت بالإزراء ، فشِنْت علمك ، ودللت على اختلاط رأيك ...

١٧ - فصل : من رعى حول الحمى يوشك أن يواقعه

تأملت إقدام العلماء على شهوات النفس المنهيّ عنها ، فرأيتها مرتبة تزاحم الكفر ، لولا تلوّح معنى : هو أن الناس عند مواقعة المحظور ينقسمون .

فمنهم : جاهل بالمحظور ، أنه محظور ، فهذا له نوع عذر . ومنهم : من يظن المحظور مكروها لا محرما ، فهذا قريب من الأول . وربما دخل في هذا القسم آدم صلى الله عليه وسلم . ومنهم : من يتأول فيغلط ، كما يقال : إن آدم عليه الصلاة والسلام . نُهِيَ عن شجرة بعينها ، فأكل من جنسها ، لا من عينها . ومنهم : من يعلم التحريم ، غير أن غلبات الشهوة أنسته تذكر ذاك . فشغله ما رأى عما يعلم . ولهذا لا يذكر السارق القطع ، بل يغيب بكليته في نيل الحظ ولا يذكر راكب الفاحشة الفضيحة ولا الحد ، لأن ما يرى يذهله عما يعلم . ومنهم : من يعلم الخطر ويذكره(٥) ... غير أن الأخذ بالحزم أولى بالعاقل .

---

(١) حرفت العبارة في الحديثة هكذا : من ذلك كما تحب ألحقك بالحيوان . ولا أصل لها في أصول الكتابة . وفي الخانجي والدمشقية ، كان لاحقا .

(٢) في الحديثة : فضائل .

(٣) في الحديثة والخانجي وت : مراتب .

(٤) في المطبوعات : فإذا آثرت مع قلة الفضول الفضول . وما في ت أوضح .

(٥) على هامش م : لعل هنا سقطا وتقديره : غير أنه يغتر بالحلم والعفو .

كيف قد وعلم أن هذا الملك الحكيم قطع اليد فى ربع دينار ، وهدم بناء الجسم المحكم بالرجم بالحجارة ، لالتذاذ ساعة .

وخسف ، ومسخ ، وغرق .....

١٨ – فصل : ميزان العدل لايحابى

من تأمل أفعال البارى سبحانه ، رآها على قانون العدل ، وشاهد الجزاء مراصداً ، ولو بعد حين .

فلا ينبغى أن يغتر مُسامَح ، فالجزاء قد يتأخر . ومن أقبح الذنوب التى قد أعد لها الجزاء العظيم ، الإصرار على الذنب، ثم يصانع صاحبه باستغفار ، وصلاة ، وتعبد ، وعنده أن المصانعة تنفع .

وأعظم الخلق اغتراراً ، مَنْ أتى ما يكرهه الله (تعالى) ، وطلب منه ما يحبه هو ، كما فى الحديث «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» .

ومما ينبغى للعاقل أن يترصد ، وقوع الجزاء ، فإن ابن سيرين قال: عيرت رجلا فقلت : يامفلس ، فأفلست بعد أربعين سنة .

وقال ابن الجلا (١) : رآنى شيخ لى وأنا أنظر إلى أمرد ، فقال : ما هذا؟ لتجدن غِبَّتها ، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة . وبالضد من هذا ، كل من عمل خيراً أو صحح نية ، فلينتظر جزاءها الحسن ، وإن امتدت المدة .

قال الله عز وجل : «إنه من يتَّقِ ويصبرْ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين (٢)» . وقال عليه الصلاة والسلام : «من غضَّ بصره عن محاسن

---

(١) فى الحديثة : ابن الجلاد . وهو خطأ .

(٢) جزء من الآية ٩٠ من سورة يوسف .

امرأة أثابه الله إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » . فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يُحَابى .

١٩ ـ فصل : ولا تنس نصيبك من الدنيا

تأملت أحوال الصوفية والزهاد ،فرأيت[1] أكثرها منحرفا عن الشريعة، بين جهل بالشرع ، وابتداع بالرأى . يستدلون بآيات لا يفهمون معناها ، وبأحاديث لها أسباب ، وجمهورها لا يثبت .

فمن ذلك ، أنهم سمعوا فى القرآن العزيز : « وَمَا الحيَاةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرُور»[2] « إنَّما الحيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلهوٌ وَزِينةٌ»[3] ،ثم سمعوا فى الحديث : « الدُّنيا أهون على الله من شاة ميتة ، على أهلها » فبالغوا فى هجرها من غير بحث عن حقيقتها .

وذلك أنه مالم يُعرف حقيقة الشىء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم

فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرض البسيطة التى جُعلَتْ قراراً للخلق، تخرج منها أقواتهم ، ويدفن فيها أمواتهم .

ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه . ورأينا ما عليها من ماء ، وزرع ، وحيوان ،كله لمصالح الآدمى ، وفيه حفظ لسبب بقائه . ورأينا بقاء الآدمى سبباً لمعرفة ربه ، وطاعته إياه ، وخدمته ، وماكان سبباً لبقاء العارف العابد ، يمدح ولايذم ، فبان لنا أن الذم إنما هو لأفعال الجاهل ، أوالعاصى فى الدنيا، فإنه إذا اقتنى المال المباح ، وأدى زكاته ،لم يُلمْ .

---

(١) فى الحديثة · فوجدت .

(٢) جزء من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران . والآية ٢٠ من سورة الحديد

(٣) جزء من الآية ٢٠ من سورة الحديد .

فقد علم ما خلف الزبير ، وابن عوف وغيرهما ، وبلغت صدقة على — رضى الله عنه — أربعين ألفاً . وخلف ابن مسعود : تسعين ألفاً ، وكان الليث ابن سعد يستغل كل سنة عشرين ألفاً ، وكان سفيان ، يتّجر بمال ، وكان ابن مهدى يستغل كل سنة ألفَىْ دينار .

وإن أكثر من النكاح والسرارىّ ، كان ممدوحا لامذموما(١) فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم زوجات ، وسرارىُّ . وجمهور الصحابة، كانوا على الإكثار من ذلك . وكان لعلى بن أبى طالب — رضى الله عنه — أربع حرائر ، وسبع عشرة أمة . وتزوج ولده الحسن ، نحواً من أربعمائة .

فإن طلب التزوج للأولاد ، فهو الغاية فى التعبد ، وإن أراد التلذذ فمباح ، يندرج فيه من التعبد مالا يحصى ، من إعفاف نفسه والمرأة ، إلى غير ذلك . وقد أنفق موسى — عليه السلام — من عمره الشريف عشر سنين فى مهر بنت شعيب .

فلولا أن النكاح من أفضل الأشياء ، لما ذهب كثير من زمان الأنبياء فيه وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : خيار هذه الأمة أكثرها نساء .

وكان يطأ جارية له ، وينزل فى أخرى . وقالت سُرِّيةُ الربيع بن خيثم : كان الربيع يعزل . وأما للطعم ، فالمراد منه تقوية هذا البدن لخدمة الله عز وجل ، وحقٌّ على ذى الناقة أن يكرمها لتحمله .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يأكل ما وجد ، فإن وجد اللحم أكله ، ويأكل لحم الدجاج ، وأحب الأشياء إليه الحلوى والعسل ، وما نقل عنه أنه امتنع من مباح . وجىء على رضى الله عنه بفالوذج فأكل منه ، وقال : ماهذا ؟ قالوا : يوم النوروز ، فقال : نوروزنا(٢) كل يوم .

---

(١) فى الحديثة: ملوما .

(٢) فى ت : نورزوا .

وإنما يكره الأكل فوق الشبع ، واللبس على وجه الاختيال والبطر .

وقد اقتنع أقوام بالدون من ذلك ، لأن الحلال الصافى لا يكاد يمكن فيه تحصيل المراد ، وإلا فقد لبس النبي صلى الله عليه وسلم حلة اشتريت له بسبعة وعشرين بعيراً . وكان لتميم الدارى : حلة اشتريت بألف درهم ، يصلى فيها بالليـــل .

فجاء أقوام ، فأظهروا التزهد ، وابتكروا طريقة زينها لهم الهوى ، ثم تطلبوا لها الدليل . وإنما ينبغى للإنسان أن يتبع الدليل ، لا أن يتبع طريقاً ويتطلب دليلها. ثم انقسموا : فمنهم ، متصنع فى الظاهر ، ليث الشرى فى الباطن، يتناول فى خلواته الشهوات ، وينعكف على اللذات . ويُرى الناسَ بزيه أنه متصوف متزهد ، وما تزهد إلا القميص ، وإذا نُظِرَ إلى أحواله فعنده كِبر فرعون(١) .

ومنهم : سليم الباطن ، إلا أنه فى الشرع(٢) جاهل .

ومنهم : من تصدّر ، وصنف ، فاقتدى به الجاهلون فى هذه الطريقة ، وكانوا كعُمْشى اتبعوا أعمى .

ولو أنهم تلمحوا الأمر الأول، الذى كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضى الله عنهم ، لما زلوا(٣) .

ولقد كان جماعة من المحققين ، لا يبالون بمُعظَّم فى النفوس إذا حاد عن الشريعة ، بل يوسعونه لوماً .

---

(١) كما فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب » .

(٢) فى الحديثة : بالشرع .

(٣) فى الحديثة : زاغوا .

فنقل عن أحمد أنه قال له المروذى : ما تقول فى النكاح ؟ فقال : سنة النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : فقد قال إبراهيم . قال : فصاح بى وقال : جئتنا ببُنَيَّات الطريق ؟ وقيل له : إن سَرِيًّا السَّقطى قال : لما خلق الله تعالى الحروف ، وقف الألف وسجدت الباء ، فقال : نفروا الناس عنه .

واعلم أن المحقق لا يهوله اسم معظَّم ، كما قال رجل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير ، كانا على الباطل ؟ فقال له : إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله .

ولعمرى إنه قد وقر فى النفوس تعظيم أقوام ، فإذا نقل عنهم شىء فسمعه جاهل بالشرع قَبِلَهُ ، لتعظيمهم فى نفسه . كما ينقل عن أبى يزيد رضى الله عنه ، أنه قال : تراعنَتْ علىَّ نفسى فحلفت لا أشرب الماء سنة . وهذا إذا صح عنه ، كان خطأ قبيحاً ، وزلة فاحشة ، لأن الماء ينفذ الأغذية إلى البدن ، ولا يقوم مقامه شىء . فإذا لم يشرب فقد سعى فى أذى بدنه . وقد كان يُستعذَبُ الماء لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أفترى هذا فعل مَنْ يعلم أن نفسه ليست له ، وأنه لا يجوز التصرف فيها إلا عن إذن مالكها .

وكذلك ينقلون عن بعض الصوفية ، أنه قال : سِرْتُ إلى مكة على طريق التوكل حافياً ، فكانت الشوكة تدخل فى رجلى فأحكها بالأرض ولا أرفعها ، وكان علىَّ مسح ، فكانت عينى إذا آلمتنى أدلكها بالمسح فذهبت إحدى عينى .

وأمثال هذا كثيرٌ ، وربما حملها القُصَّاصُ على الكرامات ، وعظموها عند العوام ، فيخايل لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من الشافعى ، وأحمد .

ولعمرى ، إن هذا من أعظم الذنوب وأقبح العيوب ، لأن الله تعالى قال « وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ »(١) .

(١) جزء من الآية ٢٩ من سورة النساء .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن لنفسك عليك حقاً » . وقد طلب أبو بكر رضى الله عنه ، فى طريق الهجرة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ظلا ، حتى رأى صخرة ففرش له فى ظلها .

وقد نقل عن قدماء هذه الأمة بدايات هذا التفريط ، وكان سببه(١) من وجهين : أحدهما : الجهل بالعلم ، والثانى : قرب العهد بالرهبانية .

وقد كان الحسن يعيب فرقد السنجى ، ومالك بن دينار ، فى زهدهما ، فرئى عنده طعام فيه لحم ، فقال : لا رَغيفَىْ مالك ، ولا صحنا فرقد . ورأى على فرقد كساء ، فقال : يافرقد إن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية .

وكم قد زوق قاصٌّ مجلسه بذكر أقوام خرجوا إلى السياحة بلازاد ولا ماء وهو لا يعلم أن هذا من أقبح الأفعال ، وأن الله تعالى لا يُجرَّب عليه . فربما سمعه جاهل من التائبين فخرج فمات فى الطريق ، فصار للقائل نصيب من إثمه . وكم يروون عن ذى النون : أنه لقى امرأة فى السياحة فكلمها وكلمته ، وينسون الأحاديث الصحاح : « لا يحل لامرأة أن تسافر يوما وليلة إلا بمحرم » .

وكم ينقلون : أن أقواما مشوا على الماء ، وقد قال إبراهيم الحربى : لا يصح أن أحداً مشى على الماء قط . فإذا سمعوا هذا قالوا : أتنكرون كرامات الأولياء الصالحين ؟

فنقول : لسنا من المنكرين لها ، بل نتبع ما صح ، والصالحون هم الذين يتبعون الشرع ، ولا يتعبدون بآرائهم .

وفى الحديث : « إن بنى إسرائيل شددوا فشدد الله عليهم » .

وكم يحثون على الفقر حتى حملوا خلقاً(٢) على إخراج أموالهم ، ثم آل بهم

---

(١) فى الحديثة : وكان سبباً .
(٢) فى ث : أقواما .

الأمر إما إلى التسخط عند الحاجة ، وإما إلى التعرض بسؤال الناس . وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلثه طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفَس» فما قنعوا حتى أمروا بالمبالغة فى التقال .

فحكى أبو طالب المكى فى «قوت القلوب» : أن فيهم من كان يزن قوته بكربة(١) رطبة ، ففى كل ليلة يذهب من رطوبتها قليل ، وكنت أنا ممن اقتدى بقوله فى الصبا ، فضاق المعى وأوجب ذلك ، مرض سنين .

أفترى هذا شيئاً تقتضيه الحكمة ، أو ندب إليه الشرع ؟

وإنما مطية الآدمى قواه ، فإذا سعى فى تقليلها ، ضعف عن العبادة . فإنا لو دخلنا ديار الروم ، فوجدنا أثمان الخمور وأجرة الفجور ، كان لنا حلالا بوصف الغنيمة .

أفتريد حلالا ، على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل — مذ خرجت من المعدن ، على وجه لا يجوز ؟

فهذا شىء لم ينظر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو ليس قد سمعت أن الصدقة عليه حرام ، فلما تُصدِّق على بريرة بلحم فأهدته ، جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف . وقد قال أحمد بن حنبل : أكره التقلل من الطعام ، فإن أقواما فعلوه فعجزوا عن الفرائض . وهذا صحيح . فإن المتقلل ، لا يزال يتقال إلى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض ، ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفافهم ، وعن بذل القوّى فى الكسب لهم ، وعن فعل خير قد كان يفعله .

ولا يهولنك ما تسمعه من الأحاديث ، التى تحث على الجوع ، فإن المراد بها إما الحث على الصوم ، وإما النهى عن مقاومة الشبع . فأما تنقيص المطعم على الدوام ، فمؤثر فى القوى ، فلا يجوز .

---

(١) فى الحديثة : بكرة .

ثم فى هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يود أن يأكله كل يوم .

واسمع منى بلا محاباة : لا تحتجن علىّ بأسماء الرجال ، فتقول : قال بشر ، وقال إبراهيم بن أدهم ، فإن من احتج بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه — رضوان الله عليهم — أقوى حجة . على أن لأفعال أولئك وجوها نحملها عليهم بحسن الظن . ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة من السادات ، أنهم دفنوا كتبهم، فقلت له : ما وجه هذا ؟ فقال : أحسن ما نقول أن نسكت ، يشير إلى أن هذا جهل من فاعله . وتأولتُ أنا لهم : فقلت : لعل ما دفنوا من كتبهم ، فيه شيء من الرأى ، فما رأوا أن يعمل الناس به .

ولقد روينا فى الحديث ، عن أحمد بن أبى الحوارى: أنه أخذ كتبه فرمى بها فى البحر، وقال : نعم الدليل كنت ! ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول

وهذا — إذا أحسنا به الظن — قلنا : كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه . فأما إذا كانت علوما صحيحة ، كان هذا من أفحش الإضاعة، وأنا وإن تأولت لهم هذا، فهو تأويل صحيح فى حق العلماء منهم، لأنا قد روينا عن سفيان الثورى : أنه قد أوصى بدفن كتبه ، وكان ندم على أشياء كتبها ، عن قوم ، وقال : حملنى شهوة الحديث — وهذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين ، فكأنه لما عسر عليه التمييز أوصى بدفن الكل .

وكذلك من كان له رأى من كلامه ثم رجع عنه ، جاز أن يدفن الكتب التى فيها ذلك ، فهذا وجه التأويل للعلماء .

فأما المتزهدون، الذين رأوا صورة فعل العلماء ، ودفنوا كتباً صالحة لئلا تشغلهم عن التعبد : فإنه جهل منهم ، لأنهم شرعوا فى إطفاء مصباح يضيء لهم ، مع الإقدام على تضييع مال لا يحل تضييعه .

ومن جملة من عمل بواقعة (فى)(١) دفن كتب العلم، يوسف بن أسباط، ثم لم يصبر عن التحديث فخلط، فعدّ فى الضعفاء.

أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك، قال: أخبرنا محمد بن المظفر الشامى، قال: أخبرنا أحمد بن محمد العتيقى، قال: حدثنا يوسف بن أحمد، قال: حدثنا محمد ابن عمرو العقيلى قال: حدثنا محمد بن عيسى، قال: أخبرنا أحمد بن خالد الخلال. قال: سمعت شعيب بن حرب يقول: قلت ليوسف بن أسباط: كيف صنعت بكتبك؟ قال: جئت إلى الجزيرة، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها، فذهبت.

قلت: ما حملك على ذلك؟ قال: أردت أن يكون الهم هماً واحداً.

قال العقيلى: وحدثنى آدم، قال: سمعت البخارى قال: قال صدقة: دفن يوسف بن أسباط كتبه، وكان بعد يغلب عليه الوهم فلا يجىء كما ينبغى.

قال المؤلف: قلت: الظاهر أن هذه كتب علم ينفع، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط، الذى قصد به الخير، وهو شر. فلو كانت كتبه من جنس كتب الثورى، فإن فيها، عن ضعفاء ولم يصح له التمييز، قرب الحال. إنما تعليله بجمع الهم هو الدليل على أنها ليست كذلك، فانظر إلى قلة العلم، ماذا تؤثر مع أهل الخير.

ولقد بلغنا فى الحديث عن بعض من نعظمه، ونزوره، أنه كان على شاطىء دجلة، فبال ثم تيمم، فقيل له: الماء قريب منك، فقال: خفت ألا أبلغه!!

وهذا وإن كان يدل على قصر الأمل، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا عنه مثل هذا الحديث تلاعبوا به، من جهة أن التيمم، إنما يصح عند عدم الماء. فإذا كان الماء موجوداً كان تحريك اليدين بالتيمم عبثاً. وليس من ضرورى(٢)

---

(١) ساقطة من المطبوعات.

(٢) فى الحديثة: من ضرورة. والحق ما أثبتناه.

وجود الماء أن يكون إلى جانب المحدث ، بل لو كان على أذرع كثيرة ، كان موجوداً فلا فعل للتيمم ، ولا أثر حينئذ .

ومن تأمل هـــذه الأشياء ، علم أن فقيهاً واحداً — وإن قلّ أتباعه ، وخذت إذا مات أشياعه — أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبركا، ويشيع جنائزهم ما لا يحصى . وهل الناس إلا صاحب أثر نتبعه ، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتى به ؟ نعوذ بالله من الجهل ، وتعظيم الأسلاف تقليداً لهم بغير دليل ! فإن من ورد المشرب الأول ، رأى سائر المشارب كدرة . والمحنة العظمى مدائح العوام ، فكم غرّت ... !! كما قال على رضى الله عنه : ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى من عقولهم شيئاً . ولقد رأينا وسمعنا من العوام ، أنهم يمدحون الشخص ، فيقولون : لا ينام الليل ، ولا يفطر النهار ، ولا يعرف زوجة ، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئاً ، قد نحل جسمه ، ودق عظمه ، حتى إنه يصلى قاعداً ، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون . ذلك مبلغهم من العلم ، ولو (فقهوا) علموا أن الدنيا لو اجتمعت فى لقمة فتناولها عالم يفتى عن الله ، ويخبر بشريعته ، كانت فتوى واحدة منه يرشد بها إلى الله تعالى خيراً وأفضل من عبادة ذلك العابد باقى عمره . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقيه واحد ، أشد على إبليس من ألف عابد[1] .

ومن سمع هذا الكلام فلا يظنن أننى أمدح من لا يعمل بعلمه . وإنما أمدح العاملين بالعلم ، وهم أعلم بمصالح أنفسهم . فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش ، كأحمد بن حنبل . وكان فيهم ، من يستعمل رقيق العيش ، كسفيان الثورى ، مع ورعه ، ومالك مع تدينه ، والشافعى مع قوة فقهه .

ولا ينبغى أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيره ، فيضعف هو عنه .

(١) ويقول رسول الله : « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شىء عماد ، وعماد الدين الفقه » .

فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه . وقد قالت رابعة : إن كان صلاح قلبك في الفالوذج ، فكله .

ولا تكونن أيها السامع ممن يرى صور الزهد . فرب متنعم لا يريد التنعم وإنما يقصد المصلحة . وليس كل بدن يقوى على الخشونة ، خصوصاً من قد لاقى الكدّ وأجهده الفكر ، وأمضه الفقر ، فإنه إن لم يرفق بنفسه ، ترك واجباً عليه من الرفق (بها) .

فهذه جملة لو شرحتها بذكر الأخبار والمنقولات لطالت ، غير أنى سطرتها على عجل حين جالت فى خاطرى ، والله ولى النفع برحمته .

٣٠ ـ فصل : مصير النفس بعد الموت

قد أشكل على الناس أمر النفس وماهيتها ، مع إجماعهم على وجودها ، ولا يضر الجهل بذاتها مع إثباتها . ثم أشكل عليهم مصيرها بعد الموت ، ومذهب أهل الحق أن لها وجوداً بعد موتها ، وأنها تنعم وتعذب . قال أحمد بن حنبل : أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكفار فى النار . وقد جاء فى أحاديث الشهداء : أنها فى حواصل طير خضر تعلق من شجر الجنة(١) . وقد أخذ بعض الجهلة بظواهر أحاديث النعيم ، فقال : إن الموتى يأكلون فى القبور ، وينكحون .

والصواب من ذلك أن النفس تخرج بعد الموت إلى نعيم أو عذاب ، وأنها تجد ذلك إلى يوم القيامة ، فإذا كانت القيامة ، أعيدت إلى الجسد ليتكامل لها التنعم بالوسائط . وقوله — فى حواصل طير خضر — دليل على أن النفوس

---

(١) فى الحديث عن ابن عباس قال رسول الله : « لما أصيب إخوانكم جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل الفردوس ... » .

لا تنال لذة إلا بوساطة . إلا أن تلك اللذة لذة مطعم أو مشرب ، فأما لذات المعارف والعلوم فيجوز أن تنالها بذاتها ، مع عدم الوسائط .

والمقصود من هذا المذكور أنى رأيت بعض الانزعاج من الموت . وملاحظة النفس بعين العدم عنده ، فقلت لها : إن كنت مصدقة للشريعة فقد أخبرت بما تعرفين، ولا وجه للإنكار . وإن كان هناك ريب فى أخبار الشريعة، صار الكلام فى بيان صحة الشريعة .

فقالت : لا ريب عندى . قلت : فاجتهدى فى تصحيح الإيمان ، وتحقيق التقوى ، وأبشرى حينئذ بالراحة من ساعة الموت ، فإنى لا أخاف عليك إلا من التقصير فى العمل . واعلمى أن تفاوت النعيم بمقدار درجات الفضائل ، فارتفعى بأجنحة الجد إلى أعلى أبراجها، واحذرى من قانص هوى ، أو شَرَك غِرة ، والله الموفق .

٢١ ـ فصل : العدل بين التكليف والاذعان

قلت يوماً فى مجلسى : لو أن الجبال حُمِّلَت ما حُمِّلْتُ لعجزت . فلما عدت إلى منزلى ، قالت لى النفس : كيف قلت هذا ؟ وربما أوهم الناس أن بك بلاء وأنت فى عافية فى نفسك وأهلك !! . وهل الذى حملت إلا التكليف الذى يحمله الخلق كلهم ؟ فما وجه هذه الشكوى ؟

فأجبتها : إنى لما عجزت عما حملت ، قلت هـــذه الكلمة لا على سبيل الشكوى ، ولكن للاسترواح .

وقد قال كثير من الصحابة والتابعين قبلى : ليتنا لم نخلق ! وما ذاك إلا لأثقال عجزوا عنها . ثم من ظن أن التكاليف سهلة ، فما عرفها .

أترى يظن الظان أن التكاليف غسل الأعضاء برطل من الماء، أو الوقوف فى محراب لأداء ركعتين ؟ هيهات ! هذا أسهل التكليف .

وإن التكليف هو الذى عجزت عنه الجبال ، ومن جملته : أننى إذا رأيت القدر يجرى بما لا يفهمه العقل ، ألزمت العقل الإذعان المقدر ، فكان من أصعب التكاليف . وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه كإيلام الأطفال ، وذبح الحيوان ، مع الاعتقاد بأن المقدّر لذلك والآمر به ، أرحم الراحمين .

فهذا مما يتحير العقل فيه ، فيكون تكليفه(١) التسليم ، وترك الاعتراض ... !!

فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل ... ؟!

ولو شرحت هذا لطال ، غير أنى أعتذر عما قلته ، فأقول عن نفسى ، وما يلزمنى حال غيرى .

إنى رجل حُبِّبَ إلىّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب إلىّ فن واحد منه ، بل فنونه كلها . ثم لا تقتصر همتى فى فن على بعضه ، بل تروم(٢) استقصاءه . والزمان لا يسع ، والعمر أضيق ، والشوق يقوى ، والعجز يظهر ، فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات .

ثم إن العلم دلنى على معرفة المعبود ، وحثنى على خدمته ، ثم صاحت بى الأدلة عليه إليه ، فوقفت بين يديه ، فرأيته فى نعته ، وعرفته بصفاته ، وعاينت بصيرتى من ألطافه ما دعانى إلى الهيمان فى محبته ، وحرّكنى إلى التخلى لخدمته ، وصار يملكنى أمر كالوجد كلما ذكرته ، فعادت خلوتى فى خدمتى له أحلى عندى من كل حلاوة . فكلما ملتُ إلى الانقطاع عن الشواغل إلى الخلوة ، صاح بى العلم أين تمضى ؟ أتعرض عنى وأنا سبب معرفتك به ؟

فأقول له : إنما كنتَ دليلا وبعد الوصول يستغنى عن الدليل .

---

(١) فى الحديثة : تكليف . والحق ما أثبتناه

(٢) فى ت : أتروم . بتشديد الواو .

قال : هيهات ! كلما زدتَ، زادت معرفتك بمحبوبك[١]، وفهمتَ كيف القرب منه . ودليل هذا ، أنك تعلم غداً، أنك اليوم فى نقصان . أوما تسمعه[٢] يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وقل ربّ زِدنى علماً »(٣) .

ثم ألست تبغى القرب منه ؟ فاشتغل ، بدلالة عباده عليه ، فهى حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق ، على خلوات التعبد ، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم ؟

أما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، لعلى رضى الله عنه « لأن يهدى الله بك رجلا ، خير لك من حُمُر النَّعم ؟ » .

فلما فهمت صدق هذه المقالة ، تهوّست[٤] على تلك الحالة ، وكلما تشاغلت بجمع الناس ، تفرق همى . وإذا وجدت مرادى من نفعهم ، ضعفت(٥) أنا ، فأبقى فى حيز التحير متردداً ، لا أدرى على أى القدمين أعتمد . فإذا وقفت متحيراً صاح العلم : قم لكسب العيال ، وادأب فى تحصيل ولد يذكر الله . فإذا شرعت فى ذلك قلص[٦] ضرع الدنيا وقت الحلب ، ورأيت باب المعاش مسدوداً فى وجهى ، لأن صناعة العلم شغلتنى عن تعلم صناعة .

فإذا التفت إلى أبناء الدنيا ، رأيتهم لا يبيعون شيئاً من سلعها إلا بدين المشترى . وليت من نافقهم أو راءاهم نال من دنياهم ، بل ربما ذهب دينه ولم

---

(١) فى ت : لمحبوبك .

(٢) فى الحديثة : ما سمعته .

(٣) جزء من الآية ١١٤ من سورة طه .

(٤) الهوس : طرف من الجنون (الصحاح) .

(٥) فى الحديثة : ضعت . ولا أصل لها .

(٦) قلص وقلص بفتح ثانيه ، أو بالفتح والتشديد : ارتفع . وبابه جلس . والمعنى : جفت مواردها .

يحصل مراده . فإن قال الضجر : اهرب . قال الشرع : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت .

وإن قال العزم : انفرد ، قال : فكيف بمن تعول ؟

فغاية الأمر أنى أشرع فى التقلل من الدنيا ، وقد ربيت فى نعيمها .وغذيت بلبانها،ولطف مزاجى فوق لطف وضعه بالعادة . فإذا غيرتُ لباسى وخشّنتُ مطعمى ، لأن القوت لا يحتمل الانبساط ، نفر الطبع لفراق العادة ، فحل المرض فقطع عن واجبات ، وأوقع فى آفات .

ومعلوم أن لين اللقمة بعد التحصيل من الوجوه المستطابة،وتخشينها لمن لم يألف سعى فى تلف النفس .

فأقول : كيف أصنع وما الذى أفعل ؟ وأخلو بنفسى فى خلواتى ، وأتزيد من البكاء على نقص حالاتى . وأقول : أصف حال العلماء ، وجسمى يضعف عن إعادة العلم ، وحالَ الزهاد ، وبدنى لا يقوى على الزهد ، وحالَ المحبين ، ومخالطة الخلق تشتت همى ، وتنقش صور المحبوبات من الهوى فى نفسى ، فتصدأ مرآة قلبى .

وشجرة المحبة تحتاج إلى تربية فى تربة طيبة تسقى [١] ماء الخلوة من دولاب الفكرة . وإن آثرت التكسب لم أطق . وإن تعرضت لأبناء الدنيا — مع أن طبعى الأنفة من الذل وتدينى يمنعنى — فلا يبقى للميل مع هذين الجاذبين أثر . ومخالطة الخلق تؤذى النفس مع الأنفاس !!! ولا تحقيق التوبة أقدر عليه ، ولا نيل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يصح لى . فإذاً رأيتنى كما قال القائل :

ألقاهُ فى اليمِّ مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتلَّ بالماء

---

(١) فى الحديثة : لتسقى .

تحيرت فى أمرى ، وبكيت على عمرى ، وأنادى فى فلوات خلواتى بما سمعته[1] من بعض العوام، وكأنه وصف حالى:

وَاحسْرَتى كَمْ أُدارِى فيكَ تَحيّرِى
مِثْلَ الأسيرِ بلا حَبْل وَلا سَيْرِ
مَا حِيلتِى فِى الهَوَى قدْ ضَاعَ تدْبِيرِى
لمَّا شَكلْتَ جنَاحِى قُلْتَ لِى طِيرِى

٢٢ - فصل : من رام صلاح القلب رام المنع

تأملت أمر الدنيا والآخرة ، فوجدت حوادث الدنيا حسية طبعية ، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية . والحسيات أقوى جذبا لمن لم يقو علمه ويقينه .

والحوادث إنما تبقى بكثرة أسبابها ، فمخالطة الناس ، ورؤية المستحسنات والتعرض بالملذوذات ، يقوى حوادث الحس.

والعزلة ، والفكر ، والنظر فى العلم يقوى حوادث الآخرة .

ويبين هذا بأن الإنسان إذا خرج يمشى فى الأسواق، ويبصر زينة الدنيا ثم دخل إلى المقابر ، فتفكر ورقّ قلبه ، فإنه يحس بين الحالتين فرقاً بيناً .

وسبب ذلك ، التعرض بأسباب الحوادث .

فعليك بالعزلة والذكر والنظر فى العلم ، فان العزلة حمية ، والفكر والعلم أدوية . والدواء مع التخليط لا ينفع .

وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق ، والتخليط فى الأفعال فليس لك دواء إلا ما وصفت لك .

---

(١) فى ت : لما سمعته .

فأما إذا خالطت الخلق وتعرضت للشهوات ، ثم رمت صلاح القلب رمت الممتنع .

٢٣ ـ فصل : الممنوع مرغوب

تأملت حرص(١) النفس على ما منعت منه . فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع .

ورأيت فى الشرب الأول ، أن آدم عليه السلام لما نهى عن الشجرة ، حرص عليها مع كثرة الأشجار المغنية عنها .

وفى الأمثال : المرء حريص على ما منع ، وتوّاق إلى مالم ينل .

ويقال : لو أمر الناس بالجوع لصبروا ، ولو نهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه .

وقالوا : مانهينا عنه إلا لشىء . وقد قيل :

* أحب شىء إلى الإنسان مامنعا *

فلما بحثت عن سبب ذلك ، وجدت سببين :

أحدهما : أن النفس لا تصبر على الحصر ، فإنه يكفى حصرها فى صورة البدن .

فإذا حصرت فى المعنى بمنع زاد طيشها .

ولهذا لو قعد الإنسان فى بيته شهراً ، لم يصعب عليه .

ولو قيل له : لا تخرج من بيتك يوما ، طال عليه .

---

(١) فى ت و م : مرض النفس .

والثانى : أنها يشق عليها الدخول تحت حكم ، ولهذا تستلذ الحرام ، ولا تكاد تستطيب المباح .

ولذلك يسهل عليها التعبد على ما ترى ، وتؤثره لا على مايؤثر .

٢٤ - فصل : التعليم عبادة

ما زالت نفسى تنازعنى بما يوجبه مجلس الوعظ ، وتوبة التائبين ، ورؤية الزاهدين ... إلى الزهد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة .

فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان ، فإن الشيطان يرى أنه لايخلو لى مجلس من خلق لا يحصون ، يبكون ويندبون على ذنوبهم . ويقوم فى الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا .

وربما اتفق خمسون ومائة . ولقد تاب عندى فى بعض الأيام أكثر من مائة .

وعمومهم صبيان ، قد نشأوا على اللعب والانهماك فى المعاصى .

فكأن الشيطان لبعد غوره فى الشر . رآنى أجتذب إلىّ من أجتذب منه. فأراد أن يشغلنى عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمن أجتذبهم(١) من يده .

ولقد حسن إلىّ(٢) الانقطاع عن المجالس .وقال: لا يخلو من تصنع للخلق

فقلت : أما زخرفة الألفاظ وتزويقها ، وإخراج المعنى من مستحسن العبارة ، ففضيلة لارذيلة.

وأما أن أقصد(٣) الناس بما لا يجوز فى الشرع ، فمعاذ الله .

---

(١) فى ت و م . بمن أجتذبه .
(٢) فى ت : لى .
(٣) فى ت و م : قصدى .

ثم رأيته يريني في التزهد قطع أسباب — ظاهرة(١) الإباحة — من الاكتساب .

فقلت له: فإن طاب لي الزهد ،و تمكنت من العزلة ، فنفذ ما بيدي أو احتاج بعض عائلتي ، ألست أعود القهقرى ؟

فدعني أجمع ما يسد خلتي،ويصونني عن مسئلة الناس،فإن مُدَّ عمري،كان نعم السبب ، وإلا كان للعائلة . ولا أكون كراكب أراق ماءه لرؤية سراب، فلما ندم وقت الفوات ، لم ينتفع بالندم .

وإنما الصواب توطئة المضجع قبل النوم ، وجمع المال السادّ للخلة قبل الكبر ، أخذاً بالحزم .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :«لأن تترك ورثتك أغنياء ، خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

وقال : « نعم المال الصالح ، للرجل الصالح » .

وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير ، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال . وأما تعليم الطالبين ، وهداية المريدين ، فإنه عبادة العالم .

وإن من تفضيل (٢) بعض العلماء إيثاره للتنفل (٣) بالصلاة والصوم ، عن تصنيف كتاب ، أو تعليم علم ينفع ، لأن ذلك بذر يكثر ريعه ، ويمتد زمان نفعه .

وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين :

أحدهما : حب البطالة ، لأن الانقطاع عندها أسهل .

---

(١) في الحديثة : ظاهرها .

(٢) في الحديثة : من الخطأ الذى فيه العلماء . ولا أصل لها في المخطوطات.

(٣) في الحديثة : التنفل .

والثانى: لحب المدحة فإنها إذا توسمت بالزهد كان ميل العوام إليها أكثر.

فعليك بالنظر فى الشرب الأول ، فكن مع الشرب المقدم . وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضى الله تعالى عنهم .

فهل نقل عن أحد منهم ماابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة، من الانقطاع عن العلم ؟ والانفراد عن الخلق ؟

وهل كان شغل الأنبياء إلا مُعانات الخلق ؟ وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر ؟

إلا أن ينقطع من ليس بعالم يقصد الكف عن الشر ، فذاك فى مرتبة المحتمي يخاف شر التخليط .

فأما الطبيب العالم بما يتناول ، فإنه ينتفع بما يناله .

٢٥ ـ فصل : خيركم من عمل بما علم

تأملت المراد من الخلق ، فإذا هو الذل ، واعتقاد التقصير والعجز .

ومثلت العلماء والزهاد العاملين صنفين [1] فأقمت فى صف العلماء مالكا وسفيان وأبا حنيفة والشافعى وأحمد ، وفىّ صف العبّادِ مالك بن دينار ورابعة ومعروف الكَرْخى وبِشر بن الحارث .

فكلما جدّ العبّاد فى العبَادة ، وصاح بهم لسان الحال : عبادا تكم لايتعداكم نفعها وإنما يتعدى نفع العلماء ، وهم ورثة الأنبياء ، وخلفاء الله فى الأرض ، وهم الذين عليهم المعَوّل ، ولهم الفضل ، إذاً أطرقوا وانكسروا وعلموا صدق تلك الحال ، وجاء مالك بن دينار إلى الحسن يتعلم منه ويقول: الحسن أستاذنا .

---

(١) فى الحديثة : صفين .

وإذا رأى العلماء أن لهم بالعلم فضلا ، صاح لسان الحال بالعلماء : وهل المراد من العلم إلا العمل ؟!

وقال أحمد بن حنبل : وهل يراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف ؟

وصح عن سفيان الثَّورى قال: وددت أن يدى قطعت ولم أكتب الحديث

وقالت أم الدرداء لرجل : هل عملت بما علمت ؟ قال : لا . قالت : فَلِمَ تستكثر من حجة الله عليك ؟

وقال أبو الدرداء : ويل لمن يعلم ولم يعمل مرة ، وويل لمن علم ولم يعمل سبعين مرة .

وقال الفضيل : يغفر للجاهل سبعون ذنبا ، قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد فما يبلغ من الكل قوله تعالى « هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والذين لا يَعْلَمُون » [1]

وجاء سفيان إلى رابعة : فجلس بين يديها ينتفع بكلامها ، فدل العلماء العلمُ على أن المقصود منه العمل به ، وأنه آلة فانكسروا واعترفوا بالتقصير.

فحصل الكل على الاعتراف والذل ،فاستَخرَجتْ المعرفةُ منهم حقيقةَ العبودية باعترافهم ، فذلك هو المقصود من التكليف .

٣٦ ـ فصل : محبة الخالق ضرورة

تأملت قوله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » [2] . فإذا النفس تأبى إثباتَ محبة للخالق توجب قلقاً وقالت :محبته طاعته ، فتدبرت ذلك فإذا بها قد جهلت ذلك لغلبة الحسّ.

---

(١) جزء من الآية ٩ من سورة الزمر .
(٢) جزء من الآية ٥٤ من سورة المائدة

وبيان هذا أن محبة الحس لا تتعدى الصور الذاتية ، ومحبة العلم والعمل ترى الصور المعنوية فتحبهما .

فإنا نرى خلقاً يحبون أبا بكر رضى الله عنه ، وخلقاً يحبون علياً بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقوما يتعصبون لأحمد بن حنبل ، وقوما للأشعرى ، فيقتتلون ويبذلون النفوس فى ذلك .

وليسوا ممن رأى صور القوم ، ولا صور القوم توجب المحبة .

ولكن لما تصورت لهم المعانى فدلتهم على كمال القوم فى العلوم ، وقع الحب لتلك الصور التى شوهدت بأعين البصائر .

فكيف بمن صنع تلك الصور المعنوية وبذلها ؟ (١)

وكيف لا أحب من وهب لى ملذوذات حسى ، وعرفنى ملذوذات علمى ؟ فإن التلذذ بالعلم وإدراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية ، فهو الذى علمنى وخلق لى إدراكا ، وهدانى إلى ما أدركته .

ثم إنه يتجلى لى فى كل لحظة فى مخلوق جديد ، أراه فيه بإتقان ذلك الصنع وحسن ذلك المصنوع .

فكل محبوباتى منه ، وعنه ، وبه ، الحسية والمعنوية ، وتسهيل سبل الإدراك به ، والمدركات منه ، وألذ من كل لذة عرفانى له ، فلولا تعليمه ما عرفته .

وكيف لا أحب من أنا به ، وبقائى منه ، وتدبيرى بيده ، ورجوعى إليه ، وكل مستحسن محبوب هو صنعه وحسنه وزينه وعطف النفوس إليه .

فذلك (٢) الكامل القدرة أحسن من المقدور ، والعجيب الصنعة أكمل من المصنوع ، ومعنى الإدراك أحلى عرفاناً من المدرك .

---

(١) فى م : أبذلها . وفى ت : أبدلها .
(٢) فى الحديثة : فكذلك .

ولوأننا رأينا نقشا عجيبا لاستغرقنا تعظيم النقاش وتهويل شأنه ، وظريف حكمته عن حب المنقوش ، وهذا مما تترقى إليه الأفكار الصافية ، إذا خرق نظرها الحسيات ، ونفذ إلى ماوراءها ، فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة .

وعلى قدر رؤية الصانع فى المصنوع يقع الحب له .

فإن قوى أوجب قلقاً وشوقاً .وإن مال بالعارف إلى مقام الهيبة ، أوجب خوفاً . وإن انحرف به إلى تلمح الكرم أوجب رجاء قويا (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)[1] .

٢٧ — فصل : إذعان العقل لحكمة الله

تأملت حالا عجيبة ، وهى أن الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة .

فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته ، ولطيف حكمته

ثم عاد فنقضها فتحيرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة ، فى سر ذلك الفعل .

فأُعلِمَتْ أنها ستعاد للمعاد ، وأن هذه البنية لم تخلق إلا لتجوز فى مجاز المعرفة ، وتتجر فى موسم المعاملة ، فسكنت العقول لذلك .

ثم رأت أشياء من هذا الجنس أظرف منه ، مثل اخترام شاب ما بلغ بعضَ المقصود ببيانه .

وأعجب من ذلك أخذ طفل من أكف أبويه يتململان . ولا يظهر سر سلبه ، والله الغنى عن أخذه ، وهما أشد الخلق فقراً إلى بقائه .

وأظرف منه إبقاء هرم لايدرى معنى البقاء ، وليس له فيه إلا مجرد أذى .

---

(١) جزء من الآية ٦٠ من سورة البقرة .

ومن هذا الجنس تقتير الرزق على المؤمن الحكيم ، وتوسعته على الكافر الأحمق .

وفي نظائر لهذه المذكورات يتحير العقل في تعليلها ، فيبقى مبهوتا .

فلم أزل أتلمح جملة التكاليف ، فإذا عجزت قوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك ، وقد ثبت لها حكمة الفاعل ، علمت قصورها عن درك جميع المطلوب ، فأذعنت مقرة بالعجز . وبذلك تؤدى مفروض تكليفها .

فلو قيل[1] للعقل : قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنى أفيجوز أن ينقدح في حكمته أنه نقض ؟ لقال : لأنى عرفت بالبرهان أنه حكيم ، وأنا أعجز عن إدراك علله فأسلم على رغمى مُقراً بعجزى .

٢٨ ـ فصل : تخيروا لنطفكم

تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه ، فرأيت أن الأصل الأكبر في وضعه وجود النسل ، لأن الحيوان لايزال يتحلل ، ثم يختلف[2] من المتحلل الغذاء ، ثم يتحلل من الأجزاء الأصلية مالا يخلفه شيء ، فإذا لم يكن بد من فنائه ، وكان المراد امتداد أزمان الدنيا جعل النسل خلفا عن الأصل . ولما كانت صورة النكاح تأباها النفوس الشريفة من كشف العورة وملاقاة مالا يستحسن لنفسه ، جعلت الشهوة تحث عليه ليحصل المقصود .

ثم رأيت هذا المقصود الأصلي يتبعه شيء آخر ، وهو استفراغ هذا الماء الذى يؤذى دوام احتقانه .

فإن المنىّ ينفصل من الهضم الرابع ، فهو من أصفى جوهر الغذاء وأجوده،

---

(١) في ت : ولو .

(٢) في الحديثة : ثم يخلف .

ثم يجتمع ، فهو أحد الذخائر للنفس فإنها تدّخر — لبقائها وقوتها — الدم ثم المنى ،ثم تدخر التفل الذى هو من أعمدة البدن كأنه لخوف عدم غيره [1] .

فإذا زاد اجتماع المنى أقلق على نحو إقلاق البول للحاقن ، إلا أن إقلاقه من حيث المعنى أكثر من إقلاق البول من حيث الصورة ، فتوجب كثرة اجتماعه ، وطول احتباسه ، أمراضاً صعبة ، لأنه يترقى من بخاره إلى الدماغ فيؤذى ، وربما أحدث سمّية .

ومتى كان المزاج سليما فالطبع يطلب بروز المنى إذا اجتمع كما يطلب بروز البول ، وقد ينحرف بعض الأمزجة ، فيقل اجتماعه عنده فيندر طلبه لإخراجه ، وإنما نتكلم عن المزاج الصحيح ، فأقول : قد بينت أنه إذا وقع به احتباسه أوجب أمراضا وجدد أفكاراً رديئة ، وجلب العشق والوسوسة إلى غير ذلك من الآفات .

وقد نجد صحيح المزاج يخرج ذلك إذا اجتمع وهو بعد متقلقل ، فكأنه الآكل الذى لا يشبع .

فبحثت عن ذلك فرأيته وقوع الخلل فى المنكوح ، إما لدمامته ، وقبح منظره ، أو لآفة فيه ، أو لأنه غير مطلوب للنفس،فحينئذ يخرج منه ويبقى بعضه.

فإذا أردت معرفة مايدلك على ذلك ، فقس مقدار خروج المنى فى المحل المشتهى . وفى المحل الذى هو دونه ، كالوطء بين الفخذين بالإضافة إلى الوطء فى محل النكاح ، وكوطء البكر بالإضافة إلى وطء الثيب .

فعلم حينئذ أن تخير المنكوح يستقصى فضول المنى ، فيحصل للنفس كمال اللذة ، لموضع كمال بروز الفضول .

---

(١) هذا هو التصور الطبى السائد فى ذلك العصر .

ثم قد يؤثر هذا فى الولد أيضاً ، فإنه إذا كان من شابين قد حبسا أنفسهما عن النكاح مدة مديدة كان الولد أقوى منه من غيرهما ، أو من المدمن على النكاح فى الأغلب .

ولهذا كره نكاح الأقارب ، لأنه مما يقبض النفس عن انبساطها، فيتخيل الإنسان أنه ينكح بعضه ، ومدح نكاح الغرائب لهذا المعنى .

ومن هذا الفن يحصل كثير من المقصود من دفع هذه الفضول المؤذية بمنكوح مستجد ، وإن كان مستقبح الصورة مالا يحصل به فى العادة .

ومثال هذا أن الطاعم إذا امتلأ خبزاً ولحماً حيث لم يبق فيه فضل لتناول لقمة ، قدمت إليه الحلوى فيتناول ، فلو قدم أعجب منها لتناول ، لأن ، الجدة لها معنى عجيب ، وذلك أن النفس لا تميل إلى ماألفت ، وتطلب غير ماعرفت ، وتتخايل لها فى الجديد نوع مراد .

فإذا لم تجد مرادها صدفت إلى جديد آخر ، فكأنها قد علمت وجود غرض تام بلا كدر ، وهى تتخايله فيما تراه .

وفى هذا المعنى دليل مدفون على البعث ، لأن فى خلق همته متعلقة بلا متعلق نوع عبث . فافهم هذا . فإذا رأت النفس عيوب ماخالطت فى الدنيا عادت تطلب جديداً .

ولذلك قال الحكماء : العشق ، العمى عن عيوب المحبوب ، فمن تأمل عيوبه سلا . ولذلك يستحب للمرأة ألا تبعد عن زوجها بعداً تنسيه إياها ، ولا تقرب منه قرباً يملها معه ، وكذلك يستحب ذلك له ، لئلا يملها أو تظهر لديه مكنونات عيوبها .

وينبغى له ألا يطلع منها على عورة ، ويجتهد فى ألا يشم منها إلا طيب ريح ، إلى غير ذلك من الخصال التى تستعملها النساء الحكيمات ، فإنهن يعلمن ذلك بفطرهن من غير احتياج إلى تعليم .

فأما الجاهلات فإنهن لا ينظُرن فى هذا فيتعجل التفات الأزواج عنهن .

فمن أراد نجابة الولد وقضاء الوطر فليتخير المنكوح ، إن كان زوجة فلينظر إليها ، فإذا وقعت فى نفسه فليتزوجها ، ولينظر فى كيفية وقوعها فى نفسه ، فإن علامة تعلق حبها بالقلب ألا [1] يصرف الطرف عنه ، فإذا انصرف الطرف قلق القلب بتقاضى النظرة ، فهذا الغاية .

ودونه مراتب على مقاديرها يكون بلوغ الأغراض .

وإن كان جارية تشترى فلينظر إليها أبلغ من ذلك النظر ، ومن قدر على مناطقة المرأة أو مكالمتها بما يوجب التنبيه ، ثم ليرى ذلك منها ، فإن الحسن فى الفم والعينين .

وقد نص أحمد : على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التى يريد نكاحها ماهو عورة ، يشير إلى مايزيد على الوجه .

ومن أمكنه أن يؤخر العقد أو شراء الجارية لينظر كيف توقان قلبه ، فإنه لايخفى على العاقل توقان النفس لأجل المستجد ، وتوقانها لأجل الحب ، [2] فإذا رأى قلق الحب أقدم . فإنه قد أخبرنا محمد بن عبد الباقى قال : أخبرنا حمد ابن أحمد قال : أخبرنا أبو نعيم قال : حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا عبدالجبار ابن أبى عامر قال : حدثنى أبى قال : حدثنى خالد بن سلام قال : حدثنا عطاء الخراسانى قال : مكتوب فى التوراة : كل تزويج على غير هوى حسرة وندامة إلى يوم القيامة .

ثم ينبغى للمتخير أن يتفرس فى الأخلاق فإنها من الخفى ، وإن الصورة إذا خلت من المعنى كانت كخضراء الدمن .

---

(١) فى الحديثة : أنه لا يكاد . ولا أصل لها .

(٢) اتمد حاول المؤلف جمع قلب العابد فشغله وشتته بأشد مما تفعل إمشاغل الحياة .

ونجابة الولد مقصودة ، وفراغ النفس من الاهتمام بما حصلت من الرغبات(١) أصل عظيم ، يوجب إقبال القلب على المهمات .

ومن فرغ من المهمات العارضة أقبل على المهمات الأصلية .

ولهذا جاء فى الحديث : لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان .

وإذا وضع العَشاء وحضرت العِشاء فابدءوا بالعَشاء .

فمن قدر على امرأة صالحة فى الصورة والمعنى فليغمض عن عوراتها ، ولتجتهد هى فى مراضيه من غير قرب يمل ، ولا بُعد ينسى .

ولتقدم على التصنع ، له يحصل الغرضان منها ، الولد وقضاء الوطر .

ومع الاحتراز الذى أوصيت به ، تدوم الصحبة ، ويحصل الغناء بها عن غيرها .

فإن قدر على الاستكثار فأضاف إليها سواها عالما أنه بذلك يبلغ الغرض الذى يفرغ قلبه زيادة تفريغ كان أفضل لحاله .

فإن خاف من وجود الغيرة ما يشغل القلب الذى قد اهتممنا بجمع همته ، أو خاف وجود مستحسنة تشغل قلبه عن ذكر الآخرة(٢) ، أو تطلب منه ما يوجب خروجه عن الورع ، فحسبه واحدة .

ويدخل فيما أوصيت به أنه يعد فى المستحسنات العفاف . فليبالغ الواجد لهن فى حفظهن وسترهن .

فإن وجد مالا يرضيه عجل الاستبدال ، فانه سبب السلو ، وإن قدر على الاقتصار فإن الاقتصار على الواحدة أولى ، فإن كانت على الغرض قنع ، وإن

(١) فى الحديثة : رغبات .

(٢) أين الآخرة ؟ ! ! لقد شغلت الناس بانتقاء المرأة .

لم تكن استبدل ، ونكاح المرأة المحبوبة يستفرغ الماء المجتمع ، فيوجب نجابة الولد وتمامه ، وقضاء الوطر بكماله .

ومن خاف وجود الغيرة فعليه بالسرارى، فإنهن أقل غيرة ، والاستظراف لهن أمكن من استظراف الزوجات .

وقد كان جماعة يمكنهم الجمع ، وكان النساء يصبرن ، فكان لداود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة ، ولسليمان عليه الصلاة والسلام ألف امرأة ، وقد علم حال نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكان لأمير المؤمنين على رضى الله عنه أربع حرائر ، وسبع عشرة سرية ، وتزوج ابنه الحسن رضى الله عنه بنحو من أربعمائة ، إلى غير هذا مما يطول ذكره (١) .

فافهم ما أشرت إليه، تفز به إن شاء الله تعالى .

٢٩ ـ فصل : لماذا تكثر الحسنات والسيئات ؟

كل شيء خلق الله تعالى فى الدنيا فهو أنموذج فى الآخرة. وكل شيء يجرى فيها أنموذج ما يجرى فى الآخرة . فأما المخلوق منها فقال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس فى الجنة شيء يشبه ما فى الدنيا إلا الأسماء .

وهذا لأن الله تعالى شوّق بنعيم إلى نعيم ، وخوّف بعذاب من عذاب.

فأما ما يجرى فى الدنيا فكل ظالم معاقب فى العاجل على ظلمه قبل الآجل ، وكذلك كل مذنب ذنباً ، وهو معنى قوله تعالى : «من يعمل سوءاً يجز به»(٢) .

وربما رأى العاصى سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة ، وغفلته عما عوقب به عقوبة .

(١) هؤلاء أنبياء معصومون . فما بال العبد القاصر .

(٢) جزء من الآية ١٢٣ من سورة النساء .

وقد قال الحكماء : المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة .

وربما كان العقاب العاجل معنويا كما قال بعض أحبار بنى إسرائيل : يارب كم أعصيك ولا تعاقبنى؟ فقيل له : كم أعاقبك وأنت لا تدرى، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتى ؟

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد ، حتى قال وهب بن الورد وقد سئل : أيجد لذة الطاعة من يعصى ؟ فقال : ولا من همّ .

فربّ شخص أطلق بصره فحرمه الله[1] اعتبار بصيرته، أو لسانه فحرم صفاء قلبه ، أو آثر شبهة فى مطعمه فأظلم سره ، وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة ، إلى غير ذلك .

وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفس[2] وعلى ضده يجد من يتقى الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلا ، كما فى حديث أبى أمامة : عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : « النظرة إلى المرأة سهم مسموم من سهام الشيطان ، من تركه ابتغاء مرضاتى آتيته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه »

فهذه نبذة من هذا الجنس تنبه على مغفلها .

فأما المقابلة الصريحة فى الظاهر فقل أن تحتبس ، ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : الصبحة[3] تمنع الرزق . وإن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه .

وقد روى المفسرون : أن كل شخص من الأسباط جاء باثنى عشر ولداً، وجاء يوسف بأحد عشر بالهمة ، ومثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة رأى الجزاء وفهم كما

---

(١) فى الحديثة : فحرم .

(٢) فى الحديثة والخانجى : النفوس .

(٣) الصبحة ـ بالضم ـ نوم الضحى .

قال الفضيل : إنى لأعصى الله عز وجل فأعرف ذلك فى خلق دابتى وجاريتى

وعن أبى عثمان النيسابورى : أنه انقطع شسع نعله فى مضيه إلى الجمعة فتعوق لإصلاحه ساعة ، ثم قال : ما انقطع إلا لأنى ما(١) اغتسلت غسل الجمعة .

ومن عجائب الجزاء فى الدنيا أنه لما امتدت أيدى الظلم من إخوة يوسف «وشروه بثمن بخس(٢)» ، امتدت أكفهم بين يديه بالطلب ، يقولون : «وتصدق علينا(٣)» .

ولما صبر هو يوم الهمة ملك المرأة حلالا ، ولما بغت عليه بدعواها : «ما جزاء من أراد بأهلك سوءا(٤)» ، أنطقها الحق بقولها «أنا راودته(٥)» .

ولو أن شخصا ترك معصية لأجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك ، وكذلك إذا فعل طاعة . وفى الحديث : «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة» ، أى عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة .

ولقد رأينا من سامح نفسه بما يمنع منه الشرع ، طلبا للراحة العاجلة ، فانقلبت أحواله إلى التنغص العاجل ، وعكست عليه المقاصد .

حكى بعض المشايخ : أنه اشترى فى زمن شبابه جارية ، قال : فلما ملكتها تاقت نفسى إليها ، فما زلت أسأل الفقهاء لعل مخلوقا يرخص لى .

فكلهم قال : لا يجوز النظر إليها بشهوة ، ولا لمسها ، ولا جماعها إلا بعد حيضها

---

(١) هكذا فى ت و م . وفى الحديثة : إنما انقطع لأنى

(٢) جزء من الآية ٢٠ من سورة يوسف .

(٣) جزء من الآية ٨٨ من سورة يوسف .

(٤) جزء من الآية ٢٥ من سورة يوسف .

(٥) جزء من الآية ٥١ من سورة يوسف .

قال : فسألتها فأخبرتنى أنها اشتريت وهى حائض ، فقلت : قرب الأمر .

فسألت الفقهاء فقالوا : لا يعتد بهذه الحيضة حتى تحيض فى ملكه .

قال : فقلت لنفسى وهى شديدة التوقان لقوة الشهوة ، وتمكن القدرة . وقرب المصاقبة : ماتقولين ؟

فقالت : الإيمان بالصبر على الجمر ، شئتَ أو أبيتَ .

فصبرت إلى أن حان ذلك ، فأثابنى الله تعالى على ذلك الصبر بنيل ما هو أعلى منها وأرفع .

٢٠ - فصل : لايخفى على الله شىء

نظرت فى الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من الرمل ، ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يخفى مالا يرضاه الله عز وجل ،فيظهره الله سبحانه عليه ولو بعد حين ، وينطق الألسنة به وإن لم يشاهده الناس .

وربما أوقع صاحبه فى آفة يفضحه بها بين الخلق ، فيكون جوابا لكل ما أخفى من الذنوب ، وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازى على الزلل ،ولا ينفع من قدره وقدرته حجاب ولا استتار ، ولا يُضاع لديه عمل .

وكذلك يخفى الإنسان الطاعة فتظهر عليه ، ويتحدث الناس بها وبأكثر منها ، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً ولا يذكرونه إلا بالمحاسن ، ليعلم أن هنالك رباً لا يُضيعُ عمل عاملٍ(١) .

وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه ، أو تأباه ، وتذمه ، أو تمدحه وفق مايتحقق بينه وبين الله تعالى، فإنه يكفيه كل هم ، ويدفع عنه كل شر .

---

(١) انظر الباب الثالث من المسائل للمحاسبي .

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون (أن ينظر)[1] الحق ، إلاّ انعكس مَقصُوده وعاد حامدُه ذامّا .

٣١ ـ فصل : الشر والخير

تأملت الأرض ومن عليها بِعَيْنِ فِكْرِي ، فرأيت خرابها أكثر من عمرانها .

ثم نظرت فى المعمور منها ، فوجدت الكفار مستولين على أكثره ، ووجدت أهل الإسلام فى الأرض قليلا بالإضافة إلى الكفار .

ثم تأملت المسلمين فرأيت المكاسب[2] قد شغلت جمهورهم عن الرازق ، وأعرضت بهم عن العلم الدالّ عليه .

فالسلطان مشغول بالأمر والنهى واللذات العارضة له ، ومياه أغراضه جارية لا شكر لها .

ولا يتلقاه أحد بموعظة بل بالمدحة التى تُقَوِّى عنده هَوَى النفس .

وإنما ينبغى أن تقاوم الأمراض بأضدادها .

كما قال عمر بن المهاجر : قال لى عمر بن عبد العزيز : إذا رَأَيْتَنِى قَدْ حِدْتُ عن الحق فخذ بثيابى وهُزَّنى ، وقل : مالك ياعمر ؟

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا .

فأحوج الخلق إلى النصائح والمواعظ ، السلطان .

---

(١) ساقطة من الحديثة والخانجى .
(٢) فى الحديثة والخانجى : الأكساب

وأما جنوده فجمهورهم فى سكر الهوى ، وزينة الدنيا، وقد انضاف إلى ذلك الجهلُ ، وعدمُ العــلم ، فلا يؤلمهم ذنب ، ولا ينزعجون من لبس حرير ، أو شرب خمر ، حتى ربمــا قال بعضهم : إيش يعمل الجندى : أيَلْبس القطن ؟

ثم أخْذُهم للأشياء من غير وجهها ، فالظلم معهم كالطبع .

وأرباب البوادى قد غمرهم الجهل ، وكذلك أهــل القرى . ما أكثر تَقَلُّبهم فى الأنجاس وتهوينهم لأمر الصلوات ، وربما صلَّتْ المرأة منهن قاعدة .

ثم نظرت فى التُّجّــار ، فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص ، حتى لايرون سوى وجوه الكسب كيف كانت ؛ وصار الربا فى معاملتهم فاشياً ، فلا يبالى أحدهم من أين تحصل له الدنيا[1] ؟

وهم فى باب الزكاة مُفَرِّطون ، ولا يستوحشون من تركها ، إلا مَنْ عَصَمَ الله .

ثم نظرت فى أرباب المعاش، فوجدت الغش فى معاملاتهم عاما ، والتطفيف والبخس ، وهم مع هذا مغمورون بالجهل .

ورأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هــــذه الأشغال طلبا للكسب قبل أن يعرف مايجب عليه وما يتأدب به .

ثم نظرت فى (أحوال)[2] النساء ؛ فرأيتهن قليلات الدين ، عظيمات الجهل ، ما عندهم من الآخرة خبر إلا مَنْ عصم الله .

---

(١) لقد فصل المحاسبى أحوال التجار فى كتابه المكاسب بأبين من هذا .
(٢) ساقطة من الحديثة والخانجى .

فقلت : واعجباً فمن بقى لخدمة الله عز وجل ومعرفته ؟ .

فنظرت فإذا العلماء ، والمتعلمون ، والعبّاد ، والمتزهدون . فتأملت العباد ، والمتزهدين فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم ، ويأنس إلى تعظيمه ، وتقبيل يده وكثرة أتباعه ، حتى إن أحدهم لو اضطر إلى أن يشترى حاجة من السوق لم يفعل ، لئلا ينكسر جاهه .

ثم تَتَرَقَّى بهم رُتْبَةُ الناموس إلى ألا يعودوا مريضا ، ولا يشهدوا جنازة ، إلا أن يكون عظيم القدر عندهم . ولا يتزاورون ، بل ربما ضن بعضهم على بعض بلقاء ، فقد صارت النواميس كالأوثان يعبدونها ولا يعلمون .

وفيهم مَنْ يُقْدِمُ على الفتوى وهو جاهل[1] لئلا يخل بناموس التصدُّر ثم يعيبون العلماء لحرصهم على الدنيا ولا يعلمون أن المذموم من الدنيا ماهم فيه ، لاتناول المباحات .

ثم تأملت العلماء المتعلمين ، فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النجابة ، لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به ، وجمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب ، إما ليأخذ به قضاء مكان أو ليصير به قاضى بلد ، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه ثم يكتفى .

ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى ويستخدمه ، فهو يُؤثر ما يَصُدُّه العلم عنه ، ويُقبل على ماينهاه ؛ ولا يكاد يجد ذوق معاملة الله سبحانه ، وإنما هِمَّتُهُ أن يحدث[2] وحسب .

إلا أن الله لايخلِ الأرضَ مِنْ قائم له بالحجة ، جامع بين العلم والعمل .

---

(١) فى الحديثة : يجهل .
(٢) فى الحديثة : أن يقول .

عارف بحقوق الله تعالى، خائف منه. فذلك قطب الدنيا، ومتى مات أخلف الله عوضه.

وربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه فى كل نائبة.

ومثل هذا لا تخلو الأرض منه، فهو بمقام النبىّ فى الأمة

وهذا الذى أصفه يكون قائماً بالأصول، حافظاً للحدود، وربما قلّ علمه أو قلّت معاملته.

فأما الكاملون فى جميع الأدوات فيندر وجودهم، فيكون فى الزمان البعيد منهم واحد.

ولقد سبرت السلف كلهم فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم أر أكثر من ثلاثة: أولهم الحسن البصرى، وثانيهم سفيان الثورى، وثالثهم أحمد ابن حنبل [١].

وقد أفردت لأخبار كل واحد منهم كتابا [٢]، وما أنكر على من ربّعهم بسعيد بن المسيب.

وإن كان فى السلف سادات إلا أنّ أكثرهم غلب عليه فن، فنقص من الآخر، فمنهم من غلب عليه العلم، ومنهم من غلب عليه العمل، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم، والنصيب الأوفى من المعاملة والمعرفة.

ولا يأس من وجود من يحذو حذوهم، وإن كان الفضل بالسبق لهم. فقد أطلع الله عز وجل الخضر على ماخفى من موسى عليهما السلام.

---

(١) انظره فى فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية.

(٢) هذه مبالغة. فالسلف كثيرون فى هذا الباب.

فخزائن الله مملوءة ، وعطاؤه لا يقتصر[1] على شخص .

وقد حكى لى عن ابن عقيل أنه كان يقول عن نفسه : أنا عملت فى قارب ثم كسر ، وهذا غلط فمن أين له ؟ فكم معجب بنفسه كشف له من غيره ما عاد يحقر نفسه على ذلك ، وكم من متأخر سبق متقدما ، وقد قيل :

إنَّ اللَّيالِىَ وَالأيَّامَ حَامِلَةٌ
وَلَيْسَ يَعْلَمُ غيرُ اللهِ مَا تَلِدُ

٣٢ - فصل : فى قوة قهر الهوى لذة كبرى

رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائداً فى المقدار حتى إنها إذا مالت ، مالت بالقلب والعقل والذهن ، فلا يكاد المرء ينتفع بشىء من النصح .

فَصِحْتُ بها يوماً وقد مالت بِكُلِّيَّتها إلى شهوة : وَيْحَكِ ! قفى لحظة أكلمك كلمات ثم افعلى ما بدالك .

قالت : قل أسمع .

قلت : قد تقرر قلة ميلك إلى المباحات من الشهوات ؛ وأمّا جُلُّ مَيلك فإلى المحرمات . وأنا أكشف لك عن الأمرين ، فربما رأيت الحلوين مُرين

أما المباحات من الشهوات ، فمطلقة لك ولكن طريقها صعب ، لأن المال قد يعجز عنها ، والكسب قد لا يُحَصِّلُ مُعْظَمَهَا ، والوقت الشريف يذهب بذلك.

ثم شغل القلب بها وقت التحصيل ، وفى حالة الحصول ، وبحذر الفوات.

---

(١) فى الحديثة : لا يقف .

ثم ينغصها من النقص مالا يخفى على مميز ، وإن كان مطعماً فالشبع يحدث آفات ، وإن كان شخصاً فالملل ، أو الفراق ، أو سوء الخلق .

ثم ألذ النكاح أكثره إيهاناً للبدن ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

وأما المحرمات : فتشتمل على ماأشرنا إليه من المباحات وتزيد (عليها)[1] بأنها آفة العرض ومظنة عقاب الدنيا وفضيحتها ، وهناك وعيد الآخرة ، ثم الجزع كلما ذكرها التائب .

وفى قُوةِ قهرِ الهوى لذةٌ تزيد على كل لذة . ألا ترى[2] إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلا ؟ لأنه قُهر . بخلاف غالبِ الهوى فإنه يكون قَوِىّ القلب ، عزيزاً لأنه قَهر .

فالحذر الحذرمن رؤية المشتَهى بعين الحسن ، كما يرى اللصُّ لَذَّةَ أخذِ المال مِنَ الحرْز ، ولا يرى بِعينِ فِكرِه القطعَ .

وليفتح عين البصيرة لِتأمل العواقب واستحالة اللذة نغصة ، وانقلابها عن كونها لذة ، إما الملل أو لغيره من الآفات ، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب . فتكون المعصية الأولى كلقمة تناولها جائع ، فما رَدَّتْ كلب الجوع ، بل شهَّت الطعام .

وليتذكر الإنسان لذة قهر الهوى ، مع تأمل فوائد الصبر عنه .

فمن وفق لذلك ، كانت سلامته قريبة منه . .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) فى الحديثة : ترين . خطأ .

٣٣ ـ فصل : شغل الحياة

خطر لى خاطر والمجلس قد طيب[١] ، والقلوب قد حضرت ، والعيون جارية ، والرءوس مُطرَقه ، والنفوس قد ندمت على تفريطها ، والعزائم قد نهضت لإصلاح شئونها ، وألسنة اللوم تعمل فى الباطن على تضييع الحزم وترك الحذر ، فقلت لنفسى : ما بال هذه اليقظة لا تدوم ؟ فإنى أرى النفس واليقظة فى المجلس متصادقين متصافيين ، فإذا قمنا عن هذه التربة ، وقعت الغربة .

فتأملت ذلك فرأيت أن النفس ماتزال متيقظة ، والقلب مايزال عارفاً ، غير أن القواطع كثيرة ، والفكر الذى ينبغى استعماله فى معرفة الله سبحانه وتعالى قد كلّ بما يستعمل فى اجتلاب الدنيا ، وتحصيل حوائج النفوس ، والقلب منغمس فى ذلك ، والبدن أسير مستخدم .

وبينا الفكر يجول فى اجتلاب الطعام والشراب والكسوة ، وينظر فى صدد ذلك ، ومايدخره ادخاره وسَلمته ، إذا هو مهتم بخروج الفضلات المؤذية — ومنها المنىّ — فاحتاج إلى النكاح ، فعلم أنه لا يصح إلا باكتساب كسب الدنيا فتفكر فى ذلك وعمل بمقتضاه .

ثم جاء الولد فاهتم به وله ، وإذا الفكر عامل فى أصول الدنيا وفروعها . فإذا حضر الإنسان المجلس فإنه لا يحضر جائعاً ولاحاقناً . بل يحضره[٢] جامعاً لهمته ، ناسياً ماكان من الدنيا على ذكره فيخلو الوعظ بالقلب فيذكره بما ألف ، ويجذبه بما عرف ، فينهض عمال القلب فى زوارق عرفانه . فيحضرون النفس إلى باب المطالبة بالتفريط ، ويؤاخذون الحس بما مضى من العيوب ، فتجرى عيون الندم ، وتنعقد عزائم الاستدراك .

---

(١) فى الحديثة : قد طاب .

(٢) فى الحديثة : بل يحضر .

ولو أن هذه النفس خلت عن المعهودات التى وَصَفتها ، لتشاغلت بخدمة باريها .

ولو وقفت فى سورة حبه ، لاستوحشت عن الشكل شغلا بقربه .

ولهذا سكن[1] الزهاد الخلوات ، وتشاغلوا بقطع المعوقات ، وعلى قدر مجاهدتهم فى ذلك نالوا من الخدمة مرادهم ، كما أن الحصاد على مقدار البذر .

غير أنى تلمَّحتُ فى هذه الحالة — دقيقة — وهو أن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت مافاتها ، وهو العجب بحالها ، والاحتقار لجنسها .

وربما ترقت بقوة علمها وعرفانها ، إلى دعوى (قولها)[2] : لى ، وعندى ، وأستحق . فتركها فى حومة ذنوبها تتخبط .

فإذا وقفت على الشاطىء قامت بحق ذلة العبودية ، وذلك أولى لها .

هذا حكم الغالب من الخلق ، ولذلك شغلوا عن هذا المقام . فمن بذر فصلح له فلا بد له من هفوة تراقبها عين الخوف بها تصح له عبوديته ، وتسلم له عبادته .

وإلى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح : لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم .

٣٤ ـ فصل : نقد الصوفية

تفكرت فرأيت أن حفظ المال من المتعين ، وما يسميه جهلة المتزهدين توكلا من إخراج ما فى اليد ليس بالمشروع . فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال

---

(١) فى الحديثة : اعتمد .

(٢) ساقطة من الحديثة والخانجى .

لكعب بن مالك : أمسك عليك بعض مالك ؛ أو كما قال له . وقال لسعد «لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس» .

فإن اعترض جاهل فقال : فقد جاء أبوبكر رضى الله عنه بكل ماله .

فالجواب أن أبا بكر صاحب جأش وتجارة ، فإذا أخرج الكل أمكنه أن يستدين عليه ، فيتعيش(١) .

فمن كان على هذه الصفة لا أذمُّ إخراجه لِمَالِهِ ، وإنما الذم متطرق إلى من يخرج ماله وليس من أرباب المعائش .

أو يكون من أولئك ، إلا أنه ينقطع عن المعاش فيبقى "كلاًّ" على الناس ، يستعطيهم ويعتقد أنه على الفتوح ، وقلبُه متعلق بالخلق ، وطمعه ناشب فيهم .

ومتى حُرِّك بابه نهض قلبه . وقال : رزق قد جاء .

وهذا أمر قبيح بمن يقدر به على المعاش ،وإن لم يقدر كان إخراج ما يملك أقبح ، لأنه يتعلق قلبه بما فى أيدى الناس .

وربما "ذلَّ" لبعضهم ، أو تزين له بالزهد ، وأقلُّ أحواله أن يزاحِمَ الفقراء والمكافيف والزمنى فى الزكاة .

فعليك بالشِّربِ الأول ، فانظر هل فيهم من فعل مايفعله جهلة المتزهدين؟
وقد أشرت فى أول هذا إلى أنهم كسبوا وخلفوا الأموال .
فرد إلى الشِّرب الأول ، الذى لم يُطرق فإنه الصافى .

واحذر من المشارع المطروقة بالآراء الفاسدة الخارجة فى المعنى على الشريعة مذعنة بلسان حالها أن الشرع ناقص يحتاج إلى مايتم به .

---

(١) لم يكن هكذا حين أخرج ماله وإنما قال : «تركت لهم الله ورسوله» .

واعلم — وفقك الله تعالى — أن البدن كالمطية ،ولا بد من علف المطية ، والاهتمام به .

فإذا أهملت ذلك كان سبباً لوقوفك عن السير .

وقد رئِيَ سلمان رضى الله عنه يحمل طعاما على عاتقه، فقيل له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟فقال : إن النفس إذا أحرَزَتْ قوتها اط أنت .

وقال سفيان الثورى : إذا حصَّلتَ قوت شهر فتعَبَّدْ .

وقد جاء أقوام ليس عندهم سوى الدعاوى فقالوا : هذا شك فى الرازق والثقة به أولى . فإياك وإياهم .

وربما ورد مثل هذا عن بعض صدور الزهاد من السلف فلا يعوَّل عليه ، ولا يهولنك خلافهم .

فقد قال أبو بكر المروذى(١) : سمعت أحمد بن حنبل يرغب فى النكاح . فقلت له :قال ابن أدهم ، فما تركنى أتمم حتى صاح علىَّ ، وقال : أذكر لك حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتأتينى ببنيَّات الطريق ؟

واعلم وفقك الله: أنه لو رفض الأسبابَ شخصٌ يدَّعِى التزَهُّدَ . وقال: لا آكل ولا أشرب ، ولا أقوم من الشمس فى الحر ، ولا استدفىء من البرد ، كان عاصيا بالإجماع .

---

(١) فى المطبوعات : المروزى . وهو خطأ .

وكذلك لو قال وله عائلة : لا أكتسب ورزقهم على الله تعالى، فأصابهم أذى ، كان آثما .

كما قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » .

واعلم أن الاهتمام بالكسب يجمع الهمّ ، ويفرغ القلب ، ويقطع الطمع فى الخلق ، فإن الطبع له حق يتقاضاه .

وقد بين الشرع ذلك فقال : إن لنفسك عليك حقاً ؛ وإن لعينك عليك حقاً .

ومثال الطبع مع المريد السالك ، كمثل كلب لا يعرف الطارق ، فكل من رآه يمشى ، نبح عليه ، فإن ألقى إليه كِسْرَة سكت عنه .

فالمراد من الاهتمام بذلك جمع الهم لا غير ، فافهم هذه الأصول ، فإن فهمها مهم . .

٣٥ ـ فصل : الانسان والشهوة

تأملت فى شهوات الدنيا فرأيتها مصائد هلاك ، وفخوخ تلف .

فمن قَوِىَ عقله عَلىَ طبْعِهِ وحكم عليه سلم(١) ، ومن غلب طبعه فيا سُرْعة هلكته .

ولقد رأيت بعض أبناء الدنيا كان يتوق إلى(٢) التسرى . ثم يستعمل الحرارات المهيجة للباه ، فما لبث أن انحلت حرارته الغريزية وتلف.

---

(١) فى الحديثة : يسلم .
(٢) فى الحديثة : فى

ولم أر فى شهوات النفس أسرع هلاكا من هذه الشهوة ، فإنه كلما مال الإنسان إلى شخص مستحسن أوجب ذلك حركة الباه زائداً عن العادة (١) .

وإذا رأى أحسن منه زادت الحركة وكثر خروج المنى زائداً عن الأول ، فيفنى جوهر الحياة أسرع شىء .

وبالضِّدِّ مِنْ هذا أن تكون المرأة مستقبحة فلا يوجب نكاحها خروج الفضلة المؤذية كما ينبغى ، فيقع التأذى بالاحتباس وقوة التوق إلى منكوح .

وكذلك المفرط فى الأكل فإنه يجنى على نفسه كثيراً من الجنايات ، والمقصر فى مقدار القوت كذلك ، فعلمت أن أفضل الأمور أوساطها .

والدنيا مفازة فينبغى أن يكون السابق فيها العقل ، فمن سلم زمام راحلته إلى طبعه وهواه ، فياعجلة تلفه — هذا فيما يتعلق بالبدن والدنيا — فقس عليه أمر الآخرة فافهم ،

٣٦ — فصل : حقيقة الزهد

بلغنى عن بعض زهاد زماننا أنه قدِّم إليه طعام فقال : لا آكل . فقيل له : لم ؟ قال : لأن نفسى تشتهيه ، وأنا منذ سنين ما بلغت نفسى ما تشتهى .

فقلت : لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين ، وسبب خفائها عدم العلم . أما الوجه الأول : فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على هذا ولا أصحابه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجاج ، ويحب الحلوى والعسل .

---

(١) عارض المؤلف نفسه فقد ذكر ذلك علاجا لتفريق الهم وخطأ نفسه هنا .

ودخل فرقد السبخي (١) على الحسن وهو يأكل الفالوذج . فقال : يافرقد ما تقول في هذا ؟ فقال لا آكله ولا أحب من أكله . فقال الحسن : لعاب النحل ، بلباب البر ، مع سمن البقر ، هل يعيبه مسلم ؟

وجاء رجل إلى الحسن فقال : إن لي جاراً لا يأكل الفالوذج . فقال : ولم؟ قال يقول : لا أؤدي شكره ، فقال : إن جارك جاهل وهل يؤدي شكر الماء البارد ؟

وكان سفيان الثوري : يحمل في سفره الفالوذج . والحمل المشوي ، ويقول: إن الدابة إذا أحسن إليها عملت .

وما حدث في الزهاد بعدهم من هذا الفن فأمور مسروقة من الرهبانية . وأنا خائف من قوله تعالى : «لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا (٢) » .

ولا نحفظ (٣) عن أحد من السلف الأول من الصحابة من هذا الفن شيء إلا أن يكون ذلك لعارض .

وسبب ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه اشتهى شيئاً فآثر به فقيراً ، وأعتق جاريته رميثة ، وقال : إنها أحب الخلق إلي ، فهذا وأمثاله حسن، لأنه إيثار بما هو أجود عند النفس من غيره ، وأكثر لها من سواه (٤) .

فإذا وقع في بعض الأوقات ، كسرت بذلك الفعل سورة هواها أن تطغى بنيل كل ما تريد .

---

(١) خطأ شائع أن يقال : السنجي بالنون والجيم وهو منسوب الى السبخة بنواحي البصرة .

(٢) جزء من الآية ٨٧ من سورة المائدة .

(٣) في الحديثة : ولا يحفظ .

(٤) بل هو فوق ذلك معاكسة للنفس اتباعا لأبيه رضي الله عنه .

فأما من دام على مخالفتها على الإطلاق ، فإنه يعمى قلبها[١] ، ويبلد خواطرها ، ويشتت عزائمها ، فيؤذيها أكثر مما ينفعها .

وقد قال إبراهيم بن أدهم : إن القلب إذا أكره عمى . وتحت مقالته سر لطيف وهو أن الله عز وجل قد وضع طبيعة الآدمى على معنى عجيب ، وهو أنها تختار الشيء من الشهوات مما يصلحها ، فتعلم باختيارها له صلاحه ، وصلاحها به .

وقد قال حكماء الطب : ينبغى أن يفسح للنفس فيما تشتهى من المطاعم ، وإن كان فيه نوع ضرر ، لأنها إنما تختار ما يلائمها ، فإذا قمعها الزاهد فى مثل هذا عاد على بدنه بالضرر .

ولولا جواذب[٢] الباطن من الطبيعة ما بقى البدن فإن الشهوة للطعام تثور ، فإذا وقعت الغنية بما يتناول كفت الشهوة .

فالشهوة مريد ورائد ، ونعم الباعث هى على مصلحة البدن .

غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى ، ومتى منعت ما تريد على الإطلاق مع الأمن من فساد العاقبة عاد ذلك على النفس بالفساد[٣] ، ووهن الجسم ، واختلاف السقم الذى تتداعى به الجملة ، مثل أن يمنعها الماء عند اشتداد العطش ، والغذاء عند الجوع ، والجماع عند قوة الشهوة ، والنوم عند غلبته ، حتى إن المغتم إذا لم يتروّح بالشكوى قتله الكمد[٤] .

---

(١) ولماذا لم يعم قلب عمر رضى الله عنه عام الرمادة وقبله وبعده ؟

(٢) زادت الحديثة (فى) ولا توجد فى الأصول .

(٣) فى الحديثة : بفساد أحوال النفس .

(٤) ولكن الشكوى الى الخلق فساد في السلوك ودليل على غضب الله تعالي فلتكن الشكوى الي الله في خلوة فحسب .

فهذا أصل إذا فهمه هذا الزاهد . علم أنه قد خالف طريق الرسول ﷺ وأصحابه . من حيث النقل ، وخالف الموضوع من حيث الحكمة .

ولا يلزم على هذا قول القائل : فمن أين يصفو المطعم ؟ لأنه إذا لم يَصفُ كان الترك ورعا ، وإنما الكلام فى المطعم الذى ليس فيه ما يؤذى فى باب الورع وكان ما شرحته جوابا للقائل : ما أبلغ نفسى شهوة على الإطلاق .

والوجه الثانى : أنى أخاف على الزاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى الترك فصار يشتهى ألا يتناول ، وللنفس فى هذا مكرٌ خفىٌ ، ورياء دقيق ، فإن سلمت من الرياء للخلق ، كانت الآفة من جهة تعلقها بمثل هذا الفعل ، وإدلالها فى الباطن به ، فهذه مخاطرة وغلط .

وربما قال بعض الجهال : هذا صد عن الخير و (عن)[1] الزهد . وليس كذلك ، فإن الحديث قد صح عن النبى ﷺ أنه قال : كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رَدّ .

ولا ينبغى أن يغتر بعبادة جريج ، ولا بتقوى ذى الخويصرة ، ولقد دخل المتزهدون فى طرق لم يسلكها الرسول ﷺ ، ولا أصحابه ، من إظهار التخشع الزائد فى الحد ، والتنوق فى تخشين الملبس[2] ، وأشياء صار العوام يستحسنونها .

وصارت لأقوام كالمعاش يجتنون من أرباحها : تقبيل اليد ، وتوفير التوقير وحراسة الناموس .

وأكثرهم فى خَلْوَتِهِ ، على غير حالته فى جَلْوَتِهِ .

---

(١) ساقطة من الحديثة والخانكى .

(٢) فى الحديثة : العيش . ولا أصل لها .

وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة ، وإذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية .

فنسأل الله تعالى علما نافعا فهو الأصل ، فمتى حصل أوجب معرفة المعبود عز وجل ، وحرك إلى خدمته بمقتضى ماشرعه وأحبَّه ، وسلك بصاحبه طريق الإخلاص .

وأصل الأصول — العلم ، وأنفع العلوم النظر فى سير[1] الرسول ﷺ وأصحابه « أولئكَ الذين هَدَى اللهُ فَبِهداهُم اقْتَدِهْ »[2] .

٣٧ — فصل : جهاد النفس

تأملت جهاد النفس فرأيته أعظم الجهاد ، ورأيت خلقاً من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه ، لأن فيهم مَنْ منعها حظوظها على الإطلاق ، وذلك غلط من وجهين :

أحدهما : أنه رُبَّ مانعٍ لها شهوةً أعطاها بالمنع أوفى منها .

مثل أن يمنعها مباحا فيشتهر بمنعه إياها ذلك ، فترضى النفس بالمنع لأنها قد استبدلت به المدح .

وأخفى من ذلك أن يرى — بمنعه إياها ما منع — أنه قد فَضَلَ سواه[3] من لم يمنعها ذلك ، وهذه دفائن تحتاج إلى منقاش[4] فَهْمٍ يخلِّصها .

---

(١) فى الحديثة: سيرة .

(٢) جزء من الآية ٩٠ من سورة الأنعام

(٣) فى الحديثة : من سواه . ولا أصل لها .

(٤) هو ملقط دقيق .

والوجه الثانى: أننا قد كُلِّفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التى تقيمها، فلابد من إعطائها ما يقيمها، وأكثر ذلك أو كله ما[1] تشتهيه.

ونحن كالوكلاء فى حفظها. لأنها ليست لنا بل هى وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر.

ثم ربَّ شدٍّ أوجب استرخاء، وَرُبَّ مُضيِّق على نفسه فرّت منه فصعب عليه تلافيها.

وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها فى تناول ما ترجو به العافية، ويذوب فى المرارة قليلا من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب. ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرّ جوعا، ومن لقمة ربما حرمت لقمات.

فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مقودها — بل يرخى لها فى وقت والطّول[2] بيده.

فما دامت على الجادة لم يضايقها فى التضييق عليها.

فإذا رآها قد مالت ردّها باللطف، فإن ونت وأبت[3] فبالعنف.

ويحبسها فى مقام المداراة، كالزوجة التى مبنى عقلها على الضعف والقلة، فهى تُدارَى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب.

---

(١) فى الحديثة: مما.

(٢) الطول: الزمام.

(٣) فى الحديثة: وإلا فبالعنف. ومعه ينعكس المعنى.

وليس فى سياط التأديب أجود من سَوْطِ عَزْمٍ .

هذه مجاهدة من حيث العمل ، فأما من حيث وعظها وتأنيبها ، فينبغى لمن رآها تسكن للخلق ، و تتعرض بالدناءة من الأخلاق أن يعرفها تعظيم خالقها لها فيقول :

ألستِ التى قال فيك : خلقتُكِ بيدى ، واسجدتُ لكِ ملائكتى ، وارتضاكِ للخلافة فى أرضه ، وراسلك ، واقترض منك[1] واشترى[2] .

فإن رآها تتكبر ، قال لها : هل أنتِ إلا قطرة من ماء مهين ، تقتلكِ شرقة ، وتؤلمك بقة ؟

وإن رأى تقصيرها عرفها حق الموالى على العبيد .

وإن ونت فى العمل ، حدثها بجزيل الأجر .

وإن مالت إلى الهوى ، خوفها عظيم الوزر . ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية ، كقوله تعالى : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُم وأَبْصارَكُم[3]» ، والمعنوية كقوله تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ[4]» .

فهذا جهاد بالقول ، وذاك جهاد بالفعل .

---

(١) إشارة إلى قوله : « من ذا الذى يقرض الله .... » .

(٢) إشارة إلى قوله « إن الله اشترى من المؤمنين ... » .

(٣) جزء من الآية ٤٦ من سورة الأنعام .

(٤) جزء من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف . والمراد الابتلاء بصلابة القلب وعدم الفهم عن الله .

٣٨ — فصل : لا تجزع اذا تأخرت إجابة الدعاء

رأيت من البلاء[1] أن المؤمن يدعو فلا يجاب ، فيكرر الدعاء وتطول المدة ، ولا يرى أثراً للإجابة ، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر .

وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب

ولقد عَرَض لي من هذا الجنس . فإنه نزلت بي نازلة ، فدَعَوْتُ وَبالغتُ ، فلم أرَ الإجابة ، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده .

فتارة يقول : الكرم واسع والبخل معدوم ، فما فائدة تأخير الجواب ؟

فقلت له : إخسأ يالَعين ، فما أحتاج إلى تقاضي ، ولا أرضاك وكيلا .

ثم عدت إلى نفسي فقلت : إياك ومساكنة وسوسته ، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو لكفى في الحكمة .

قالت : فسلّني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة .

فقلت : قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه .

والثاني : أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة ، فربما رأيت الشيء مصلحة والحكمة[2] لا تقتضيه ، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب ، من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة ، فلعل هذا من ذاك .

---

(١) زاد في الحديثة : العجاب . ولم نجدها في الأصول

(٢) في الحديثة : والحق أن الحكمة . ولا أصل للزيادة .

والثالث : أنه قد يكون التأخير مصلحة ،والاستعجال مضرة ، وقدقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يزال العبد فى خير ما لم يستعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لى .

والرابع : أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك فربما يكون فى مأكولك شبهة ، أو قلبُك وقت الدعاء فى غفلة ، أو تزاد عقوبتك فى منع حاجتك لذنب ما صدقت فى التوبة منه.

فابحث عن بعض هذه الأسباب لعلك تقفى[1] بالمقصود كما روى عن أبى يزيد رضى الله عنه : أنه نزل بعض الأعاجم فى داره، فجاء ، فرآه فوقف بباب الدار ، وأمر بعض أصحابه فدخل ، فقلع طيناً جديداً قد طينه ، فقام الأعجمى وخرج .

فسئل أبو يزيد عن ذلك فقال : هذا الطين من وجه فيه شبهة ، فلما زالت الشبهة زال صاحبها .

وعن إبراهيم الخواص رحمة الله عليه أنه خرج لإنكار منكر ، فنبحه كلب له فمنعه أن يمضى ، فعاد ودخل المسجد ، وصلى ثم خرج ، فبصبص الكلب[2] له فمضى ، وأنكر فزال المنكر .

فسئل عن تلك الحال فقال : كان عندى منكر ، فمنعنى الكلب ، فلما عدت تبت من ذلك ، فكان ما رأيتم .

والخامس: أنه ينبغى أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب ، فربما كان فى حصوله زيادة إثم ، أو تأخير عن مرتبة خير ، فكان المنع أصلح .

---

(١) فى الحديثة : توفقين .

(٢) يعنى : هز ذيله .

وقد روى عن بعض السلف أنه كان يسأل الله الغزو ، فهتف به هاتف : إنك إن غَزَوْتَ أُسِرْتَ ، وإن أُسِرْتَ تنصرت .

والسادس : أنه ربما كان فقد ما فقدته[1] سبباً للوقوف على الباب واللجأ ، وحصوله سبباً للاشتغال به عن المسئول .

وهذا الظاهر بدليل أنه لولا هذه النازلة ما رأيناك على باب اللجأ .

فالحقُّ عز وجل علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه ، فلذعهم فى خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه ، يستغيثون به ، فهذا من النعم فى طى البلاء .

وإنما البلاء المحض ، ما يشغلك عنه ، فأما ما يقيمك بين يديه ، ففيه جمالك

وقد حكى عن يحيى البكاء أنه رأى ربه عز وجل فى المنام ، فقال: يارب كم أدعوك ولا تجيبنى ؟ فقال : يايحيى إنى أحب أن أسمع صوتك .

وإذا تدبرت هذه الأشياء ، تشاغلت بما هو أنفع لك ، من حصول ما فاتك من رفع خلل ، أو اعتذار من زلل ، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب .

٣٩ ـ فصل : السخط على البلايا

من نزلت به بلية ، فأراد تمحيقها ، فليتصورها أكثر مما هى تَهُن .

وليتخايل[2] ثوابها وليتوَهّمْ نزول أعظم منها ، ير الربح فى الاقتصار عليها

وليتلمح سرعة زوالها ، فإنه لولا كرب الشدة ، ما رجيت ساعات الراحة

---

(١) فى الحديثة : تفقدينه . ولا أصل لها .

(٢) فى الحديثه : وليتخيل .

وليعلم أن مدة مقامها عنده ، كمدة مقام الضيف فليتفقد[1] حوائجه فى كل لحظة ، فيا سرعة انقضاء مقامه ، ويالذة مدائحه وبشره فى المحافل ، ووصف المضيف بالكرم .

فكذلك المؤمن فى الشدة ، ينبغى أن يراعى الساعات ، ويتفقد فيها أحوال النفس .

ويتلمح الجوارح ، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة ، أو من القلب تسخط . فكأن قد لاح فجر الأجر ، فانجاب ليل البلاء ، ومدح السارى بقطع الدجى فما طلعت شمس الجزاء ، إلا وقد وصل إلى منزل السلامة .

٤٠ — فصل : العلم والعمل

لما رأيت[2] نفسى فى العلم حسناً ، فهى تقدمه على كل شىء وتعتقد الدليل وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل ، وتقول : أقوى دليل لى على فضله على النوافل ، أنى رأيت كثيراً ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم[3] ، عاد ذلك عليهم بالقدح فى الأصول ، فرأيتها فى هذا الاتجاه على الجادة السهلة[4] والرأى الصحيح .

إلا أنى رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم ؛ فصحت بها : فما الذى أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟

أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار فى تعبدهم واجتهادهم ؟

---

(١) فى الحديثة : يتفقد وبه ينعكس المعنى ويصبح الضيف متفقدا .
(٢) فى الحديثة : وجدت رأى نفسى . ولا أصل لها .
(٣) فى الحديثة : قد عاد .
(٤) فى الحديثة : السليمة .

أما كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الكل ، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه ؟

أما كان أبو بكر رضى الله عنه شجى النشيج ، كثير البكاء ؟

أما كان فى خد عمر رضى الله عنه خطان من آثار الدموع ؟

أما كان عثمان رضى الله عنه يختم القرآن فى ركعة[1] ؟

أما كان علىّ رضى الله عنه يبكى بالليل فى محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع؟ ويقول : يادنيا غُرى غيرى ؟

أما كان الحسن البصرى يحيا على قوة القلق ؟

أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاة فى جماعة أربعين سنة ؟

أما صام الأسود بن يزيد[2] حتى اخضر واصفر ؟

أما قالت بنت الربيع بن خيثم[3] له : مالى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فقال : إن أباك يخاف عذاب البيات .

---

(١) هذا بعيد فى نظر العقل — ولكنه فى الواقع عبارة عن استعراض القرآن كله ، كما تطبع المطبعة ست عشرة صفحة فى لمحة — انظر مقدمة الوحيد فى سلوك أهل التوحيد للقوصى . مخطوط . تصوف . دار الكتب. ففيه تعليلات وافية لذلك .

(٢) ابن قيس النخعى . تابعى . نشأ من قبيلة النخع عدد من الاعلام أشهرهم إبراهيم تلميذ الأسود ، ومنهم علقمة وشريك . مات عام ٧٥هـ .

(٣) تابعى أخذ عن الشعبى وإبراهيم مات عام ٦٤ هـ .

أما كان أبو مسلم الخولانى[١] يُعَلِّق سَوْطاً فى المسجديؤدب به نفسه إذا فتر ؟

أما صام يزيد الرقاشى[٢] أربعين سنة ؟ وكان يقول : والهفاه سبقنى العابدون ، وقُطِع بى .

أما صام منصور بن المعتمر[٣] أربعين سنة ؟

أما كان سفيان الثورى يبكى الدم من الخوف ؟

أما كان إبراهيم بن أدهم[٤] يبول الدم من الخوف ؟

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة فى زهدهم وتعبدهم : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد ؟

فاحذرى[٥] من الإخلاد إلى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فإنها حالة الكُسَالَى الزَّمْنَى :

وخُذ لَكَ مِنكَ عَلَى مُهْلَةٍ
ومقبلُ عَيْشِكَ لَمْ يُدْبِرِ
وَخَفْ هَجْمَةً لا تقيلُ العِثَا
رَ وَتَطْوِى الوُرُودَ عَلَى المُصْدِرِ

---

(١) اليمانى الزاهد . هاجر الى النبى صلى الله عليه وسلم فلم يدركه . نزل الشام ومات عام ٦٢هـ .

(٢) هو ابن أبان الرقاشى المحدث ، البصرى الزاهد . ضعفه ابن معين .

(٣) السلمى الكوفى . من تلاميذ إبراهيم النخعى . ثقة . متعبد . مات سنة ١٣٢هـ .

(٤) من أبناء الملوك فى بلخ تزهد وساح وعمل أجيراً . وتوفى عام ١٦١هـ .

(٥) فى الحديثة : احذرى .

وَمثِّلْ لِنفسكَ أىُّ الرَّعيلِ
يَضمُّكَ فِى حلبَة المحْشَر

٤١ — فصل : السبب والمسبب

مما يزيد العلم عندى فضلا ، أن قوما تشاغلوا بالتعبد عن العلم ، فوقفوا عن الوصول إلى حقائق الطلب .

فروى عن بعض القدماء أنه قال لرجل: ياأبا الوليد ، إن كنت أبا الوليد، يتورع أن يكنيه ولا ولد له !!

ولو أوغل هذا فى العلم لعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم : كنى صهيباً أبا يحيى ، وكنى طفلا فقال : ياأبا عمير ، ما فعل النغير[1] ؟

وقال بعض المتزهدين : قيل لى يوما : كل من هذا اللبن . فقلت : هذا يضرنى، ثم وقفت بعد مدة عند الكعبة فقلت : اللهم إنك تعلم أنى ما أشركت بك طرفة عين ، فهتف بى هاتف ، ولا يوم اللبن ؟

وهذا لو صح جاز أن يكون تأديباً له ، لئلا يقف مع الأسباب ناسياً للمسبب[2] وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : مازالت أكلة خيبر تعاودنى حتى الآن قطعت أبهرى[3] . وقال : ما نفعنى مال كمال أبى بكر .

---

(١) هو طائر اسمه النغر . والنغير على التصغير .

(٢) الوقوف مع السبب دون المسبب زندقة . والوقوف مع المسبب دون الأسباب خرق للحكمة الإلهية . والسلوك الحق أن يأخذ العابد فى السبب رابطا بينه وبين المسبب سبحانه وتعالى . أنظر [رسائل الدرقاوى] مخطوط بدار الكتب . تصوف .

(٣) هو الشريان الأبهر .

ومن المتزهدين أقوام يرون التوكل قطع الأسباب كلها ، وهذا جهل بالعلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم : دخل الغار ، وشاور الطبيب ، ولبس الدرع ، وحفر الخندق ، ودخل مكة فى جوار المطعم بن عدى وكان كافراً ، وقال لسعد : لأن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس .

فالوقوف مع الأسباب مع نسيان المسبب غلط[1] .

وكل هذه الظلمات إنما تقطع بمصباح العلم .

ولقد ضل من مشى فى ظلمة الجهل أو فى زقاق الهوى .

٤٢ — فصل : الانسان والملك

ما أزال أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الأنبياء والأولياء ، فإن كان التفضيل بالصور ، فصورة الآدمى أعجب من ذوى أجنحة .

وإن تركت صورة الآدمى لأجل أوساخها المنوطة بها ، فالصورة ليست الآدمى ، إنما هى قالب . ثم قد استحسن منها ما يستقبح فى العبادة[2] مثل خلوف فم الصائم ، ودم الشهداء ، والنوم فى الصلاة ، فبقيت صورة معمورة وصار الحكم للمعنى[3] .

---

(١) زاد فى الحديثة : والعمل على الأسباب مع تعلق القلب بالمسبب هو المشروع . ولا أصل له .

(٢) فى الحديثة : العادة .

(٣) وهنا أيضا زيادة فى الحديثة وهى : لماذا يزعم البعض ان الله فضل الملائكة على البشر . ولا أصل له .

ألهم مرتبة يحبهم[١] ، أو فضيلة يباهى بهم[٢] . وكيف دار الأمر فقد سجدوا لنا . وهو صريح فى تفضيلنا عليهم ، فإن كانت الفضيلة بالعلم فقد علمت القصة ، يوم « لا عِلْمَ لنَا[٣] » ، « يا آدَمُ أنبِئْهُم[٤] » .

وإن فضلت الملائكة بجوهرية ذواتهم فجوهرية أرواحنا من ذلك الجنس ، وعلينا أثقال أعباء الجسم .

بالله لولا احتياج الراكب إلى الناقة فهو يتوقف لطلب علفها ، ويرفق فى السير بها لطرق أرض منى قبل العشر[٥] .

واعجباً أتفضل الملائكة بكثرة التعبد ! فما ثم صعاد (٦) .

أو يتعجب من الماء إذا جرى ، أو من منحدر يسرع ؟ إنما العجب من مصاعد يشق الطريق ويغالب العقبات .

بلى قد يتصور منهم الخلاف ، ودعوى الإلهية[٧] لقدرتهم على دك الصخور ، وشق الأرض لذلك توعدوا : « وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إنى إلهٌ مِنْ دُونِهِ فذَلكَ نجزيهِ جَهنّمَ »[٨] ، لكنهم يعلمون عقوبة الحق فيحذرونه .

---

(١) فى الحديثة : يحبهم بها . وقد تساءل محقق الدمشقية عن المعنى . والمعنى إشارة إلى قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه » . وقد كررها ابن الجوزى فى كتبه .

(٢) زاد فى الحديثة : غيرهم . ولا أصل لها

(٣) جزء من الآية ٣٢ من سورة البقرة .

(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة البقرة .

(٥) أى قبل عشر ذى الحجة .

(٦) أى صعود . وهى غريبة فى اللغة . وحذفت من الحديثة وكتب المحقق بدلها : ما يستغرب وتلك طباعهم . وفى ت : فما ثم صادمن الصدوهو المنع .

(٧) فى الحديثة والخانجى : الألوهية .

(٨) جزء من الآية ٢٩ من سورة الأنبياء .

فأما بعدنا (١) عن المعرفة الحقيقية وضعف يقيننا بالناهى ، وغلبة شهوتنا مع الغفلة[٢] . يحتاج إلى جهاد أعظم من جهادهم .

تالله لو ابتلى أحد المقربين بما ابتلينا به ، لم يقدر[٣] على التماسك .

يصبح أحدنا وخطاب الشرع يقول له : الكسب لعائلتك ، واحذر فى كسبك . وقد تمكن منه ماليس من فعله ، كحب الأهل ، وعلوق الولد بنياط القلب ، واحتياج بدنه إلى مالابد منه .

فتارة يقال للخليل عليه السلام : اذبح ولدك بيدك ، واقطع ثمرة فؤادك بكفك ، ثم قم إلى المنجنيق لترمى فى النار .

وتارة يقال لموسى عليه السلام : صم شهراً ، ليلا ونهاراً .

ثم يقال للغضبان : اكظم ، وللبصير اغضض ، ولذى المقول اصمت ، ولمستلذ النوم تهجد ، ولمن مات حبيبه اصبر ، ولمن أصيب فى بدنه اشكر ، وللواقف فى الجهاد بين اثنين[٤] : لا يحل أن تفر .

ثم اعلم أن الموت يأتى بأصعب المرارات ، فينزع الروح عن البدن[٥] : فإذا نزل فاثبت .

واعلم أنك ممزق فى القبر فلا تتسخط لأنه مما يجرى به القدر .

---

(١) زاد فى الحديثة : نحن .

(٢) زاد فى الحديثة : فتلك كلها تحتاج . ولا أصل لها.

(٣) فى الحديثه والخانجى : ما قدر .

(٤) فى الحديثه : فى الغمرات .

(٥) زاد فى الحديثة : ومع ذلك يقال له . ولا أصل للزيادة .

وإن وقع بك مرض فلا تشكُ إلى الخلق .

فهل للملائكة من هذه الأشياء شيء ؟ وهل ثم إلا عبادة ساذجة ليس فيها مقاومة طبع ، ولا رد هوى ؟

وهل هى إلا عبادة صورية بين ركوع وسجود وتسبيح ؟ فأين عبادتهم المعنوية من عبادتنا ؟ ثم أكثرهم فى خدمتنا بين كتبة علينا ، ودافعين عنا ، ومسخرين لإرسال الريح والمطر ، وأكبر وظائفهم الاستغفار لنا .

فكيف يفضلون علينا بلا علة ظاهرة ؟[1]

وإذا ما حكت على محك التجارب طائفة منهم مثل ماروى عن هاروت[2] وماروت ، فخرجوا أقبح من بهرج .

ولا تظنن أنى أعتقد فى تعبد الملائكة نوع تقصير ، لأنهم شديد والإشفاق والخوف ، لعلمهم بعظمة الخالق . لكن طمأنينة من لم يخطىء تقوى نفسه . وانزعاج الغائص فى الزلل يرقى روحه إلى التراقى .

فاعرفوا إخوانى شرف أقداركم ، وصونوا جواهركم عن تدنيسها بلوم[3] الذنوب ، فأنتم معرض الفضل على الملائكة ، فاحذروا أن تحطكم الذنوب إلى حضيض البهائم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٤٣ ـ فصل : أصول الأشياء

رأيت كثيراً من الخلق ، وعالما من العلماء ، لا ينتهون عن البحث عن

---

(١) أنظر الفصل ٢٤ من اللطائف ففيها هذا الفصل بأكمله .
(٢) الحق أنهما ليسا من الملائكة . بدليل قراءة الملكين بكسر اللام .
(٣) فى الحديثة : بلؤم .

أصول الأشياء التى أمروا بعلم جلها من غير بحث عن حقائقها [١] كالروح مثلا فالله [٢] تعالى سترها بقوله : «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى» [٣] ، فلم يقنعوا ، وأخذوا يبحثون عن ماهيتها ولا يقعون بشىء ، ولا يثبت لأحد منهم برهان على ما يدعيه ، وكذلك العقل ، فإنه موجود بلا شك ؛ كما أن الروح موجودة بلا شك ، كلاهما يعرف بآثاره لا بحقيقة ذاته .

فإن قال قائل : فما السر فى كتم هذه الأشياء ؟ قلت : لأن النفس ما تزال تترقى من حالة إلى حالة فلو اطلعت على هذه الأشياء لترقت إلى خالقها . فكان ستر ما دونه زيادة فى تعظيمه ؛ لأنه إذا كان بعض مخلوقاته يعلم جملة [٤] ، فهو أجل وأعلى .

ولو قال قائل : ما الصواعق ؟ وما البرق ؟ وما الزلازل ؟

قلنا : شىء مزعج ، ويكفى .

والسر فى ستر هذا أنه لو كشفت حقائقه ، خف مقدار تعظيمه .

ومن تلمح هذا الفصل علم أنه فصل عزيز ، فإذا ثبت هذا فى المخلوقات فالخالق أجل وأعلى .

فينبغى أن يوقف فى إثباته على دليل وجوده ، ثم يستدل على جواز بعثه رسله ، ثم تتلقى أوصافه من كتبه ورسله ، ولا يزاد على ذلك .

---

(١) فى الحديثة : يجهل علمها وترك البحث عن حقائقها . ولا أصل لها وينعكس بها المعنى .

(٢) فى الحديثة : فإن الله .

(٣) جزء من الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

(٤) فى الحديثة : لا يعلم كنهه . ولا أصل لها .

ولقد بحث خلق كثير عن صفاته بآرائهم ، فعاد وبالُ ذلك عليهم .

وإذا قلنا : إنه موجود ، وعلمنا من كلامه أنه سميع ، بصير ، حَىٌّ ، قادر كفانا هذا فى صفاته ، ولا نخوض فى شىء آخر .

وكذلك نقول : متكلم والقرآن كلامه ، ولا نتكلف ما فوق ذلك .

ولم يقل السلف : تلاوة ومتلو ، وقراءة ومقروء ، ولا قالوا : استوى على العرش بذاته ، ولا قالوا : ينزل بذاته ، بل أطلقوا ما ورد من غير زيادة[1] .

وهذه كلمات كالمثال ، فقس عليها جميع الصفات ، تفز سليما من تعطيل ، متخلصاً من تشبيه .

٤٤ ـ فصل : للجاهل فائدة

رأيت أكثر الخلق فى وجودهم كالمعدومين ، فمنهم من لا يعرف الخالق ، ومنهم من يثبته على مقتضى حسه ، ومنهم من لا يفهم المقصود من التكليف .

فترى المتوسمين[2] بالزهد يدأبون فى القيام والقعود ، ويتركون الشهوات وينسون ما قد أنسوا به من شهوة الشهرة ، وتقبيل الأيادى .

ولو كُلِّمَ أحدهم لقال : ألمثلى يقال هذا ؟ ومن فلان الفاسق ؟

فهؤلاء لا يفهمون المقصود ، وكذلك كثير من العلماء فى احتقارهم غيرهم ، والتكبر فى نفوسهم .

فتعجبت كيف يصلح هؤلاء لمجاورة الحق ، وسكنى الجنة ؟!

---

(١) خالف المؤلف فى هذا كثيرا من الحنابلة الذين يقولون بالتحديد .
(٢) فى الحديثة والخانجى : ترى المترسمين .

فرأيت أن الفائدة فى وجودهم فى الدنيا ، تجانس الفائدة فى دخولهم الجنة فإنهم فى الدنيا بين معتبر به ، يُعَرِّفُ عارفَ الله سبحانه نعمة الله عليه ، بما كشف له مما غطى عن ذاك ، (ويتم النظام بالاقتداء تصور أولئك) .(١)

فإن العارف لا يتسع وقته لمخالطة من يقف مع الصورة ، فالزاهد كراعى البهم ، والعالم كمؤدب الصبيان ، والعارف كملقن الحكمة .

ولولا نفاط (٢) الملك وحارسه ، ووقاد أتونه ، ما تم عيشه .

فمن تمام عيش العارف استعمال أولئك بحسبهم ، فإذا وصلوا إليه حرر مانعهم ، وفيهم من لا يصل إليه ، فيكون وجود أولئك كزيادة — لا — فى الكلام . هى حشو ، وهى مؤكدة .

فإن قال قائل : فهب هذا يصح فى الدنيا . فكيف فى الجنة ؟

والجواب : أن الأنس بالجيران مطلوب ، ورؤية القاصر من تمام لذة الكامل ، ولكلٍّ شرب .

ومن تأمل ما أشرت إليه ، كفاه رمز لفظى عن تطويل الشرح .

٥٤ - فصل : تحقيق القصد

لما تلمحتُ تدبير الصانع فى سَوْق رزقى . بتسخير السحاب ، وإنزال المطر برفق ، والبذر دفين تحت الأرض ، كالموتى ، قد عفن ينتظر نفخة من صور الحياة ، فإذا أصابته اهتز خضراً .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة . وزاد مكانه : (أو تابع يتم به العمران ، وتقوم به المعايش وإنما تصلح الحياة بهذا التفاوت البعيد . ثم بين الخاصة فروق) ولا أصل لهذه الزيادة فى المخطوطات .

(٢) أى الموكل بالنفط .

وإذا انقطع عنه الماء مدّ يد الطلب يستعطى ، وأمال رأسه خاضعاً ، ولبس حال التغير ، فهو محتاج إلى ما أنا محتاج إليه من حرارة الشمس ، وبرودة الماء ولطف النسيم ، وتربية الأرض . فسبحان من أدانى — فيما يربينى به — كيف تربيتى فى الأصل .

فيا أيتها النفس التى قد اطلعت على بعض حكمه ، قبيح بك — والله — الإقبال على غيره .

ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك ، ينادينى[1] لسان حاله بى مثل مابك ، ياحمام !

فارجعى إلى الأصل الأول ، واطلبى من المسبب .

وياطوبى لك إن عرفتيه ، فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة .

٤٦ ـ فصل : الانقطاع إلى الله

كنت فى بداية الصبوة ، قد ألهمت سلوك طريق الزهاد ، بإدامة الصوم والصلاة .

وحببت إلىّ الخلوة . فكنت أجد قلباً طيباً . وكانت عين بصيرتى قوية الحدة ، تتأسف على لحظة تمضى فى غير طاعة ، وتبادر الوقت فى اغتنام الطاعات

ولى نوع أنس ، وحلاوة مناجاة !!

فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامى ، فأمالنى إليه ، فمال الطبع ، ففقدت تلك الحلاوة .

ثم استمالنى آخر ، فكنت أتقى مخالطته ومطاعمه ، لخوف الشبهات ، وكانت حالتى قريبة .

---

(١) فى الحديثة : ينادى .

ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح ، فعدم[1] ما كنت أجد من استنارة وسكينة .

وصارت المخالطة توجب ظلمة فى القلب إلى أن عدم النور كله .

فكان حنينى إلى ما ضاع منى يوجب انزعاج أهل المجلس ، فيتوبون ويصلحون ، وأخرج مفلساً فيما بينى وبين حالى .

وكثر ضجيجى من مرضى ، وعجزت عن طب نفسى ، فلجأت إلى قبور الصالحين[2] ، وتوسلت فى صلاحى ، فاجتذبنى لطف مولاى بى إلى الخلوة على كراهة منى، ورَدَّ قلبي عليَّ بعدَ نفور منى[3]، وأرانى عيب ما كنت أوثره

فأفقت من مرض غفلتى ! وقلت فى مناجاة خلوتى : سيدى كيف أقدر على شكرك ؟ وبأى لسان أنطق بمدحك ؟ إذ لم تؤاخذنى على غفلتى ، ونبهتنى من رقدتى، وأصلحت حالى على كره من طبعى

فما أربحنى فيما سلب منى إذ كانت ثمرته اللجأ إليك !

وما أوفر جمعى إذ ثمرته إقبالى على الخلوة بك .

وما أغنانى إذ أفقرتنى إليك ، وما آنسنى إذ أوحشتنى من خلقك .

آه على زمان ضاع فى غير خدمتك ! أسفاً لوقت مضى فى غير طاعتك .

قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلمنى نومى طول الليل .

وإذا انسلخ عنى النهار لا يوجعنى ضياع ذلك اليوم .

وما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض .

---

(١) فى الحديثة : فانعدم .

(٢) لزيارتها المشروعة والتوسل فى صلاح حالى .

(٣) فى الحديثة : بعد نفور عنى .

فالآن قد هبت نسائم العافية ، فأحسست بالألم فاستدللت على الصحة .
فياعظيم الإنعام تمّم لى العافية .

آه من سِكّير[1] لم يعلم قدر عربدته إلا فى وقت الإفاقة ؟

لقد فتقت ما يصعب رتقه ، فوا أسفا على بضاعة ضاعت ، وعلى ملاح تعب فى موج الشمال مصاعداً مدة ، ثم غلبه النوم فرد إلى مكانه الأول .

يامن يقرأ تحذيرى من التخطيط فإنى — وإن كنت خُنت نفسى بالفعل، نصيحٌ لإخوانى بالقول — احذروا — إخوانى من الترخّص فيما لا يؤمن فساده .

فإن الشيطان يزين المباح ، فى أول مرتبة ، ثم يجر إلىّ الجناح ، فتلمحوا المآل ، وافهموا الحال .

وربما أراكم الغاية الصالحة ، وكان فى الطريق إليها نوع مخالفة ، فيكفى الاعتبار فى تلك الحال ، بأبيكم « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى »[2] ؟

إنما تأمل آدم الغاية وهى الخلد ، ولكنه غلط فى الطريق ،وهذا أعجب مصايد إبليس التى يصيد بها العلماء .

يتأوّلون لعواقب المصالح ، فيستعجلون ضرر المفاسد .

مثاله أن يقول للعالم : ادخل على هذا الظالم فاشفع فى مظلوم ، فيستعجل الداخل رؤية المنكرات ، ويتزلزل دينه .

---

(١) فى الأصول : من سكر .

(٢) جزء من الآية ١٢٠ من سورة طه .

وربما وقع فى شركٍ صار به أظلم من ذلك الظالم .

فمن لم يثق بدينه فليحذر من المصائد ، فإنها خفية .

وأسلم ما للجبان العزلة ، خصوصا فى زمان قد مات فيه المعروف ، وعاش المنكر ، ولم يبق لأهل العلم وقع عند الولاة .

فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز ، ولم يقدر على جذبهم عما هم فيه .

ثم من تأمل حال العلماء الذين يعملون لهم فى الولايات يراهم منسلخين من نفع العلم قد صاروا كالشرطة(١) .

فليس إلا العزلة عن الخلق ، والإعراض عن كل تأويل فاسد فى المخالطة .

ولأن أنفع نفسى وحدى ، خير لى من أن أنفع غيرى واتضرر .

فالحذر الحذر من خوادع التأويلات ، وفواسد الفتاوى ، والصبر الصبر على ما توجبه العزلة(٢) .

فإنه إن انفردتَ بمولاك فتح لك باب معرفته . فهان كل صعب . وطاب كل مرّ ، وتيسر كل عسر ، وحَصَّلت كل مطلوب .

والله الموفق بفضله ، ولا حول ولا قوة إلا به .

٤٧ ـ فصل : الورع

تأملت على نفسى تأويلا فى مباح أنال به شيئاً من الدنيا ، إلا أنه فى باب الورع كدر .

فرأيته أولا قد احتلب درّ الدين فذهبت حلاوة المعاملة لله تعالى .

---

(١) فى الدمشقية : كالشرط .

(٢) أنظر الفصول : ٢٤، ٨٤، ٨٢، ٩١ لتعلم مذهب المؤلف فى العزلة .

ثم عاد فقلص ضرع حلبي له: فوقع الفقد للحالين .

فقلت لنفسي: مامثلك إلا كمثل وال ظالم ، جمع مالا من غير حله، فصودر فأخذ منه الذى جمع ، وألزم[1] ما لم يجمع .

فالحذر الحذر من فساد التأويل ، فإن الله تعالى لايخادَع ، ولا يُنال ماعنده بمعصيته .

٤٨ ـ فصل : إصلاح البدن سبب لاصلاح الدين

رأيت نفسي كلما صفا فكرها ، أو اتعظت بدارج ، أو زارت قبور الصالحين ، تتحرك همتها فى طلب العزلة ، والإقبال على معاملة الله تعالى .

فقلت لها يوماً ، وقد كلمتنى فى ذلك : حدثيني ما مقصودك ؟ وما نهاية مطلوبك ؟

أتراك تريدين منى أن أسكن قفراً لا أنيس به ، فتفوتنى صلاة الجماعة ، ويضيع منى ماقد علمته لفقد من أعلّمه ؟

وأن آكل الجشب[2] الذى لم أتعوّده ، فيقع نضوى طلحا[3] فى يومين؟ وأن ألبس الخشن الذى لا أطيقه . فلا أدرى من كرب محمولى من أنا ؟ وأن أتشاغل عن طلب ذرية تتعبّد بعدى مع بقاء القدرة على الطلب . بالله ما نفعنى العلم الذى بذلت فيه عمرى إن وافقتك ، وأنا أعرفك غلط ما وقع لك بالعلم .

---

(١) فى الحديثة : واجتر . ولا أصل لها .

(٢) أى الخلط من الطعام .

(٣) فى الحديثة : طليحا . والحق طلح البعير فهو طلح أى : أعيا وتعب . والنضو : الهزيل .

اعلمى أن البدن مطية ، والمطية إذا لم يرفق بها لم تصل براكبها إلى المنزل وليس مرادى بالرفق الإكثار من الشهوات، وإنما أعنى أخذ البُلْغَة الصالحة للبدن ، فحينئذ يصفو الفكر ، ويصح العقل ، ويقوى الذهن .

ألا ترى(١) إلى تأثير المعوّقات عن صفاء الذهن فى قوله عليه الصلاة والسلام : لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان ، وقاس العلماء على ذلك الجوع وما يجرى مجراه من كونه حاقنا ، أو حاقبا(٢) .

وهل الطبع إلا كـكلب يشغله الآكل ؟ ، فإذا رمى له ما يتشاغل به طاب له الأكل .

فأما الانفراد والعزلة فعن الشر لا عن الخير .

ولو كان فيها لك وقع خير لَنُقِلَ ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم .

هيهات لقد عرفت أن أقواماً دام بهم التقلل واليبس إلى أن تغير فكرهم ، وقوى الخلط السوداوى عليهم ، فاستوحشوا من الناس ، ومنهم من اجتمعت له من المآكل الردية أخلاط مجة ، فبقى اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل وهو يظن ذلك من أمداد اللطف ، وإذا به من سوء الهضم .

وفيهم من تَرَقّى به الخلط إلى رؤية الأشباح فيظنها الملائكة .

فالله الله فى العلم ، والله الله فى العقل ، فإن نور العقل لا ينبغى أن يتعرض لإطفائه ، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه .

فإذا حُفظا حَفظا وظائف الزمان ، ودفعا ما يؤذى ، وجلبا ما يصلح ، وصارت القوانين مستقيمة فى المطعم والمشرب والمخالطة .

---

(١) فى الحديثة والخانجى : ترين .
(٢) الحاقن : بالبول ـ والحاقب : بالغائط .

فقالت لى النفس: فوظف لى وظيفة واحسبنى مريضاً قد كتبت له شربة.

فقلت لها : قد دللتك على العلم وهو طبيب ملازم ، يصف كل لحظة لكل داء يعرض دواء يلائم .

وفى الجملة ينبغى لك ملازمة تقوى الله عز وجل فى المنطق والنظر، وجميع الجوارح ، وتحقق الحلال فى المطعم ، وإيداع كل لحظة ما يصلح لها من من الخير ، ومناهبة الزمان فى الأفضل ، ومجانبة (ما يؤدى إلى)(١) ما يؤدى من نقص ربح أو وقوع خسران .

ولا تعملى عملا إلا بعد تقديم النية .

وتأهبى لمزعج الموت فكأن قد وما عندك من مجيئه فى أى وقت يكون.

ولا تتعرضى لمصالح البدن ، بل وفريها عليه وناوليه إياها على قانون الصواب ، لا على مقتضى الهوى ، فإن إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين .

ودعى الرعونة التى يدل عليها الجهل لا العلم ، من قول النفس فلان يأكل الخل والبقل ، وفلان لا ينام الليل ، فاحملى ما تطيقين(٢) ، وما قد علمت قوة البدن عليه .

(فإن البهيمة إذا أقبلت إلى نهر أو ساقية فضربت لتقفز لم تفعل حتى تزن نفسها . فإن علمت فيها قوة الطفر طفرت وإن علمت أنها لاتطيق لم تفعل)(٣) ولو قتلت .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

(٢) انظر الفصل ٤٠ من هذا الكتاب

(٣) فى الحديثة : فإن علمت فيه قوة الطفر طفرت وإن علمت أنك لا تطيقين لم تفعلى . والحق هو ما أثبتناه بين الحاصرتين .

وليس كل الأبدان تتساوى فى الإطاقة ، ولقد حمل أقوام من المجاهدات فى بداياتهم أشياء أوجبت أمراضا قطعتهم عن خير، وتسخطت قلوبهم بوقوعها فعليك بالعلم فإنه شفاء من كل داء ، والله الموفق .

٤٩ - فصل : أدعياء العلم

عجبت من أقوام يدعون العلم ، ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها ، فلو أنهم أمروها كما جاءت سلموا ، لأن من أمرّ ما جاء ومرّ من غير اعتراض (ولا تعرض(١)) فما قال شيئا لا له ولا عليه .

ولكنّ أقواما قصرت علومهم ، فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل ، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا .

وماهم إلا بمثابة قول الحجاج لكاتبه وقد مدحته الخنساء فقالت :

إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً
تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِى بِهَا
غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ شَفَاهَا

فلما أتمت القصيدة ، قال لكاتبه : اقطع لسانها ، فجاء ذاك الكاتب المغفل بالموسى .

فقالت له : ويلك إنما قال : أجزل لها العطاء .

ثم ذهبت إلى الحجاج فقالت : كاد والله يقطع مِقْوَلِى .

فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم، فإنه من قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد ، لمْ أَلُمْهُ ، وهذه طريقة السلف .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

فأما من قال : الحديث يقتضى كذا ، ويحمل على كذا ، مثل أن يقول : استولى على العرش بذاته ، وينزل إلى السماء الدنيا بذاته، فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لا منَ النقل .

ولقد عجبت لرجل أندلسى يقال له ابن عبد البر ، صنف كتاب التمهيد ، فذكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا فقال : هذا يدل على أن الله تعالى على العرش لأنه لولا ذلك لما كان لقوله ينزل معنى .

وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل . لأن هذا استسلف من حسه ما يعرفه من نزول الأجسام . فقاس صفة الحق عليه .

فأين هؤلاء واتباع الأثر ؟

ولقد تكلموا بأقبح ما يتكلم به المتأولون ، ثم عابوا المتكلمين .

واعلم أيها الطالب للرشاد ، أنه سبق إلينا من العقل والنقل أصلان راسخان عليهما مر الأحاديث كلها[1] .

أما النقل فقوله سبحانه وتعالى : « ليسَ كمثله شئ » . ومن فهم هذا لم يحمل وصفاً له على ما يوجبه الحس .

وأما العقل ، فإنه قد علم مباينة الصانع المصنوعات ، واستدل على حدوثها بتغيرها ، ودخول الانفعال عليها ، فثبت له قدم الصانع .

واعجباً كل العجب من رادٍّ لم يفهم طبيعة الكلام .

أليس فى الحديث الصحيح ، أن الموت يذبح بين الجنة والنار ؟

أو ليس العقل إذا استغنى فى هذا صرف الأمر عن حقيقته .

---

(١) العقيدة لا تثبت : إلا بالدليل القطعى من الكتاب والسنة المتواترة بحيث لا يحتمل التأويل .

لما ثبت عند مَنْ يفهم ماهية الموت[1] .

فقال : الموت عرض يوجب بطلان الحياة . فكيف يمات الموت ؟

فإذا قيل له : فما تصنع بالحديث ؟

قال : هذا ضرب مثلا[2] بإقامة صورة ليُعلم بتلك الصورة الحسية فوات ذلك المعنى .

قلنا له : فقد روى فى الصحيح : تأتى البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان ،

فقال : الكلام لا يكون غمامة ، ولا يتشبه (بها)[3] .

قلنا له : أفتعطل النقل ؟ قال : لا ، ولكن[4] يأتى ثوابهما .

قلنا : فما الدليل الصارف لك عن هذه الحقائق ؟

فقال : علمى بأن الكلام لا يتشبه بالأجسام ، والموت لا يذبح ذبح الأنعام . ولقد علمتم سعة لغة العرب[5] .

ما ضاقت أعطانكم من سماع مثل هذا[6] .

فقال العلماء[7] : صدقت . هكذا نقول فى تفسير مجىء البقرة ، وفى ذبح الموت .

---

(١) فى الحديثة : هب أن رجلا تأول فقال : الموت ولا أصل له

(٢) فى الحديثة : ضرب مثل .

(٣) ساقطة من الحديثة

(٤) فى الحديثة : لكن أقول . ولا أصل لها .

(٥) فى الحديثة : إن أحداً لوصرف الكلام على هذا النحو . ولا أصل لهذه الزيادة .

(٦) فى الحديثة : هذا منه . وهى زيادة .

(٧) فى الحديثة : وإذن لقال له العلماء . ولا أصل له .

فقال[١] : واعجباً لكم ، صرفتم عن الموت والكلام مالا يليق بهما ، حفظاً لما علمتم من حقائقهما فكيف لم تصرفوا عن الإله القديم ما يوجب التشبيه له بخلقه[٢] ، بما قد دل الدليل على تنزيهه عنه ؟

فما زال يجادل الخصوم بهذه الأدلة . ويقول : لاأقطع حتى أقطع، فماقطع حتى قطع .

٥٠ - فصل : لم لم يواجه الله عباده بالرجم ؟

تفكرت فى السر الذى أوجب حذف آية الرجم من القرآن لفظاً ، مع ثبوت حكمها إجماعا ، فوجدت لذلك معنيين :

أحدهما : لطف الله تعالى بعباده فى أنه لا يواجههم بأعظم المشاق ، بل ذكر الجلد ، وستر الرجم ، ومن هذا المعنى قال بعض العلماء : إن الله تعالى قال فى المكروهات « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ »[٣]، على لفظ لم يُسَمَّ فاعله، وإن كان قد علم أنه هو الكاتب .

فلما جاء إلى ما يوجب الراحة قال « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (٤) » .

والوجه الثانى : أنه يبين بذلك فضل الأمة فى بذلها النفوس قنوعا ببعض الأدلة .

---

(١) فى الحديثة : أليس من حقه أن يقول . ولا أصل له .

(٢) كقوله تعالى : (وجاء ربك) وقوله (إنا نسيناكم) و (الله يستهزىء بهم) فلغة العرب تعرف تأويل هذا وتصرفه عن ظاهره . ومثله آية الاستواء . أما إثبات اليدين لله فهو كإثبات اليدين للرحمة فى قوله تعالى (بين يدى رحمته) .

(٣) جزء من الآية ١٨٣ من سورة البقرة .

(٤) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

فإن الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم كان دليلا . إلا أنه ليس كالدليل المتفق لأجله[1] .

ومن هذا الجنس شروع الخليل عليه الصلاة والسلام ، فى ذبح ولده بمنام، وإن كان الوحى فى اليقظة آكد .

٥١ - فصل : السبب والمسبب

عرضتْ لى حالة لجأت فيها بقلبى إلى الله تعالى وحده ، عالما بأنه لا يقدر على جلب نفعى ودفع ضرى سواه .

ثم قمت أتعرض بالأسباب ، فأنكر علىّ يقينى ، وقال : هذا قدح فى التوكل .

فقلت : ليس كذلك ، فإن الله تعالى وضعها من الحكم .

وكان معنى حالى أن ما وضعتَ لا يفيد وإن وجوده كالعدم[2]

ومازالت الأسباب فى الشرع كقوله تعالى : « وإذا كُنْتَ فِيهم فأقمت لهمْ الصَّلاةَ فلْتَقُمْ طائِفةٌ مِنْهمْ مَعَكَ وَليَأخُذُوا أسْلحتهم[3]» .

وقال تعالى « فذَرُوهُ فِى سُنْبُله[4] » .

وقد ظاهر النبى صلى الله عليه وسلم بين درعين ، وشاور طبيبين ، ولما

---

(١) فى الحديثة : المقطوع بنصه .

(٢) يريد : أن الحكم والأسباب من خلق الله تعالى فإن كان الأخذ بها لا يفيد كان وجودها كعدمها .

(٣) جزء من الآية ١٠٢ من سورة النساء .

(٤) جزء من الآية ٤٧ من سورة يوسف .

خرج إلى الطائف لم يقدر على دخول مكة ، حتى بعث إلى المطعم بن عدى فقال : أدخل فى جوارك .

وقد كان يمكنه أن يدخل متوكلا بلا سبب .

فإذا جعل الشرع الأمور منوطة بالأسباب ،كان إعراضى عن الأسباب دفعاً للحكمة .

ولهذا أرى أن التداوى مندوب إليه ، وقد ذهب صاحب مذهبى[1] إلى أن ترك التداوى أفضل ، ومنعنى الدليل من اتباعه فى هذا فإن الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : ما أنزل الله داء إلا وأنزل له دواء فتداووا .

ومرتبة هذه اللفظة الأمر ، والأمر إما أن كان يكون واجباً . أو ندباً .

ولم يسبقه حظر ، فيقال : هو أمر إباحة .

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : تعلمت الطب من كثرة أمراض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُنْعَتُ له .

وقال عليه الصلاة والسلام لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : « كل من هذا فإنه أوفق لك من هذا » .

ومن ذهب إلى أن تركه أفضل احتج بقوله عليه الصلاة والسلام : « يدخل الجنة سبعون ألفاً بلا حساب » ثم وصفهم فقال : « لا يكتوون ، ولا يَسْتَرْقُون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

وهذا لا ينافى التداوى ، لأنه قد كان أقوام يكتوون لئلا يمرضوا ويسترقون لئلا تصيبهم نكبة ، وقد كوى عليه الصلاة والسلام سعد بن زرارة ورخص فى الرقية فى الحديث الصحيح . فعلمنا أن المراد ما أشرنا إليه .

---

(١) هو الإمام أحمد بن حنبل .

وإذا عرفت الحاجة إلى إسهال الطبع ، رأيت أن أكل البلوط مما يمنع عنه على ، وشرب ماء التمر هندى أوفق ، وهذا طب .

فإذا لم أشرب ما يوافقنى ، ثم قلت: اللهم عافنى ، قالت لى الحكمة : أما سمعت :اعقلها وتوكل ؟ اشرب وقل عافنى ، ولا تكن كمن بين زرعه وبين النهر كف من تراب ، تكاسل أن يرفعه بيده ، ثم قام يصلى صلاة الاستسقاء .

وماهذه الحالة إلا كحال من سافر على التجريد[1] ، وإنما سافر على التجريد[1] لأنه يجرب ربه عز وجل هل يرزقه أولا ، وقد تقدم الأمر إليه : وَتَزَوَّدُوا[2] ، فقال : لا أتزود ، فهذا هالك قبل أن يهلكه .

ولو جاء وقت صلاة وليس معه ماء ، ليم على تفريطه ، وقيل له : هلا استصحبت الماء قبل المفازة .

فالحذر الحذر من أفعال أقوام دققوا فرقوا عن الأوضاع الدينية ، وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع ، والمخالفة للأوضاع .

ولولا قوة العلم والرسوخ[3] فيه ، لما قدرت على شرح هذا ولا عرفته ، فافهم ما أشرت إليه ، فهو أنفع لك من كراريس تسمعها ، وكن مع أهل المعانى لا مع أهل الحشو .

٥٢ ـ فصل : الاسلام نظافة

تلمحت على خلق كثير من الناس إهمال إبدانهم ، فمنهم من لا ينظف فمه بالخلال بعد الأكل .

---

(١) فى الحديثة : التجربة فى الموضعين وهو خطأ . والتجريد هو السفر بلا زاد

(٢) جزء من الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٣) فى الحديثة : والرسو فيه . ولم نجده فى الأصول .

ومنهم من لا ينقى يديه فى غسلها من الزهم[١] ، ومنهم من لا يكاد يستاك ، وفيهم من لا يكتحل ، وفيهم من لا يراعى الإبط ، إلى غير ذلك ، فيعود هذا الإهمال بالخلل فى الدين والدنيا .

أما الدين فإنه قد أمر المؤمن بالتنظف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس ، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثوم ، وأمر الشرع بتنقية البراجم[٢] وقص الأظفار ، والسواك ، والاستحداد[٣] وغير ذلك من الآداب .

فاذا أهمل ذلك ترك مسنون الشرع ، وربما تعدى بعض ذلك إلى فساد العبادة ، مثل أن يهمل أظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع للماء فى الوضوء أن يصل .

وأما الدنيا فإنى رأيت جماعة من المهملين أنفسهم ، يتقدمون إلى السرار(٤)

والغفلة التى أوجبت إهمالهم أنفسهم ، أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم .

فإذا أخذوا فى مناجاة السر ، لم يمكن أن أصدف عنهم ، لأنهم يقصدون السر ، فألقى الشدائد من ريح أفواههم .

ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمرّ أصبعه على أسنانه .

ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة ، وقد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل ، فيثمر ذلك التفاتها عنه .

---

(١) الزهم : هو الدهن وأثره .
(٢) البراجم : ما بين الأظفار ولحم أطراف الاصابع .
(٣) الاستحداد : التطيب والتعطر .
(٤) أى يدنون منك لحديث سر .

وقد كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : إنى لأحب أن أتزين للمرأة ، كما أحب أن تتزين لى .

وفى الناس من يقول : هذا تصنع .

وليس بشيء ، فإن الله تعالى زيَّننَا لما خلقَنا ، لأن للعينِ حظا فى النظر ، ومن تأمل أهداب العين والحاجبين ، وحسن ترتيب الخلقة ، علم أن الله زَين الآدمى .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أنظف الناس وأطيب الناس، وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى تبين عفرة إبطيه ، وكان ساقه ربما انكشفت فكأنها جمارة[1] .

وكان لا يفارقه السواك ، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة .

وفى حديث أنس الصحيح . ما شانه الله ببيضاء(٢) ،

وقد قالت الحكماء: من نظف ثوبه قلَّ همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله

وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « مالكم تدخلون علىَّ قلحاً[3]، استاكوا » .

وقد فضلت الصلاة بالسواك ، على الصلاة بغير سواك ، فالمتنظف ينعم نفسه ، ويرفع منها عندها(٤) .

---

(١) هو بطن جذعها ويؤكل غضا .

(٢) أى : إنه لم يشب شيبا قبيحا .

(٣) أى : صفر الأسنان .

(٤) فى الحديثة : قدرها .

وقد قال الحكماء : من طال ظفره قصرت يده ، ثم إنه يقرب من قلوب الخلق ، وتحبه النفوس ، لنظافته وطيبه .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الطيب .

ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال . فإن النساء شقائق الرجال ، فكما أنه يكره الشيء منها ، فكذلك هي تكرهه ، وربما صبر هو على ما يكره وهي لا تصبر .

وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد . وهم من أقذر الناس ، وذلك أنهم ما قوّمهم العلم .

وأما ما يحكى عن داود الطائي : أنه قيل له: لو سرّحت لحيتك ، فقال: إني عنها مشغول ، فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة ، والإخبار عن غيبته عن نفسه لشدة خوفه من الآخرة ، ولو كان مفيقاً لذلك لم يتركه ، فلا يحتج بحال المغلوبين .

ومن تأمل خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم ، رأى كاملا في العلم والعمل ، فبه يكون الاقتداء وهو الحجة على الخلق .

٥٤ - فصل : خطر الرفاهية

تأملت مبالغة أرباب الدنيا في اتقاء الحر والبرد . فرأيتها تعكس المقصود في باب الحكمة . وإنما تحصل مجرد لذة ولا خير في لذة تعقب ألما .

فأما في الحر فإنهم يشربون الماء المثلوج. وذلك على غاية في الضرر، وأهل الطب يقولون : إنه يحدث أمراضا صعبة يظهر أثرها في وقت الشيخوخة ويضعون الخيوش المضاعفة(١) . وفي البرد يصنعون اللبود المانعة للبرد .

---

(١) في الحديثة : ثم هم يلبسون الرقيق الشفاف . ولا أصل لهما . ومراد المؤلف : أنهم يضعون الخيش على النوافذ ويرشونه بالماء اتقاء للحر .

وهذا من حيث الحكمة يضاد[1] ما وضعه الله تعالى . فإنه جعل الحر لتحلل الأخلاط ، والبرد لجمودها ، فيجعلون هم جميع السنة ربيعاً . فتنعكس الحكمة التى وضع الحر والبرد لها ، ويرجع الأذى على الأبدان .

ولا يظنن سامعُ هذا أنى آمره بملاقاة الحر والبرد .

وإنما أقول له : لايفرط فى التوقى ، بل يتعرض فى الحر لما يحلل بعض الأخلاط ، إلى حد لايؤثر فى القوة ، وفى البرد بأن يصيبك منه الأمر القريب لا المؤذى ، فإن الحر والبرد لمصالح البدن .

وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر والبرد أصلا فتغيرت حالته فمات عاجلاً ، وقد ذكرت قصته فى كتاب لقط المنافع فى علم الطب .

٥٤ ـ فصل : الصبر والرضى

ليس فى التكليف أصعب من الصبر على القضاء ، ولا فيه أفضل من الرضى به .

فأما الصبر : فهو فرض . وأما الرضى فهو فضل .

وإنما[2] الصبر لأن القدر يجرى فى الأغلب بمكروه النفس ، وليس مكروه النفس يقف على المرض والأذى فى البدن ، بل هو يتنوع حتى يتحير العقل فى حكمة جريان القدر .

فمن ذلك أنك إذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت له أوديتها حتى لا يدرى ما يصنع بالمال ، فهو يصوغه أوانىَ يستعملها .

---

(١) فى الحديثة : مضاد .

(٢) زاد فى الحديثة : (صعب) دون تنبيه .

ومعلوم أن البلور والعقيق والشبة ، قد يكون أحسن منها صورة ، غير أن قلة مبالاته بالشريعة جعلت عنده وجود النهى كعدمه .

ويلبس الحرير ، ويظلم الناس ، والدنيا مُنصَبَّة عليه .

ثم يرى خلقاً من أهل الدين ، وطلاب العلم ، مغمورين بالفقر والبلاء ، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم .

فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسواس ، ويبتدى بالقدح فى حكمة القدر .

فيحتاج المؤمن إلى الصبر[١] على ما يلقى من الضر فى الدنيا ، وعلى جدال إبليس فى ذلك .

وكذلك فى تسليط الكفار على المسلمين ، والفساق على أهل الدين .

وأبلغ من هذا إيلام الحيوان ، وتعذيب الأطفال ، ففى مثل هذه المواطن يتمحض الإيمان .

ومما يقوى الصبر على الحالتين النقل والعقل .

أما النقل فالقرآن والسنة ، أما القرآن فمنقسم إلى قسمين : أحدهما بيان سبب إعطاء الكافر والعاصى ، فمن ذلك قوله تعالى : « إنَّمَا نُمْلِى لهم ليزدادوا إثماً[٢] » .

« وَلَوْلا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدة لجعلنا لمنْ يكفُرُ بالرَّحمن لبُيوتهم سُقُفاً من فضة[٣] » .

---

(١) فى الحديثة والخانجى : صبر .
(٢) جزء من الآية ١٧٨ من سورة آل عمران
(٣) جزء من الآية ٣٣ من سورة الزخرف .

« وَإذا أرَدْنا أنْ نُهلِكَ قرْيةً أمَرنا مُترفيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا »[١].

وفى القرآن من هذا كثير .

والقسم الثانى : ابتلاء المؤمن بما يلق كقوله تعالى : « أمْ حسِبتم أنْ تدخلوا الجنَّةَ وَلمَّا يَعْلم اللهُ الذينَ جاهَدُوا مِنكم[٢] » ،

« أمْ حسبتمْ أنْ تَدخلوا الجنَّةَ ولمَّا يَأتكمْ مَثَلُ الذينَ خلَوا مِن قبْلكم مَسَّتهُمُ البَأسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلزلوا[٣] » .

« أمْ حَسِبتُمْ أنْ تُترَكُوا ولمَّا يَعْلم اللهُ الذِينَ جَاهَدُوا مِنكمْ[٤] » ،

وفى القرآن من هذا كثير .

وأما السنة فمنقسمة إلى قول وحال . أما الحال : فإنه صلى الله عليه وسلم كان يتقلب على رمال حصير تؤثر فى جنبه ، فبكى عمر رضى الله عنه . وقال: كسرى وقيصر فى الحرير والديباج ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « أفى شك أنت ياعمر ؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ » .

وأما القول فكقوله عليه الصلاة والسلام : « لو أن الدنيا تساوى عندالله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء » .

وأما العقل: فإنه يقوى عساكر الصبر بجنود ، منها أن يقول : قد ثبتت عندى الأدلة القاطعة (على)[٥] حكمة المقدر . فلا أترك الأصل الثابت لما يظنه الجاهل خللا .

---

(١) جزء من الآية ١٦ من سورة الإسراء .
(٢) جزء من الآية ١٤٢ من سورة آل عمران
(٣) جزء من الآية ٢١٤ من سورة البقرة .
(٤) جزء من الآية ١٦ من سورة التوبة .
(٥) ساقطة من الحديثة .

ومنها أن يقول : ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يدالعاصى هى قبض فى المعنى ، وما قد آثر عندك من قبض يد الطائع بسط فى المعنى ، لأن ذلك البسط يوجب عقابا طويلا ، وهذا القبض يؤثر انبساطا فى الأجر جزيلا ، فزمان الرجلين ينقضى عن قريب . والمراحل تطوى . والركبان فى الحثيث[١]

ومنها أن يقول : قد ثبت أن المؤمن بالله كالأجير ، وأن زمن التكليف كبياض نهار ، ولا ينبغى للمستعمل فى الطين أن يلبس نظيف الثياب ، بل ينبغى أن يصابر ساعات العمل ، فإذا فرغ تنظف ولبس أجود ثيابه ، فمن ترفه وقت العمل ندم وقت تفريق الأجرة . وعوقب على التوانى فيما كلف ، فهذه النبذة تقوى أزر الصبر .

وأزيدها بسطا فأقول : أترى إذا أريد اتخاذ شهداء . فكيف لا يخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين ، أفيجوز أن يَفْتِكَ بِعُمَرَ إلاّ مثل أبى لؤلؤة[٢] ؟ وبعلىّ إلا مثل ابن ملجم[٣] : أفيصح أن يقتل يحيى بن زكريا إلا جبار كافر ، ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا ، لرأيت المسبب لا الأسباب ، والمقدر لا الأقدار ، فصبرت على بلائه ، إيثاراً لما يريد ، ومن ههنا ينشأ الرضى .

كما قيل لبعض أهل البلاء : ادع الله بالعافية ، فقال : أحبه إلىّ أحبه إلى الله عز وجل .

إنْ كانَ رِضاكُمْ فى سَهَرى
فسَلامُ اللهِ عَلىَ وَسَنىَ .

---

(١) فى الحديثة : فى السير الحثيث . ولا أصل للزيادة .
(٢) هو أبو لؤلؤة فيروز المجوسى قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
(٣) عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب . وكان من الخوارج .

٥٥ ـ فصل : من ذاق طعم المعرفة وجد طعم المحبة

لما أنهيت كتابة الفصل المتقدم ،هتف بى هاتف من باطنى : دعنى من شرح الصبر على الأقدار ، فإنى قد اكتفيت، بأنموذج ما شرحت .

وَصِفْ حال الرضى ، فإنى أجد نسيما من ذكره فيه رَوْحٌ للروح .

فقلت : أيها الهاتف اسمع الجواب . وافهم الصواب .

إن الرضى من جملة ثمرات المعرفة ، فإذا عرفته رضيت بقضائه ، وقد يجرى فى ضمن القضاء مرارات يجد بعض طعمها الراضى .

أما العارف فتقل عنده المرارة[1] ، لقوة حلاوة المعرفة .

فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبة ، صارت مرارة الأقدار ، حلاوة ، كما قال القائل :

عـذابه فيك عـذب	وبعده فيك قرب
وأنت عندى كروحى	بل أنت منها أحب
حسبي من الحب أنى	لما تحبّ أحب

وقال بعض المحبين فى هذا المعنى :

ويقبح من سواك الفعل عندى ... فتفعله فيحسن منك ذا كا

فصاح بى الهاتف : حدثنى بماذا أرضى ؟ قدّر أنى أرضى فى أقداره بالمرض والفقر ، أفأرضى بالكسل عن خدمته ، والبعد عن أهل محبته ؟ فبين لى ما الذى يدخل تحت الرضى ، مما لا يدخل .

فقلت له : نِعمَ ما سألت فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع وهو شهيدة

(١) فى الحديثة : المرارات .

إرض بما كان منه[1] ، فأما الكسل والتخلف فذاك منسوب إليك ، فلا ترض به من فعلك .

وكن مستوفياً حقه عليك ، مناقشاً نفسك فيما يقربك منه ، غير راض منها بالتوانى فى المجاهدة .

فأما مايصدر من أقضيته المجردة التى لا كسب لك فيها ، فكن راضياً بها ، كما قالت رابعة رحمة الله عليها — وقد ذُكر عندها رجل من العبّاد يلتقط من مزبلة فيأكل ، فقيل : هلا سَألَ اللهَ تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا ؟ — فقالت : إن الراضى لا يتخير ومن ذاق طعم المعرفة ، وجد فيه طعم المحبة ، فوقع الرضى عنده ضرورة[2] .

فينبغى الاجتهاد فى طلب المعرفة بالأدلة ، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجدّ فى الخدمة ، لعل ذلك يورث المحبة .

فقد قال سبحانه وتعالى ، « لا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » .

فذلك الغنى الأكبر . . ووافقراه . . . !!!

٥٦ ـ فصل : لا تشغل عن معاشك

رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم فى زمن الصباعن المعاش ، فيحتاجون إلى مالا بد منه ، فلا يصلهم من بيت المال شيء ، ولا من صلات الإخوان

(١) فى الحديثة : بما منه صدر .
(٢) وذلك بعد استنفاد الأسباب .

مايكفى ، فيحتاجون إلى التعرض بالإذلال[١] ، فلم أر فى ذلك من الحكمة إلا سببين :

أحدهما : قمع إعجابهم بهذا الإذلال ، والثانى : نفع أولئك بثوابهم .

ثم أمعنت الفكر فتلمحت نكتة لطيفة ، وهو أن النفس الأبية إذا رأت حال الدنيا كذلك ، لم تساكنها بالقلب ، و نَبَت عنها بالعزم ، ورأت أقرب الأشياء شبهاً بها : مزبلة عليها الكلاب ، أو غائطا يؤتى لضرورة .

فإذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار ، لم يكن للقلب بها متعلق متمكن فتهون حينئذ .

٥٧ ـ فصل : روحوا القلوب إلى الذكر

مازال جماعة من المتزهدين يُزْرُون على كثير من العلماء إذا انبسطوا فى مباحات . والذى يحملهم على هذا الجهل . فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم .

وهذا لأن الطباع لاتتساوى ، فرُبَّ شخص يصلح على خشونة العيش ، وآخر لا يصلح على ذلك ، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو .

غير أن لنا ضابطا هو الشرع ، فيه الرخصة وفيه العزيمة . فلا ينبغى أن يلام من حصر نفسه فى ذلك الضابط .

وَرُبَّ رخصة كانت أفضل من عزائم لتأثير نفعها .

ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى فتنبت القلوب من خوفه ، وتنحل الأجسام للحذر منه فوجب التلطف بالأجسام حفظا لقوة الراحلة .

---

(١) فى الحديثة : للإذلال .

ولأن آلة العلم والحفظ : القلب والفكر ، فإذا رفهت الآلة جاد العمل ، وهذا أمر لا يعلم إلا بالعلم .

فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا مالم يعلموا ، وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان ، وإنضاء الرواحل ، وما علموا أن الخوف المضنى يحتاج إلى راحة مقاومة ، كما قال القائل : رَوِّحوا القلوب تعِى الذكر .

٥٨ - فصل : من أخطاء الصوفية

ليس فى الوجود شىء أشرف من العلم ، كيف لا وهو الدليل . فإذا عدم وقع الضلال .

وإن من خفى مكائد الشيطان أن يزين فى نفس الإنسان التعبد ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم ، حتى إنه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها فى البحر . وهذا قد ورد عن جماعة . وأحسن ظنى بهم أن أقول : كان فيها شىء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشاره .

وإلا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه ، كان رميها إضاعة للمال لا يحل .

وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم .

وحتى قال جعفر الخلدى : لو تركنى الصوفية جئتكم بإسناد الدنيا، كتبت مجلسا عن أبى العباس الدورى فلقيتنى بعض الصوفية فقال : دع علم الورق، وعليك بعلم الخرق[١] .

---

(١) هم لا يريدون الصد عن العلم ، بل يقولون : يكفى من العلم ما تؤدى به العبادات صحيحة ثم بعد ذلك يجب التعرض لنفحات العلم اللدنى .

ورأيت محبرة مع بعض الصوفية . فقال له صوفى آخر : استر عورتك !

وقد أنشدوا للشبلى :

إِذا طَالبونِي بعِلمْ الوَرَق
بَرَزتُ عَليْهم بعلم الخِرَق

وهـذا من خفىْ حيل إبليس ، وَلقدْ صَدّقَ عَليهمْ إبليسُ ظنه ، وإنما فعل[1] وزينه عندهم لسببين :

أحدهما : أنه أرادهم يمشون فى الظلمة .

والثانى : أن تصفح العلم كل يوم يزيد فى العالم[2] . ويكشف له ما كان خفى عنه ، ويقوى إيمانه ومعرفته ، ويريه عيب كثير من مسالكه[3] ، إذا تصفح منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة .

فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة ، فأظهر أن المقصود العمل ، لا العلم لنفسه ، وخفى على المخدوع أن العلم عمل وأى عمل .

فاحذر من هذه الخديعة الخفية ، فإن العلم هو الأصل الأعظم ، والنور الأكبر .

وربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم والصلاة ، والحج والغزو[4]

وكم من معرض عن العلم يخوض فى عذاب من الهوى فى تعبده ، ويضيع كثيراً من الفرض بالنفل ، ويشتغل بما يزعمه الأفضل عن الواجب .

---

(١) فى الحديثة : فعل ذلك .
(٢) فى الحديثة : فى علم العالم .
(٣) زاد فى الحديثة : (خصوصا) دون تنبيه .
(٤) هذا فى علوم الشريعة . أما فى علوم التحقيق فلا تجدى الأوراق شيئا .

ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لاهتدى ، فتأمل ماذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى .

٥٩ - فصل : كيف تقوى النفس ؟

مرّ بي حمالان تحت جذع ثقيل ، وهما يتجاوبان بانشاد النغم ، وكلمات الاستراحة .

فأحدهما يصغى إلى ما يقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله ، والآخر همته مثل ذلك .

فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا زادت المشقة عليهما ، وثقل الأمر . وكلما فعلا هذا هان الأمر .

فتأملت السبب فى ذلك ، فإذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر ، وطربه به ، وإحالة فكره فى الجواب بمثل ذلك ، فينقطع الطريق ، وينسى ثقل المحمول .

فأخذت من هذا إشارة عجيبة ، ورأيت الإنسان قد حمل من التكليف أموراً صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصبر عما تحب ، وعلى ما تكره .

فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس ، كما قال الشاعر :

فإنْ تَشكَّتْ فعَلِّلها المجرة مِنْ
ضوءِ الصَّبَاحِ وَعِدْها بالرواحِ ضُحَى

ومن هذا ما يحكى عن بشر الحافى رحمة الله عليه : سار ومعه رجل فى طريق فعطش صاحبه ، فقال له : نشرب من هذا البئر ؟ فقال بشر : اصبر إلى البئر الأخرى ، فلما وصلا إليها قال له : البئر الأخرى .

فما زال يعلله ... ثم التفت إليه فقال له : هكذا تنقطع الدنيا .

ومن فهم هذا الأصل علل النفس وتلطف بها ووعدها الجميل لتصبر على ما قد حملت ، كما كان بعض السلف يقول لنفسه : والله ما أريد بمنعك من هذا الذى تحبين إلا الإشفاق عليك .

وقال أبو يزيد رحمة الله عليه : مازلت أسوق نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى حتى سقتها وهى تضحك .

واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم ، وبذلك ينقطع الطريق ، فهذا رمز إلى الإشارة ، وشرحه يطول .

٦٠ - فصل : دع التصنع فى الوعظ

تأملت أشياء تجرِي فى مجالس الوعظ ، يعتقدها العوام وجهال العلماء قربة وهى منكر وبُعْدٌ .

وذاك أن المقرىء يطرب ويخرج الألحان إلى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى ، فيصفق هذا ، ويخرق ثوبه هذا ، ويعتقدون أن ذلك قربة .

ومعلوم أن هذه الألحان كالموسيقى ، توجب طرباً للنفوس ونشوة ، فالتعرض بما [1] يوجب الفساد غلط عظيم .

وينبغى الاحتساب على الوعاظ فى هذا [2] ، وكذلك المقابريون منهم فإنهم يهيجون الأحزان ليكثر بكاء النساء ، فيعطون على ذلك الأجرة .

---

(١) فى الحديثة : والتعرض لما .

(٢) أى ينبغى على المحتسب أن يمنع الوعاظ من هذا .

ولو أنهم أمروا بالصبر لم ترد النسوة ذلك ، وهذه أضداد للشرع .

قال ابن عقيل : حضرنا عزاء رجل قد مات له ولد ، فقرأ المقرىء : « ياأسفى على يوسف[1] » فقلت له : هذه نياحة بالقرآن ،

وفى الوعاظ من يتكلم على طريق المعرفة والمحبة ، فترى الحائك والسوقى الذى لا يعرف فرائض تلك الصلاة يمزق أثوابه دعوى لمحبة الله تعالى .

والصافى حالا منهم — وهو أصلحهم — يتخايل بوهمه شخصا هو الخالق فيبكيه شوقه إليه لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله .

وليس ما يتخايلونه المعبود ، لأن المعبود لا يقع فى خيال .

وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب ، ولا يكادون ينتفعون بمُرّ الحق إلا أن الواعظ مأمور بألا يتعدى الصواب ، ولا يتعرض لما يفسدهم .

بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه ، وهذا يحتاج إلى صناعة ، فإن من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الإشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر .

وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغى أن ينظر فى اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح فى اللفظ ، قدر الملح فى الطعام ، ثم يجتذبهم إلى العزائم ، ويعرفهم الطريق الحق .

وقد حضر أحمد بن حنبل ، فسمع كلام الحارث المحاسبى فبكى ، ثم قال : لا يعجبنى الحضور ، وإنما بكى لأن الحال أوجبت البكاء[2] .

---

(١) جزء من الآية ٨٤ من سورة يوسف .

(٢) بل اقدقال : ما سمعت فى الحقائق مثل هذا الرجل ، ولا رأيت مثل =

وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص ، فينهون عن الحضور عنـــدهم .

وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم ، لأنه كان الناس فى ذلك الزمـــان متشاغلين بالعلم ، فرأوا حضور القصص صاداً لهم ، واليوم كثر الإعراض عن العلم ، فأنفع ما للعامى مجلس الوعظ ، يرده عن ذنب ، ويحركه إلى توبة ، وإنما الخلل فى القاص ، فليتق الله عز وجل .

٦١ ـ فصل : احذر من مزالق علم الكلام

من أضر الأشياء على العوام كلام المتأولين ، والنفاة للصفات والإضافات

فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالغوا فى الإثبات ليتقرر فى أنفس العوام وجود الخالق ؛ فإن النفوس تأنس بالإثبات ، فإذا سمع العامى ما يوجب النفى ، طرد عن قلبه الإثبات ، فكان أعظم ضرر عليه ، وكان هذا المنزه من العلماء على زعمه ، مقاوما لإثبات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو وشارعا فى إبطال ما يفتون به .

وبيان هذا أن الله تعالى أخبر باستوائه على العرش ، فأنست النفوس إلى إثبات الإله ووجوده ، قال تعالى : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ [1] » ، وقال تعالى :

= أصحابه معه . وقد علل السبكى فى طبقات الشافعية ١١٨/٢ تنفير الإمام أحمد عن مجلس المحاسبى بأن المحاسبى كان يسلك طريقا صعبا لا يسلكه أحد فخاف على البادئين ألا يوفوه حقه . هذا ولم يكن المحاسبى واعظا كما فهم ابن الجوزى ، بل كان عالما بالنفس له مريدوه فى هذا الشأن . أنظر تحقيقنا لهذا الموضوع فى مقدمة كتاب (المسائل فى أعمال القلوب والجوارح للمحاسبى) نشر عالم الكتب بالقاهرة .

(١) جزء من الآية ٢٧ من سورة الرحمن .

« بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ[1] » وقال « غَضِبَ اللهُ عليهم[2] » « رضى الله عنهم[3] » وأخبر[4] أنه ينزل إلى السماء الدنيا، وقال : قلوب العباد بين أصبعين، وقال : كتب التوراة بيده ، وكتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

فاذا امتلأ العامىُّ والصبى من الإثبات ، وكاد يأنس من الأوصاف بما يفهمه الحس ، قيل له : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شىء[5] » فمحا من قلبه ما نقشه الخيال، وتبقى ألفاظ الإثبات متمكنة .

ولهذا أقر الشرع مثل هذا ، فسمع منشداً يقول : وفوق العرش رب العالمينا ، فضحك .

وقال له آخر : أوَ يضحك ربنا ؟ فقال : نعم . وقال : إنه على عرشه هكذا . كل هذا ليقرر الإثبات فى النفوس .

وأكثر الخلق لا يعرفون الإثبات إلا على ما يعلمون من الشاهد ، فيقنع منهم بذلك إلى أن يفهموا التنزيه .

فأما إذا ابتدىء[6] بالعامى الفارغ من فهم الإثبات ، فقلنا : ليس فى السماء ولا على العرش ، ولا يوصف بيد ، وكلامه صفة قائمة بذاته ، وليس عندنا

---

(١) جزء من الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٢) جزء من الآية ٦ من سورة الفتح .

(٣) جزء من الآية ١١٩ من سورة المائدة ، ١٠٠ من سورة التوبة ، ٢٢ من سورة المجادلة ، و ٨ من سورة البينة .

(٤) فى الحديثة : وأخبر الرسول .

(٥) جزء من الآية ١١ من سورة الشورى .

(٦) فى الحديثة . ابتدأنا بالعامى .

منه شيء، ولا يتصور نزوله ، انمحى من قلبه تعظيم المصحف، ولم يتحقق[١] فى سره إثبات إله .

وهذه جناية عظيمة على الأنبياء ، توجب نقض ما تعبوا فى بيانه ، ولا يجوز لعالم أن يأتى إلى عقيدة عامى قد أنس بالإثبات فيهوشها ، فإنه يفسده ويصعب صلاحه .

فأما العالم فإنا قد أمناه لأنه لا يخفى عليه استحالة تجدد صفة الله تعالى ، وأنه لا يجوز أن يكون استوى كما يعلم ، ولا يجوز أن يكون محمولا ، ولا أن يوصف بملاصقة ومس ، ولا أن ينتقل .

ولا يخفى عليه أن المراد بتقليب القلوب بين أصبعين الإعلام بالتحكم فى القلوب فإن ما يديره[٢] الإنسان بين أصبعين هو متحكم فيه إلى الغاية .

ولا يحتاج إلى تأويل من قال : الإصبع الأثر الحسن ، فالقلوب بين أثرين من آثار الربوبية ، وهما : الإقامة ، والإزاغة .

ولا إلى تأويل من قال : يداه نعمتاه ، لأنه إذا فهم أن المقصود الإثبات وقد حدثنا بما نعقل . وضربت لنا الأمثال بما نعلم ، وقد ثبت عندنا بالأصل المقطوع به أنه لا يجوز عليه ما يعرفه الحس ، علمنا المقصود بذكر ذلك .

وأصلح ما نقول للعوام : أمِرُّوا هذه الأشياء كما جاءت ، ولا تتعرضوا لتأويلها ، وكل ذلك يقصد به حفظ الإثبات ، وهذا الذى قصده السلف .

---

(١) فى الحديثة والخانجى : يترصع .

(٢) فى الأصول : يدبره . وما اخترناه أوضح ومناسب لسياق الحديث : « يقلبها كيف يشاء »

وكان أحمد يمنع من أن يقال : لفظى بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، كل ذلك ليحمل على الاتباع ، وتبقى ألفاظ الإثبات على حالها .

وأجهل الناس من جاء إلى ما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه ، فأضعف فى النفوس قوى التعظيم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو » ـ يشير إلى المصحف .

ومنع الشافعى أن يحمله المحدث بعلاقته تعظيما له .

فإذا جاء متحذلق فقال : الكلام صفة قائمة بذات المتكلم ، فمعنى قوله هذا أن ما ههنا شيء يحترم ، فهذا قد ضاد بما أتى به مقصود الشرع .

وينبغى أن يفهم أوضاع الشرع ومقاصد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد منعوا من كشف ما قد قنَّعَ الشرع ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلام فى القدَر ونهى عن الاختلاف ، لأن هذه الأشياء(١) تخرج إلى ما يؤذى فإن (٢) الباحث عن القدر إذا بلغ فهمه إلى أن يقول : قضى وعاقب ، تزلزل إيمانه بالعدل .

وإن قال : لم يقدر ولم يقض تزلزل إيمانه بالقدرة ، والملك ، فكان الأولى ترك الخوض فى هذه الأشياء .

ولعل قائلا يقول : هذا منع لنا عن الاطـــلاع على الحقائق ، وأمر بالوقوف مع التقليد .

---

(١) فى الحديثة : لأن المجادلات فى هذه الأشياء . ولم نقع على الزيادة فى المخطوطات التى بين أيدينا ولا فى المطبوعات .

(٢) فى الحديثة : ولا شك أن الباحث .

فأقول : لا ؛ إنما أعلمك أن المراد منك الإيمان بالجمل ، وما أمرت بالتنقير[١] مع أن قوى فهمك تعجز عن إدراك الحقائق .

فإن الخليل عليه الصلاة والسلام قال : أرنى كيف تحيي ، فأراه ميتاً حي ولم يره كيف أحياه ، لأن قواه تعجز عن إدراك ذلك .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذى بعث ليبين للناس ما نزل إليهم ، يقنع من الناس بنفس الإقرار واعتقاد الجمل .

وكذلك كانت الصحابة ؛ فما نقل عنهم أنهم تكلموا فى تلاوة ومتلوّ ، وقراءة ومقروء ، ولا أنهم قالوا استوى بمعنى استولى ، وينزل بمعنى يرحم .

بل قنعوا بإثبات الجمل التى تثبت التعظيم عند النفوس ، وكفوا كف الخيال بقوله : « ليس كمثله شيء » .

ثم هذا منكر ونكير إنما يسألان عن الأصول المجملة فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

ومن فهم هذا الفصل سلم من تشبيه المجسمة ، وتعطيل المعطلة ؛ ووقف على جادة السلف الأول[٢] ، والله الموفق .

٦٢ – فصل : السمع والبصر

قرأت هذه الآية : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن أَخَذَ اللهُ سمعَكم وَأبصَارَكم وَخَتَمَ عَلىَ قلوبكم مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بِهِ »[٣] ، فلاحت لى فيها إشارة كدت أطيش منها .

---

(١) فى الحديثة زيادة : لمعرفة الكنه دون التنبيه

(٢) يكاد المؤلف أن يكون قد اقتبس هذا الفصل من ابن مفلح فى كتابه (الآداب الشرعية) أنظر ٢٤٥/١ الطبعة الأولى .

(٣) جزء من الآية ٤٦ من سورة الأنعام .

وذلك أنه إن كان عنى بالآية نفس السمع والبصر فإن السمع آلة لإدراك المسموعات ، والبصر آلة لإدراك المبصرات ، فهما يعرضان ذلك على القلب ، فيتدبر ، ويعتبر .

فإذا عرضت المخلوقات على السمع والبصر ، أوصلا[1] إلى القلب أخبارها من أنها تدل على الخالق ، وتحمل على طاعة الصانع ، وتحذر من بطشه عند مخالفته[2] .

وإن عنى معنى السمع والبصر ، فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا ، شغلا بالهوى ، فيعاقب الإنسان بسلب معانى تلك الآلات ، فيرى وكأنه ما رأى ، ويسمع وكأنه ما سمع ، والقلب ذاهل عما يتأدى به[3] لا يدرى ما يراد به ، لا يؤثر عنده أنه يبلى ، ولا تنفعه موعظة تجلى[4] ، ولا يدرى أين هو ، ولا ما المراد منه ، ولا إلى أين يحمل ، وإنما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته ولا يتفكر فى خسران آجلته ، لا يعتبر برفيقه ، ولا يتعظ بصديقه ، ولا يتزود لطريقه كما قال الشاعر :

النَّاسُ فى غَفْلةٍ وَالموْتُ يُوقظهمْ
وَمَا يُفيقونَ حَتّى يَنْفَدَ العمرُ
يُشيِّعونَ أهاليهمْ بجمعهمُ
وَينظرُونَ إلىَ مَا فِيهِ قدْ قُبِرُوا

(١) فى الحديثة : فأوصلا .

(٢) زاد فى الحديثة : كان ذلك تحقيقا لفائدتها وإلا فقد انعكس المراد منها .

(٣) فى الحديثة : عما يتأدى به . وهنا زيادة : فيبقى الإنسان خاطئا على نفسه دون التنبيه

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

وَيَرْجِعُونَ إلَى أحْلامِ غفلتِهِمْ
كأنهمْ مارأوْا شيئاً ولا نظروا

وهذه حالة أكثر الناس ، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات ، فإنها أقبح الحالات .

٦٣ - فصل : العشق الالهي

نظرت فيما تكلم به الحكماء فى العشق وأسبابه وأدويته وصنفت فى ذلك كتابا سميته بذمّ الهوى .

وذكرت فيه عن الحكماء أنهم قالوا : سبب العشق حركة نفس فارغة ، وأنهم اختلفوا . فقال قوم منهم : لا يعرض العشق إلا لظرّاف الناس

وقال آخرون : بل لأهل الغفلة منهم عن تأمل الحقائق .

إلا أنه خطر لى بعد ذلك معنى عجيب أشرحه هنا .

وهو أنه لا يتمكن العشق إلا مع واقف جامد . فأما أرباب صعود الهمم فإنها(١) كلما تخايلتْ(٢) ما توجبه المحبة فلاحت عيوبه لها(٣) ، إما بالفكر فيه(٤) أو بالمخالطة له ، تسلت أنفسهم وتعلقتْ بمطلوب آخر .

فلا يقف على درجة العشق الموجب للتمسك بتلك الصورة ، العامى عن عيوبها ، إلا جامد واقف .

---

(١) فى الحديثة : فإنهم . زيادة .

(٢) فى الحديثة زيادة : لهم .

(٣) فى الحديثة : عيوبها لهم . وهذه الزيادة تغير المعنى . فالمؤلف يريد : لاحت عيوب المحبوب لهم .

(٤) فى الحديثة : فى المحبوب .

وأما أرباب الأنفة من النقائص ، فإنهم أبداً فى الترقى ، لايصدهم صاد ، فإذا علقت الطباع محبة شخص لم يبلغوا مرتبة العشق المستأثر ، بل ربما مالوا ميلا شديداً إما فى البداية لقلة التفكر أو لقلة المخالطة والاطلاع على العيوب ، وإما لتشتت(١) بعض الخلال الممدوحة بالنفوس من جهة مناسبة وقعت بين الشخصين ، كالظريف مع الظريف ، والفطن مع الفطن ، فيوجب ذلك المحبة.

فأما العشق فلافهم أبداً فى السير(٢) فلا(٣) يوقف وابل(٤) الطبع تتبع حادى الفهم ، فإن للطبع(٥) متعلقا لاتجده فى الدنيا ، لأنه يروم ما لا يصح وجوده من الكمال فى الأشخاص ، فإذا تلمح عيوبها نفر .

وأما متعلق القلوب من محبة الخالق البارىء ، فهو مانع لها من الوقوف مع سواه . وإن كانت محبة لاتجانس محبة المخلوقين ، غير أن أرباب المعرفة وَالنُّهَى قد شغلهم حبه عن حب غيره .

وصارت الطباع مستغرقة لقوة معرفة القلوب ومحبتها كما قالت رابعة :

أُحِبُّ حَبيباً لا أُعابُ بحبِّهِ
وأحبتهم(٦) مَنْ فِى هَواهُ عُيوبُ

ولقد روى عن بعض فقراء الزهاد أنه مر بامرأة فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها ، فزوجه وجاء به إلى المنزل وألبسه غير خلقانه .

---

(١) فى الحديثة : لتشبث

(٢) فى الحديثة : فلايفهم أبدا فى سيرتهم .

(٣) فى الحديثة : بل يوقف

(٤) فى الحديثة : إبل

(٥) فى الحديثة : للهمم .

(٦) الصحيح : وأحببتم

فلما جن الليل صاح الفقير : ثيابى ثيابى . فقدتُ ما كنت أجده ، فهذه عثرة فى طريق هذا الفقير دلته على أنه منحرف عن الجادة .

وإنما تعترى هذه الحالات أرباب المعرفة بالله عز وجل وأهل الأنفة من الرذائل .

وقد قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدَكم امرأةٌ فليتذكر مثانتها(١) .

ومثال هذه الحال أن العقل يغيب عند استحلاء تناول المشتهى من الطعام عن التفكر فى تقلبه فى الفم وبلعه .

ويذهل عند الجماع عن ملاقات القاذورات لقوة غلبة الشهوة ، ويلسى عند بلع الرضاب استحالته عن الغذاء ، وفى تغطية تلك الأحوال مصالح .

إلا أن أرباب اليقظة يعتريهم من غير طلب له فى غالب أحوالهم ، (فينغص)(٢) لذيذ العيش ، ويوجب الأنفة من رذالة الهوى .

وعلى قدرَ النظر فى العواقب يخف العشق عن قلب العاشق ، وعلى قدر جمود الذهن يقوى القلق ، قال المتنبى(٣) .

لوْ فَكَّرَ العـاشِقُ فِى مُنْتَهَى
حُسْنِ الذِى يَسْبِيهِ لمْ يَسْبِهِ

ومجموع ما أردت شرحه ، أن طباع المتيقظين تترقى فلا تقف مع شخص مستحسن .

---

(١) فى ت : مفاتنها .
(٢) ساقطة من الحديثة . وسقوطها جعل العبارة كلها لا معنى لها .
(٣) فى قصيدة يعزى بها عضد الدولة فى عمته .

وسبب ترقيها التفكر فى نقص ذلك الشخص وعيوبه ، أو فى طلب ماهو أهم منه .

وقلوب العارفين تترقى إلى معروفها ، فتعبر[1] فى معبر الاعتبار .

فأما أهل الغفلة فجمودهم فى الحالتين ، وغفلتهم عن المقامين ، يوجب أسرهم وقسرهم وحيرتهم .

٦٤ ـ فصل : دعاء الخاشعين

عرض لى أمر يحتاج إلى سؤال الله عز وجل ودعائه ، فدعوت وسألت فأخذ بعض أهل الخير يدعو معى ، فرأيت نوعاً من أثر الإجابة .

فقالت لى نفسى : هذا بسؤال ذلك العبد لا بسؤالك ، فقلت لها : أمـــا أنا فإنى أعرف من نفسى من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب ، غير أنه يجوز أن يكون أنا الذى أجبت ، لأن هذا الداعى الصالح سليم مما أظنه من نفسى ، لأن[2] معى انكسار تقصيرى ومعه الفرح بمعاملته .

وربما كان الاعتراف بالتقصير أنجح فى الحوائج ، على أننى أنا وهو نطلب من الفضل ، لا بأعمالنا ، فإذا وقفتُ أنا على قدم الانكسار معترفا بذنوبى . وقلت أعطونى بفضلكم فمالى فى سؤالى شىء أمتّ به[3] .

وربما تلمح ذاك حسنَ عمله وكان صاداً له .

فلا تكسرينى أيتها النفس فيكفينى كسر علمى بى لى .

---

(١) فى الحديثة : وتنقل . ولا أصل لها فى المخطوطات .

(٢) فى الحديثة والخانجى : إذ معى .

(٣) فى الحديثة : أجبت به .

ومعى من العلم الموجب للأدب ، والاعتراف بالتقصير ، وشدة الفقر إلى ماسألت ، ويقيني بفضل المطلوب عنه ، ما ليس مع ذلك العابد . فبارك الله فى عبادته . فربما كان اعترافى بتقصيرى أوفى .

٦٥ — فصل : قمة التدبر

قرأت من غرائب العلم ، وعجائب الحكم ، على بعض من يدّعى العلم ، فرأيته يَتلوّى من سماع ذلك ، ولا يَطلعُ على غوره ، ولا يشرئبُّ إلى ما يأتى ، فصدفت[1] عن إسماعه شيئا آخر وقلت : إنما يصلح مثل هذا لذى لُبّ يتلقاه تلقى العطشان الماء .

ثم أخذت من هذه إشارة (هى)[2] أنه لو كان هذا يفهم ما جرى ومدحنى بُالحسنِ ما صنعت لعَظم قدره عندى ، ولأريته محاسن مجموعاتى وكلامى .

ولكنه[3] لما لم أره لها أهلا صرفتها عنه ، وصدفت بنظرى إليه .

وكانت الإشارة : أن الله عز وجل ، قد صنف هذه المخلوقات فأحسن التركيب، وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب ، فأى لب أوغل فى النظر مدح على قدر فهمه فأحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن يحتوى على عجائب الحكم ، فمن فتشه بيد الفهم . وحادثه فى خلوة الفكر ، استجلب رضى المتكلم به وحظى بالزلفى لديه .

ومن كان لِلذّهن مستغرقَ الفهم بالحسيات ، صُرف عن ذلك المقام . قال

---

(١) فى الحديثة : فصرفت .

(٢) ساقطة من الحديثة

(٣) فى الحديثة والخانجى : ولكنى .

الله عز وجل : « سَأصرِفُ عنْ آياتِيَ الذينَ يَتكبرونَ في الأرْض بغير الحق[1] » .

٦٦ ـ فصل : الهمة العالية

دعوت يوما فقلت : اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل ، وأطل عمري لأبلغ ما أحب من ذلك .

فعارضني وَسوَاسٌ من إبليس ، فقال: ثم ماذا ؟ أليس الموت ؟ فما الذي ينفع طول الحياة ؟

فقلت له : ياأبله . لو فهمْتَ ما تحت سؤالي علمت أنه ليس بعبث .

أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي فتكثر ثِمارُ غرْسي ، فأشكر يوم حصادي ؟

أفيسرني أنني مت منذ عشرين سنة ؟ لا والله ؛ لأني ما كنت أعرف الله تعالى عُشرَ معرفتي به اليوم.

وكل ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتليت أدلة الوحدانية ، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاع البصيرة ، واطلعت على علوم زَادَ بهـا قدْري ، وَتجوْهرَت بها نفسي .

ثم زاد غرسي لآخرتي ، وقويت تجارتي في إنقاذ المباضعين من المتعلمين وقد قال الله لسيد المرسلين : « وقلْ رَب زِدْني عِلماً[2] » .

---

(١) جزء من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف .

(٢) جزء من الآية ١١٤ من سورة طه .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً .

وفى حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عز وجل الإنابة » .

فياليتنى قدرت على عمر نوح ، فإن العلم كثير ، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع .

٦٧ ـ فصل : فى الأسباب والمسببات

قلوب العارفين يغار عليها من الأسباب وإن كانت لاتساكنها لأنها لما انفردت لمعرفتها انفرد لها بتولى أمورها .

فإذا تعرضت بالأسباب محى أثر الأسباب : « وَيَوْمَ حُنين إذْ أعجبتكم كثرتُكم فلمْ تُغْنِ عَنكم شيئاً[١] » .

وتأمل فى حال يعقوب وحذره على يوسف عليهما السلام ، حتى قال : « أخافُ أنْ يَأكلهُ الذئب[٢] » فقالوا : « أكله الذئب »[٣] .

فلما جاء أوان الفرج ، خرج « يهوذا » بالقميص فسبقه الريح « إنى لأجدُ ريحَ يوسفَ »[٤] .

---

(١) جزء من الآية ٢٥ من سورة التوبة .
(٢) جزء من الآية ١٣ من سورة يوسف .
(٣) جزء من الآية ١٧ من سورة يوسف .
(٤) جزء من الآية ٩٤ من سورة يوسف .

وكذلك قول يوسف عليه السلام للساقى : « اذكرنى عِنْدَ رَبِّكَ »[1] فعوقب بأن لبث سبع سنين ، وإن كان يوسف عليه السلام يعلم أنه لا خلاص إلا بإذن الله ، وأن التعرض بالأسباب مشروع ، غير أن الغيرة أثرت (فى)[2] العقوبة .

ومن هذا قصة مريم عليها السلام « وكفلها زكريا[3] » ، فغار المسبب من مساكنة الأسباب : « كلما دَخلَ عَلَيْها زَكَرِيا المِحْرَابَ وَجدَ عِنْدها رِزْقاً[4] » .

ومن هذا القبيل ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب .

والأسباب طريق ، ولابد من سلوكها . والعارف لا يساكنها غير أنه يجلى له من أمرها مالا يجلى لغيره ، من أنها لا تساكن ، وربما عوقب إن مال إليها وإن كان ميلا لا يقبله ، غير أن أقل الهفوات يوجب الأدب ، وتأمل عقبى سليمان عليه السلام لما قال : « لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، تلد كل واحدة منهن غلاما ولم يقل : إن شاء الله ، فما حملت إلا واحدة جاءت بشق غلام » .

ولقد طرقتنى حالة أوجبت التشبث ببعض الأسباب إلا أنه كان من ضرورة ذلك لقاء بعض الظلمة ، ومداراته بكلمة . فبينا أنا أفكر فى تلك الحال دخل علىّ قارىء فاستفتح فتفاءلت بما يقرأ فقرأ « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

---

(١) جزء من الآية ٤٢ من سورة يوسف .
(٢) ساقطة من الحديثة والخانجى .
(٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة آل عمران .
(٤) جزء من الآية ٣٧ من سورة آل عمران .

فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون»(١) .

فبهت من إجابتي على خاطري ، وقلت لنفسي : اسمعي فإنني طلبت النصر في هذه المداراة فأعلمني القرآن أنني إذا ركنت إلى ظالم فاتني ما رَكنتُ لأجله من النصر .

فياطوبى لمن عرف المسبب وتعلق به ، فإنها الغاية القصوى ، فنسأل الله أن يرزقنا .

٦٨ ـ فصل المؤمن والذنب

المؤمن لا يبالغ في الذنوب وإنما يَقْوَى الهوى وتتوقد نيرانُ الشهوة فينحدر .

وله مداد لا يعزم المؤمن(٢) على مواقعته ، ولا على العود بعد فراغه .

ولا يستقصي في الانتقام إن غضب ، وينوي التوبة قبل الزلل .

وتأمل إخوة يوسف عليهم السلام فإنهم عزموا على التوبة قبل إبعاد يوسف فقالوا : « اقتُلوا يوسفَ(٣) » ، ثم زاد ذلك تعظيما فقالوا : « أو اطرَحُوهُ أرْضاً(٤) » ، ثم عزموا على الإنابة فقالوا : « وَتَكونُوا مِنْ بَعْدِهِ قوماً صالحين(٥) » .

---

(١) الآية ١١٣ من سورة هود .

(٢) في الحديثة : وله من إيمانه ما يبغض إليه الإثم فلا يعزم . ولا أصل لهذه الزيادة .

(٣) جزء من الآية ٩ من سورة يوسف .

(٤) جزء من الآية ٩ من سورة يوسف .

(٥) جزء من الآية ٩ من سورة يوسف .

فلما خرجوا به إلى الصحراء هموا بقتله بمقتضى ما فى القلوب من الحسد .

فقال كبيرهم : « لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب»[١] ، ولم يرد أن يموت بل يلتقطه بعض السيارة ، فأجابوا إلى ذلك .

والسبب فى هذه الأحوال أن الإيمان[٢] على حسب قوته ، فتارة يردها عند الهم ، وتارة يضعف فيردها عند العزم ، وتارة عن بعض الفعل ، فإذا غلبت الغفلة ، وواقع[٣] الذنب ، فتر الطبع ، فنهض الإيمان للعمل ، فينغص[٤] بالندم أضعاف ما التذ .

٦٩ ـ فصل : الغرور فى العلم

أفضل الأشياء التزيد من العلم ، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبد برأيه ، وصار تعظيمه لنفسه مانعاً له من الاستفادة . والمذاكرة تبين له خطأه ، وربما كان معظما فى النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه .

ولو أنه أظهر الاستفادة لأهديت إليه مساويه فعاد عنها .

ولقد حكى ابن عقيل عن أبى المعالى الجوينى أنه قال : إن الله تعالى يعلم جمل الأشياء ولا يعلم التفاصيل[٥] ، ولا أدرى أى شبهة وقعت فى وجه هذا المسكين حتى قال هذا .

---

(١) جزء من الآية ١٠ من سورة يوسف .

(٢) فى الحديثة : أن الإيمان فى قمع النفوس يكون . ولا أصل لهذه الزيادة ولم ينبه عليها .

(٣) فى الحديثة : ووقع .

(٤) فى الحديثة : فينقص .

(٥) ليس هذا مسلك الجوينى إمام الحرمين .

وكذلك أبو حامد حين قال : النزول التنقل ، والاستواء مماسة – وكيف أصف هذا بالفقه ، أو هذا بالزهد ، وهو لا يدرى ما يجوز على الله مما لا يجوز[١] .

ولو أنه ترك تعظيم نفسه لردّ صبيان الكتاب رأيه عليه ، فبان له صدقهم .

ومن هذا الفن أبو بكر بن مقسم : فإنه عمل كتاب الاحتجاج للقراء ،فأتى فيه بفوائد ، إلا أنه أفسد عامه بإجازته أن يقرأ بما لم يقرأ به ، ثم تفاقم ذلك منه حتى أجاز ما يفسد المعنى ، مثل قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا[٢] » . فقال : يصلح أن يقال هنا نجياً أى خلصوا كراماً براء من السرقة .

وهذا سوء فهم للقصة ، فإن الذى نسب إلى السرقة فظهرت معه ماخلص ، فما الذى ينفع خلاصهم ؟ .

وإنما سيقت القصة ليبين أنهم انفردوا وتشاوروا فيما يصنعون ، وكيف يرجعون إلى أبيهم وقد احتبس أخوهم .

فأى وجه للنجاة هاهنا ؟

ومن تأمل كتابه رأى فيه من هذا الجنس ما يزيد على الإحصاء من هذا الفن القبيح ، ولو أنه أصغى إلى علماء وقته ، وترك تعظيم نفسه لبان له الصواب غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا ما زجه نوع رؤية للنفس حبس عن إدراك الصواب نعوذ بالله من ذلك .

---

(١) هذا تجن آخر على الغزالى يحتسب من شطحات ابن الجوزى .
(٢) جزء من الآية ٨٠ من سورة يوسف .

٧٠ ـ فصل : المن بالعبادة

تأملت قوله عز وجل : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمانِ(١) » ، فرأيت فيه معنى عجيبا .

وهو أنهم لما وُهبت لهم العقول فتدبروا بها عيب الأصنام ، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة ، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء ، كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب الذى به باينوا البهائم .

فإذا آمنوا بفعلهم الذى ندب إليه العقل الموهوب ، فقد جهلوا قدر الموهوب ، وغفلوا عن وهب .

وأى شىء لهم فى الثمرة والشجرة ليست ملكا لهم ؟

فعلى هذا كل متعبد ومجتهد فى علم إنما رأى بنور اليقظة ، وقوة الفهم والعقل صوابا ، فوقع على المطلوب ، فينبغى أن يوجه الشكر إلى من بعث له فى ظلام الطبع القبس .

ومن هذا الفن حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار ، فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار ، فقالوا : تعالوا نتوسل بصالح أعمالنا ، فقال كل منهم : فعلت كذا وكذا . وهؤلاء إن كانوا لاحظوا نعمة الواهب للعصمة عن الخطأ فتوسلوا بإنعامه عليهم الذى أوجب تخصيصهم بتلك النعمة عن أبناء جنسهم ، فبه توسلوا إليه .

وإن كانوا لاحظوا أفعالهم ، فلمحوا جزاءها ظناً منهم أنهم هم الذين فعلوا فهم أهل غيبة لاحضور .

---

(١) جزء من الآية ١٧ من سورة الحجرات .

ويكون جواب مسألتهم لقطع منهم الدائمة .

ومثل هذا رؤية المتقى تقواه حتى إنه يرى أنه أفضل من كثير من الخلق .

وربما احتقر أهل المعاصى وتشمخ عليهم . وهذه غفلة عن[1] طريق السلوك ، وربما أخرجت[2] .

ولا أقول لك خالط الفساق احتقاراً لنفسك ، بل اغضب عليهم فى الباطن وأعرض عنهم فى الظاهر ، ثم تلمح جريان الأقدار عليهم ، فأكثرهم لا يعرف من عصى[3] .

وجمهورهم لا يقصد العصيان ، بل يريد موافقة هواه ، وعزيز عليه أن يعصى . وفيهم من غلب عليه تلمح العفو والحلم فاحتقر ما يأتى لقوة يقينه بالعفو .

وهذه كلها ليست بأعذار[4] لهم ، ولكن تلمحه أنت يا صاحب التقوى ، واعلم أن الحجة عليك أوفى من الحجة عليهم ، لأنك تعرف من تعصى ، وتعلم ما تأتى .

بل انظر إلى تقليب القلوب بين إصبعين فربما دارت الدائرة فصرت المنقطع ووصل المقطوع[5] .

---

(١) فى الحديثة : من.

(٢) فى الحديثة : صاحبها على النهج . زيادة دون تنبيه .

(٣) فى الحديثة : لمن عصى .

(٤) فى الحديثة : باعتذار .

(٥) لاشك فى أن المؤلف قد قرأ آداب النفوس للمحاسبى فهو أسبق منه وقد ألح على هذا المعنى .

فالعجب ممن يدلُّ بخير عَلِمَهُ ، وينسى من أنعم ووفق .

٧١ - فصل : أهل البدع والتشبيه

اعلم أن شرعنا مضبوط الأصول ، محروس القواعد ، لا خلل فيه ولا دخل ، وكذلك كل الشرائع .

إنما الآفة تدخل من المبتدعين فى الدين أو الجهال .

مثل ما أثر عند النصارى حين رأوا إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام فتأملوا الفعل الخارق للعادة الذى لا يصلح للبشر ، فنسبوا الفاعل إلى الإلهية.

ولو تأملوا ذاته لعلموا أنها مركبة على النقائص والحاجات، وهذا القدر يكفى فى عدم صلاح إلهيته ، فيعلم حينئذ أن ماجَرَى على يديه فِعْلُ غيره .

وقد يؤثر ذلك فى الفروع . مثل ما روى أنه فرض على النصارى صوم شهر فزادوا عشرين يوما ، ثم جعلوه فى فصل من السنة بآرائهم .

ومن هذا الجنس تخبيط اليهود فى الأصول والفروع،وقد قارب الضلال فى أمتنا هذه المسالك ، وإن كان عمومهم قد حُفظ من الشرك والشك والخلاف الظاهر الشنيع لأنهم أعقل الأمم وأفهمها .

غير أن الشيطان قارب بهم ولم يطمع فى إغراقهم ، وإن كان قد أغرق بعضهم فى بحار الضلال .

فمن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم : جاء بكتاب عزيز من الله عز وجل قيل فى صفته : « ما فرَّطْنا فى الكِتابِ مِنْ شَىء[1] » وبيَّن ماعساه

---

(١) جزء من الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

يشكل مما يحتاج إلى بيانه بسنته كما قيل له : «لِتبيِّن لِلنَّاس ما نزل إليهم[١]».
فقال بعد البيان : تركتكم على بيضاء نقية .

فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه ، ولم يرضوا بطريقة أصحابه ، فبحثوا ثم انقسموا .

فمنهم : من تعرض لما تعب الشرع فى إثباته فى القلوب فمحاه منها ، فإن القرآن والحديث يثبتان الإله عز وجل بأوصاف تقرر وجوده فى النفوس كقوله تعالى «ثم استوى على العرش[٢]» وقوله تعالى «بل يداه مبسوطتان[٣]» وقوله تعالى «ولتصنع على عينى[٤]» وقول النبى ﷺ : ينزل الله إلى السماء الدنيا ويبسط يده لمسىء الليل والنهار[٥] ، ويضحك ويغضب .

وكل هذه الأشياء — وإن كان ظاهرها يوجب تخايل التشبيه — فالمراد منها إثبات موجود ، فلما علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهمات عند سماعها ، قطع ذلك بقوله : «ليس كمثله شىء[٦]» .

ثم إن هؤلاء القوم عادوا إلى القرآن الذى هو المعجز الأكبر ، وقد قصد

---

(١) جزء من الآية ٤٤ من سورة النحل .

(٢) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأعراف . والآية ٣ من سورة يونس . والآية ٢ من سورة الرعد . والآية ٥٩ من سورة الفرقان . والآية ٤ من سورة السجدة . والآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) جزء من الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٤) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه

(٥) راجع الفصل ٤٩ ، ٦١ من هذا الكتاب .

(٦) جزء من الآية ١١ من سورة الشورى .

الشرع تقرير وجوده فقال : « إنا أنزلناه[١] » ، « نزل به الروحُ الأمينُ[٢] » ، « فذرنى ومن يكذّب بهذا الحديث[٣] » ، « وهذا كتابٌ أنزلناه[٤] » ، وأثبته فى القلوب بقوله تعالى : « فى صدور الذين أوتوا العلم[٥] » ، وفى المصاحف بقوله تعالى : « فى لوح محفوظ[٦] » ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو .

فقال قوم من هؤلاء : « مخلوق » فأسقطوا حرمته من النفوس ، وقالوا : لم ينزل ، ولا يتصور نزوله ، وكيف تنفصل الصفة عن الموصوف ، وليس فى المصحف إلا حبر وورق ؟ فعادوا على ما تعب الشارع فى إثباته بالمحو .

كما قالوا : إن الله عزوجل ليس فى السماء ، ولا يقال استوى على العرش ، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ، بل ذاك رحمته ، فمحوا من القلوب ما أريد إثباته فيها ، وليس هذا مراد الشارع .

وجاء آخرون فلم يقفوا على ماحدّه الشرع ، بل عملوا فيه بآرائهم فقالوا : الله على العرش ، ولم يقنعوا بقوله : « ثم استوى على العرش[٧] » .

---

(١) جزء من الآية ٢ من سورة يوسف ، والآية ٣ من سورة الدخان ، والآية ١ من سورة القدر .

(٢) جزء من الآية ١٩٣ من سورة الشعراء .

(٣) جزء من الآية ٤٤ من سورة القلم .

(٤) جزء من الآية ٩٢ من سورة الأنعام ، والآية ١٥٥ من سورة الأنعام

(٥) جزء من الآية ٤٩ من سورة العنكبوت .

(٦) جزء من الآية ٢٢ من سورة البروج .

(٧) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأعراف ، والآية ٣ من سورة يونس ، والآية ٢ من سورة الرعد ، والآية ٥٩ من سورة الفرقان ، والآية ٤ من سورة السجدة ، والآية ٤ من سورة الحديد .

ودفن لهم أقوام من سلفهم دفائن ، ووضعت لهم الملاحدة أحاديث ، فلم يعلموا ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فأثبتوا بها صفاته، وجمهور الصحيح[1] منها آت على توسع العرب ، فأخذوه هم على الظاهر ، فكانوا فى ضرب المثل كجُحا فإن أمه قالت له : احفظ الباب ، فقلعه ومشى به ، فأَخذ ما فى الدار ، فلامته أمه . فقال : إنما قلتِ احفظ الباب ، وما قلتِ احفظ الدار .

ولما تخايلوا صورة عظيمة على العرش ،أخذوا يتأولون ما ينافى وجودها على العرش، مثل قوله : « ومن أتانى يمشى ، أتيته هرولة » . فقالوا : ليس المراد به دنو الاقتراب ، وإنما المراد قرب المنزل والحظ .

وقالوا فى قوله تعالى: «إلا أنْ يأتيهمُ اللهُ فِى ظُللٍ[2]» : هو محمول على ظاهرها فى مجىء الذات .

فهم يحلونهُ عاماً ويحرّمونه عاماً .

ويسمون الإضافات إلى الله تعالى صفات ، فإنه قد أضاف إليه النفخ والروح .

وأثبتوا خلقه باليد ، فلو قالوا خلقه[3] لم يمكن إنكار هذا بل قالوا هى صفة تولى بها خلق آدم دون غيره .

فأىّ مزية كانت تكون لآدم ؟

فشغلهم النظر فى فضيلة آدم ، عن النظر إلى ما هو يليق بالحق عما لا يليق به .

---

(١) فى الحديثة : صفات جمهور الصحيح منها .
(٢) جزء من الآية ٢١ من سورة البقرة .
(٣) فى الحديثة : قالوا خلقه بقدرته .

فإنه لا يجوز عليه المس ، ولا العمل بالآلات ، وإنما آدم أضافه إليه ، فقالوا : نطلق على الله تعالى اسم الصورة لقوله : خلق آدم على صورته .

وفهموا هذا الحديث وهو قوله عليه السلام : إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، ولا يقل قبح الله وجهك ولا وجهاً أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته .

فلو كان المراد به الله عز وجل لكان وجه الله سبحانه يشبه وجه هذا المخاصم لأن الحديث كذا جاء — ولا وجهاً أشبه وجهك — ورووا حديث خولة بنت حكيم : وإن آخر وطئة وطئها الله بوج[1] وما علموا النقل ولا السير وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، وأن المراد به آخر وقعة قاتل فيها المسلمون بوجّ ، وهي غزاة حنين. فقالوا: نحمل الخبر على ظاهره ، وأن الله وطيء ذلك المكان .

ولا شك أن عندهم أن الله تعالى كان في الأرض ثم صعد إلى السماء ، وكذلك قالوا في قوله: « إن الله لا يمل حتى تملوا» قالوا : يجوز أن الله يوصف بالملل فجهلوا اللغة وما علموا أنه لو كانت « حتى » ههنا للغاية لم تكن بمدح لأنه إذا مل حين يمل فأي مدح ، وإنما هو كقول الشاعر :

جلبت مني هذيل بخرق	لا يمل الشر حتى يملوا

والمعنى لا يمل وإن ملوا .

وقالوا في قوله عليه الصلاة والسلام : « الرحم شجنة من الرحمن تتعلق بحقوَيِ الرحمن » . فقالوا — الحقو — صفة ذات وذكروا أحاديث لو رويت في نقض الوضوء ما قبلت .

---

(١) الوطأة : الغزوة . ووج : في الطائف .

وعمومها وضعته الملاحدة كما يروى عن عبد الله بن عمرو . وقال : « خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر » فقالوا : نثبت هذا على ظاهره . ثم أرضوا العوام بقولهم : ولا نثبت جوارح ، فكأنهم يقولون فلان قائم وما هو قائم .

فاختلف قولهم هل يطلق على الله عز وجل أنه جالس أو قائم كقوله تعالى : « قائما بالقسط[1] » .

وهؤلاء أخس فهماً من جحا لأن قوله قائماً بالقسط لا يراد به القيام وإنما هو كما يقال : الأمير قائم بالعدل .

وإنما ذكرت بعض أقوالهم لئلا يُسكن إلى شيء منها . فالحذر من هؤلاء عبادة[2] .

وإنما الطريق طريق السلف . على أنني أقول لك قد قال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : مِنْ ضِيقِ عِلمِ الرَّجُل أنْ يُقلد في دينه الرجال . فلا ينبغي أن تسمع من معظّم في النفوس شيئاً في الأصول فتقلده فيه .

ولو سمعت عن أحدهم مالا يوافق الأصول الصحيحة فقل : هذا من الراوي ، لأنه قد ثبت عن ذلك الإمام أنه لا يقول[3] بشيء من رأيه .

فلو قدرنا صحته عنه فإنه لا يقلد في الأصول ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما .

فهذا أصل يجب البناء عليه فلا يهولنك ذكر معظّم في النفوس .

---

(١) جزء من الآية ١٨ من سورة آل عمران .
(٢) في الحديثة : فمالهم فقه ولا عبادة .
(٣) في الدمشقية : أنه يقول . خطأ في المعنى .

وكان المقصود من شرح هذا أن ديننا سليم ، وإنما أدخل أقوام فيه ما تأذينا به .

ولقد أدخل المتزهدون فى الدين ما ينفر الناس[1] ، حتى إنهم يرون أفعالهم فيستبعدون الطريق .

وأكثر أدلة هذه الطريق القُصَّاص ، فإن العامى إذا دخل إلى مجلسهم وهو لا يحسن الوضوء كلموه بدقائق الجنيد ، وإشارات الشبلى . فرأى ذلك العامى أن الطريق الواضح لزوم زاوية وترك الكسب للعائلة ومناجاة الحق فى خلوة على زعمه .

مع كونه لا يعرف أركان الصلاة ، ولا أدَّبهُ العلم ، ولا قوَّم أخلاقه شىء من مخالطة العلماء .

فلا يستفيد من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الإصطبل .

فإن امتد عليه الزمان فى تقلله زاد يبسه فربما خايلت له الماليخوليا أشباحاً يظنهم الملائكة ثم يطأطىء رأسه ، ويمد يده للتقبيل .

فكم قد رأينا من أكار ترك الزرع وقعد فى زاوية ، فصار إلى هذه الحالة فاستراح من تعبه .

فلو قيل له عد مريضاً ، قال : مالى عادة . فلعن الله عادة تخالف الشريعة .

فيرى العامة بما يورده[2] القصاص أن طريق الشرع هذه ، لا التى عليها الفقهاء ، فيقعون فى الضلال .

---

(١) فى الحديثة : ينفر الناس منه . والمؤلف يريد الناس مفعولا به .

(٢) فى الحديثة : هؤلاء . ولا أصل لها .

ومن المتزهدين من لا يبالى عملَ بالشرع أم لا .

ثم يتفاوت جهالهم ، فمنهم من سلك مذهب الإباحة ويقول : الشيخ لا يعارض ، وينهمك فى المعاصى .

ومنهم : من يحفظ ناموسه فيفتى بغير علم، لئلا يقال : الشيخ[1] لا يدرى

ولقد حدثنى الشيخ أبو حكيم رحمة الله عليه : أن الشريف الدحالى[2] — وكان يُقصَد فيُزَار ويُتبرك به — حضر عنده يوما فسئل أبو حكيم — هل تحل المطلقة ثلاثا إذا ولدت ذكراً؟ — قال: فقلت: لا والله ، فقال لى الشريف: اسكت فوالله لقد أفتيت الناس بأنها تحل من ههنا إلى البصرة .

وحكى لى الشيخ أبو حكيم : أن جد آذاد الحداد ، وكان يتوسم بالعلم ، جاءت إليه امرأة فزوجها من رجل ، ولم يسأل عن انقضاء العدة ، فاعترضها الحاكم وفرق بينها وبين الزوج ، وأنكر على المزوِّج

فلقيته[3] المرأة . فقالت : ياسيدى ، أنا امرأة لا أعلم ، فكيف زوجتنى؟ فقال : دعى حديثهم ، ما أنت إلا طاهرة مطهرة .

وحدثنى بعض الفقهاء عن رجل من العباد أنه كان يسجد للسهو سنين ، ويقول : والله ما سهوت ، ولكن أفعله احترازاً ، فقال له الفقيه : قد بطلت صلاتك كلها ، لأنك زدت سجوداً غير مشروع .

---

(١) كيف سماهم شيوخا وما فى سلوك الشيوخ شىء من هذا ؛ بل هو سلوك الجهلاء الأدعياء .

(٢) فى الحديثة : الدحالى . والتصحيح من ت ، م والدمشقية .

(٣) فى الحديثة · قال فلقيته .

ثم من الدَّخل الذى دخل ديننا طريق المتصوفة[١] فإنهم سلكوا طرقا أكثرها تنافى الشريعة ، وأهل التدين منهم يقللون ويخففون .

وهذا ليس بشرع ، حتى إن رجلا كان قريباً من زمانى يقال له كثير ، دخل إلى جامع المنصور وقال : عاهدت الله عهداً ونقضته ، فقد ألزمت نفسى ألا تأكل أربعين يوماً .

فحدثنى من رآه أنه بقى عشرة أيام ثم فى العشر الرابع ، أشرف على الموت

قال : فما انقضت حتى تفرغ ، فصب فى حلقه ماء فسمعنـا له نشيشاً كنشيش المقلاة ، ثم مات بعد أيام[٢] .

فانظروا إلى هذا المسكين وما فعله به جهله .

ومنهم من فسح لنفسه فى كل ما يحب من التنعم واللذات ، واقتنع من التصوف بالقميص والفوطة والعمامة اللطيفة ، ولم ينظر من أين يأكل ولا من أين يشرب ، وخالط الأمراء من أرباب الدنيا ، ولُبَّاس الحرير ، وشُرَّاب الخمور ، حفظا لماله وجاهه .

ومنهم أقوام عملوا سنناً لهم تلقوها من كلمات أكثرها لا يثبت .

ومنهم من أكب على سماع الغناء والرقص واللعب ، ثم انقسم هؤلاء ، فنهم من يَدَّعى العشق فيه ، ومنهم من يقول بالحلول ، ومنهم من يسمع على وجه الهوى واللعب[٣] .

---

(١) فلماذا يشيد المؤلف بسلوكهم فى كتبه وأخصها اللطائف ، والمنتخب (مخطوط ١٠١٤ دار الكتب المصرية) ولعله يريد الأدعياء منهم ، أما أوائلهم فكانوا أهل فقه وزهد وعبادة .

(٢) ليس هذا معروفا بين قدامى الصوفية المعتبرين .

(٣) ليس هذا الهراء مذاهب كبار الصوفية .

وكلا الطريقين يفسد العوام الفساد العام .

وهذا الشرح يطول. وقد صنفت كتباً ترى فيها البسط الحسن إن شاء الله تعالى ، منها « تلبيس إبليس »

والمقصود أن تعلم أن الشرع تام كامل فإن رُزقت فهماً له فأنت تتبع الرسول ﷺ وأصحابه ، وترك بنيات الطريق ولا تقلد فى دينك الرجال .

فإن فعلت فإنك لا تحتاج إلى وصية أخرى .

واحذر جمود النقلة ، وانبساط المتكلمين ، وجموع المتزهدين ، وشرَهَ أهل الهوى ، ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل ، وعمل المتعبدين بغير علم .

ومن أيده الله تعالى بلطفه ، رزقه الفهم ، وأخرجه عن ربقة التقليد ، وجعله أمة وحده فى زمانه ، لا يبالى بمن عبث ، ولا يلتفت إلى من لام ، قد سلم زمامه إلى دليله فى واضح السبيل[١] .

عصمنا الله وإياكم من تقليد المعظمين، وألهمنا اتباع الرسول ﷺ ، فإنه درة الوجود ، ومقصود الكون صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ورزقنا اتباعه مع أتباعه .

٧٢ ـ فصل : طبيعة الزمن

اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل: « وتلكَ الأيام نُداولها بينَ الناسِ[٢] » .

---

(١) فى الحديثة : إلى دليل واضح السبيل .

(٢) جزء من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران .

فتارة فقر ، وتارة غنى ، وتارة عز ، وتارة ذل ، وتارة يفرح الموالى ، وتارة يشمت الأعادى .

فالسعيد[١] من لازم أصلا واحداً على كل حال ،وهو تقوى الله عز وجل فإنه إن استغنى زانته ، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر ، وإن عوفى تممت النعمة عليه ، وإن ابتلى حملته[٢] ، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد ، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه .

لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير . والتقوى أصل السلامة حارس لاينام ، يأخذ باليد عند العثرة ويواقف[٣] على الحدود .

والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى فإنها ستحول[٤] وتخليه خاسراً .

وَلازِم التقوى فى كل حال فإنك لا ترى فى الضيق إلا السعة ، وفى المرض إلا العافية .

هذا نقدها العاجل . والآجل معلوم .

٧٣ — فصل : جاهد هواك

تأملت أمراً عجيباً ، وأصلا ظريفاً ، وهو انهيال الابتلاء على المؤمن . وعرض صورة اللذات عليه مع قدرته على نيلها . وخصوصا ما كان فى غير كلفة من تحصيله كمحبوب موافق فى خلوة حصينة .

---

(١) فى الحديثة : فالسيد .
(٢) فى الحديثة : جملته . ومراد المؤلف حملته بيد الصبر عند البلوى .
(٣) فى الحديثة : ويواف .
(٤) أى : ستذهب .

فقلت : سبحان الله ، ههنا يبين أثر الإيمان لا فى صلاة ركعتين .

والله ما صعد يوسف عليه السلام ولا سعد إلا فى مثل ذلك المقام، فبالله عليكم ياإخوانى ، تأملوا حاله لو كان وافق هواه ، من كان يكون ؟

وقيسوا بين تلك الحالة ، وحالة آدم عليه السلام ، ثم زنوا بميزان العقل عقبى تلك الخطيئة ، وثمرة هذا الصبر .

واجعلوا فهم الحال عدّة لكم عند كل مشتهى .

وإن اللذات لتعرض على المؤمن ، فمتى لقيها فى صف حربه وقد تأخر عنه عسكر التدبر للعواقب هُزم .

وكأنى أرى الواقع فى بعض أشراكها ، ولسان الحال يقول له : قف مكانك ، أنت وما اخترت لنفسك .

فغاية أمره الندم والبكاء .

فإن أمن إخراجه من تلك الهوّة لم يخرج إلا مدهونا بالخدوش .

وكم من شخص زلت قدمه ، فما ارتفعت بعدها .

ومن تأمل ذل إخوة يوسف عليهم السلام يوم قالوا: « وَتصدَّقْ علينا»[1]، عرف شؤم الزلل[2] .

ومن تدبر أحوالهم قاس ما بينهم وبين أخيهم من الفروق . وإن كانت توبتهم قبلت ، لأنه ليس من رَقعَ وَخاطَ، كمنْ ثوْبُه صحيح .

---

(١) جزء من الآية ٨٨ من سورة يوسف .

(٢) كرر هذا المعنى بإلحاح فى كتابه : اللطائف ، والمنتخب المخطوط .

ورب عظم هيض لم ينجبر ، فإن جبر فعلى وَهى .

فتيقظوا إخوانى لعرض المشتبهات على النفوس ، واستوثقوا من لُجم الخيل .

وانتهوا للغيم إذا تراكم بالصعود إلى تلعة .

فربما مد[1] الوادى فراح بالركب .

٧٤ ـ فصل : سر اجابة الدعاء

تأملت حالة عجيبة ، وهى : أن المؤمن تنزل به النازلة فيدعو ، ويبالغ ، فلا يرى أثراً للإجابة .

فإذا قارب اليأس نُظر حينئذ إلى قلبه ، فإن كان راضياً بالأقدار ، غير قنوط من فضل الله عز وجل ، فالغالب تعجيل الإجابة حينئذ ، لأن هناك يصلح[2] . الإيمان (ويهزم)[3] الشيطان ، وهناك تبين مقادير الرجال .

وقد أشير إلى هذا فى قوله تعالى : « حتى يقول الرسول والذين آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصرُ اللهِ[4] » .

وكذلك جرى ليعقوب عليه السلام فإنه لما فقد ولداً ، وطال الأمر عليه ، لم ييأس من الفرج ، فأخذ ولده الآخر ، ولم ينقطع أمله من فضل ربه « أن يَأتِينى بهم جميعاً[5] » .

---

(١) فى الحديثة : مر الوادى . ولا معنى له .
(٢) فى الحديثة : يقهر .
(٣) ساقطة من الحديثة .
(٤) جزء من الآية ٢١٤ من سورة البقرة .
(٥) جزء من الآية ٨٣ من سورة يوسف .

وكذلك قال زكريا عليه السلام «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا[١]» .

فإياك أن تستطيل مدة الإجابة ، وكن ناظراً إلى أنه المالك ، وإلى أنه الحكيم فى التدبير ، والعالم بالمصالح ، وإلى أنه يريد اختبارك ليبلو أسرارك ، وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك ، وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك ، إلى غير ذلك . وإلى أنه يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس .

وكل واحدة من هذه الأشياء تقوّى الظن فى فضله ، وتوجب الشكر له ، إذ أهّلك بالبلاء للالتفات إلى سؤاله ، وفقر[٢] المضطر إلى اللجأ إليه غنى كله .

٧٥ ـ فصل : الغريزة

لما كان بدن الآدمى لا يقوم إلا باجتلاب المصالح ودفع المؤذى ، ركب فيه الهوى ، ليكون سبباً لجلب النافع . والغضبُ ليكون سبباً لدفع المؤذى .

ولولا الهوى فى المطعم ، ما تناول الطعام ، فلم يقم بدنه ، فجعل له إليه ميل وتوق .

فإذا حصل له قدْرُ ما يقيم بدنه زال التوق ، وكذلك فى المشرب والملبس والمنكح .

وفائدة المنكح من وجهين: أحدهما :إبقاء الجنس، وهو معظم المقصود. والثانى : دفع الفضلة المحتقنة المؤذى احتقانها .

ولولا تركيب الهوى المائل بصاحبه إلى النكاح ما طلبه أحد، ففات النسل وآذى المحتقن[٣] .

---

(١) جزء من الآية ٤ من سورة مريم .

(٢) فى الدمشقية : والفقر .

(٣) هذه الفقرات مكررة فى كتاب اللطائف للمؤلف .

فأما العارفون فإنهم فهموا المقصود ، وأما الجـاهلون فإنهم مالوا مع الشهوة والهوى ، ولم يفهموا مقصود وضعها ، فضاع زمانهم فيما لا طائل فيه ، وفاتهم ما خلقوا لأجله ، وأخرجهم هواهم إلى فساد المال ، وذهاب العرض والدين ، ثم أداهم إلى التلف .

وكم قد رأينا من متنعم يبالغ فى شراء الجوارى ، ليحرك طبعه بالمستجد ، فما كان بأسرع من أن وهنت قواه الأصلية فتعجل تلفه[1] .

وكذلك رأينا من زاد غضبه فخرج عن الحد فقتك بنفسه وبمن يحبه .

فمن علم أن هذه الأشياء إنمـا خلقت إعانة للبدن على قطع مراحل الدنيا ، ولم تخلق لنفس الالتذاذ ، وإنما جعلت اللذة فيها كالحيلة فى إيصال النفع بها[2] إذ لو كان المقصود التنعم بها لما جعلت الحيوانات البهيمية أوفى حظا من الآدمى منها .

فطوبى لمن فهم حقائق الوضع ؛ ولم يمل به الهوى عن فهم حكم المخلوقات

٧٦ — فصل : سمة العصاة

من تأمل عواقب المعاصى رآها قبيحة .

ولقد تفكرت فى أقوام أعرفهم يقرون بالزنا وغيره ، فأرى من تعثرهم فى الدنيا مع جلادتهم مالا يقف عند حد .

وكأنهم قد ألبسوا ظلمة ، فالقلوب تنفر عنهم .

---

(١) بل لقد حث على هذا فى كتابه (الطب الروحانى) ملحق مطبوع بكتاب اللطائف .

(٢) فى الحديثة زيادة : رشد .

فإن اتسع لهم شيء فأكثره من مال الغير ، وإن ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القدر .

هذا وقد شغلوا بهذه الأوساخ عن ذكر الآخرة .

ثم عكست فتفكرت فى أقوام صابروا الهوى ، وتركوا مالا يحل .

فمنهم من قد أينعت له ثمرات الدنيا من قوت مستلذ ، ومهاد مستطاب ، وعيش لذيذ ، وجاء عريض ، فإن ضاق بهم أمر وسعه الصبر ، وطيبه الرضى ففهمت بالحال معنى قوله تعالى : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين[1] » .

٧٧ — فصل : الزم باب مولاك

ينبغى للعاقل أن يلازم باب مولاه على كل حال ، وأن يتعلق بذيل فضله إن عصى وإن أطاع .

وليكن له أنس فى خلوته به ، فإن وقعت وحشة فليجتهد فى رفع الموحش كما قال الشاعر :

أمستوحش أنت مما جنيتَ

فأحسن إذا شئتَ واستأنس

فإن رأى نفسه مائلا إلى الدنيا طلبها منه ، أو إلى الآخرة سأله التوفيق للعمل لها :

فإن خاف ضرر ما يرومه من الدنيا سأل الله إصلاح قلبه ، وطب مرضه فإنه إذا صلح لم يطلب ما يؤذيه .

---

(١) جزء من الآية ٩٠ من سورة يوسف .

ومن كان هكذا كان فى العيش الرغد، غير أن من ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى، فإنه لا يصلح الأنس إلا بها.

وقد كان أرباب التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن اللج[١] والسؤال.

وفى الخبر[٢]: أن قتيبة بن مسلم لما صافّ الترك[٣] هاله أمرهم فقال: أين محمد بن واسع؟ فقيل: هو فى أقصى الميمنة جانح على سية قوسه، يومى بأصبعه نحو السماء، فقال قتيبة: تلك الأصبع الفاردة أحب إلىّ من مائة ألف سيف شهير، وسنان طرير، فلما فتح عليهم قال له: ما كنت تصنع؟ قال: آخذ لك بمجامع الطرق.

٧٨ - فصل: كن حكيما ازاء النعم

ينبغى لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه أن يظهر منها ما يبين أثرها، ولا يكشف جملتها، وهذا من أعظم لذات الدنيا التى يأمر الحزم بتركها، فإن العين حق.

وإنى تَفَقَّدْتُ النعم فرأيت إظهارها حلواً عند النفس، إلا أنها إن أظهرت لوديد[٤] لم يُؤْمَنْ تَشَعُّثُ باطنه بالغيظ.

وإن أظهرت لعدو فالظاهر إصابته بالعين لموضع الحسد، إلا أنى رأيت شر الحسود كاللازم، فإنه فى حال البلاء يتشفى، وفى حال النعم يصيب بالعين

ولعمرى إن المنعم عليه يشتهى غيظ حسوده، ولكنه لا يؤمن أن يخاطر

---

(١) فى الحديثة والخانجى: اللجأ.
(٢) فى الحديثة: وفى الحديث. وليس هذا حديثا.
(٣) أى واجههم فى الحرب.
(٤) فى الحديثة: لودود.

بنعمته ، فإن الغالب إصابة الحاسد لها بالعين . فلا يساوى الالتذاذ بإظهار ماغيظ به ما أفسدت عينه بإصابتها .

وكتمان الأمور فى كل حال فعل الحازم ، فإنه إن كشف مقدار سنّه استهرموه إن كان كبيراً ، واحتقروه[1] إن كان صغيراً .

وإن كشف ما يعتقده ناصبه الأضداد بالعداوة .

وإن كشف قدر ماله استحقروه إن كان قليلا ، وحسدوه إن كان كثيراً ، وفى هذه الثلاثة يقول الشاعر :

احْفَظْ لسانَكَ لا تَبُحْ بثلاثةٍ
سِنٍّ ومَال ما استَطعْتَ ومَذْهَبِ

فعَلى الثَّلاثةِ تُبْتَلى بثلاثةٍ
بمُمَوِّه ومُمخرِقٍ وَمُكَذِّبِ

وقس على ما ذكرت مالم أذكره ، ولا تكن من المذاييع الغر الذين لا يحملون أسرارهم حتى يفشوها[2] إلى من لا يصلح .

ورب كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان .

٧٩ - فصل : لا تغتر بالظواهر

رأيت كل من يعثر بشىء أو يزلق فى مطر يلتفت إلى ما عثر به ، فينظر إليه ، طبعاً موضوعا فى الخلق .

---

(١) فى الحديثة : أو احتقروه .

(٢) فى الحديثة : حتى يفشونها . وهو خطأ لغوى .

إما ليحذر منه إن جاز عليه مرة أخرى ، أو لينظر — مع احترازه وفهمه كيف فاته التحرز من مثل هذا .

فأخذت من ذلك إشارة وقلت : يامن عثر مراراً هلا أبصرت ما الذى عثرك[١] فاحترزت من مثله ، أو قبحت لنفسك مع حزمها تلك الواقعة .

فإن الغالب ممن يلتفت أن معنى التفاته كيف عثر مثلى مع احترازه بمثل ما أرى .

فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلانى والذنب الفلانى ؟ .

كيف غرك زخرف تعلم بعقلك باطنه ، وترى بعين فكرك مآله ؟ كيف آثرت فانياً على باق ؟ كيف بعت بوكس[٢] ؟ كيف اخترت لذة رقدة على انتباه معاملة ؟ .

آه لك لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يُقلمُّها ظهر[٣] ، وتنكيسَ رأس أمسى بعيد الرفع ، ودموع حزن على قبح فعل ما لمددها انقطاع .

وأقبح الكل ، أن يقال لك : بماذا ؟ ومن أجل ماذا ؟ وهذا على ماذا ؟ يامن قلب الغرور عليه الصنجة ، وَوُزنَ له والميزان راكب[٤] .

٨٠ - فصل : الهدى والنور

تأملت قوله تعالى : «فَمَن اتَّبَعَ هُدَاىَ فلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىَ[٥]» .

---

(١) فى الحديثة : أعثرك .

(٢) أى : بغبن وثمن تافه .

(٣) يعنى : لا تحملها دابة .

(٤) فى الحديثة : قلب الغرور عليه الصحيفة . ولا أصل لها ، ولا يقتضيها السياق . ومعنى الميزان راكب ، أى : متعلق لا يزن ولا يتحرك .

(٥) جزء من الآية ١٢٣ من سورة طه .

قال المفسرون : هداى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابى .

فوجدته على الحقيقة أن كل من اتبع القرآن والسنة وعمل بما فيهما ، فقد سلم من الضلال بلا شك ، وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك ، إذا مات على ذلك .

وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلا ، ويبين هذا قوله تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً[1] » .

فإن رأيته فى شدة فله من اليقين بالجزاء ما يُصَيِّرُ الصَّابَ[2] عنده عسلا .

وإلا غلب طيب العيش فى كل حال .

والغالب أنه لا ينزل به شدة إلا إذا انحرف عن جادة التقوى .

فأما الملازم لطريق التقوى فلا آفة تطرقه ، ولا بلية تنزل به ، هذا هو الأغلب .

فإن تدر[3] من تطرقه البلايا مع التقوى ، فذاك فى الأغلب لتقدم ذنب يجازى عليه ، فإن قدرنا عدم الذنب . فذاك لإدخال ذَهَبِ صَبْره كِير البلاء ، حتى يخرج تبراً أحمر ، فهو يرى عذوبة العذاب . لأنه يشاهد المبتلى فى البلاء الآلم[4] .

قال الشبلى : أحبك الناس لنعمائك ، وأنا أحبك لبلائك[5] .

---

(١) جزء من الآية ٢ من سورة الطلاق .
(٢) الصاب : المر كالعلقم .
(٣) فى الحديثة : فإن وجد .
(٤) فى الحديثة : لا الألم .
(٥) ظنها محقق الحديثه شعراً ، وليست كذلك .

٨١ - فصل : آثار الذنوب

لا ينال لذة المعاصى إلا سكران بالغفلة .

فأما المؤمن فإنه لا يلتذ ، لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علم التحريم ، وحذر العقوبة .

فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهى ، فيتنغص عيشه فى حال التذاذه .

فإن غلب سكر الهوى كان القلب متنغصاً بهذه المراقبات ، وإن كان الطبع فى شهوته .

وما هى إلى لحظة ، ثم خذ من غريم،ندم ملازم، وبكاء متواصل ،وأسف على ما كان من طول الزمان .

حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذار[1] العتاب ، فأف للذنوب ما أقبح آثارها وماأسوأ أخبارها ، ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة.

٨٢ ـ فصل : عزلة العالم عن الشر

بكرت يوما أطلب الخلوة إلى جامع الرصافة ، فجعلت أجول وحدى وأتفكر فى ذلك المكان ومن كان به من العلماء والصالحين .

ورأيت أقواما قد جاوروا فيه فسألت أحدهم : منذ كم أنت هاهنا ؟ فأومأ إلى قريب من أربعين سنة .

فرأيته فى بيت كثير الدرن والوسخ ، وجعلت أتفكر فى حبسه لنفسه

---

(١) فى الحديثة : حذر .

عن النكاح هذه المدة ، فأخذت النفس تحسن ذلك ، وتذم الدنيا والاغترار بها

فأقبل العلم ينكر على النفس ، ونهض الفهم لحقائق الأمور ، وموضوع الشرع يقوى ما قال العلم . فينحل من ذلك أن قلت النفس : اعلمى أن هؤلاء على ضربين .

منهم من يجاهد نفسه فى الصبر على هذه الأحوال ، فتفوته فضائل المخالطة لأهل العلم والعمل وطلب الولد ، ونفع الخلق ، وانتفاع نفسه بمجالسة أهل الفهم ، فيحدث له من نفسه حالة تشابه فيها الوحش فيؤثر الانفراد لنفس الانفراد .

وربما يبس[1] الطبع ، وساء الخلق ، وربما حدث من حبس مائه المحتقن سمية أفسدت بدنه وعقله ، وربما أورثته الخلوة وسوسة ، وربما ظن أنه من الأولياء واستغنى بما يعرفه ، وربما خيل له الشيطان أشياء من الخيالات وهو يعدها كرامات ، وربما ظن أن الذى هو فيه الغاية ولا يدرى أنه إلى الكراهة أقرب .

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نهى أن يبيت الرجل وحده ، وهؤلاء كل منهم يبيت وحده ، ونهى عن التبتل وهذا تبتل ، ونهى عن الرهبانية وهذا من خفى خدع[2] إبليس التى يوقع بها فى ورطات الضلال بألطف وجه وأخفاه .

والضرب الثانى : مشايخ قد فنوا فانقطعوا ضرورة ، إذ ليس لأحدهم مأوى ، فهم فى مقام الزمنى .

---

(١) فى الدمشقية : حبس .

(٢) زاد محقق الحديثة فى العبارة هكذا : وهذا ترهب فوقيع فى خفى .. ولا أصل للزيادة .

وإن كان الضرب الأول قدقطعوا حبل نفوسهم في العلم والعمل والكسب وتعلقت هممهم بفتوح[1] يطرق عليهم الباب ، فرضوا بالعمى بعد البصر ، وبالزمن[2] بعد الإطلاق ، فقالت لى النفس : لا أرضى[3] هذا الذى تقوله ، فإنك إنما تميل إلى إيثار نكاح المستحسنات والمطاعم المشتهيات .

فإذا لم تكن من أهل التعبد فلا تطعن فيهم .

فقلت لها : إن فهمت حدثتك وإن كنت تقلدين صور الأحوال فلا فهم لك .

أما المستحسنات فإن المقصود من النكاح أشياء منها طلب الولد ، ومنها شفاء النفس بإخراج الفضلة المؤذية ، وكمال خروجها لا يكون إلى بوجود المستحسن .

واعتبر هذا بالوطء دون الفرج فإنه يخرج من الفضلات مالا يخرج بالوطء فى الفرج . وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن شواغلها فتدرى أين هى .

كما نأمر القاضى بالأكل قبل الحكم، وننهاه عن الحكم وهو غضبان أو حاقن .

وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد لتمام النطفة التى تخلق منها .

ثم للنفس حظ فهو يستوفيه استيفاء الناقة حظها من العلف فى السفر ، وذلك يعين على سيرها .

---

(١) أى بعطايا أو هدايا يفتح عليهم بها .

(٢) فى الحديثة : وبالقيد . وما أثبتناه فى ت وم .

(٣) زاد فى الحديثة : لك . ولا أصل لها .

وأما المطاعم فالجاهل من يطلبها لذاتها أو لنفس لذاتها .

وإنما المراد إصلاح الناقة لجمع همها ، ونيل مرادها من غرضها الصارف لها عن الفكر فى هواها .

وإذا تأملت حال الشرب[1] الأول رأيت من هذا عجباً ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم اختار لنفسه عائشة رضى الله عنها وكانت مستحسنة . (ورأى زينب فاستحسنها ، فتزوجها ، وكذلك اختار صفية ، وكان إذا وصفت له امرأة بعث يخطبها[2]) .

وكان لعلى رضى الله عنه أربع حرائر ، وسبع عشرة سرية مات عنهن .

وقبل هذه الأمة فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ، ولسليمان عليه السلام ألف امرأة ، فمن ادعى خللا فى هذه الطرق ، أو أن هؤلاء آثروا هواهم ، وأنفقوا بضائع العمر فى هذه الأغراض وغيرها أفضل ، فقد ادعى على الكاملين النقصان ، وإنما هو الناقص فى فهمه لا هم .

وقد كان سفيان الثورى إذا سافر ففى سفرته حمل مشوية وفالوذج، وكان حسن المطعم ، وكان يقول : إن الدابة إذا لم تحسن إليها لم تعمل .

وهذه الفنون التى أشرت اليها إن قصدت للحاجة إليها ، أو لقضاء وطر النفس منها ، أو لبلوغ الأغراض الدينية والدنيوية منها ، فكله قصد صحيح لا يعكر عليه من يقوم ويقعد فى ركعات لا يفهم معناها ، وفى تسبيحات أكثر ألفاظها ردية .

---

(١) فى الحديثة والخانجى : الشرب .

(٢) ما بين الحاصرتين سقط من الحديثة

كلا ليس إلا العلم الذى هو أفضل الصفات ، وأشرف العبادات ، وهو الآمر بالمصالح ، والناطق بالنصائح .

ثم منفعة العلم معروفة ، وزهد الزاهد لا يتعدى عتبة بابه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : لأن يهدى الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس .

ثم اعتبر فضل الرسل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والجوارح[1] . على التى لا تصيد . والطين الذى يعمل منه ما ينتفع به على الطين فى المقلع[2]

وغاية العلماء تصرفهم بالعلم فى المباح ، وأكثر المتزهدين جهلة يستعبدهم تقبيل اليد لأجل تركهم ما أبيح .

فكم فوتت العزلة علما يصلح به أهل[3] الدين ، وكم أوقعت فى بلية هلك بها الدين ، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب[4] ، والله الموفق .

٨٣ ـ فصل : عواقب المعاصى

ينبغى لكل ذى لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصى . فإنه ليس بين الآدمى وبين الله تعالى قرابة ولا رحم ، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل.

وإن كان حلمه يسع الذنوب . إلا أنه إذا شاء عفا فعفا كل كثيف من الذنوب ، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير ، فالحذر الحذر .

ولقد رأيت أقواما من المترفين كانوا يتقلبون فى الظلم والمعاصى باطنة

---

(١) أى الطيور المدربة على الصيد كالصقر والبازى .
(٢) فى الحديثة : فى المطلع . ولا معنى لها .
(٣) فى الحديثة : أصل الدين .
(٤) لأن الإنسان مأمور بترك الشر كله وليس مأموراً بفعل الخير كله .

وظاهرة[١] فتعبوا من حيث لم يحتسبوا .

فقلعت أصولهم . ونُقِضَ ما بَنَوْا من قواعد أحكموها لذراريهم .

وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل ، وظنوا أن ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجرى من شر ، فمالت سفينة ظنونهم . فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم .

ورأيت أقواما من المنتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق عز وجل إليهم فى الخلوات . فمحا محاسن ذكرهم فى الجلوات . فكانوا موجودين كالمعدومين ، لا حلاوة لرؤيتهم ، ولا قلب يحن إلى لقائهم .

فالله الله فى مراقبة الحق عز وجل . فإن ميزان عدله تبين فيه الذرَّة ، وجزاؤه مراصد[٢] المخطىء ولو بعد حين .

وربما ظن (أنه)[٣] العفو — و(إنما)[٤] هو إمهال[٥] وللذنوب عواقب سيئــــة .

فالله الله الخلوات (الخلوات) .

البواطن البواطن . النيات النيات .

فإن عليكم من الله عيناً ناظرة .

---

(١) فى الحديثة : الباطنة والظاهرة .
(٢) فى الحديثة : مرصد : وهو غير المراد .
(٣) ساقطة من الحديثة .
(٤) ساقطة من الحديثة .
(٥) زيادة فى الحديثة بعد كلمة إمهال « إهمالا » .
(٦) ساقطة من الحديثة .

وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه ، فكم (قد)(١) استدرج .

وكونوا على مراقبة الخطايا ، مجتهدين فى محوها .

وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا ، فلعله ...

وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه .

ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى : قدرت على لذة(٢) وليست بكبيرة .

فنازعتنى نفسى إليه ، اعتماداً على صغرها ، وعظم فضل الله تعالى وكرمه .

فقلت لنفسى : إن غلبتِ هذه فأنت أنت ، وإذا أتيت هذه فمن أنت ؟

وذكّرتها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم فى مسامحة كيف انطوت أذكارهم ، وتمكن الإعراض عنهم .

فارعوت(٣) ، ورجعت عما همت به ، والله الموفق .

٨٤ـ فصل : استصغار الذنوب

كثير من الناس يتسامحون فى أمور يظنونها قريبة . وهى تقدح فى الأصول كاستعارة طلاب العلم جزءاً لا يردونه .

وقصد الدخول على من يأكل ليؤكل(٤)

والتسامح بعِرْض العدوّ التذاذاً بذلك،واستصغاراً لمثل هذا الذنب .

---

(١) ساقطه من الحديثة .
(٢) فى الحديثة : هى غاية . ولا أصل لها .
(٣) فى الحديثة : فهم رعوت .
(٤) فى الحديثة زيادة : أو تناول طعام لم يدع الإنسان إليه . ولم نجدها فى ت.ولا.م .

وإطلاق البصر استهانة[1] بتلك الخطيئة .

وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس ، ومن مقام رفعة القدر عند الحق .

(أو فتوى من لا يعلم ، لئلا يقال : هو جاهل ، ونحو ذلك مما يظنه صغيراً وهو عظيم[2]) .

وربما قيل له بلسان الحال : يامن اؤتمن على أمر يسير فخان . كيف ترجو بتدليسك رضا الديّان؟

قال بعض السلف : تسامحت بلقمة فتناولتها ، فأنا اليوم من أربعين سنة إلى خلف .

فالله الله ، اسمعوا ممن قد جرّب ، كونوا على مراقبة . وانظروا في العواقب ، واعرفوا عظمة الناهي . واحذروا من نفخة تُحتَقَرُ ، وشرَرَةٍ تستَصغرُ ، فربما أحرقت بلداً .

وهذا الذي أشرتُ إليه ، يسير يدل على كثير ، وأنموذج يُعرّف باقي المحقرات من الذنوب .

والعلم والمراقبة يُعرّفانك ما أخللت بذكره ، ويعلمانك إن تلمحت بعين البصيرة ، أثر شؤم فعله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

٨٥ ـ فصل : تب إلى الله ثم سله حوائجك

رأيت من نفسي عجباً : تسأل الله عز وجل حاجاتها ، وتنسى جناياتها .

---

(١) في الحديثة : في المحرم هواناً بتلك ... وهو خلاف ما في ت ، م

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

فقلت : يانفس السوء أوَ مثلك ينطق ؟

فإن نطق فينبغى أن يكون السؤال العفو فحسب .

فقالت : فمِمَّنْ أطلب مراداتى ؟.

قلت: ما أمنعك من طلب المراد . إنما أقول حَقِّقِى التوبة ، وانطق .

كما نقول فى العاصى بِسَفَرِهِ إذا اضطر إلى الميتة لا يجوز له أن يأكل ، فإن قيل لنا : أفيموت ! قلنا : لا ، بل يتوب ويأكل .

فالله الله من جراءة على طلب الأغراض مع نسيان ما تقدّم من الذنوب التى توجب تنكيس الرأس ، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى والندم عليه جاءتك مراداتك .

كما رُوِىَ : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين .

وقد كان بِشْرُ الحافى يبسط يديه للسؤال ثم يسبلهما ويقول: مثلى لا يسأل (ما أبقت الذنوب لى وجهاً)[1] .

وهذا يختص ببشر لقوة معرفته ، كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحا فاستحيى للزلل .

فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بُعْدٍ ، فافهم ما ذكرته ، وتشاغل بالتوبة من الزلل .

ثم العجب من سُؤالاَتِك فإنكَ لا تكاد تسأل مُهِمًّا من الدنيا ، بل فضول العيش .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ما تسأل صلاح الدنيا .

فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف .

وليكن حزنك على زلاتك شاغلا لك عن مراداتك ، فقد كان الحسن البصرى شديد الخوف ؛ فلما قيل له فى ذلك قال :

وما يؤمنى أن يكون اطلع على بعض ذنوبى[1] فقال اذهب لاغفرت لك

٨٦ - فصل : دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان

أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان .

بالله ، ما عرفه إلا من خاف منه ، فأما المطمئن فليس من أهل المعرفة .

وفى المتزهدين أهل تغفيل ، يكاد أحدهم يوقن أنه[2] ولى محبوب ومقبول .

وربما توالت (عليه)[3] ألطاف ظنها كرامات ونسى الاستدراج الذى لفت مساكنته الألطاف[4] .

وربما احتقر غيره وظن أن محلته محفوظة به ، تغره ركيعات يتنصب فيها، أو عبادة ينصب بها .

وربما ظن أنه قطب الأرض ، وأنه لا ينال مقامه بعده أحد .

---

(١) فى الحديثة : على فى بعض ذنوبى .

(٢) فى الحديثة : يكاد أحدهم يوطن نفسه على .

(٣) ساقطة من الحديثة .

(٤) فى الحديثة والخانجى : الأعطاف .

وكأنه ما علم أنه بينا موسى مكالم نبيّ يوشع .

وبينا زكريا عليه السلام مجاب الدعوة نشر بالمنشار .

وبينا يحيى عليه السلام يوصف بأنه سيد سلط عليه كافر احتز رأسه .

وبينا بلعام معه الاسم الأعظم صار مثله كمثل الكلب .

وبينا الشريعة يعمل بها نسخت وبطل حكمها .

وبينا البدن معمور خرب وسلط البلى[1] عليه .

وبينا العالم يدأب حتى ينال مرتبة يعتقدها ، نشأ طفل فى زمانه ترقى إلى سبر عيوبه وغلطه .

وكم من متكلم يقول : ما مثلى !! ، لو عاش فسمع ما حدث بعده من الفصاحة عد نفسه أخرس .

هذا وعظ ابن السماك ، وابن عمار ، وابن سمعون . لا يصلح لبعض تلامذتنا ولا يرضاه[2] .

فكيف يعجب من ينفق شيئا[3] . وربما أتى بعدنا من لا يَعدّنا ؟

فالله الله من مساكنة مسكن ، ومخالفة مقام .

وليكن المتيقظ على انزعاج ، محتقراً للكثير من طاعاته ، خائفاً على نفسه من تقلباته ، ونفوذ الأقدار فيه .

---

(١) فى الحديثة : البلاء .

(٢) بالعكس فابن السماك واعظ عالى القدم فى البيان وسحر الاسلوب .

(٣) فى الحديثة : يعجب بنفسه أحدنا .

واعلم أن تلمح هذه الأشياء التى أشرت اليها يضرب عنق العجب ، ويذهب كبر[1] الكبر .

٨٧ - فصل : إنما يتباين الناس بنزول البلاء

من عاش مع الله عز وجل طيب النفس فى زمن السلامة خفت عليه فى زمن البلاء[2] ، فهناك المحك .

إن الملك عز وجل بينا يبنى نقض ، وبينا يعطى سلب ، فطيب النفس والرضا هناك[3] يبين .

فأما من تواصلت لديه النعم فإنه يكون طيب القلب لتواصلها ، فإذا مسته نفحة من البلاء فبعيد ثباته .

قال الحسن البصرى : كانوا يتساوون فى وقت النعم فإذا نزل البلاء تباينوا .

فالعاقل من أعد ذخراً ، وحصل زاداً ، وازداد من العدد للقاء حرب البلاء .

ولابد من لقاء البلاء ، ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت ، فإنها إن نزلت والعياذ بالله فلم تجد معرفة توجب الرضى أو الصبر ، أخرجت إلى الكفر .

ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير وهو يقول فى ليالى موته: ربى هو ذا يظلمنى ، فلم أزل منزعجا مهتما بتحصيل عدة ألقى بها ذلك اليوم .

---

(١) فى الحديثة : بطر الكبر . وكبر الكبر أى معظمه وغالبه ، قال تعالى « والذى تولى كبره » .

(٢) فى الحديثة : لا يوصف بالبطولة إلا إذا خفت عليه ألوان التقلب فى زمن البلاء . ولا أصل لهذه الزيادة .

(٣) فى الحديثة : والرضا عن الله فى تلك الحال . ولا أصل له .

كيف وقد روى أن الشيطان يقول لأعوانه فى تلك الساعة : عليكم بهذا، فإن فاتكم لم تقدروا عليه .

وأى قلب يثبت عند إمساك النفس ، والأخذ بالكظم ، ونزع النفس والعلم بمفارقة المحبوبات إلى ما لا يدرى ما هو ، وليس فى ظاهره إلا القبر والبلاء .

فنسأل الله عز وجل يقيناً يقينا شرّ ذلك اليوم ، لعلنا نصبر للقضاء ، أو نرضى به .

ونرغب إلى مالك الأمور فى أن يهب لنا من فواضل نعمه على أحبابه ، حتى يكون لقاؤه أحب إلينا من بقائنا ، وتفويضنا إلى تقديره أشهى لنا من اختيارنا .

ونعوذ بالله من اعتقاد الكمال لتدبيرنا ، حتى إذا انعكس علينا أمر عُدنا إلى القدر بالتسخط .

وهذا هو الجهل المحض ، والخذلان الصريح ، أعاذنا الله منه .

٨٨ - فصل : صفة العارف

ليس فى الدنيا ولا فى الآخرة أطيب عيشاً من العارفين بالله عز وجل، فإن العارف به مستأنس به فى خلوته .

فإن عمت نعمةٌ علم من أهداها ، وإن مرّ مُرٌّ حلا مذاقه فى فيه ، لمعرفته بالمبتلى .

وإن سأل فتعوّق مقصوده ، صار مراده ما جرى به القدر ، علما منه بالمصلحة بعد يقينه بالحكمة ، وثقته بحسن التدبير .

وصفة العارف أن قلبه مراقب لمعروفه ، قائم بين يديه ، ناظر بعين اليقين إليه ، فقد سرى من بركة معرفته إلى الجوارح ما هذبها .

فإن نطقت فلم أنطق بغيركم   وإن سكت فأنتم عقد إضماري

إذا تسلط على العارف أذى أعرض نظره عن السبب ، ولم ير سوى المسبب ، فهو فى أطيب عيش معه .

إن سكت تفكر فى إقامة حقه ، وإن نطق تكلم بما يرضيه ، لا يسكن قلبه إلى زوجة ولا إلى ولد ، ولا يتشبث بذيل محبة أحد .

وإنما يعاشر الخلق ببدنه ، وَرُوحهُ عِنْدَ مَالك رُوحه .

فهذا الذى لا هَمَّ عليه فى الدنيا ، ولا غمّ عنده وقت الرحيل عنها .

ولا وحشة له فى القبر ، ولا خوف عليه يوم المحشر .

فأما مَنْ عدم المعرفة فإنه معثر لايزال يضج من البلاء لأنه لايعرف المبتلى

ويستوحش لفقد غرضه لأنه لا يعرف المصلحة .

ويستأنس بجنسه لأنه لا معرفة بينه وبين ربه .

ويخاف من الرحيل لأنه لا زاد له ولا معرفة بالطريق .

وكم من عالم وزاهد لم يرزقا من المعرفة إلا ما رزقه العامى البطال ، وربما زاد عليهما .

وكم من عامى رزق منها ما لم يرزقاه مع اجتهادهما .

وإنما هى مواهب وأقسام ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٨٩ ـ فصل : لا قيمة للجنة مع إعراض الحبيب

بالله عليك يامرفوع القدر بالتقوى ، لاتبع عزها بذل المعاصى .

وصابر عطش الهوى فى هجير المشتهى وإن أمض وأرمض .

فإذا بلغت النهاية من الصبرفاحتكم وقل ، فهو مقام من لو أقسم على الله لأبره

تالله لولا صبر عمر ما انبسطت يده بضرب الأرض بالدرة .

ولولا جد أنس بن النضر[1] فى ترك هواه ، وقد سمعت من آثار عزمته : لئن أشهدنى الله مشهداً ليرين الله ما أصنع ، فأقبل يوم أُحد يقاتل حتّى قتل فلم يعرف إلا ببنانه . فلولا هذا العزم ماكان انبساط وجهه يوم حلف والله لا تكسر سن الربيع[2] .

بالله عليك تذوّق حلاوة الكف عن المنهى ، فإنها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف الآخرة .

ومتى اشتد عطشك إلى ما تهوى ، فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الرى الكامل .

وقل قد عيل صبر الطبع فى سنيه العجاف ، فعجل لى العام الذى فيه أغاث وأعصر .

---

(١) هو عم أنس بن مالك الصحابى رضى الله عنه . تخلف عن بدر فقال هذا القول . وقيل نزلت فيه هذه الآية : «من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا» .

(٢) والربيع أخته ، كسرت سن جارية فرفعت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص . فقال أنس : لا والله يارسول الله لا تكسر سنها . فقال رسول الله : ياأنس كتاب الله القصاص . فعفا أهل الجارية .

بالله عليك تفكر فيمن قطع أكثر العمر فى التقوى والطاعة ثم عرضت فتنة فى الوقت الأخير ، كيف نطح مركبه الجرف فغرق وقت الصعود .

أف والله الدنيا ، لا بل للجنة إن أوجب نيلها إعراض الحبيب .

إنما نسب العامى باسمه واسم أبيه ، فأما ذوو الأقدار فالألقاب قبل الأنساب .

قل لى : من أنت ؟ وما عملك ؟ وإلى أى مقام ارتفع قدرك ؟ يامن لا يصبر لحظة عما يشتهى .

بالله عليك أتدرى من الرجل ؟

الرجل والله من إذا خلا بما يحبُّ من المُحَرَّم وقدَرَ عليه وتقلل عطشا إليه، نَظَرَ إلى نظر الحَقّ إليه فاستحى من إجالة همه فيما يكرهه ، فذهب العطش .

كأنك لا تترك لنا إلا مالا تشتهى ، أو مالا تصدق الشهوة فيه ، أو مالا تقدر عليه .

كذا والله عادتك إذا تصدقت أعطيت كسرة لا تصلح لك ، أو فى جماعة يمدحونك .

هيهات والله لانلت ولايتنا حتى تكون معاملتك لنا خالصة . تبذل أطايبك . وتترك مشتهياتك[1] ، وتصبر على مكرهاتك .

علما منك تدخر ثوابك لدينا إن كنت معاملا بأنك أجير وماغربت الشمس

فإن كنت محباً رأيت ذلك قليلا فى جنب رضى حبيبك عنك .

. وماكلامنا مع الثالث . . !!

---

(١) عارض المؤلف نفسه هنا ونقض ما أيده سابقا .

٩٠ - فصل : لا تنكر نور الشمس ونظرك ضعيف

رأيت فى العقل نوع منازعة للتّطلع إلى معرفة جميع حكم الحق عز وجل فى حكمه .

فربما[١] لم يتبين[٢] له شيء منها — مثل النقض بعد البناء — فيقف متحيراً وربما انتهز الشيطان تلك الفرصة ، فوسوس إليه : أين الحكمة من هذا؟

فقلت له : احذر أن تخدع يامسكين ، فإنه قد ثبت بالدليل القاطع لما[٣] رأيت من إتقان الصنائع مبلغ حكمة الصانع ، فإن خفى عليك بَعْضُ الحِكَمِ فلِضَعْفِ إدراكك .

ثم مازالت للملوك أسرار فمن أنت حتى تطلعَ بِضعْفكَ على جميع حكمه ؟

يكفيك الُجمَل وإياك إياك أن تتعرض لما يخفى عليك .

فإنك بعض موضوعاته ، وذرة من مصنوعاته .

فكيف تتحكم على من صدرت عنه ؟

ثم قد ثبتت عندك حكمته ، وحكمه وملكه ، فأعمل آلتك على قدر قوّتك فى مطالعة ما يمكن من الحكم ، فإنه سيورثك الدهش .

وغمض عما يخفى عليك ، فحقيق بذى البصر الضعيف ألا يقاوى نور الشمس .

---

(١) فى الحديثة والخانجى : وربما .

(٢) فى الحديثة والخانجى : يبين .

(٣) فى الحديثة والخانجى : فيما .

٩١ ـ فصل : أعط نفسك حقها واستوف حقك منها

أعجب الأشياء مجاهدة النفس ، لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة .

فإن أقواماً أطلقوها فيما تحب ، فأوقعتهم فيما كرهوا .

وإن أقواماً بالغوا فى خلافها حتى منعوها حقها ، وظلموها .

وأثر ظلمهم لها فى تعبداتهم ، فمنهم من أساء غذاءها فأثر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها .

ومنهم من أفردها فى خلوة أثمرت الوحشة من الناس وآلت إلى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض ، أو بر والدة .

وإنما الحازم من تعلم منه نفسه الجد وحفظ الأصول . فإذا فسح لها فى مباح لم تتجاسر أن تتعداه .

فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده ، فإنه لا ينبسط إليه الغلام . فإن انبسط ذكر هيبة المملكة .

فكذلك المحقق يعطيها حظها ، ويستوفى منها ما عليها .

٩٢ - فصل : فى فهم معنى الوجود

رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً .

إن طال الليل فبحديث لا ينفع ، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر .

وإن طال النهار فبالنوم .

وهم فى أطراف النهار على دجلة أو فى الأسواق .

فشبهتهم بالمتحدثين فى سفينة وهى تجرى بهم ، وما عندهم خبر .

ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم فى تعبئة الزاد والتأهب للرحيل .

إلا أنهم يتفاوتون ، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما ينفق فى بلد الإقامة[١] .

فالمتيقظون منهم يتطلعون ، إلى الأخبار بالنافق هناك ، فيستكثرون منه فيزيد ربحهم .

والغافلون منهم يحملون ما اتفق ، وربما خرجوا لامع خفير .

فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقى مفلساً .

فالله الله فى مواسم العمر

والبدار البدار قبل الفوات .

واستشهدوا العلم ، واستدلوا الحكمة ، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد .

فكأن قد حدا الحادى فلم يفهم صوته مِنْ وَقْعِ دَمْعِ[٢] الندم .

٩٣ - فصل : الصدق فى القلب

أضرُّ ما على المريض التخليط ، وما من أحد إلا وهو مريض بالهوى ، والحمية هى رأس الدواء .

والتخليط يديم المرض ، وتخليط أرباب الآخرة على ضربين :

---

(١) يريد بها : الدار الآخرة .

(٢) فى الحديثة : من وقع مع الندم .

أحدهما : تخليط العلماء : وهو إما لمخالطة الأضداد كالسلاطين ، فإنهم يضعفون قوى يقينهم . وكلما زادت المخالطة ، يفقدون دليلهم عند المريدين .

فإنى إذا رأيت طبيباً يخلط ويحميني شككت أو وقفت

والثانى : تخليط الزهاد ، وقد يكون بمخالطة أرباب الدنيا ، وقد يكون بحفظ الناموس فى إظهار التخشع ، لاجتلاب محبة العوام .

فالله الله فإنَّ نا قِدَ الجزاء بصير ، والإخلاص فى الباطن ، والصدق فى القلب . ونعم طريق السلامة ستر الحال .

٩٤ ـ فصل : فى فضل العالم العامل

لقيت مشايخ ، أحوالهم مختلفة ، يتفاوتون فى مقاديرهم فى العلم .

وكان أنفعهم لى فى صحبته العامل منهم بعلمه ، وإن كان غيره أعلم منه .

ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل ، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة ، ويسرعون بالجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ .

ولقيت عبد الوهاب الأنماطى ، فكان على قانون السلف لم يسمع فى مجلسه غيبة ، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث ، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه .

فكان ـ وأنا صغير السن حينئذ ـ يعمل بكاؤه فى قلبى ، ويبنى قواعد[1] .

وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم فى النقل .

---

(١) زاد فى الحديثة : الأدب فى نفسى .

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقى ، فكان كثير الصمت ، شديد التحرى فيما يقول ، متقناً محققاً .

وربما سئل المسألة الظاهرة التى يبادر بجوابها بعض غلمانه ، فيتوقف فيها حتى يتيقن .

وكان كثير الصوم والصمت . فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعى بغيرهما .

ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول .

ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات فى انبساط ومزاح ، فراحوا عن القلوب وبدد تفريطهم ماجمعوا من العلم . فقلّ الانتفاع بهم فى حياتهم ، ونُسوا بعد مماتهم ، فلا يكاد أحد أن يلتفت إلى مصنفاتهم .

فالله الله فى العلم بالعمل ، فإنه الأصل الأكبر .

والمسكين كل المسكين من ضاع عمره فى علم لم يعمل به ، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلسا على قوة الحجة[1] عليه .

٩٥ ـ فصل : لا تأمن مكر الله

سبحان الملك العظيم الذى من عرفه خافه ، وما أمن[2] مكره قط ما عرفه .

لقد تأملتُ أمراً عظيما ، أنه عز وجل يمهل حتى كأنه يهمل ، فترى أيدى العصاة مطلقة كأنه لا مانع .

---

(١) فى الحديثة والخانجى : مع قوة الحجة .

(٢) فى الحديثة والخانجى : ومن أمن .

فإذا زاد الانبساط ، ولم ترعو العقول ، أَخذَ أخْذ جَبَّار .

وإنما كان ذلك الإمهالِ ليَبلوَ صبر الصابر ، وَليُمْلىَ فى الإمهال للظالم ، فيثبت هذا على صبره ، ويجزى هذا بقبيح فعله .

مع أن هنالك من الحلم فى طى ذلك مالا نعلمه .

فإذا أَخذَ أخْذَ عقوبة ، رأيت على كل غلطة تبعة .

وربما جمعت فضرب العاصى بالحجر الدامغ .

وربما خفى على الناس سبب عقوبته ، فقيل فلان من أهل الخير فما وجه ماجرى له ؟

فيقول القدر : حدود لذنوب خفية ، صار استيفاؤها ظاهراً .

فسبحان من ظهر حتى لاخفاء به ، واستتر حتى كأنه لايعرف .

وأمهل حتى طمع فى مسامحته ، وناقش حتى تحيرت العقول من مؤاخذته .

لاحول ولاقوة إلا بالله .

٩٦ ـ فصل : التلطف بالنفس

تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به ، فإذا هو يقوى القلب قوة تميل به إلى نوع قساوة .

ولولا قوة القلب ، وطول الأمل ، لم يقع التشاغل به .

فإنى أكتب الحديث أرجو أن أرويه ، وأبتدىء بالتصنيف أرجو أن أتمه ، فإذا تأملت باب المعاملات قلَّ الأمل ، ورقَّ القلب ، وجاءت الدموع ، وطابت المناجاة ، وغشيت السكينة ، وصرت كأنى فى مقام المراقبة .

إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة ، وأعلى رتبة ، وإن حدث منه ماشكوت منه .

والمعاملة وإن كثرت الفوائد التى أشرت إليها منها ، فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان ، الذى قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره ، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم .

فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات تلذيعاً لايقدح فى كمال التشاغل بالعلم .

فإنى لأكره لنفسى من جهة ضعف قلبى وَرقَّتِـه أن أكثر زيارة القبور ، وأن أحضر المحتضرين ؛ لأن ذلك يؤثر فى فكرى ، ويخرجنى من حَيِّز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفكر فى الموت ، ولا أنتفع بنفسى مدة .

وفصل الخطاب فى هذا أنه ينبغى أن يقاوم المرض بِضِدِّه .

فمن كان قلبه قاسياً شديد القسوة ، وليس عنده من المراقبة مايكفه عن الخطأ ، قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين .

فأما مَنْ قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به ، بل ينبغى له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك لينتفع بعيشه ، وليفهم ما يفتى به .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمزح ويسابق عائشة رضى الله عنها ، ويتلطف بنفسه ، فمن سار سيرته عليه الصلاة والسلام ، فهم من مضمونها ماقلته من ضرورة التلطف بالنفس .

٩٧ ـ فصل : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا

من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته ، فإنه ينتبه انتباهاً لايوصف ، ويقلق قلقاً لايحد ، ويتلهف على زمانه الماضى .

ويود لو ترك كى يتدارك مافاته، ويصدق فى توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف .

ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال فى أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى .

فالعاقل من مَثَّلَ تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك .

فإن لم يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته تخايله على قدر يقظته .

فإنه يكف كف الهوى ، ويبعث على الجد .

فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه ، كان كالأسير لها .

كما روى عن حبيب العجمى أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته : إذا مت اليوم ففلان يغسلنى، وفلان يحملنى .

وقال معروف لرجل: صَلِّ بنا الظهر ، فقال: إن صليت بكم الظهر لم أصل بكم العصر ، فقال : وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر ، نعوذ بالله من طول الأمل .

وذكر رجل رجلاً بين يديه بغيبة، فجعل معروف يقول له : اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك .

٩٨ - فصل : الحر تكفيه الاشارة

ربما أخذ المتيقظ بيت شعر ، فأخذ منه إشارة فانتفع بها .

قال الجنيد : ناولنى سَرى رقعة مكتوب فيها سمعت حاذياً فى طريق مكة شرفها الله تعالى يقول :

أبكى وَمَا يُدْرِيكَ ما يُبْكِينى
أبكى حَذَاراً أن تفارقينى

* وتقطعى حبلى وتهجرينى *

فانظر رحمك الله ووفقك ، إلى تأثير هذه الأبيات عند سرىّ حتى أحب أن يطلع منها الجنيد على ما اطلع عليه ، ولم يصلح للاطلاع على مثلها إلا الجنيد .

فإن أقواماً فيهم كثافة طبع ، وخشونة فهم .

قال بعضهم لما سمع مثل هذه : إلا مَ يشار بهذه ؟

إن كان إلى الحق ، فالحق عز وجل لا يشار إليه بلفظ تأنيث

وإن كان إلى امرأة فأين الزهد ؟

ولعمرى إن هذا حداء أهل الغفلة إذا سمعوا مثل هذا ، ولذلك ينهى عن سماع القصائد وأقوال أهل الغناء ، لأن الغالب حمل تلك الأبيات على مقاصد النفس ، وغلبات الهوى .

ومن أين لنا مثل الجنيد وسرىّ ؟

وإذا وجدنا مثلهما فهما خبيران بما يسمعان .

وإما اعتراض هذا الكثيف الطبع فالجواب : أن سرياً لم يأخذ الإشارة من اللفظ ، ولم يقس ذلك على مطلوبه ، فيصيره تأنيثاً أو تذكيراً .

وإنما أخذ الإشارة من المعنى ، فكأنه يخاطب حبيبه بمعنى الأبيات ، فيقول : أبكى حذاراً من إعراضك وإبعادك . فهذا الحاصل له .

وما التفت قط إلى تذكير ولا إلى لفظ تأنيث . فافهم هذا .

ومازال المتيقظون يأخذون الإشارة من مثل هذا حتى كانوا يأخذونها من هذا الذى تقوله العامة ويلقبونه بكان وكان .

فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد :

غَسَلْتُ له طولَ الليل
فرَكْتُ له طولَ النهارِ
خَرَجَ يُعَايِنُ غيرى
زَلَقَ وَقعَ فِى الطِّين

فأخذ من ذلك إشارة معناها : ياعبدى إنى حسنت خلقك ، وأصلحت شأنك ، وقومت بنيتك ، فأقبلت على غيرى ، فانظر عواقب خلافك لى .

وقال ابن عقيل : وسمعت امرأة تقول ، من هذا المكان ، وكانت كلمة بقيت فى قلقها مدة :

كمْ كُنْتُ باللهِ أقولُ لكَ
لذا التّوانى غائله
وَالتقبيحِ خميرَةٌ
تَبِينُ بَعْدَ قليلِ

قال ابن عقيل : فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غداً تبين خمايرها بين يدى الله تعالى .

٩٩ ـ فصل : استفت قلبك

أمكننى تحصيل شىء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص

فكنت كلما حصل شيء منه، فاتنى من قلبى شيء ، وكلما استنارت لى طريق التحصيل ، تجدد فى قلبى ظلمة .

فقلت يانفس السوء — الإثم حواز القلوب — وقد قال استفت قلبك فلا خير فى الدنيا كلها إذا كان فى القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كدر .

وإن الجنة لو حصلت بسبب يقدح فى الدين أو فى المعاملة مالذت ، والنوم على المزابل مع سلامة القلب من الكدر ألذ من تكآت الملوك .

ومازلت أغلب نفسى تارة وتغلبنى أخرى ، ثم تدعى الحاجة إلى تحصيل مالابد لها منه . وتقول : فما أتعدى فى الكسب المباح فى الظاهر .

فقلت لها : أوليس الورع يمنع من هذا ؟ قالت : بلى .

قلت : أليست القسوة فى القلب تحصل به ؟ قالت : بلى .

قلت : فلا خير لك فى شيء هذا ثمرته .

فخلوت يوماً بنفسى فقلت لها : ويحك اسمعى أحدثك :

إن جمعت شيئاً من الدنيا من وجه فيه شبهة أفأنت على يقين من إنفاقه ؟ قالت : لا

قلت : فالمحنة أن يحظى به الغير ولا تنالين إلا الكدر العاجل ، والوزر الذى لا يؤمن .

ويحك ، اتركى هذا الذى يمنع منه الورع لأجل الله فعامليه بتركه .

وكأنك لا تريدين ألا تتركى إلا ما هو محرم فقط أو مالايصح وجهه .

أو ما سمعت أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ؟

أما لك عبرة فى أقوام جمعوا فحازه سواهم ، وأمّلوا فما بلغوا مناهم ؟

كم من عالم جمع كتباً كثيرة ما انتفع بها .

وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاء .

وكم من طيب العيش لا يملك دينارين .

وكم من ذى قناطير منغص .

أما لك فطنة تتلمح أحوال من يترخص من وجه فيسلب منه (من)[1] أوجه ؟

ربما نزل المرض بصاحب الدار أو ببعض من فيها فأنفق فى سنته أضعاف ما ترخص فى كسبه ، والمتقى معافىً .

فضجت النفس من لومى وقالت : إذا لم أتعدَّ واجب الشرع فما الذى تريد منى ؟

فقلت لها : أضن بك عن الغبن وأنتِ أعرف بباطن أمرك .

قالت : فقل لى ما أصنع ؟

قلت : عليك بالمراقبة لمن يراك ، ومثّلى نفسك بحضرة معظم من الخلق فإنك بين يدى الملك الأعظم يرى من باطنك ما لا يراه المعظمون من ظاهرك .

فخذى بالأحوط ، واحذرى من الترخص فى بيع اليقين ، والتقوى بعاجل الهوى .

فإن ضاق[2] الطبع بما تلقين فقولى له : مهلا ، فما انقضت مدة الإشارة ، والله مرشدك إلى التحقيق ، ومعينك بالتوفيق .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(١) فى الدمشقية : فإن وقع .

١٠٠ - فصل : « ان ربك لبالمرصاد »

مازلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب أنهم يشربون الخمور ، ويفسقون ، ويظلمون ، ويفعلون أشياء توجب الحدود .

فبقيت أتفكر أقول متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حداً ؟ فلو[1] ثبت فمن يقيمه ؟

وأستبعد هذا فى العادة ، لأنهم فى مقام احترام لأجل مناصبهم .

فبقيت أتفكر فى تعطيل الحد الواجب عليهم ، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات ، ومرت عليهم العجائب .

فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم ، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل ، والقيد الثقيل ، والذل العظيم .

وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة ، فعلمت أنه ما يُهمَلُ شىء .

فالحذر الحذر ، فإن العقوبة بالمرصاد .

١٠١ ـ فصل : اليد العليا خير من اليد السفلى

اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع .

فمن ذلك حفظ ماله ، وطلب تنميته، والرغبة فى زيادته ، لأن سبب بقاء الإنسان (ماله)[2] فقد نهى عن التبذير فيه ،فقيل له : «ولا تُؤْتُوا السُّفَهاء

---

(١) فى الحديثة : ولو .

(٢) فى الحديثة : لأنه سبب بقاء الإنسان وضمان كرامته ولذلك نهى . ولا أصل للزيادة .

أموالكم[١] ، فأعلم أنه سبب لبقائه « التي جَعَلَ اللهُ لكُم قِيَاماً[٢] ، أي قواماً لمعاشكم .

وقال عز وجل : « وَلاَ تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ[٣] » .

وقال تعالى : « وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً[٤] » وقال تعالى : « لَمْ يُسْرِفوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذلِكَ قَوَاماً[٥] » .

ومن فضيلة المال أن الله تعالى قال : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حسناً[٦] » ، وقال تعالى : « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ[٧] » .

وقال تعالى : « يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم[٨] » .

وقال تعالى : « لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قبل الفتح[٩] » .

وجعل المال نعمة ، وزكاته تطهيراً . فقال تعالى: « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا[١٠] » .

---

(١) جزء من الآية ٥ من سورة النساء .

(٢) جزء من الآية ٥ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٤) جزء من الآية ٢٦ من سورة الإسراء .

(٥) جزء من الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٦) جزء من الآية ٢٤٥ من سورة البقرة ، ١١ من سورة الحديد .

(٧) جزء من الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٨) جزء من الآية ٢٦١ من سورة البقرة ، ٢٦٢ من سورة البقرة ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ من سورة البقرة .

(٩) جزء من الآية ١٠ من سورة الحديد .

(١٠) جزء من الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

وقال : « ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر » .

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلى التجارة ، ويترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينهاه عن ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأن أموت بين شعبتي جبل أطلب كفاف وجهي أحب إليّ من أن أموت غازياً في سبيل الله .

وكان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون . ومن سادات التابعين سعيد بن المسيب ، مات وخلف مالا ، وكان يحتكر الزيت .

ومازال السلف على هذا .

ثم قد تعرض نوائب كالمرض يحتاج فيها إلى شيء من المال فلا يجد الإنسان بدًّا من الاحتيال[1] في طلبته ، فيبذل عرضه أو دينه .

ثم للنفس قوة بدنية عند وجود المال ، وهو معدود عند الأطباء من الأدوية .

حكمة[2] وضعها الواضع .

ثم[3] نبغ أقوام طلبوا طريق الراحة فادعوا أنهم متوكلة وقالوا : نحن لا نمسك شيئاً ، ولا نتزود لسفر ، ورزق الأبدان يأتي .

---

(١) في الحديثة والخانجي : من الاضطراب .

(٢) في الحديثة : وتلك حكمة .

(٣) في الحديثة : وإنما نبغ .

وهذا على مضادة الشرع ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن إضاعة المال .

وموسى عليه السلام لما سافر فى طلب الخضر تزوّد .

ونبينا صلى الله عليه وسلم لما هاجر تزوّد .

وأبلغ من هذا قوله تعالى : « وَتزوّدوا فإن خيرَ الزاد التقوَى[1] » .

ثم يدّعى هؤلاء المتصوّفة بُغضَ الدنيا ، فلا يفهمون ما الذى ينبغى أن يُبغض .

ويرون زيادة الطلب للمال حرصاً وشرها .

وفى الجملة إنما اخترعوا بآرائهم طريقاً فيها شىء من الرهبانية إذا صدقوا

وشىء من البهرجة إذا نصبوا شباك الصيد بالتزَهُّد ، فسموا مايصل إليهم من الأرزاق فتوحاً .

قال ابن قتيبة فى غريب الحديث عند شرح قوله صلى الله عليه وسلم : واليد العليا قال : هى المعطية .

قال : فالعجب عندى من قوم يقولون هى الآخذة .

ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوماً استطابوا السؤال ، فهم يحتجون للدناءة فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم .

وفى الحديث : ضاق البلد بمواشى إبراهيم ولوط عليهما السلام فافترقا .

وكان شعيب عليه السلام كثير المال ثم قد ندّ طمعه فى زيادة الأجر من موسى عليه السلام فقال : « فإن أتممتَ عشراً فمن عندك[2] »

---

(١) جزء من الآية ١٩٧ من سورة البقرة .
(٢) جزء من الآية ٢٧ من سورة القصص .

وكان ابن عقيل رحمه الله يقول : من قال إنى لا أحب الدنيا فهو كذاب.

فإن يعقوب عليه السلام لما طلب منه ابنه يامين قال : « هلْ آمنُكم عليه[1] » . فقالوا : « ونزداد كيْلَ بعَير[2] » ؛ فقال : خذوه .

وقال بعض السلف : من ادعى بغض الدنيا فهو عندى كذاب إلى أن يثبت صدقه ، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون .

وقد نفَّرَ جماعة من المتصوفة خلقاً من الخلق عن الكسب ، وأوحشوا بينهم وبينه ، وهو دأب الأنبياء والصالحين .

وإنما طلبوا طريق الراحة وجلسوا على الفتوح .

فإذا شبعوا رقصوا ، فإذا انهضم الطعام أكلوا .

فإذا لاحت[3] لهم حيلة على غنىّ أوجبوا عليه دعوة ، إما بسبب شكر أو بسبب استغفار .

وأطمُّ الطامات ادعاؤهم أن هذا قربة .

وقد انعقد إجماع العلماء أن من ادَّعى الرقص قربة إلى الله تعالى كفر .

فلوأنهم قالوا مباح كان أقرب حالا ، وهذا لأن القـرَبَ لا تعرف إلا بالشرع ، وليس فى الشرع أمرٌ بالرقص ولا ندبٌ إليه .

ولقد بلغنى عن جماعة منهم أنهم كانوا يوقدون الشمع فى وجوه المردان

---

(١) جزء من الآية ٦٤ من سورة يوسف .

(٢) جزء من الآية ٦٥ من سورة يوسف .

(٣) فى الدمشقية : فإن لاحت .

وينظرون إليهم ، فإذا سئلوا عن ذلك سخروا بالسائل فقالوا : نعتبر بخلق الله!!!

(أفتراهم أقوى من النبى صلى الله عليه وسلم حين أجلس الشاب الذى وفد عليه من وراء ظهره ، وقال : وهل كانت فتنة داود إلا من النظر)[١] .

هيهات ! لقد تملك الشيطان تلك الأزمّة فقادها إلى ما أراد .

والعجب ممن يذم الدنيا وهو يأكل فيشبع ، ولا ينظر من أين المطعم .

ومازال صالحو السلف يفتشون عن المطعم[٢] حتى كان إبراهيم بن أدهم يسهر هو واصحابه ويقولون مع من نعمل غداً ؟

وكان سرى السقطى يعرف بطيب الغذاء ، وله فى الورع مقامات ، فجاء قوم يتسمون بالصوفية يدعون اتباع أولئك السادة ، ويأكلون من مال فلان ، وهم يعرفون أصول تلك الأموال ، ويقولون : رزقنا .

فواعجباً إذا كان الآكل لا يبالى (به)[٣] من أين ، ولا لديه امتناع من شهوة ولا تقلل ، ولا يخلو الرباط من المطبخ ، ولا ينقطع ليلة ، وأصله من مال قد عرف من أين هو ، والحمام دائر ، والمغنى يدق بدف فيه جلاجل ، ورفيقه بالشبابة ، وسعدى وليلى فى الإنشاد ، والمردان فى الشمع ، ثم يذم الدنيا بعد هذا .

فقولوا لنا : من يتلهى بالناس إلا هؤلاء ؟ ولكن من مرت عليه زرجنتهم فإنه أخس منهم .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

(٢) فى الحديثة : على المطعم .

(٣) ساقطة من الحديثة .

١٠٣ - فصل : التفكر فى خلق الله

عرض لى فى طريق الحج خوف من العرب ، فسرنا على طريق خيبر ، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلنى ، وزادت عظمة الخالق عز وجل فى صدرى ، فصار يعرض لى عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها .

فصحت بالنفس : ويحك اعبرى إلى البحر وانظرى اليه وإلى عجائبه بعين الفكر ، تشاهدى أهوالا هى أعظم من هذه ، ثم اخرجى إلى السكون[1] والتفتى إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة فى فلاة .

ثم جولى فى الأفلاك وطوفى حول العرش وتلمحى ما فى الجنان والنيران

ثم اخرجى عن الكل والتفتى إليه ، فإنك تشاهدين العالم فى قبضة القادر الذى لا تقف قدرته عند حد .

ثم التفتى إليك فتلمحى بدايتك ونهايتك ، وتفكرى فيما قبل البداية ، وليس إلا العدم ، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب .

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى ؟

وكيف يغفل أرباب القلوب[2] عن ذكر هذا الإله العظيم ؟

بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها ، لذابت من خوفه ، أو لغابت فى حبه[3] .

---

(١) فى الحديثة والخانجى : عن السكون .

(٢) فى الحديثة : فعل القلوب .

(٣) فى الدمشقية : من حبه .

غير أن الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل ، وإن الفطنة لو تلمحت المعانى لدَلـت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل .

سبحان من شغل أكثر الخلق بما هم فيه عما خلقوا له ، سبحانه .

١٠٣ ـ فصل : البلاء والصبر

للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل .

فلابد للمبتلى من الصبر إلى أن ينقضى أوان البلاء .

فإن تقَلـقَـلَ قبل الوقت لم ينفع التقلقل ، كما أن المادة إذا انحدرت إلى عضو فإنها لن ترجع ، فلابد من الصبر الى حين البطالة .

فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع .

فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعا ولا ينفع إلا به ، إلا أنه لا ينبغى للداعى أن يستعجل، بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم .

ويقطع المواد التى كانت سبباً للبلاء ، فإن غالب البلاء أن يكون عقوبة .

فأما المستعجل فمزاحم للمدبر، وليس هذا مقام العبودية وإنما المقام الأعلى هو الرضى ، والصبر هو اللازم .

والتلاق[١] بكثرة الدعاء نعم المعتمد ، والاعتراض حرام ، والاستعجال مزاحمة للتدبير ، فافهم هذه الأشياء فإنها تهون البلاء .

---

(٣) فى الحديثة والخانجى : والتلاحى .

١٠٤ ـ فصل : الصبر مفتاح الفرج

ليس فى الوجود شىء أصعب من الصبر ، إما عن المحبوب[١] أو على المكروهات .

وخصوصا إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج .

وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها ، والزاد يتنوع من أجناس

فمنه تلمح مقدار البلاء ، وقد يمكن أن يكون أكثر .

ومنه أنه فى حال فوقها أعظم منها، مثل أن يبتلى بفقد ولد وعنده أعز منه

ومن ذلك رجاء العوض فى الدنيا .

ومنه تلمح الأجر فى الآخرة .

ومنه التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه ، والأجر من الحق عز وجل .

ومن ذلك أن الجزع[٢] لا يفيد بل يفضح صاحبه ، إلى غير ذلك من الأشياء التى يقدحها العقل والفكر .

فليس فى طريق الصبر نفقة سواها ، فينبغى للصابر أن يشغل بها نفسه ، ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل[٣] .

---

(١) فى الحديثة : على المحبوب .

(٢) فى الحديثة : بأن الجزع .

(٣) شبه البلاء بطريق لم يبق منه إلا مسيرة ليلة ونهايته الصباح .

١٠٥ - فصل : الحكمة الالهية

ينبغى لمن وقع فى شدة ثم دعا ألا يختلج فى قلبه أمر من تأخير الإجابة أو عدمها .

لأن الذى إليه أن يدعو ، والمدعو مالك حكيم ، فإن لم يجب فعل ما يشاء فى ملكه ، وإن أخر فعل بمقتضى حكمته .

فالمعترض عليه فى سره خارج عن صفة عبد ، مزاحم لمرتبة[1] مستحق .

ثم ليعلم أن اختيار الله عز وجل له ، خير من اختياره لنفسه .

فربما سأل سيلا سال به .

وفى الحديث : أن رجلا كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد ، فهتف به هاتف : إنك إن غزوت أسرت ، وإن أسرت تَنَصَّرْتَ .

فإذا سلم العبد تحكيما لحكمته وحكمه ، وأيقن أن الكل ملكه طاب قلبه، قضيت حاجته أو لم تقض .

وفى الحديث: «ما من مسلم دعا الله تعالى إلا أجابه . فإما أن يعجلها، وإما أن يؤخرها، وإما أن يدخرها له فى الآخرة» .

فإذا رأى يوم القيامة أن ما أجيب فيه قد ذهب ، وما لم يجب فيه قد بقى ثوابه ، قال : ليتك لم تجب لى دعوة قط .

فافهم هذه الأشياء وسلّم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال.

---

(١) فى الحديثة : بمرتبة .

١٠٦ ـ فصل : فضل العالم

من أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزُّهَّاد ، فلينظر فى رتبة جبريل وميكائيل ومن خُص من الملائكة بولاية تتعلق بالخلق ، وباقى الملائكة قيام للتعبد فى مراتب الرهبان فى الصوامع .

وقد حظى أولئك بالتقريب على مقادير علمهم بالله تعالى .

فإذا مر أحدهم بالوحى انزعج أهل السماء حتى يخبرهم بالخبر : « حتى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ . قَالُوا الحق[١] » .

كما إذا انزعج الزاهد من حديث يسمعه سأل العلماء عن صحته ومعناه .

فسبحان من خص فريقاً بخصائص شرفوا بها على جلسهم .

ولا خصيصة أشرف من العلم .

بزيادته صار آدم مسجوداً له ، وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة .

فأقرب الخلق من الله العلماء ، وليس العلم بمجرد صورته هو النافع ، بل معناه ، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به .

فكلما دله على فضل اجتهد فى نيله ، وكلما نهاه عن نقص بالغ فى مباعدته[٢]

فحينئذ يكشف العلم له سره ، ويسهل عليه طريقه، فيصير كمجتذب يحث الجاذب ، فإذا حركه عجل فى سيره .

والذى لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره، ولا يكشف له عن سره، فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه

---

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة سبأ .

(٢) فى الحديثة : تجنبه .

فافهم هذا المثل ، وحسن قصدك ، وإلا فلا تتعب .

١٠٧ - فصل : أصلح الأمور الاعتدال

اعلم أن أصلح الأمور الاعتدال فى كل شىء . وإذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت فى الخير أعمالهم ، أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة .

فأما إذا كان العالم لايغيب عن ذكره الموت، وأحاديث الآخرة تقرأ عليه وتجرى على لسانه فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بالمرة .

بل ينبغى لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى الكثير الذكر للآخرة أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد نفَسُ أمله قليلا فيصنف ويعمل أعمال خير ، ويقدر على طلب ولد .

فأما إذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه أكثر من مصلحته .

ألم تسمع أن النبى صلى الله عليه وسلم سابق عائشة رضى الله عنها فسبقته وسابقها فسبقها ، وكان يمزح ويشاغل نفسه ؟

فإن مطالعة الحقائق على التحقيق تفسد البدن وتزعج النفس .

وقد روى عن أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : أنه سأل الله تعالى أن يفتح عليه باب الخوف ففتح عليه فخاف على عقله ، فسأل الله أن يرد ذلك عنه .

فتأمل هذا الأصل فإنه لابد من مغالطة النفس وفى ذلك صلاحها والله الموفق والسلام .

١٠٨ - فصل : لاتتوان عن طلب الكمال

من أعمل فكره الصافى دله على طلب أشرف المقامات ، ونهاه عن الرضى بالنقص فى كل حال .

وقد قال أبو الطيب المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً　　　كنقص القادرين على التمام

فينبغى للعاقل أن ينتهى إلى غاية ما يمكنه .

فلو كان يتصور للآدمى صعود السموات ، لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض .

ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد ، رأيت المقصر فى تحصيلها فى حضيض.

غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغى أن يطلب الممكن .

والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها فى العلم والعمل .

وأنا أشرح من ذلك ما يدل مذكوره على مغفله :

أما فى البدن : فليست الصورة داخلة تحت كسب الآدمى، بل يدخل تحت كسبه تحسينها وتزيينها .

فقبيح بالعاقل إهمال نفسه .

وقد نبه الشرع على الكل بالبعض ، فأمر بقص الأظفار ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، ونهى عن أكل الثوم والبصل النىء لأجل الرائحة .

وينبغى له أن يقيس على ذلك ويطلب غاية النظافة ونهاية الزينة .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف بمجيئه بريح الطيب ، فكان الغاية فى النظافة والنزاهة .

ولست آمر بزيادة التقشف الذى يستعمله الموسوس ، ولكن التوسط هو المحمود .

ثم ينبغى له أن يرفق ببدنه الذى هو راحلته ولا ينقص من قوتها فتنقص قوته .

ولست آمر بالشبع الذى يوجب الجشاء . إنما آمر بالتوسط فإن قوى الآدمى كعين جارية كم فيها من منفعة لصاحبها ولغيره .

ولا يلتفت إلى قول المُوَسْوسين من المتزهدين الذين جدوا فى التقلل فضعفوا عن الفرائض .

وليس ذلك من الشرع وَلا نُقِلَ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه .

إنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا لم يجدوا جاعوا ، وربما آثروا فصبروا ضرورة .

وكذلك ينبغى أن ينظر لهذه الراحلة فى علفها — فرب لقمة منعت لقمات — فلا يعطيها ما يؤذيها بل ينظر لها فى الأصلح ، ولا يتلفت إلى متزهد يقول لا أبلغها الشهوات .

فإن النظر ينبغى أن يكون فى حل المطعم وأخذ ما يصلح بمقدار .

ولم ينقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه رضى الله عنهم ما أحدثه الموسوسون فى ترك المشتهيات على الإطلاق .

إنما نقل عنهم تركها لسبب ، إما للنظر فى حلها ، أو للخوف من مطالبة النفس بها فى كل وقت ويجوز ذلك .

وينبغى له أن يجتهد فى التجارة والكسب ليفضل على غيره ولا يفضل غيره عليه .

وليبلغ من ذلك غاية لا تمنعه عن العلم ، ثم ينبغى له أن يطلب الغاية فى العلم .

ومن أقبح النقص التقليد ، فإن قويت همته رقته إلى أن يختار لنفسه مذهباً ولا يتمذهب لأحد فإن المقلد أعمى يقوده مقلده .

ثم ينبغى أن يطلب الغاية فى معرفة الله تعالى ومعاملته ، وفى الجملة لايترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلها . فإن القنوع حالة الأرذال .

فكن رَجلاً رجله فِى الثرَى
وَهَامة هِمَّتهِ فِى الثريا

ولو أمكنك عبور كل أحد من العلماء والزهاد فافعل، فإنهم كانوا رجالا وأنت رجل . وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها .

واعلم أنك فى ميدان سباق والأوقات تنتهب ولاتخلد إلى كسل ، فمافات مافات إلا بالكسل ، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم .

وإن الهمة لتغلى فى القلوب غليان مافى القدور، وقد قال بعض من سلف:

ليس لى مال سوى كرِّى
فبه أحيا من العدم .

قَنِعَتْ نفسى بما رُزِقَتْ
وَتَمطتْ فى العلا هِمَمى

١٠٩ ـ فصل : فى الفقر وأثره على العالم

ليس فى الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس ، فإنه إذا ضم إلى العلم حِيزَ الكمال .

وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا إلى مالا بد منه . وقلّ الصبر فدخلوا مداخل شانتهم وإن تأولوا فيها ، إلا أن غيرها كان أحسن لهم . فالزهرى مع عبد الملك ، وأبو عبيدة مع طاهر بن الحسين ، وابن أبى الدنيا مؤدب المعتضد ، وابن قتيبة صدر كتابه بمدح الوزير . ومازال خلفٌ من العلماء والزهاد يعيشون فى ظل جماعة من المعروفين بالظلم .

وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل فإنهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدنيا .

وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغشون الولاة لأجل نيل ما فى أيديهم ، فمنهم من يداهن ويرائى ، ومنهم من يمدح بما لا يجوز ، ومنهم من يسكت عن منكرات ، إلى غير ذلك من المداهنات ، وسببها الفقر .

فعلمنا أن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون فى البعد عن العمال الظَّلَمة ، ولم نر من صح له هذا إلا فى أحد رجلين :

إما من كان له مال كسعيد بن المسيب كان يتجر فى الزيت وغيره ، وسفيان الثورى كانت له بضائع ، وابن المبارك .

وإما من كان شديد الصبر قنوعا بما رزق وإن لم يكفه كبشر الحافى ، وأحمد بن حنبل .

ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين ، ولا كمال أولئك ، فالظاهر تقلبه فى المحن والآفات ، وربما تلف دينه .

فعليك ياطالب العلم بالاجتهاد فى جمع المال للغنى عن الناس ، فإنه يجمع لك دينك ، فما رأينا فى الأغلب منافقاً فى التدين والتزهد والتخشع ، ولا آفة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا ، وغالب ذلك الفقر ، فإن كان له مال يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة ، فذلك معدود فى أهل الشره ، خارج عن حيز العلماء ، نعوذ بالله من تلك الأحوال .

١١٠ - فصل : التبحر فى الفقه

أعظم دليل على فضيلة الشىء النظر إلى ثمرته . ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم ، فإن أرباب المذاهب فاقوا بالفقه على الخلائق أبداً ، وإن كان فى زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو باللغة . واعتبر هذا بأهل زماننا ، فإنك ترى الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة فيستغنى ويعرف حكم الله تعالى فى الحوادث مالا يعرفه النحرير من باقى العلماء .

وكم رأينا مبرزاً فى علم القرآن أو فى الحديث أو فى التفسير أو فى اللغة لا يعرف مع الشيخوخة معظم أحكام الشرع .

وربما جهل علم ما ينويه فى صلاته ، على أنه ينبغى للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقى العلوم . فإنه لا يكون فقيهاً ، بل يأخذ من كل علم بحظ ثم يتوفر على الفقه فإنه عز الدنيا والآخرة .

١١١ - فصل : غلبة الهوى

رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة ، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا ، ويتهجدون بالليل

ويؤخرون الفريضة عن الوقت ، فى أشياء يطول عددها من حفظ فروع وتضييع أصول، فبحثت عن سبب ذلك ، فوجدته من شيئين : أحدهما العادة، والثانى غلبة الهوى فى تحصيل المطلوب ، فإنه قد يغلب فلا يترك سمعاً ولا بصراً .

ومن هذا القبيل أن إخوة يوسف قالوا – حين سمعوا صوت المنادى : « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ[1] » – « لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ[2] » ، فجاء فى التفسير أنهم لما دخلوا مصر كمموا أفواه إبلهم لئلا تتناول ماليس لهم فكأنهم قالوا قد رأيتم ما صنعنا بإبلنا فكيف نسرق ؟ ونسوا هم تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها ، وبين إلقاء يوسف عليه السلام فى الجب وبيعه بثمن بخس .

وفى الناس من يطيع فى صغار الأمور دون كبارها ، وفيما كلفته عليه خفيفة أو معتادة ، وفيما لا ينقص شيئاً من عادته فى مطعم وملبس .

نرى أقواماً يأخذون الربا ويقول أحدهم : كيف يرانى عدوى بعد أن بعت دارى ، أو تغير ملبوسى ومركوبى !

ونرى أقواماً يوسوسون فى الطهارة ويستعملون الكثير من الماء ولا يتحاشون من غيبة .

وأقواماً يستعملون التأويلات الفاسدة فى تحصيل أغراضهم مع علمهم أنها لا تجوز ، حتى أنى رأيت رجلا من أهل الخير والتعبد أعطاه رجل مالا ليبنى به مسجداً ، فأخذه لنفسه وأنفق عوض الصحيح قراضة ، فلما احتضر قال لذلك الرجل : اجعلنى فى حل فإنى فعلت كذا وكذا .

---

(١) جزء من الآية ٧٠ من سورة يوسف .
(٢) جزء من الآية ٧٣ من سورة يوسف .

وترى أقواماً يتركون الذنوب لبعدهم عنها ، فقد ألفوا الترك ، وإذا قربوا منها لم يتمالكوا .

وفى الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها .

وقد علمنا أن خلقاً من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعبد فى دينهم ، فلما جاء الإسلام وعرفوا صحته لم يطيقوا مقاومة أهوائهم فى محو رياستهم .

وكذلك قيصر فإنه عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدليل ، ثم لم يقدر على مقاومة هواه وترك ملكه .

فالله الله فى تضييع الأصول ، ومن إهمال سرح الهوى ، فإنه إن أهملت ماشية نفشت فى زروع التقى .

وما مثل الهوى إلا كسبع فى عنقه سلسلة فإن استوثق منه ضابطه كفه

وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فأفلت ، على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة ، ومنهم من يكفه بخيط ، فينبغى للعاقل أن يحذر شياطين الهوى ، وأن يكون بصيراً بما يقوى عليه من أعدائه ، وبمن يقوى عليه .

١١٢ ـ فصل : احذر الصديق قبل العدو

من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال إلى الأصدقاء ، فإن أشد الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المنقلب عدواً ، لأنه قد اطلع على خفىّ السر .
قال الشاعر :

احذر عَدُوَّك مرّةً واحذر صديقَك ألفَ مرّه
فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرّه

واعلم أن من الأمر الموضوع فى النفوس الحسد على النّعم ، أو الغبطة وحب الرفعة، فإذا رآك من يعتقدك مِثلاً له وقد ارتقيت عليه فلابد أن يتأثر وربما حسد .

فإن إخوة يوسف(١) عليهم السلام من هذا الجنس جرى لهم ما شأنهم .

فإن قلت : كيف يبقى الإنسان بلا صديق ؟ قلت لك أتراك ما تعلم أن المجانس يحسد ، وأن أكثر العوام يعتقدون فى العالم أنه لا يتبسم ، ولا يتناول من شهوات الدنيا شيئاً ، فإذا رأوا بعض انبساطه فى المباح هبط من أعينهم

فإذا كانت هذه حالة العوام ، وتلك حالة الخواص ، فمع من تكون المعاشرة ؟

لا بل والله ما تصح المعاشرة مع النفس لأنها متلونة ، وليس إلا المداراة للخلق والاحتراز منهم، واتخاذ المعارف من غير طمع فى صديق صادق ، فإن ندر فليكن غير مماثل ، لأن الحسد إليه أسبق، وليكن مرتفعاً عن رتبة العوام غير طامع فى نيل مقامك .

وإن كانت معاشرة هذا لا تشفى لأن المعاشرة ينبغى أن تكون بين العلماء للمجانس ، فلزمهم من الإشارات فى المخالطة ما تطيب به المجالسة ، ولكن لا سبيل إلى الوصال .

ومثل هذه الحال أنك إن استخدمت الأذكياء عرفوا باطنك ، وإن استخدمت الأبله انعكست مقاصدك .

فاجعل الأذكياء لحوائجك الخارجة ، والبله لحوائجك فى منزلك لئلا يعلموا

---

(١) إخوة يوسف هم : راءوبين ، شمعون، لاوى، يهوذا، يساكر، زوبولون، دان ، نفتالى ، جاد ، أشير ، بنيامين .

أسرارك، واقنع من الأصدقاء، بمن وصفته لك، ثم لا تلقه إلا متدرعا درع الحذر، ولا تطلعه على باطن يمكن أن يستتر عنه، وكن كما يقال عن الذئب :

ينام بإحدى مُقلتيه ويتّقي
بأخرى الأعادي فهو يقظانُ هاجعُ

١١٣ ـ فصل : الغنى عما فى أيدى الناس

رأيت نفراً من أفنى أوائل عمره وريعان شبابه فى طلب العلم يصبر على أنواع الأذى، وهجر فنون الراحات، أنفة من الجهل، ورذيلته، وطلباً للعلم وفضيلته، فما نال منه طرفا رفعه عن مراتب أرباب الدنيا. ومن لا علم له إلا بالعاجل ضاق به معاشه أو قلّ ما يلشده لنفسه من حظوظ، فسافر فى البلاد يطلب من الأراذل، ويتواضع للسفلة وأهل الدناءة والمكاس وغيرهم .

فخاطبت بعضهم وقلت : ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التى سهرت لأجلها، وأظمأت نهارك بسببها، فلما ارتفعت وانتفعت عُدت إلى أسفل سافلين .

أفما بقى عندك ذرة من الأنفة تنبو به عن مقامات الأراذل ؟

ولا معك يسير من العلم يسير بك عن مناخ الهوى ؟

ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بها زمام النفس عن مراعى السوء؟
على أنه يبين لى أن سهرك وتعبك كأنهما كانا لنيل الدنيا .

ثم إنى أراك تزعم أنك تريد شيئاً من الدنيا تستعين به على طلب العلم، فاعلم أن التفاتك إلى نوع كسب تستغنى به عن الأراذل أفضل من التزيد فى علمك .

فلو عرفت ما ينقص به دينك لم تر فى ما قد عزمت عليه زيادة ، بل لعله كله مخاطرة بالنفس ، وبذل الوجه الذى طالما صين لمن لا يصلح التفات مثلك إلى مثله .

وبعيد أن تقنع بعد شروعك فى هذا الأمر بقدر الكفاف ، وقد علمت ما فى السؤال بعد الكفاف من الإثم .

وأبعد منه أن تقدر على الورع فى المأخوذ .

ومن لك بالسلامة والرجوع إلى الوطن ؟ وكم رمى قفرفى بواديه من هالك

ثم ما تحصله يفنى ويبقى منه ما أعطى ، وعيب المتقين إياك ، واقتداء الجاهلين بك . ويكفيك أنك عدت على ما علمت من ذم الدنيا بشينه إذ فعلت ما يناقضه ، خصوصا وقد مر أكثر العمر .

ومن أحسن فيما مضى يحسن فيما بقى .

١١٤ - فصل : على الفقه مدار العلوم

رأيت الشَّرِهَ فى تحصيل الأشياء يفوِّت الشَّرَهُ عليه مقصوده .

وقد رأينا من كان شرِهاً فى جمع المال فحصل له الكثير منه وهو مع ذلك حريص على الازدياد .

ولو فهم ، علم أن المراد من المال إنفاقه فى العمر ، فإذا أنفق العمر فى تحصيله فات المقصودان جميعا .

وكم رأينا مَنْ جمع المال ولم يتمتع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر :

كدودةِ القزّ ، ما تبنيه يهدمُها

وغيرها بالذى تبنيه ينتفعُ

وكذلك رأينا خلقاً كثيراً يحرصون على جمع الكتب فينفقون أعمارهم فى كتابتها ، وكدأب أهل الحديث ينفقون الأعمار فى النسخ والسماع إلى آخر العمر ثم ينقسمون :

فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه ، ولعله لا يفهم جواب حادثة ، ولعل عنده للحديث — أسلم سالمها الله — مائة طريق .

وقد حكى لى عن بعض أصحاب الحديث أنه سمع جزء ابن عرفة عن مائة شيخ ، وكان عنده سبعون نسخة .

ومنهم من يجمع الكتب ويسمعها ولا يدرى ما فيها لا من صحة حديثها ولا من فهم معناها ، فتراه يقول الكتاب الفلانى سماعى وعندى له نسخة ، والكتاب الفلانى والفلانى فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهم صحيحه من سقيمه ، وقد صده اشتغاله بذلك عن المهم من العلم فهم كما قال الحطيئة :

زواملُ للأخبارِ لاعلم عندها

بمتقلها إلا كعلم الأباعرِ

لعمرك ما يدرى البعيرُ إذا غدَا

بأوساقِه أوْ رَاحَ ما فى الغرائِرِ

ثم ترى منهم من يتصدر بإتقانه للرواية وحدها فيمد يده إلى ما ليس من شغله ، فإن أفتى أخطأ ، وإن تكلم فى الأصول خلط .

ولولا أنى لاأحب ذكر الناس لذكرت من أخبار كبار علمائهم وما خلطوا ما يعتبر به ، ولكنه لا يخفى على المحقق حالهم .

فإن قال قائل : أليس فى الحديث : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا » ؟

قلت : أما العالم فلا أقول له اشبع من العلم ، ولا اقتصر على بعضه .

بل أقول له : قدم المهم ، فإن العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه ، وإن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر ، غير أنه يبنى على الأغلب ، فإن وصل فقد أعد لكل مرحلة زاداً ، وإن مات قبل الوصول فنيته تسلك به .

فإذا علم العاقل أن العمر قصير ، وأن العلم كثير ، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلا بسماع الحديث ونسخه ليحصل كل طريق ، وكل رواية ، وكل غريب ، وهذا لا يفرغ من مقصوده منه فى خمسين سنة ، خصوصا إن تشاغل بالنسخ . ثم لا يحفظ القرآن ، أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث ، أو بالخلاف فى الفقه ولا يعرف النقل الذى عليه مدار المسئلة .

فإن قال قائل : فدبر لى ما تختار لنفسك .

فأقول : ذو الهمة لا يخفى من زمان الصبا .

كما قال سفيان بن عيينة : قال لى أبى — وقد بلغت خمس عشرة سنة — : إنه قد انقضت عنك شرائع الصبا ، فاتبع الخير تكن من أهله ، فجعلت وصية أبى قبلة أميل إليها ولا أميل عنها .

ثم قبل شروعى فى الجواب أقول : ينبغى لمن له أنفة أن يأنف من التقصير الممكن دفعه عن النفس .

فلو كانت النبوة مثلا تأتى بكسب لم يجز له أن يقنع بالولاية . أو تصور أن يكون مثلا خليفة لم يحسن به أن يقتنع بإمارة .

ولو صح له أن يكون ملكا لم يرض أن يكون بشراً .

والمقصود أن ينتهى بالنفس إلى كمالها الممكن لها فى العلم والعمل .

وقد علم قصر العمر وكثرة العلم فيبتدى بالقرآن وحفظه ، وينظر فى تفسيره نظراً متوسطا لا يخفى عليه بذلك منه شىء .

وإن صح له قراءة القراءات السبعة وأشياء من النحو وكتب اللغة وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن ، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء ، فلينظر فى أصول ذلك .

وقد رتبت العلماء من ذلك ما يستغنى به الطالب عن التعب .

ولينظر فى التواريخ ليعرف مالا يستغنى عنه كنسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأقاربه وأزواجه وما جرى له . ثم ليقبل على الفقه فلينظر فى المذهب والخلاف ، وليكن اعتماده على مسائل الخلاف ، فلينظر فى المسئلة وما تحتوى عليه فيطلبه من مظانه ، كتفسير آية وحديث وكلمة لغة .

ويتشاغل بأصول الفقه وبالفرائض ، وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم .

ويكفيه من النظر فى الأصول ما يستدل به على وجود الصانع ، فإذا أثبته بالدليل وعرف ما يجوز عليه مما لا يجوز ، وأثبت إرسال الرسل وعلم وجوب القبول منهم ، فقد احتوى على المقصود من علم الأصول .

فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم ، فليكن من الفقه فإنه الأنفع .

ومهما فسح له فى المهل فأمكنه تصنيف فى علم ، فإنه يخلف بذلك خلفه خلفاً صالحاً ، مع اجتهاده فى التسبب إلى اتخاذ الولد ، ثم يعلم أن الدنيا معبرة فيلتفت إلى فهم معاملة الله عز وجل ، فإن مجموع ما حصله من العلم يدله عليه .

فإذا تعرض لتحقيق معرفته ووقف على باب معاملته فقلّ أن يقف صادقا إلا ويُجذب إلى مقام الولاية ، ومن أريد وفق .

وإن لله عز وجل أقواماً يتولى تربيتهم ، ويبعث إليهم فى زمن الطفولية مؤدباً ، ويسمى العقل . ومقوماً ، ويقال له الفهم ، ويتولى تأديبهم وتثقيفهم، ويهيء لهم أسباب القرب منه .

فإن لاح قاطع قطعهم عنه حماهم منه ، وإن تعرضت بهم فتنة دفعها عنهم .

فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم ، ونعوذ به من خذلان لا ينفع معه اجتهاد .

١١٥ ـ فصل : الجزاء على مقدار الاخلاص

إن للخلوة تأثيرات تبين فى الخلوة ، كم من مؤمن بالله عز وجل يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهى حذراً من عقابه ، أو رجاء لثوابه ، أو إجلالا له ، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على مجمر فيفوح طيبه فيستنشقه الخلائق ولا يدرون أين هو .

وعلى قدر المجاهدة فى ترك ما يهوى تقوى محبته ، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب ، ويتفاوت تفاوت العود .

فترى عيون الخلق تعظم هذا الشخص وألسنتهم تمدحه ولا يعرفون لم ؟ ولا يقدرون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته .

وقد تمتد هذه الأرابيح بعد الموت على قدرها ، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة ثم ينسى ، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم يخفى ذكره وقبره ، ومنهم أعلام يبقى ذكرها أبداً .

وعلى عكس هذا من هاب الخلق ، ولم يحترم خلوته بالحق ، فإنه على قدر مبارزته بالذنوب ، وعلى مقادير تلك الذنوب ، يفوح منه ريح الكراهة فتمقته القلوب ، فإن قلّ مقدار ما جنى قلّ ذِكرُ الألسن له بالخير ، وبقى

لمجرد تعظيمه ، وإن كثر كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه لا يمدحونه ولا يذمونه .

ورب خال بذنب كان سبب وقوعه فى هوة شقوة فى عيش الدنيا والآخرة وكأنه قيل له : إبق بما آثرت فيبقى أبداً فى التخبيط .

فانظروا إخوانى إلى المعاصى أثرت وعثرت .

قال أبو الدرداء[1] رضى الله عنه : إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى فيلق الله بغضه فى قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر .

فتلمحوا ما سطرته ، واعرفوا ما ذكرته ، ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائركم، فإن الأعمال بالنية ، والجزاء على مقدار الإخلاص .

١١٦ - فصل : ذل العارف بالحاجة الى التسبب

من عرف جريان الأقدار ثبت لها ، وأجهل الناس بعد هذا من قاواها ، لأن مراد المقدّر الذل له ، فإذا قاويت القدر فتلت مرادك من ذلك لم يبق لك ذل .

مثال هذا : أن يجوع الفقير فيصبر قدر الطاقة ، فإذا عجز خرج إلى سؤال الخلق مستحياً من الله كيف يسألهم ، وإن كان له عذر بالحاجة التى ألجأته، غير أنه يرى أنه مغلوب الصبر فيبقى معتذراً مستحياً وذاك المراد منه .

أو ليس بخروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة فلا يقدر على العود إليها حتى يدخل فى خفارة المطعم بن عدى وهو كافر .

---

(١) هو الصحابى الجليل عويمر بن زيد .

فسبحان من ناط الأمور بالأسباب ، ليحصل ذل العارف بالحاجة إلى التسبب .

١١٧ — فصل : البلاء والصبر

سبحان المتصرف فى خلقه بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم ، ويظهر جواهرهم فى الابتلاء .

هذا آدم صلى الله عليه وسلم ، تسجد له الملائكة ، ثم بعد قليل يخرج من الجنة .

وهذا نوح عليه السلام يضرب حتى يغشى عليه ، ثم بعد قليل ينجو فى السفينة ، ويهلك أعداؤه[1] .

وهذا الخليل عليه السلام يلقى فى النار ثم بعدقليل يخرج إلى السلامة[2]

وهذا الذبيح يضطجع مستسلما ، ثم يسلم ويبقى المدح[3] .

وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول[4].

وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعى ثم يرقى إلى التكليم .

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقال له بالأمس اليتيم ، ويقلب فى

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين »

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « قلنا يانار كونى بردآ وسلاما على إبراهيم »

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : « ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا»

عجائب يلاقيها من الأعداء تارة ، ومن مكائد الفقر أخرى ، وهو أثبت من جبل حراء . ثم لما تَمّ مُرَادُهُ من الفتح ، وبلغ الغرض من أكبر الملوك وأهل الأرض نزل به ضيف النقلة ، فقال : وا كرباه .

فمن تلمح بحر الدنيا ، وعلم كيف تُتَلقى الأمواج ، وكيف يصبر على مدافعة الأيام ، لم يستهول نزول بلاء ، ولم يفرح بعاجل رخاء .

١١٨ ـ فصل : عليك من العمل ما تطيق

ينبغي للعاقل ألا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها ؟ ويجرب نفسه في ركوب بعضها سراً من الخلق ؛ فإنه لا يأمن أن يرى في حالة لا يصبر عليها ، ثم يعود فيفتضح ، مثاله : رجل سمع بذكر الزهاد فرمى ثيابه الجميلة ولبس الدون وانفرد في زاوية ؛ وغلب على قلبه ذكر الموت والآخرة ، فلم يلبث متقاضي الطبع أن ألح بما جرت به العادة .

فمن القوم من عاد بمرة إلى أكثر مما كان عليه كأكل النَّاقِهِ من مرض ، ومنهم من توسط الحال فبقي كالمذبذب .

وإنما العاقل هو الذي يستر نفسه بين الناس بثوب وسط لا يخرجه من أهل الخير ، ولا يدخله في زي أهل الفاقة : فإن قويت عزيمته عمل في بيته ما يطيق ، وترك ثوب التجمل لستر الحال ، ولم يظهر شيئاً للخلق ، فإنه أبعد من الرياء ، وأسلم من الفضيحة .

وفي الناس من غلب عليه قصر الأمل وذكر الآخرة حتى دفن كتب العلم ، وهذا الفعل عندي من أعظم الخطأ وإن كان منقولا عن جماعة من الكبار .

ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا فقال : أخطأوا كلهم وقد تأولت لبعضهم

بأنه كان فيها أحاديث عن قوم ضعفاء ولم يميزوها ، كما روى عن سفيان فى دفن كتبه .

أو كان فيها شيء من الرأى فلم يحبوا أن يؤخذ عنهم فكان من جنس تحريق عثمان بن عفان رضى الله عنه للمصاحف لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المجمع على غيره .

وهذا التأويل يصح فى حق علمائهم .

فأما غسل أحمد بن أبى الحوارى كتبه ، وابن أسباط ، فتفريط محض .

فالحذر الحذر من فعل يمنع منه الشرع ، أو من ارتكاب ما يظن عزيمة وهو خطيئة ، أو من إظهار مالا يقوى عليه المظهر فيرجع القهقرى .

وعليكم من العمل بما تطيقون كما قال صلى الله عليه وسلم .

١١٩ ـ فصل : لا خير فى لذة بعد العقاب

أجهل الجهال من آثر عاجلا على آجل لا يأمن سوء مغبته ، فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه فى شهواتها ، ولم ينظر فى حلال وحرام فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ ، ولقى من مرير الحسرات مالا يقاومه ولا ذرة من كل لذة .

ولو كان هذا فحسب لكفى حزنا كيف والجزاء الدائم بين يديه .
فالدنيا محبوبة للطبع لا ريب فى ذلك ولا أنكر على طالبها ومؤثر شهواتها .

ولكن ينبغى له أن ينظر فى كسبها ويعلم وجه أخذها ، ليسلم له عاقبة لذته ، وإلا فلا خير فى لذة من بعدها النار .

وهل عدّ فى العقلاء قط من قيل له : اجلس فى المملكة سنة ثم نقتلك .

هيهات بل الأمر بالعكس وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح فى عاقبته .

وفى الجملة أف اللذة أعقبت عقوبة .

وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال أخبرنا أبو بكر الخطيب قال أخبرنا الحسن بن أبى طالب قال حدثنا يوسف بن عمر القواس قال حدثنا الحسين بن إسماعيل إملاء قال حدثنا عبدالله بن أبى سعد قال حدثنا محمد بن مسلمة البلخى قال حدثنا محمد بن على القوهستانى قال حدثنا دلف بن أبى دلف قال : رأيت كأن آتياً أتى بعد موت أبى فقال : أجب الأمير . فقمت معه ، فأدخلنى دار وحشة ، وعرة سوداء الحيطان ، مقلعة السقوف والأبواب ، ثم أصعدنى درجاً فيها . ثم أدخلنى غرفة ، فإذا فى حيطانها أثر النيران ، وإذا فى أرضها أثر الرماد وإذا أبى عريان واضعاً رأسه بين ركبتيه فقال لى كالمستفهم: دلف ؟ قلت : نعم أصلح الله الأمير . فأنشأ يقول :

أبلغَنْ أهلَنَا ولا تُخْفِ عنهم

مالقينا فى البرزخِ الخفَّاقِ

قد سُئِلْنَا عن كل ما قد فعلنا

فارحموا وحشتى وما قد ألاقِى

أفهمت ؟ قلت : نعم ؟ فأنشأ يقول :

فلو أنا إذا مِتْنَا تركْنَا

لكان الموتُ راحةَ كلِّ حىّ

ولكنا إذا مِتْنا بُعِثْنا

ونُسألُ بعدَه عن كلِّ شىّ

١٢٠ – فصل : الله أعلم بما يصلح عبده

اللذات كلها بين حسى وعقلى ، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح، وغاية اللذات العقلية العلم ، فمن حصلت له الغايتان فى الدنيا فقد نال النهاية ، وأنا أرشد الطالب إلى أعلى المطلوبين ، غير أن للطالب المرزوق علامة وهو أن يكون مرزوقا علو الهمة ، وهذه الهمة تولد مع الطفل فتراه من زمن طفولته يطلب معالى الأمور .

كما يروى فى الحديث أنه كان لعبد المطلب مفرش فى الحجر ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى وهو طفل فيجلس عليه ، فيقول عبد المطلب : إن لابنى هذا شأناً .

فإن قال قائل : فإذا كانت لى همة ولم أرزق ما أطلب فما الحيلة ؟

فالجواب أنه إذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر .

ثم من البعيد أن يرزقك همة ولا يعينك ، فانظر فى حالك فلعله أعطاك شيئاً ما شكرته ، أو ابتلاك بشىء من الهوى ما صبرت عنه .

واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيراً ليؤثرك بلذات العلم ، فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع ، فهو أعلم بما يصلحك .

وأما ما أردت شرحه لك فإن الشاب المبتدىء طلب العلم ينبغى له أن يأخذ من كل علم طرفا ، ويجعل علم الفقه الأهم ، ولا يقصر فى معرفة النقل ، فيه تبين سير الكاملين ، وإذا رزق فصاحة من حيث الوضع ، ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو فقد شحذت شفرة لسانه على أجود مَسَنّ . ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فتحت له أبواب لا تفتح لغيره .

وينبغى له بالتلطف أن يجعل جزءاً من زمانه مصروفاإلى توفير الاكتساب

والتجارة ، مستنيباً فيها ، غير مباشر لها مع التدبير فى العيش المتنع من الإسراف والتبذير .

فإن رواية العلم والعمل به إلى درجة المعرفة لله عز وجل آسرة للمشاعر ، فربما شغلته لذة ما وصل إليه عن كل شىء ، ويالها حالة سليمة من آفة. وإن وجد من طبعه منازعا إلى الشوق فى النكاح فليتخير السرارى فإن الحرائر فى الأغلب غل ، وليعزل عن المملوكات إلى أن يجرب خلقهن ودينهن ، فإن رضيهن طلب الولد منهن ، وإلا فالاستبدال بهن سهل .

ولا يتزوج حرة إلا أن يعلم أنها تصبر على التزويج عليها والتسرى ، وليكن قصده الاستمتاع بها لا إجهاد النفس فى الإنزال .

فإن ذلك يهدم قوته فيضعف الأصل .

فهذه الحالة الجامعة من لذتى الحس والعقل ذكرتها على وجة الإشارة

وفهم الذكى يدلى عليه مالم أشرحه .

١٢١ ـ فصل : من قصد وجه الله بالعلم دلة على الاحسن

اعلم أن المتعلم يفتقر إلى دوام الدراسة ، ومن الغلط الانهماك فى الإعادة ليلا ونهاراً ، فإنه لا يلبث صاحب هذه الحال إلا أياما ثم يفتر أو يمرض .

وقد روينا أن الطبيب دخل على أبى بكر بن الأنبارى فى مرض موته ، فنظر إلى مائة كتاب وقال : قد كنت تفعل شيئاً لا يفعله أحد ، ثم خرج فقال : ما يجىء منه شىء ، فقيل له : ما الذى كنت تفعل ؟ قال : كنت أعيد كل أسبوع عشرة آلاف ورقة .

ومن الغلط تحميل القلب حفظ الكثير أو الحفظ من فنون شتى ، فإن القلب جارحة من الجوارح ، وكما أن من الناس من يحمل المائة رطل ، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلا ، فكذلك القلوب .

فليأخذ الإنسان على قدر قوته ودونها ، فإنه إذا استنفدها فى وقت ضاعت منه أوقات .

كما أن الشره يأكل فضل لقيمات فيكون سبباً إلى منع أكلات ، والصواب أن يأخذ قدر ما يطيق ويعيده فى وقتين من النهار والليل ، ويرفه القوى فى بقية الزمان ، والدوام أصل عظيم .

فكم ممن ترك الاستذكار بعد الحفظ فضاع زمن طويل فى استرجاع محفوظ قد نسى .

والحفظ أوقات من العمر فأفضلها الصبا وما يقاربه من أوقات الزمان ، وأفضلها إعادة الأسحار وأنصاف النهار ، والغدوات خير من العشيات ، وأوقات الجوع خير من أوقات الشبع .

ولا يحمد الحفظ بحضرة خُضرة وعلى شاطىء نهر ، لأن ذلك يلهى .

والأماكن العالية للحفظ خير من السوافل .

والخلوة أصل ، وجمع الهمّ أصل الأصول .

وَتَرْفيهُ النفس من الإعادة يوما فى الأسبوع ليثبت المحفوظ وتأخذ النفس قوة كالبنيان يترك أياما حتى يستقر ثم يبنى عليه .

وتقليل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم ، وألا يشرع فى فن حتى يحكم ما قبله .

ومن لم يجد نشاطا للحفظ فليتركه ، فإن مكابرة النفس لا تصلح .

وإصلاح المزاج من الأصول العظيمة ، فإن للمأكولات أثراً فى الحفظ

قال الزهرى : ما أكلت خلاً منذ عالجت الحفظ .

وقيل لأبى حنيفة[1] : بمَ يستعان على حفظ الفقه ؟ قال : بجمع الهم .

وقال حماد بن سلمة : بقِلة الغم .

وقال مكحول : من نظف ثوبه قلّ همه، ومن طابت ريحه زاد عقله، ومن جمع بينهما زادت مروءته.

وأختار للمبتدى فى طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة ، وهذا لأجل جمع الهم ، فإن غلب عليه الأمر تزوج واجتهد فى المدافعة بالفعل لتتوفر القوة على إعادة العلم . ثم لينظر ما يحفظ من العلم ، فإن العمر عزيز ، والعلم غزير .

وإن أقواماً يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيره أولى منه ، وإن كان كل العلوم حسناً ، ولكن الأولى تقديم الأهم والأفضل .

وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن ثم الفقه ، وما بعد هذا بمنزلة تابع ، ومن رزق يقظة دلته يقظته فلم يحتج إلى دليل ، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله ، المقصود على الأحسن « وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ[2] » .

١٢٢ ـ فصل : التوبة النصوح

من أراد دوام العافية والسلامة ، فليتق الله عز وجل .

---

(١) الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت .

(٢) جزء من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

فإنه ما من عبد أطلق نفسه فى شىء ينافيه التقوى وإن قل إلا وجد عقوبته عاجلة أو آجلة.

ومن الاغترار أن تسىء فترى إحساناً فتظن أنك قد سومحت ، وتنسى : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ[1] » .

وربما قالت النفس : إنه يغفر فتسامحت . ولا شك أنه يغفر ولكن لمن يشاء .

وأنا أشرح لك حالا فتأمله بفكرك تعرف معنى المغفرة .

وذلك أن من هفا هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ولا عزم على العود بعد الفعل ثم انتبه لما فعل فاستغفر الله كان فعله وإن دخله عمداً فى مقام خطأ ، مثل أن يعرض له مستحسن فيغلبه الطبع فيطلق النظر ويتشاغل فى حال نظره بالتذاذ الطبع عن تلمح معنى النهى ، فيكون كالغائب أو كالسكران ، فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله فقام الندم بغسل تلك الأوساخ التى كانت كأنها غلطة لم تقصد .

فهذا معنى قوله تعالى : « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[2] » .

فأما المداوم على تلك النظرة المردِّد لها ، المصرُّ عليها ، فكأنه فى مقام متعمد للنهى ، مبارز بالخلاف ، فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره .

ومن البعد ألا يرى الجزاء على ذلك ، كما قال ابن الجلاء : رآنى شيخى

---

(١) جزء من الآية ١٢٣ من سورة النساء .

(٢) جزء من الآية ٢٠١ من سورة الأعراف .

وأنا قائم أتأمل حدثاً نصرانياً ، فقال : ما هذا ؟ لترين غبها ولو بعد حين ، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

واعلم أنه من أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب ، فإن العقوبة تتأخر .

ومن أعظم العقوبة ألا يُحس الإنسان بها ، وأن تكون فى سلب الدين وطمس القلوب وسوء الاختيار للنفس ، فيكون من آثارها سلامة البدن وبلوغ الأغراض .

قال بعض المعتبرين : أطلقت نظرى فيما لا يحل لى ، ثم كنت أنتظر العقوبة . فالجئت إلى سفر طويل لا نِيَّةَ لى فيه ، فلقيت المشاق ، ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندى ، وذهاب أشياء كان لها وقع عظيم عندى ، ثم تلافيت أمرى بالتوبة فصلح حالى ، ثم عاد الهوى فحملنى على إطلاق بصرى مرة أخرى ، فطمس قلبي وعدمت رقته ، واستلب منى ما هو أكثر من فقد الأول ، ووقع لى تعويض عن المفقود بما كان فقده أصلح ، فلما تأملت ما عوضت وما سلب منى صحت من ألم تلك السياط .

فها أنا أنادى من على الساحل : إخوانى احذروا لجة هذا البحر ، ولا تغتروا بسكونه ، وعليكم بالساحل ، ولازموا حصن التقوى فالعقوبة مرة .

واعلموا أن فى ملازمة التقوى مرارات من فقد الأغراض والمشتهيات ، غير أنها فى ضرب المثل كالحمية تعقب صحة ، والتخليط ربما جلب موت الفجأة .

وبالله لو نمتم على المزابل مع الكلاب فى طلب رضى المبتلى كان قليلا فى نيل رضاه ، ولو بلغتم نهاية الأمانى من أغراض الدنيا مع إعراضه عنكم

كانت سلامتكم هلاكاً ، وعافيتكم مرضاً ، وصحتكم سقماً، والأمر بآخره ، والعاقل من تلمح العواقب .

وصابروا رحمكم الله تعالى هجير البلاء ، فما أسرع زواله .

والله الموفق ، إذ لا حول إلا به ، ولا قوة إلا بفضله .

١٢٣ - فصل : خطر الاشتغال بعلم الكلام دون علم

قدم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم فارتقوا منابر التذكير للعوام فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون : ليس لله فى الأرض كلام . وهل المصحف إلا وَرَقٌ وعفص وزاج . وإن الله ليس فى السماء ، وإن الجارية التى قال لها النبي صلى الله عليه وسلم أين الله ؟ كانت خرساء فأشارت إلى السماء ، أى ليس هو من الأصنام التى تعبد فى الأرض. ثم يقولون : أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوت ، هذا عبارة جبريل .

فما زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن فى صدور أكثر العوام ، وصار أحدهم يسمع فيقول هذا هو الصحيح ، وإلا فالقرآن شيء يجيء به جبريل فى كيس .

فشكا إليّ جماعة من أهل السنة ، فقلت لهم : اصبروا فلابد للشبهات أن ترفع رأسها فى بعض الأوقات ، وإن كانت مدموغة ، وللباطل جولة ، وللحق صولة ، والدجالون كثير ، ولا يخلو بلد ممن يضرب البهرج على مثل سكة السلطان .

قال قائل : فما جوابنا عن قولهم ؟ قلت : اعلم وفقك الله تعالى أن الله عز وجل ورسوله قنعا من الخلق بالإيمان بالجمل ولم يكلفهم معرفة التفاصيل ؛

إما لأن الاطلاع على التفاصيل يخبط العقائد ، وإما لأن قوى البشر تعجز عن مطالعة ذلك .

فأول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إثبات الخالق ، ونزل عليه القرآن بالدليل على وجود الخالق بالنظر فى صنعه ، فقال تعالى : « أَمَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً[1] » .

وقال تعالى : « وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرونَ[2] » .

ومازال يستدل على وجوده بمخلوقاته ، وعلى قدرته بمصنوعاته ، ثم أثبت نبوة نبيه بمعجزاته ، وكان من أعظمها القرآن الذى جاء به ، فعجز الخلائق عن مثله ، واكتفى بهذه الأدلة جماعة من الصحابة ، ومضى على ذلك القرن الأول والمشرب صاف لم يتكدر ، وعلم الله عز وجل ما سيكون من البدع ، فبالغ فى إثبات الأدلة وملأ بها القرآن .

ولما كان القرآن هو منبع العلوم ، وأكبر المعجزات للرسول ، أكد الأمر فيه فقال تعالى : « وَهَذا كِتابٌ أَنزَلْناهُ مُبارَكٌ[3] » « وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ[4] » .

فأخبر أنه كلامه بقوله تعالى : « يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلوا كَلامَ اللهِ[5] » .

وأخبر أنه مسموع بقوله تعالى : « حَتى يَسمع كلام الله[6] » .

---

(١) جزء من الآية ٦١ من سورة النمل .
(٢) جزء من الآية ٢٢ من سورة الذاريات
(٣) جزء من الآية ٩٢ من سورة الأنعام .
(٤) جزء من الآية ٨٢ من سورة الإسراء
(٥) جزء من الآية ١٥ من سورة الفتح .
(٦) جزء من الآية ٦ من سورة التوبة

وأخبر أنه محفوظ فقال تعالى : « فى لوح محفوظ[١] » .

وقال تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم[٢] » .

وأخبر أنه مكتوب ومتلو فقال تعالى: « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك[٣] » .

إلى ما يطول شرحه من تعدد الآيات فى هذه المعانى التى توجب إثبات القرآن .

ثم نزه نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون أتى من قبل نفسه . فقال تعالى : « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك[٤] » .

وتواعده لو فعل فقال تعالى: « ولو تقول علينا بعض الأقاويل[٥] ».

وقال فى حق الزاعم إنه كلام الخلق حين قال : « إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر[٦] » .

ولما عذب كل أمة بنوع عذاب تولاه بعض الملائكة كصيحة جبريل عليه السلام بثمود ، وإرسال الريح على عاد ، والخسف بقارون ، وقلب جبريل ديار قوم لوط عليه السلام ، وإرسال الطير الأبابيل على من قصد تخريب الكعبة .

---

(١) جزء من الآية ٢٢ من سورة البروج .
(٢) جزء من الآية ٤٩ من سورة العنكبوت .
(٣) جزء من الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .
(٤) جزء من الآية ٣ من سورة السجدة .
(٥) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة الحاقة .
(٦) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة المدثر .

تولى هو بنفسه عقاب المكذبين بالقرآن فقال تعالى : «ذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ[1]» . «ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً[2]» .

وهذا لأنه أصل هذه الشرائع والمثبت لكل شريعة تقدمت . فإن جميع الملل ليس عندهم ما يدل على صحة ما كانوا فيه إلا كتابنا ، لأن كتبهم غيرت وبدلت .

وقد علم كل ذى عقل أن القائل: «إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ[3]» ، إنما أشار إلى ما سمعه .

ولا يختلف أولو الألباب وأهل الفهم للخطاب ، أن قوله «وإنه» كناية عن القرآن ، وقوله : «تنزل به» كناية أيضاً عنه ، وقوله : «هذا كتاب» إشارة إلى حاضر .

وهذا أمر مستقر لم يختلف فيه أحد من القدماء فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم ، ثم دس الشيطان دسائس البدع ، فقال قوم : هذا المشار إليه مخلوق ، فثبت الإمام أحمد رحمه الله ثبوتاً لم يثبته غيره على دفع هذا القول ، لئلا يتطرق إلى القرآن ما يمحو بعض تعظيمه فى النفوس ، ويخرجه عن الإضافة إلى الله عز وجل .

ورأى أن ابتداع ما لم يقل فيه لا يجوز استعماله فقال : كيف أقول مالم يقل .

ثم لم يختلف الناس فى غير ذلك ، إلى أن نشأ على بن إسماعيل الأشعرى

---

(١) جزء من الآية ٤٤ من سورة القلم
(٢) الآية ١١ من سورة المدثر .
(٣) الآية ٢٥ من سورة المدثر .

فقال مرة بقول المعتزلة ، ثم عنّ له فادعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس ، فأوجبت دعواه هذه أن ما عندنا مخلوق .

وزادت فخبطت العقائد ، فمازال أهل البدع يجوبون فى تيارها إلى اليوم.

والكلام فى هذه المسألة مرتب بذكر الحجج والشبه فى كتب الأصول، فلا أطيل به ههنا ، بل أذكر لك جملة تكفى من أراد الله هداه ، وهو أن الشرع قنع منا بالإيمان جملة ، وبتعظيم الظواهر ، ونهى عن الخوض فيما يثير غبار شبهة ، ولا تقوى على قطع طريقه أقدام الفهم .

وإذا كان قد نهى عن الخوض فى القدَر فكيف يجوز الخوض فى صفات المقدّر ؟ ..

وما ذاك إلا لأحد الأمرين اللذين ذكرتهما ، إما لخوف إثارة شبهة تزلزل العقائد ، أو لأن قوى البشر تعجز عن إدراك الحقائق .

فإذا كانت ظواهر القرآن تثبت وجود القرآن فقال قائل: ليس ههنا قرآن ، فقد رد الظواهر التى تعب الرسول صلى الله عليه وسلم فى إثباتها ، وقرر وجودها فى النفوس .

وبماذا يحل ويحرم ، ويبت ويقطع ، وليس عندنا من الله تعالى تقدم بشىء .

وهل للمخالف دليل إلا أن يقول : قال الله فيعود فيثبت ما نفى ؟

فليس الصواب لمن وُفق إلا الوقوف مع ظاهر الشرع ، فإن اعترضه ذو شبهة فقال : هذا صوتك وهذا خطك ، فأين القرآن ؟ فليقل له : قد أجمعنا أنا وأنت على وجود شىء به نحتج جميعاً .

وكما أنك تنكر عليّ أن أثبت شيئاً لا يتحقق لى إثباته حساً ، فأنا أنكر عليك كيف تنفى وجود شىء قد ثبت شرعا .

وأما قولهم : هل فى المصحف إلا ورق وعفص وزاج ، فهذا كقول القائل : هل الآدمى إلا لحم ودم ؟

هيهات أن معنى الآدمى هو الروح ، فمن نظر إلى اللحم والدم وقف مع الحس .

فإن قال : فكذا أقول إن المكتوب غير الكتابة . قلنا له : وهذا مما ننكره عليك لأنه لا يثبت تحقيق هذا لك ولا لخصمك ، فإن أردت بالكتابة الحبر وتخطيطه فهذا ليس هو القرآن ، وإن أردت المعنى القائم بذلك فهذا ليس هو الكتابة .

وهذه الأشياء لا يصلح الخوض فيها ، فإن ما دونها لا يمكن تحقيقه على التفصيل كالروح مثلا ، فإنا نعلم وجودها فى الجملة ، فأما حقيقتها فلا .

فإذا جهلنا حقائقها كنّا لصفاتِ الحق أجهل ، فوجب الوقوف مع السمعيات ، مع نفى مالا يليق بالحق ، لأن الخوض يزيد الخائض تخبيطا ولا يفيده تحصيلا ، بل يوجب عليه نفى مايثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلى . فلا وجه للسلامة إلا طريق السلف والسلام .

وكذلك أقول أن إثبات الإله بظواهر الآيات والسنن ألزم للعوام من تحديثهم بالتنزيه ، وإن كان التنزيه لازما .

وقد كان ابن عقيل يقول : الأصلح لاعتقاد العوام ظواهر الآى والسنن ، لأنهم يأنسون بالإثبات ، فمتى محونا ذلك من قلوبهم زالت السياسات والحشمة .

وتهافت العوام فى الشبهة أحب إلىّ من إغراقهم فى التنزيه ، لأن التشبيه يغمسهم فى الإثبات، فيطمعوا ويخافوا شيئاً قد أنسوا إلى ما يخاف مثله ويرجى .

فالتنزيه يرمى بهم إلى النفى ، ولا طمع ولا مخافة من النفى .

ومن تدبر الشريعة رآها عامة للمكلفين فى التشبيه بالألفاظ التى لا يعطى ظاهرها سواه ، كقول الأعرابى : أو يضحك ربنا ؟ قال: نعم ، فلم يكفره من هذا القول .

١٢٤ — فصل : ابتلاء العارف مزيد من الكمال

أعظم البلايا أن يعطيك همة عالية ويمنعك من العمل بمقتضاها ، فيكون من تأثير همتك الأنفة من قبول إرفاق الخلق استثقالا لحمل مننهم ، ثم يبتليك بالفقر فتأخذ منهم ، ويلطف مزاجك ، فلا تقبل من المأكولات ما سهل إحضاره فتحتاج إلى فضل نفقة ، ثم يقلل رزقك ويعلق همتك بالمستحسنات ، ويقطع بالفقر السبيل إليهن .

ويريك العلوم فى مقام معشوق ، ويضعف بدنك عن الإعادة ، ويخلى يديك من المال الذى تحصل به الكتب ، ويقوى توقك إلى درجات العارفين والزهاد ، ويحوجك إلى مخالطة أرباب الدنيا وهذا البلاء المبين .

وأما الخسيس الهمة الذى لا يستنكف من سؤال الخلق ، ولا يرى الاستبدال بزوجته ، ويكتفى بيسير من العلم ، ولا يتوق إلى أحوال العارفين ، فذاك لا يؤلمه فقد شىء ، ويرى ما وجد هو الغاية ، فهو يفرح فرح الأطفال بالزخارف ، فما أهون الأمر عليه .

إنما البلاء على العارف ذى الهمة العالية الذى تدعوه همته إلى جميع الأضداد للتزيد من مقام الكمال ، وتقصر خطاه عن مدارك مقصوده .

فياله من حال ينفد فى طريقه زاد الصابرين .

ولولا حالات غفلة تعترى هذا المبتلى يعيش بها لـكان دوام ملاحظته للمقامات يعمى بصره ، واجتهاده فى السلوك يحفى قدمه .

لـكن ملاحظات الإمداد له تارة ببلوغ بعض مراده ، وتارة بالغفلة عما قصد ، تهوّن عليه العيش .

وهذا كلام عزيز لا يفهمه إلا أربابه ، ولا يعلم كنهه إلا أصحابه .

١٢٥ ـ فصل : الحزم أولى

تراءت علىّ نفسى فى طلبها شيئاً من أغراضها بتأويل فاسد ، فقلت لها : بالله عليك تصبرى ، فإن فى المعبر شغلا يحذر الغرق من كثرة الموج عن التنزه فى عجائب البحر . إذا هممت بفعل فقدّرِى حصوله ، ثم تلمحى عواقبه ، وما تجتنين من ثمراته ، فأقل ذلك الندم على ما فعلت ، ولا يؤمن أن يثمر غضب الحق عز وجل ، وإعراضه عنك ، فأف للقاطع عنه ولو كان الجنة .

ثم اعلمى أيتها النفس أنه ما يمضى شىء جزافا ، وأن ميزان العدل تبين فيه الذرة ، فتلمحى الأموات والأحياء ، وانظرى إلى من نشر ذكره بالخير والشر ، وزيادة ذلك ونقصانه .

فسبحان من أظهر دليل الخلوات على أربابها ، حتى أن حبات القلوب تتعلق بأهل الخير ، وتنفر من أهل الشر من غير مطالعة لشىء من أعمال الكل

قال إبليس : أو تترك مرادك لأجل الخلق ؟

قلت : لا ، إنما هذا بعض الثمرات الحاصلة لا عن الغرض .

ونحن نرى من يمشى ثلاثين فرسخا ليقال ساع ، فالمتقى قد نال شرف الذكر وإن لم يقصد نيل ذلك مترجحاً له فى وزن الجزاء « سَيَجعَلُ

لهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا » .

قالت النفس : لقد أمرتنى بالصبر على العذاب ، لأن ترك الأغراض عـذاب .

قلت : لك عن الغرض عوض ، ومن كل متروك بدل ، وأنت فى مقام مستعبد ولا يصح للأجير أن يلبس ثياب الراحة فى زمان الاستئجار ، وكل زمان المتقى نهار صوم .

ومن خاف العقاب ترك المشتهى ، ومن رام القرب استعمل الورع ، وللصبر حلاوة تبين فى العواقب .

١٢٦ ـ فصل : البعد عن أسباب الفتنة

من نازعته نفسه إلى لذة محرمة ، فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها وسمع هتاف العقل يناديه : ويحك لا تفعل ، فإنك تقف عن الصعود ، وتأخذ فى الهبوط ويقال لك ابق بما اخترت ، فإن شغله هواه فلم يلتفت إلى ما قيل له ، لم يزل فى نزول ، وكان مثله فى سوء اختياره كالمثل المضروب :أن الكلب قال للأسد : ياسيد السباع، غير اسمى فإنه قبيح ، فقال له : أنت خائن لايصلح لك غير هذا الاسم ، قال : فجربنى ، فأعطاه شقة لحم وقال : احفظ لى هذه إلى غد وأنا أغير اسمك ، فجاع وجعل ينظر إلى اللحم ، ويصبر ، فلما غلبته نفسه قال : وأى شىء باسمى ؟ وما كلب إلا اسم حسن . فأكل .

وهكذا الخسيس الهمة ، القنوع بأقل المنازل ، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل

---

(١) جزء من الآية ٩٦ من سورة مريم .

فالله الله فى حريق الهوى إذا ثار، وانظر كيف تطفئه ، فرُبَّ زلة أوقعت فى بئر بوار ، ورب أثر لم ينقلع ، والفائت لا يستدرك على الحقيقة ، فابعد عن أسباب الفتنة ، فإن المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يسلم ، والسلام .

١٢٧ — فصل : جهاد الشيطان

رأيت الخلق كلهم فى صف محاربة : والشياطين يرمونهم بنبل الهوى ، ويضربونهم بأسياف اللذة .

فأما المخلطون فَصَرْعَى من أول وقت اللقاء .

وأما المتقون ففى جهد جهيد من المجاهدة ، فلا بُدَّ مع طول الوقوف فى المحاربة من جراح ، فهم يجرحون ويداوون إلا أنهم من القتل محفوظون .

بلى ، إن الجراحة فى الوجه شين باق ؛ فليحذر ذلك المجاهدون .

١٢٨ ـ فصل : حذار من الدنيا

الدنيا فخ ، والجاهل بأول نظرة يقع ، فأما العاقل المتقى فهو يصابر المجاعة ويدور حول الحب ، والسلامة بعيدة .

فكم من صابر اجتهد سنين، ثم فى آخر الأمر وقع .

فالحذر الحذر . فقد رأينا من كان على سنن الصواب ، ثم زَلَّ على شفير القبر .

١٢٩ ـ فصل : عجل بالتوبة من الذنوب

اعلموا إخوانى ومن يقبل نصيحتى ، أن للذنوب تأثيرات قبيحة ، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافاً مضاعفة .

والمجازى بالمرصاد ، لا يسبقه شىء ، ولا يفوته .

أو ليس يروى التفسير ، أن كل واحد من أولاد يعقوب عليهم السلام وكانوا اثنى عشر — وُلد له أثنا عشر ولداً ، إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر وجوزى بتلك الهمة[1] فنقص ولداً .

فوا أسفا لمضروب بالسياط ما يحس بالألم ، ولمثخَنٍ بالجراح وما عنده من نفسه خبر ، ولمتقلب فى عقوبات ما يدرى بها .

ولعمرى أن أعظم العقوبة ألا يدرى بالعقوبة .

فوا عجباً للمخالط نفسه ، يُرضى نفسه بشهوة ثم يُرضى ربه بطاعة ، ويقول حسنة ، وسيئة .

ويحك من كيسك تنفق ، ومن بضاعتك تهدم ، ووجه جاهك تشين .

رُبَّ جراحة قتلت ، ورب عثرة أهلكت ، ورب فارط لا يستدرك .

ويحك انتبه لنفسك ما الذى تنتظر بأوبتك ؟ وماذا تترقب بتوبتك المشيب ؟ فها هو ذا أوهن العظم .

وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب إلا اللحاق ؟

قدِّر أن ما تؤمله من الدنيا قد حصل ، فكان ماذا ؟ ما هو عاجل فشغلك عاجلا .

ثم آخر جرعة اللذة شرقة ، وإما أن تفارق محبوبك أو يفارقك . فيالها جرعة مريرة ، تود عندها أن لو لم تره .

آه لمحجوب العقل عن التأمل ، ولمصدود عن الورود ، وهو يرى المنهل .

أما فى هذه القبور نذير ؟ أما فى كرور الزمان زاجر ؟

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها » .

أين من ملك وبلغ المنى فيما أمل ، نادهم فى ناديهم ؛ هيهات صموا عن مناديهم فلو أن ما بهم الموت ، إنما هنيهة ... ثم القبور .

العمل حصّل يا معدوماً بالأمس ، يامتلاشى الأشلاء فى الغد ؟

بأى وجه تلقى ربك ؟ أيساوى ماتناله من الهوى لفظ عتاب ؟

بالله إن الرحمة بعد المعاتبة ، ربما لم تستوف قلع البغضة من صميم القلب .

فكيف إن أعقب العتاب عقاب ، وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزار قال : أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال : أخبرنا محمد بن الحسين المعدل ، قال : أخبرنا أبو الفضل الزهرى ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد الزعفرانى ، قال : حدثنا أبو العباس بن واصل المقرى ، قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن الصيرفى قال : رأى جار لنا يحي بن أكثم بعد موته فى منامه ، فقال : ما فعل بك ربك؟ فقال : وقفت بين يديه ، فقال لى : سوءة لك يا شيخ .

فقلت : يارب إن رسولك قال : إنك لتستحى من أبناء الثمانين[1] أن تعذبهم ، وأنا ابن ثمانين أسير الله فى الأرض .

فقال لى : صدق رسولى قد عفوت عنك .

وفى رواية أخرى عن محمد بن سلم الخواص ، قال : رأيت يحي بن أكثم فى المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفنى بين يديه وقال لى ياشيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار .

---

(١) فى الحديث القدسى : « إذا بلغ عبدى أربعين سنة عافيته من البلايا الثلاث : من الجنون ، والجذام ، والبرص . وإذا بلغ خمسين سنة حاسبته حسابا يسيراً وإذا بلغ ستين سنة حببت إليه الإنابة ، وإذا بلغ سبعين سنة أحببته الملائكة ، وإذا بلغ ثمانين كتبت حسناته وألقيت سيئاته » .

والمقصود من هذا النظر بعين الاعتبار، هل يفى هذا بدخول الجنة فضلا عن لذات الدنيا ؟

فنسأل الله عز وجل أن ينبهنا من رقدات الغافلين، وأن يرينا الأشياء كما هى لنعرف عيوب الذنوب والله الموفق .

١٣٠ ـ فصل : التقوى سبب الخروج من كل غم

ضاق بى أمر أوجب غماً لازما دائماً، وأخذت أبالغ فى الفكر فى الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه . فما رأيت طريقاً للخلاص، فعرضت لى هذه الآية : «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً[١]» . فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم . فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج .

فلا ينبغى لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا فى طاعة الله تعالى وامتثال أمره، فإن ذلك سبب لفتح كل مُرْتَجٍ .

ثم أعجبُه أن يكون من حيث لم يقدره المتفكر المحتال المدبر، كما قال عز وجل : «وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ[٢]» .

ثم ينبغى للمتقى أن يعلم أن الله عز وجل كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب، فقد قال عز وجل : «ومَنْ يتوكلْ عَلى اللهِ فهوَ حسبه[٣]» .

١٣١ ـ فصل : تدبير الحق خير من تدبيرك

من العجب إلحاحك فى طلب أغراضك وكلما زاد تعويقها زاد إلحاحك،

---

(١) جزء من الآية ٢ من سورة الطلاق .
(٢) جزء من الآية ٣ من سورة الطلاق.
(٣) جزء من الآية ٣ من سورة الطلاق .

وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين ، إما لمصلحتك فربما معجَّل أذى ، وإما لذنوبك فإن صاحب الذنوب بعيد من الإجابة ، فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصى ، وانظر فيما تطلبه هل هو لإصلاح دينك ، أو لمجرد هواك ؟

فإن كان للهوى المجرد . فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه ، وأنت فى إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه ، فيمنع رفقاً به .

وإن كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره ، أو كان صلاح الدين بعدمه .

وفى الجملة تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك ، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك . فأره الصبر الجميل تر عن قرب ما يسر .

ومتى نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب ، وصبرت على ما يقضيه لك ، فكل ما يجرى أصلح لك ، عطاء كان أو منعا .

١٣٢ - فصل : الاستعداد ليوم الرحيل

يجب على من لا يدرى متى يبغته الموت أن يكون مستعداً ، ولا يغترر بالشباب والصحة ، فإن أقل من يموت الأشياخ ، وأكثر من يموت الشبان ولهذا يندر من يكبر ، وقد أنشدوا :

يعمَّر واحدٌ فيغرُّ قوماً ويُنسى من يموتُ من الشباب

ومن الاغترار طول الأمل ، وما من آفة أعظم منه ، فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلا . وإنما يقدمُ المعاصى ويؤخر التوبة لطول الأمل وتبادر الشهوات ، وتنسى الإنابة لطول الأمل . وإن لم تستطع قصر الأمل ، فاعمل عمل قصير الأمل ، ولا تمسِ حتى تنظر فيما مضى من يومك ، فإن رأيت

زلة فامحُها بتوبة ، أو خرقا فارقعة باستغفار ، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى فى ليلك. وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس :

وخذ لك منك على مهلة
ومقبل عيشك لم يدبرِ
وخف هجمة لا تقيل العثا
ر وتطوى الورود على المصدرِ
ومثل لنفسك أى الرعيل
يضمك فى حلبة المحشرِ

ثم صوّر لنفسك قصر العمر ، وكثرة الأشغال ،وقوة الندم على التفريط عند الموت ، وطول الحسرة على البدار بعد الفوت .

وصوّر ثواب الكاملين وأنت ناقص ، والمجتهدين وأنت متكاسل ، ولا تخل نفسك من موعظة تسمعها ، وفكرة تحادثها بها ؛ فإن النفس كالفرس المتشيطن إن أهملت لجامه لم تأمن أن يرمى بك ، وقد والله دنستك أهواؤك ، وضيعت عمرك .

فالبدار البدار فى الصيانة ، قبل تلف الباقى بالصّبابة . فكم تعرقل فى فخ الهوى جناح حازم ، وكم وقع فى بئر بوار مخمور . ولا حول ولا قوة إلا بالله

١٢٣ - فصل : أصلح ما بينك وبين الله

الحذر الحذر من المعاصى . فإن عواقبها سيئة ، وكم من معصية لا يزال صاحبها فى هبوط أبداً مع تعثير أقدامه ، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا ، وحسرة لمن نالها .

فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذى ارتكبه كان اعتراضه على القدر فى فوات أغراضه يُعيد العذاب جديداً ، فوا أسفا لمعاقب لا يحس بعقوبته .

وآه من عقاب يتأخر حتى ينسى سببه .

أو ليس ابن سيرين يقول : عيرتُ رجلا بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة

وابن الخلال يقول : نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

فوا حسرة لمعاقب لا يدرى أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها .

فالله الله فى تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء ، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات ، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه ، وأصلح ما بينك وبينه فى السر وقد أصلح لك أحوال العلانية .

ولا تغترر بستره أيها العاصى فربما يجذب عن عورتك ، ولا بحلمه فربما بغت العقاب .

وعليك بالقلق واللجأ إليه والتضرع . فإن نفع شىء فذلك ، وتقوت بالحزن ، وتمزز كأس الدمع ، واحفر بمعول الأسى قليب قلب الهوى ، لعلك تنبط من الماء ما يغسل جرم جرمك .

١٢٤ - فصل : لا يضيع عند الله شىء

إخوانى : اسمعوا نصيحة مَنْ قدْ جرّب وخبر .

إنه بقدر إجلالكم لله عز وجل يجلكم ، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحرمتكم .

ولقد رأيت والله من أنفق عمره فى العلم إلى أن كبرت سنّه ، ثم تعدى الحدود فهان عند الخلق ، وكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه ، وقوة مجاهدته .

ولقد رأيت من كان يراقب الله عز وجل فى صبوته — مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم — فعظم الله قدره فى القلوب حتى علقته النفوس ، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير .

ورأيت من كان يرى الاستقامة إذا استقام ، فإذا زاغ مال عنه اللطف ، ولولا عموم الستر وشمول رحمة الكريم لافتضح هؤلاء المذكورون ، غير أنه فى الأغلب تأديب أو تلطف فى العقاب كما قيل :

ومن كان فى سخطه محسنا

فكيف يكون إذا ما رضى

غير أن العدل لا يحابى ، وحاكم الجزاء لا يجور ، وما يضيع عند الأمين شىء .

١٣٥ ـ فصل : الزم محراب الإنابة

أيها المذنب : إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرون الضجيج ، ولا تقولن قد تبت وندمت ، فهلا زال عنى من الجزاء ما أكره ! فلعل توبتك ما تحققت .

وإن للمجازاة زماناً يمتد امتداد المرض الطويل ، فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقضى أوانه .

وإن بين زمان : «وعصى[١]» إلى إبان : « فتلقى[٢]» مدة مديدة .

فاصبر أيها الخاطىء حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس ، فإذا عصرته كف الأسى ، ثم تكررت دفع الغسلات حكم بالطهارة .

بقى آدم يبكى على زلله ثلاث مائة سنة .

ومكث أيوب عليه السلام فى بلائه ثمانى عشرة سنة .

وأقام يعقوب يبكى على يوسف عليهما السلام ثمانين سنة .

وللبلايا أوقات ثم تنصرم ، ورب عقوبة امتدت إلى زمان الموت .

فاللازم لك أن تلازم محراب الإنابة ، وتجلس جلسة المستجدى ، وتجعل طعامك القلق ، وشرابك البكاء ، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيراً .

وإن مت فى سجنك فربما ناب حزن الدنيا عن حزن الآخرة ، وفى ذلك ربح عظيم .

١٣٦ ـ فصل : أطفىء نار الذنوب بدمع الندم

الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصى ، فإن نارها تحت الرماد .

وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت ، وربما جاءت مستعجلة ، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب ، ولا ماء يطفى تلك النار إلا ما كان من عين العين ، لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبت الحاكم فى حكمه .

---

(١) جزء من الآية ١٢١ من سورة طه
(٢) جزء من الآية ٣٧ من سورة البقرة .

١٣٧ - فصل : قف على باب المراقبة وقوف الحارس .

واعجباً من عارف بالله عز وجل يخالفه ولو فى تلف نفسه .

هل العيش إلا معه ؟ هل الدنيا والآخرة إلا له ؟

أف لمترخص فى فعل ما يكره لنيل ما يحب .

تالله لقد فاته أضعاف ما حصل .

أقبلْ على ما أقوله ياذا الذوق ، هل وقع لك تعثير فى عيش ؟ وتخبيط فى حال ؟ إلا حال مخالفته :

ولا انثَنَى عزمِى عن بابِكم
إلا تعَثَّرْتُ بأذيالى

أما سمعت تلك الحكاية عن بعض السلف أنه قال : رأيت على سور بيروت شاباً يذكر الله تعالى فقلت له : ألك حاجة ؟

فقال : إذا وقعت لى حاجة سألته إياها بقلبي فقضاها .

ياأرباب المعاملة ، بالله عليكم لا تكدروا المشرب ، قفوا على باب المراقبة وقوف الحراس ، وادفعوا مالا يصلح أن يلج فيفسد ، واهجروا أغراضكم لتحصيل محبوب الحبيب ، فإن أغراضكم تحصل .

على أنى أقول أفّ لمن ترك بقصد الجزاء : أهذا شرط العبودية ، كلا ؟ إنما ينبغى لى إذا كنت مملوكا أن أفعل ليرضى لا لأعطى . فإن كنت محباً رأيت قطع الآراب فى رضاه وصلا .

اقبل نصحى يامخدوعا بغرضه ، إن ضعفت عن حمل بلائه فاستغث به ،

وإن آلمك كرب اختياره فإنك بين يديه ، ولا تيأس من روحه وإن قوى خناق البلاء ، بالله إن موت الخادم فى الخدمة حسن عند العقلاء .

إخوانى لنفسى أقول ، فمن له شرب معى فليرد :

أيتها النفس لقد أعطاك مالم تأملى ، وبلغك مالم تطلبى ، وستر عليك من قبيحك مالو فاح ضجت المشامّ ، فما هذا الضجيج من فوات كمال الأغراض ؟

أمملوكة أنت أم حرة ؟ أما علمت أنك فى دار التكليف ، وهذا الخطاب ينبغى أن يكون للجهال ، فأين دعواك المعرفة ؟

أتراه لو هبت نفحة فأخذت البصر ، كيف كانت تطيب لك الدنيا ؟

وا أسفا عليك لقد عشيت البصيرة التى هى أشرف ، وما علمت كم أقول عسى ولعل ؟ وأنت فى الخطأ إلى قدام .

قربت سفينة العمر من ساحل القبر ، ومالك فى المركب بضاعة تربح .

تلاعبت فى بحر العمر ريح الضعف ، ففرقت تلفيق القوى ، وكأن قد فصلت المركب ، بلغت نهاية الأجل وعين هواك تتلفت إلى الصبا .

بالله عليك لا تشمتى بك الأعداء ، هذا أقل الأقسام ، وأوفى منها ، أن أقول : بالله عليك لا يفوتنك قدم سابق مع قدرتك على قطع المضمار .

الخلوة ، الخلوة ، واستحضرى قرين العقل ، وجولى فى حيرة الفكر ، واستدركى صبابة الأجل ، قبل أن تميل بك الصبابة عن الصواب .

واعجباً كلما صعد العمر نزلتِ ، وكلما جدّ الموت هزلتِ .

أتراك ممن ختم له بفتنة ، وقضيت عليه عند آخر عمره المحنة ، كان أول عمرك خيراً من الآخير .

كنت فى زمن الشباب أصلح منك فى زمن أيام المشيب « وتلكَ الأمْثالُ نضْربُهَا لِلنَّاس وَماَ يعقلها إلاّ العالمونَ (١) » .

نسأل الله عز وجل مالا يحصل مطلوبنا إلا به ، وهو توفيقه إنه سميع مجيب .

١٣٨ ـ فصل : من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه

قدرت فى بعض الأيام على شهوة للنفس ، هى عندها أحلى من الماء الزلال فى فم الصادى .

وقال التأويل : ما ههنا مانع ، ولا معوق إلا نوع ورع .

وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز ، فترددت بين الأمرين ، فمنعت النفس عن ذلك ، فبقيت حيرتى لمنع ما هو الغاية فى غرضها من غير صاد عنه بحال إلا حذر المنع الشرعى .

فقلت لهـا : يانفس والله ما من سبيل إلى ما تودين ولا ما دونه ؟

فتقلقلت ، فصحت بها : كم وافقتك فى مراد ذهبت لذته وبقى التأسف على فعله ؟

فقدرى بلوغ الغرض من هذا المراد ، أليس النـدم يبقى فى مجال اللذة أضعاف زمانها ؟

فقالت : كيف أصنع ؟ فقلت :

صبرتُ ولا والله ما بى جلادةٌ
على الحبِّ لكنى صبرتُ على الرغمِ

(١) جزء من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

وها أنا ذا أنتظر من الله عز وجل حسن الجزاء على هذا الفعل ، وقد تركت باقي هذه الوجهة البيضاء ، أرجو أن أرى حسن الجزاء على الصبر ، فأسطره فيه إن شاء الله تعالى ، فإنه قد يعجل جزاء الصبر وقد يؤخره ، فإن عجل سطرته ، وإن أخر فما أشك فى حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه[1] ، فإنه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

والله إنى ما تركته إلا لله تعالى ، ويكفينى تركه ذخيرة ، حتى لو قيل لى : أتذكر يوماً آثرت الله على هواك ؟ قلت : يوم كذا وكذا .

فافتخرى أيتها النفس بتوفيق من وفقك ، فكم قد خذل سواك .

واحذرى أن تخذلى فى مثلها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان هذا فى سنة إحدى وستين وخمسمائة ، فلما دخلت سنة خمس وستين ، عوضت خيراً من ذلك بما لا يقارب مما لا يمنع منه ورع ولا غيره .

فقلت : هذا جزاء الترك لأجل الله سبحانه فى الدنيا ، ولأجر الآخرة خير والحمد لله .

١٣٩ – فصل : افتح عين التيقظ

لا أنكر على من طلب لذة الدنيا من طريق المباح ، لأنه ليس كل أحد يقوى على الترك ، إنما المحنة من طلبها فلم يجدها ، أو أكثرها ، إلا من طريق الحرام ، فاجتهد فى تحصيلها ، ولم يبال كيف حصلت .

فهذه المحنة التى بخس العقل فيها حقه ، ولم ينتفع صاحبه بوجوده لأنه لو وزن ما آثر عقابه، طاشت كفة اللذة التى فنيت عندأول ذرة من جزائها .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان »

وكم قد رأينا ممن آثر شهوته فسلبت دينه .

فليعجب العاقل حين التصفح لأحوالهم ، كيف آثروا شيئاً ما أقاموا معه، وصاروا إلى عقاب لا يفارقهم .

فالله الله فى بخس العقول حقها .

ولينظر السالك أين يضع القدم ، فرب مستعجل وقع فى بئر بوار .

ولتكن عين التيقظ مفتوحة ، فإنكم فى صف حرب لايدرى فيه من أين يتلقى النبل ، فأعينوا أنفسكم ولا تعينوا عليها .

١٤٠ - فصل : متى تحققت المراقبة حصل الأنس

الحق عز وجل أقرب إلى عبده من حبل الوريد[1]، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه .

فأمر بقصد نيته ، ورفع اليدين إليه ، والسؤال له .

فقلوب الجهال تستشعر البعد ، ولذلك تقع منهم المعاصى ، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا .

والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة ، وكفتهم عن الانبساط .

ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية لما انبسطت كف بأكل ، ولا قدرت عين على نظر .

ومن هذا الجنس « إنه ليغان على قلبى » ومتى تحققت المراقبة حصل الأنس وإنما يقع الأنس بتحقيق الطاعة ، لأن المخالفة توجب الوحشة ، والموافقة مبسطة المستأنسين .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

فيا لذة عيش المستأنسين ، ويا خسار المستوحشين .

وليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها فى مجرد الصلاة والصيام ، إنما الطاعة الموافقة بامتثال الأمر واجتناب النهى .

هذا هو الأصل والقاعدة الكلية ، فكم من متعبد بعيد ، لأنه مضيع الأصل، وهادم للقواعد بمخالفة الأمر وارتكاب النهى ، وإنما المحقق من أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس ، فأدى ما عليه ، واجتنب ما نهى عنه ، فإن رزق زيادة تنفل ، وإلا لم يضره ، والسلام .

١٤١ ـ فصل : دوام الود بحسن الائتلاف

الدنيا فى الجملة معبر ، فينبغى للإنسان ألا ينافس بلذاتها ، وأن يعبر الأيام بها ، فإنه لو تفكر فى كيفية الذبائح ، ووسخ من يباشرها ، وعمل الكامخ وغيرها من المأكولات ما طابت له .

ولو تفكر فى جولان اللقمة مختلطة بالريق ما قدر على إساغتها .

والمرء لا يخلو من حالين ، إما أن يريد التنعم باللذات المباحات ، أو يريد دفع الوقت بالضرورات ، وأيهما طلب فلا ينبغى له أن يبحث فيما يناله عن باطنه ، فإنه لو نظر إلى عورة الزوجة نبا عنها ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها : « ما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رآه منى[1] » .

فينبغى للعاقل أن يكون له وقت معلوم يأمر زوجته بالتصنع له فيه، ثم يغمض عن التفتيش ليطيب له عيشه . وينبغى لها أن تتفقد من نفسها هذا ، فلا تحضره إلا على أحسن حال ، وبمثل هذا يدوم العيش .

---

(١) وفى رواية : « ما رأيت منه ولا رأى منى » .

فأما إذا حصلت البذلة بانت بها العيوب ، فنبت النفس وطلبت الاستبدال، ثم يقع فى الثانية مثل ما يقع فى الأولى .

وكذلك ينبغى أن يتصنع لها كتصنعها له ، ليدوم الود بحسن الائتلاف، ومتى لم يجر الأمر على هذا فى حق من له أنفة من شىء تنبو عنه النفس . وقع فى أحد أمرين: إما الإعراض عنها ، وإما الاستبدال بها .

ويحتاج فى حالة الإعراض إلى صبر عن أغراضه ، وفى حالة الاستبدال إلى فضل مؤنه ، وكلاهما يؤذى .

ومتى لم يستعمل ما وصفنا لم يطب له عيش فى متعة ، ولم يقدر على دفع الزمان كما ينبغى .

١٤٢ - فصل : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

نازعتنى نفسى إلى أمر مكروه فى الشرع ، وجعلت تنصب لى التأويلات، وتدفع الكراهة ، وكانت تأويلاتها فاسدة ، والحجة ظاهرة على الكراهة ، فلجأت إلى الله تعالى فى دفع ذلك عن قلبى ، وأقبلت على القراءة ، وكان درسى قد بلغ إلى سورة يوسف فافتتحتها ، وذلك الخاطر قد شغل قلبى حتى لا أدرى ما أقرأ ، فلما بلغت إلى قوله تعالى « قال مَعَاذَ اللهِ إنَّهُ رَبِّى أحْسَنَ مَثْوَاىَ [1] » انتبهت لها وكأنى خوطبت بها .

فأفقت من تلك السكرة ، فقلت : يانفس أفهمت ؟

هذا حر بيع ظلماً فراعى حق من أحسن إليه ، وسماه مالكا ، وإن لم يكن له عليه ملك ؛ فقال : إنه ربى .

---

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة يوسف .

ثم زاد فى بيان موجب كف كفه عما يؤذيه ، فقال : أحسن مثواى .

فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك ، وإن ستره عليك الزلل أكثر من عدد الحصا . أفما تذكرين كيف رباك ، وعلمك ، ورزقك : ودافع عنك ، وساق الخير إليك ، وهداك أقوم طريق ، ونجاك من كل كيد ، وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن .

وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت، فى قصير الزمان مالم ينله غيرك فى طويله ، وجلىّ فى عرصة لسانك عرائس العلوم فى حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحك ، فتلقوها منك بحسن الظن .

وساق رزقك بلا كلفة تكلف ولا كدر منّ ، رغداً غير نزر ؟

فو الله ما أدرى أى نعمة عليك أشرح لك ، حسن الصورة وصحة الآلات؟ أم سلامة المزاج واعتدال التركيب ؟ أم لطف الطبع الخالى عن خساسة ؟ أم إلهام الرشاد منذ الصغر ؟ أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل ؟ أم تحبب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم ، ولا انخراط فى سلك مبتدع ؟ « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[1] » .

كم كائد نصب لك المكايد فوقاك ؟

كم عدوّ حط منك بالذم فرقاك ؟

كم أعطش من شراب الأمانى خلقاً وسقاك ؟

كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وأبقاك ؟

---

(١) جزء من الآية ١٨ من سورة النحل .

فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن ، محروسة الدين ، فى تزيد من العلم وبلوغ الأمل ، فإن منعت مراداً فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة فى المنع ، فسلمى حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح .

ولو ذهبت أعدّ من هذه النعم ما سنح ذكره امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة ، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر ، وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح ، فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه ؟ « معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون[1] » .

١٤٣ - فصل · أجود الأشياء قطع أسباب الفتن

ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة ، وقلّ أن يقاربها إلا من يقع فيها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم ، وتحتمل الإباحة ، إذ الأمر فيها مردّد ، فجاهدت النفس فقالت : أنت ما تقدر فلهذا تترك ؛ فقارب المقدور عليه ، فإذا تمكنت فتركت كنت تاركا حقيقة .

ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى فى تأويل أرتنى فيه الجواز ، وإن كان الأمر يحتمل ، فلما وافقتها أثر ذلك ظلمة فى قلبى، لخوف أن يكون الأمر محرما ، فرأيت أنها تارة تقوى علىّ بالترخص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع .

فإذا ترخصت لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظوراً ، ثم أرى عاجلا تأثير ذلك الفعل فى القلب ، فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت فى قطع طمعها

---

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة يوسف .

من ذلك الأمر المؤثر ، فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدرى أن هذا الأمر مباح قطعاً ، فو الله الذى لا إله إلا هو لاعدت إليه .

فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة . وهذا أبلغ دواء وجدته فى امتناعها، لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير .

فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملا ومؤدياً إلى مالا يجوز ، والله الموفق .

١٤٤ - فصل - سكرة الهوى حجاب

لولا غيبة العاصى فى وقت المعاصى كان كالمعاند ، غير أن الهوى يحول بينه وبين الفهم للحال ، فلا يرى إلا قضاء شهوته .

وإلا فلو لاحت له المخالفة خرج من الدين بالخلاف ، فإنما يقصد هواه فيقع الخلاف ضمناً وتبعاً .

وأكثر ما يقع هذا فى مقاربة الفتنة ، وقلّ من يسلم عند المقاربة ، لأنه كتقديم نار إلى حلفا .

ثم لو ميّز العاقل بين قضاء وطره لحظة وانقضاء باقى العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر لما قرب منه ولو أعطى الدنيا .

غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك .

آه كم معصية مضت فى ساعتها كأنها لم تكن ثم بقيت آثارها ، وأقلها مالا يبرح من المرارة فى الندم .

والطريق الأعظم فى الحذر ألا يتعرض لسبب فتنة ، ولا يقاربه ، فمن فهم هذا وبالغ فى الاحتراز كان إلى السلامة أقرب .

١٤٥ - فصل : البلاء على قدر الرجال

البلايا على مقادير الرجال . فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا .

وأولئك قوم لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة ، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم .

إنما المحنة العظمى أن ترزق همة عالية لا تقنع منك إلا بتحقيق الورع ، وتجويد الدين ، وكمال العلم ، ثم تبتلى بنفس تميل إلى المباحات ، وتدعى أنها تجمع بذلك همها ، وتشفى مرضها ، لتقبل مزاحمة العلة على تحصيل الفضائل .

وهاتان الحالتان كضدين ، لأن الدنيا والآخرة ضرتان .

واللازم فى هذا المقام مراعاة الواجبات ، وألا يفسح للنفس فى مباح لا يؤمن أن يتعدى منه إعراض عن واجب ورع .

المبتلى يصيح ، فلأن يبكى الطفل خير من أن يبكى الولد .

واعلم أن فتح باب المباحات ربما جر أذى كثيراً فى الدين ، فأوثق السكر قبل فتح الماء ، والبس الدرع قبل لقاء الحرب ، وتلمح عواقب ما تجنى قبل تحريك اليد ، واستظهر فى الحذر باجتناب ما يخاف منه وإن لم يتيقن .

١٤٦ - فصل : مع العدل والانصاف يتأتى كل مراد

ينبغى لطالب العلم أن يكون جل همته مصروفا إلى الحفظ والإعادة ، فلو صح صرف الزمان إلى ذلك كان الأولى .

غير أن البدن مطية ، وإجهاد السير مظنة الانقطاع ، ولما كانت القوى تكل فتحتاج إلى تجديد ، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لابد منه ، مع أن المهم الحفظ ، وجب تقسيم الزمان على الأمرين ، فيكون الحفظ فى طرفى

النهار وطرف الليل ، ويوزع الباقى بين عمل بالنسخ والمطالعة ، وبين راحة للبدن وأخذ لحظه .

ولا ينبغى أن يقع الغبن بين الشركاء ، فإنه متى أخذ أحدهم فوق حقه أثر الغبن وبان أثره ، وإن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار ، لأن ذلك أشهى وأخف عليها .

فليحذر الراكب من إهمال الناقة ، ولا يجوز له أن يحمل عليها مالا تطيق ومع العدل والإنصاف يتأتى كل مراد .

ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه .

ومن طوى منازل فى منزل أوشك أن يفوته ما جد لأجله ، على أن الإنسان إلى التحريض أحوج لأن الفتور ألصق به من الجد .

وبعد ، فاللازم فى العلم طلب المهم ، فرب صاحب حديث حفظ مثلا لحديث : « من أتى الجمعة فليغتسل » : عشرين طريقاً ، والحديث قد ثبت من طريق واحد ، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل ، والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه فى نفس ، وكفى بالعقل مرشداً إلى الصواب . وبالله التوفيق .

١٤٧ ـ فصل من قال : لا أدرى فقد أفتى

إذا صح قصد العالم استراح من كلف التكلف ، فإن كثيراً من العلماء يأنفون من قول لا أدرى ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال : جهلوا الجواب ، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا ، وهذا نهاية الخذلان .

وقد روى عن مالك بن أنس أن رجلا سأله عن مسئلة فقال : لا أدرى ، فقال : سافرت البلدان إليك ، فقال : ارجع إلى بلدك وقل : سألت مالكا فقال : لا أدرى .

فانظر إلى دين هـــذا الشخص وعقله كيف استراح من الـكلفة ، وسلم عند الله عز وجل . ثم إن كان المقصود الجاه عندهم ، فقلوبهم بيد غيرهم .

والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت ، ويتخشع فى نفسه ولباسه ، والقلوب تنبو عنه ، وقدرُه فى النفوس ليس بذاك. ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع ، والقلوب تتهافت على محبته .

فتدبرت السبب فوجدته السريرة، كما روى عن أنس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم ، وإنما كانت له سريرة .

فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله ، وعبقت القلوب بنشر طيبه .

فالله الله فى السرائر ، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر .

١٤٨ ـ فصل : الدنيا دار ابتلاء واختبار

نزلتُ فى شدة وأكثرتُ من الدعاء أطلب الفرج والراحة . وتأخرت الإجابة ، فانزعجتْ النفس وقلقت ، فصحتُ بهـا : وَيلك، تأمَّلى أمرك، أمملوكة أنت أم حرّة مالـكة ؟ أمدبَّـرَةٌ أنت أم مدَبِّـرَة ؟

أما علمتِ أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، فإذا طلبتِ أغراضك ولم تصبرى على ما ينافى مرادك فأين الابتلاء ؟

وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد ؟

فافهمى معنى التـكليف وقد هانَ عليكِ ما عزّ ، وسهل ما استصعب .

فلما تدبرتْ ماقلتـُه سكنت بعض السكون .

فقلت لها : وعندى جواب ثان ، وهو أنك تقتضين الحق بأغراضك ولا تقتضين نفسك بالواجب له ، وهذا عين الجهل .

وإنما كان ينبغى أن يكون الأمر بالعكس ، لأنك مملوكة ، والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك ، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى ، فسكنَتْ أكثر من ذلك السكون .

فقلت لها : وعندى جواب ثالث ،وهو أنك قد استبطأت الإجابة ،وأنت سددت طرقها بالمعاصى ، فلو قد فتحت الطريق أسرعت .

كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى .

أو ما سمعت قوله تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يجعلْ لهُ مَخرَجاً. ويَرْزُقه »(١) « يجعلْ له منْ أمْرِهِ يُسْراً »(٢) .

أو ما فهمت أن العكس بالعكس ؟

آه من سكر غفلة صار أقوى من كل سكر فى وجه مياه المراد يمنعها من الوصول إلى زرع الأمانى ، فعرفت النفس أن هذا حق فاطمأنت .

فقلت : وعندى جواب رابع ، وهو أنك تطلبين مالا تعلمين عاقبته ، وربما كان فيه ضررك ، فمثلك كمثل طفل محموم يطلب الحلوى ، والمدبر لك أعلم بالمصالح ، كيف وقد قال الله : « وَعَسَى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم »(٣) فلما بان الصواب للنفس فى هذه الأجوبة ، زادت طمأنينتها .

فقلت لها : وعندى جواب خامس ، وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك ، ويحط من مرتبتك ، فمنع الحق لك ما هذا سبيله عطاء منه لك ، ولو أنت طلبت ما يصلح آخرتك كان أولى لك. فأولى لك ان تفهمى ما قد شرحت

---

(١) جزء من الآية ٢ ، ٢ من سورة الطلاق .
(٢) جزء من الآية ٤ من سورة الطلاق .
(٣) جزء من الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

فقالت : لقد سرحت فى رياض ما شرحت . فَهِمْتُ إذ فهمت .

١٤٩ - فصل : ادخر المال واستغن عن الناس

حضرنا بعض أغذية أرباب الأموال . فرأيت العلماء أذل الناس عندهم . فالعلماء يتواضعون لهم ويذلون لموضع طمعهم فيهم . وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم . فرأيت هذا عيباً فى الفريقين .

أما فى أهل الدنيا فوجه العتب أنهم كانوا ينبغى لهم تعظيم العلم . ولكن لجهلهم بقدره فاتهم وآثروا عليه كسب الأموال . فلا ينبغى أن يطلب منهم تعظيم مالا يعرفون ولا يعلمون قدره .

وإنما أعود باللوم على العلماء وأقول : ينبغى لكم أن تصونوا أنفسكم التى شرفت بالعلم عن الذل للأنذال . وإن كنتم فى غنى عنهم كان الذل لهم والطلب منهم حراماً عليكم . وإن كنتم فى كفاف فلِمَ لم تؤثروا التنزه عن الذل بالعفة عن الحطام الفانى الحاصل بالذلة ؛ إلا أنه يتخيل لى من هذا الأمر ، أنى علمت قلة صبر النفس على الكفاف والعزوف عن الفضول ، فإن وجد ذلك منها فى وقت لم يوجد على الدوام .

فالأولى للعالم أن يجتهد فى طلبِ الغنى . ويبالغ فى الكسب ، وإن ضاع بذلك عليه كثير من زمان طلب العلم ؛ فإنه يصون بِعَرَضِه عِرْضَه .

وقد كان سعيد بن المسيب يتجر فى الزيت وخلف مالا .

وخلف سفيان الثورى مالا وقال : لولاك لتمندلوا بى .

وقد سبق فى كتابى هذا فى بعض الفصول شرف المال ، ومن كان من الصحابة والعلماء يقتنيه . والسر فى فعلهم ذلك .

وحثّى طالبى العلم على ذلك ما بينته من أن النفس لا تثبت على التعفف ، ولاتصبر على دوام التزهد .

وكم قد رأينا من شخص قويت عزيمته على طلب الآخرة فأخرج ما فى يده ، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح وجه .

فالأولى ادخار المال والاستغناء عن الناس ، ليخرج الطمع من القلب ، ويصفو نشر العلم من شائبة ميل .

ومن تأمل أخبار الأخيار من الأحبار وجدهم على هذه الطريقة .

وإنما سلك طريق الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده بذل الدين والوجه فطلبَ الراحة ونسى أنها فى المعنى عناء ، كما فعل جماعة من جهال المتصوفة فى إخراج ما فى أيديهم وادعاء التوكل ، وما علموا أن الكسب لا ينافى التوكل . وإنما طلبوا طريق الراحة وجعلوا التعرض للناس كسباً ، وهذه طريقة مركبة من شيئين : أحدهما : قلة الأنفة على العرض . الثانى : قلة العلم .

١٥٠ ـ فصل : خطر موافقة الهوى

تأملت وقوع المعاصى من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان ، وإنما يقصدون موافقة هواهم ، فوقع العصيان تبعاً ، فنظرت فى سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة ، فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق ، وفضله الزاخر .

ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته ما انبسطت كف بمخالفته .

فإنه ينبغى والله أن يحذر من أقل فعله تعميم الخلق بالموت ، حتى إلقاء الحيوان البهيم للذبح ، وتعذيب الأطفال بالمرض ، وفقر العالم ، وغنى الجاهل .

فليعرض المقدم على الذنوب على نفسه الحذر ممن هذه صفته ، فقد قال الله تعالى : « ويحذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ[1] » .

وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسباب الرجاء .

فالخائف آخذ بالحزم ، والراجى متعلق بحبل طمع ، وقد يخلف الظن .

١٥١ - فصل : القناعة بالقليل

رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء ويستذلونهم بشيء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم ؛ فإن كان لأحدهم ختمة قال فلان ما حضر ، وإن مرض قال فلان ما تردد ، وكل مِنَّتِهِ عليه شيء نزر يجب تسليمه إلى مثله .

وقد رضى العلماء بالذل فى ذلك لموضع الضرورة . فرأيت أن هذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم ، ودواؤه من جهتين :

إحداهما : القناعة باليسير . كما قيل : من رضى بالخلِّ والبقلِ لم يستعبده أحد .

والثانى صرف بعض الزمان المصروف فى خدمة العلم إلى كسب الدنيا ، فإنه يكون سبباً لإعزاز العلم ، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان فى طلب العلم ، مع احتمال هذا الذل .

ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة قدَّر قوته ، واحتفظ بجامعه ، أو سعى فى مكتسب يكفيه ، ومن لم يأنف من مثل هذه الأشياء لم يحظ من العلم إلا بصورته دون معناه .

---

(١) جزء من الآية ٢٨ من سورة آل عمران ، ٣٠ من آل عمران .

١٥٢ – فصل : ثمرة العقل فهم الخطاب

مدار الأمر كله على العقل ؛ فإنه إذا تم العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل ، وثمرة العقل فهم الخطاب ، وتلمح المقصود من الأمر .
ومن فهم المقصود وعمل على الدليل كان كالبانى على أساس وثيق .

وإنى رأيت كثيراً من الناس لا يعملون على دليل ، بل كيف اتفق ، وربما كان دليلهم العادات ، وهذا أقبح شىء يكون .

ثم رأيت خلقاً كثيراً لا يتبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى : فإنهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا ، وكذلك يثبتون الإله ولا يعرفون ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فينسبون إليه الولد ، ويمنعون جواز تغييره ما شرع .

وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا فى إثبات الصانع وما يجوز عليه ، ولا فى الدليل على صحة النبوات ، فتقع أعمالهم ضائعة كالبانى على رمل .

ومن هذا القبيل فى المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون وينصبون أبدانهم فى العلم بأحاديث باطلة ، ولا يسألون عنها من يعلم .

ومن الناس من يثبت الدليل ولا يفهم المقصود الذى دل عليه الدليل .

ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فتزهدوا ، وما فهموا المقصود ، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها ، وأن النفس تجب عداوتها ، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق ، وعذبوها بكل نوع ، ومنعوها حظوظها ، جاهلين بقوله صلى الله عليه وسلم : إن لنفسك عليك حقاً .

وفيهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض ، ونحول الجسم ، وضعف القوى .

وكل ذلك لضعف الفهم للمقصود والتلمح للمراد . كما روى عن داود الطائى أنه كان يترك ماء فى دن تحت الأرض فيشرب منه وهو شديد الحر.

وقال سفيان : إذا كنت تأكل اللذيذ الطيب ، وتشرب الماء البارد المبرد، فمتى تحب الموت والقدوم على الله ؟

وهذا جهل بالمقصود . فإن شرب الماء الحار يورث أمراضاً فى البدن ، ولا يحصل به الرى .

وما أمرنا بتعذيب أنفسنا على هذه الصورة ، بل يترك ما تدعو إليه من ما نهى الله عنه .

وفى الحديث الصحيح : أن أبا بكر رضى الله عنه لما حلب له الراعى فى طريق الهجرة صب الماء على القدح حتى برد أسفله ، ثم سقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرش له فى ظل صخرة .

وكان يستعذب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الماء . وقال : « إن كان عندكم ماء بات فى شن وإلا كرعنا » .

ولو فهم داود رحمه الله أن إصلاح علف الناقة متعين لقطع المسافة لم يفعل هذا .

ألا ترى إلى سفيان الثورى فإنه كان شديد المعرفة والخوف وكان يأكل اللذيذ ويقول : إن الدابة إذا لم يحسن إليها لم تعمل .

ولعل بعض من لم يسمع كلامى هذا يقول : هذا ميل على الزهاد .

فأقول : كن مع العلماء ، وانظر إلى طريق الحسن ، وسفيان ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وأحمد ، والشافعى ، وهؤلاء أصول الإسلام .

ولا تقلد دينك من قلّ علمه وإن قوى زهده ، واحمل أمره على أنه كان يطيق هذا ولا تقتد بهم فيما لا تطيقه ، فليس أمرنا إلينا ، والنفس وديعة عندنا ، فإن أنكرت ما شرحته فأنت ملحق بالقوم الذى أنكرت عليهم .

هذا رمز إلى المقصود . والشرح يطول .

١٥٣ ـ فصل : العلم أشرف مكتسب

الواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما لا يخفى من مكروه . مثاله أنه قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق عز وجل وملكه وتدبيره .

فإذا رأى الإنسان عالماً محروماً ، وجاهلا مرزوقا ، أوجب عليه الدليل المثبت حكمة الخالق التسليم إليه ، ونسبة العجز عن معرفة الحكمة إلى نفسه .

فإن أقواما لم يفعلوا ذلك جهلا منهم ، أفتراهم بماذا حكموا ؟ بفساد هذا التدبير ؟ أليس بمقتضى عقولهم ؟ أو ما عقولهم من جملة مواهبه ؟

فكيف يحكم على حكمته وتدبيره ببعض مخلوقاته التى هى بالإضافة إليه أنقص من كل شىء ؟

ولقد بلغنى عن اللعين ابن الراوندى أنه كان جالساً على الجسر وفى يده رغيف يأكله ، فجازت خيل وأموال، فقال : لمن هذه ؟ فقيل: لفلان الخادم . ثم جازت خيل وأموال ، فقال : لمن هذه ؟ فقيل لفلان الخادم .

فلما مر الخادم رأى شخصا محتقراً ، فرمى الرغيف إلى ناحيته وقال: وهذا لفلان ! ما هذه القسمة !

ولو فكر المعترض لبانت له وجوه أقلها جهله بمن يدعى معرفته وقلة تعظيمه له . وذلك يوجب عليه أشد مما كان فيه من تضييق العيش ، ولكنه ميراث إبليس ، حيث اعتقد سوء التدبير فى تفضيل آدم عليه السلام .

فالعجب من تلميذ يتحالم على أستاذه ، ومن مملوك يتيه على سيده .

ومما ينبغى أن يتبع فيه الدليل ، ولا يلتفت إلى ما جنت الحال ، أن العلم أشرف مكتسب .

وقد رأى جماعة من الجهلة قلة حظوظ العلماء من الدنيا ، فأزروا على العلم وقالوا : لا فائدة فيه ؛ وذلك لجهلهم بمقدار العلم ، فإن تابع الدليل لا يبالى ما جنى . وإنما يبين الاختبار بفقد الغرض .

ولو لم يكن من الدليل على صدق نبينا صلى الله عليه وسلم إلا إعراضه عن الدنيا و تضييق العيش عليه . ثم لم يخلف شيئاً ، وحرم أهله الميراث ، لكفاه ذلك دليلا على صدق طلبه لمطلوب آخر .

وربما رأى الجاهل قوماً من العلماء يفعلون خطيئة فيزدرى على العلم ويدعيه ناقصاً ، وهذا غلط كبير ؛ فليتق الله العاقل وليعمل بمقتضى العقل فيما يأمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم ؛ وليعلم أن الابتلاء فى الصبر على فوات المطلوبات ؛ وليلزم اتباع الدليل وإن جنى مكروها . والله الموفق .

١٥٤ ـ فصل : عاقبة الصبر ونهاية الهوى

قرأت سورة يوسف عليه السلام . فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره ، وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك . فتأملت خبيئة الأمر ، فإذا هى مخالفة للهوى المكروه .

فقلت : واعجباً لو وافق هواه من كان يكون ؟

ولما خالفه لقد صار أمراً عظيما تضرب الأمثال بصبره ، ويفتخر على الخلق باجتهاده .

وكل ذلك قد كان بصبر ساعة ، فياله عزاً وفخراً ، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب .

وبالعكس منه حالة آدم فى موافقته هواه ، لقد عادت نقيصة فى حقه أبداً ، لولا التدارك فتاب عليه .

فتلمحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى .

فالعاقل من ميز بين الأمرين : الحلوين، والمرين . فإن من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى رأى كل الأرباح فى الصبر ، وكل الخسران فى موافقة النفس . وكفى بهذا موعظة فى مخالفة الهوى لأهل النهى . والله الموفق .

١٥٥ ـ فصل : لايصلح العلم مع قلة العمل

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفى فى صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر فى سير السلف الصالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل . وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق لأنى وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم فى الحديث العالى وتكثير الأجزاء .

وجمهور الفقهاء فى علوم الجدل وما يغالب به الخصم .

وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء ؟

وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سَمْتِهِ وَهَدْيِهِ . لا لاقتباس علمه ،

وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته ، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد فى الدنيا ، ليكون سبباً لرقة قلبك .

وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الأخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه .

فجمعت كتاباً فى أخبار الحسن، وكتاباً فى أخبار سفيان الثورى، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافى، وأحمد بن حنبل، ومعروف، وغيرهم من العلماء والزهاد، والله الموفق للمقصود. ولا يصلح العمل مع قلة العلم.

فهما فى ضرب المثل كسائق وقائد، والنفس بينهما حرون، ومع جد السائق والقائد ينقطع المنزل، ونعوذ بالله من الفتور.

١٥٦ - فصل: نور القلب يلبة المريد

ترخصت فى شىء يجوز فى بعض المذاهب، فوجدت فى قلبى قسوة عظيمة، وتخايل لى نوع طرد عن الباب، وبُعد، وظلمة تكاثفت.

فقالت نفسى: ما هذا؟ أليس ما خرجت عن إجماع الفقهاء؟

فقلت لها: يانفس السوء جوابك من وجهين:

أحدهما: أنك تأولت ما لا تعتقدين، فلو استُفتيتِ لم تُفتِ بما فعلتِ.

قالت: لو لم أعتقد جواز ذلك ما فعلته.

قلت: إلا أن اعتقادك ما ترضينه لغيرك فى الفتوى.

والثانى: أنه ينبغى لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك، لأنه لولا نور فى قلبك ما أثر مثل هذا عندك.

قالت: فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة فى القلب.

قلت: فاعزمى على الترك، وقدّرِى ما تركت جائزاً بالإجماع، وعُدى هجره ورعاً، وقد سلمت.

١٥٧ ـ فصل : كم من محتقر احتيج إليه

مما أفادتنى تجارب الزمان أنه لا ينبغى لأحد أن يظاهر بالعداوة أحداً ما استطاع ، فإنه ربما يحتاج إليه مهما كانت منزلته .

وإن الإنسان ربما لا يظن الحاجة إلى مثله يوماً ما كما لا يحتاج إلى عويد منبوذ لا يلتفت إليه . لكن كم من محتقر احتيج إليه . فإذا لم تقع الحاجة إلى ذلك الشخص فى جلب نفع وقعت الحاجة فى دفع ضر .

ولقد احتجت فى عمرى إلى ملاطفة أقوام ما خطر لى قط وقوع الحاجة إلى التلطف بهم .

واعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجلب أذى من حيث لا يعلم . لأن المُظاهر بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضربا . وقد يلوح منه مضرب خفى ، وإن اجتهد المتدرع فى ستر نفسه فيغتنمه ذلك العدو .

فينبغى لمن عاش فى الدنيا أن يجتهد فى ألا يظاهر بالعداوة أحداً لما بينت من وقوع احتياج الخلق بعضهم إلى بعض ، وإقدار بعضهم على ضرر بعض .

وهذا فصل مفيد تبين فائدته للإنسان مع تقلب الزمان .

١٥٨ ـ فصل : فى القناعة سلامة الدنيا والدين

رأيت النفس تنظر إلى لذات أرباب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات .

وبيان هذا أنك إن رأيت صاحب إمارة وسلطنة فتأملت نعمته وجدتها مشوبة . فإن لم يقصد هو الشر حصل من عماله ، ثم هو خائف منزعج فى كل أموره ، حذر من عدو أن يسيئه ، قَلِقٌ ممن هو فوقه أن يعزله ، ومن نظيره

أن يكيده ، ثم أكثر زمانه يمضى في خدمة من يخافه من السلاطين ، وفى حساب أموالهم وتنفيذ أوامرهم التى لا تخلو من أشياء منكرة ، وإن عزل أربى ذلك على جميع ما نال من لذة .

ثم تلك اللذة تكون مغمورة بالحذر فيها ، ومنها ، وعليها .

وإن رأيت صاحب تجارة رأيته قد تقطع فى البلاد فلم ينل ما نال إلا بعد علو السن وذهاب زمان اللذة .

كما حكى أن رجلا من الرؤساء كان حال شبيبته فقيراً ، فلما كبر استغنى وملك أموالا واشترى عبيداً من الترك وغيرهم ، وجوارىَ من الروم ، فقال هذه الأبيات فى شرح حاله :

ما كنتُ أرجوه إذ كنتُ ابن عشرينا
ملكتهُ بعد أن جاوزتُ سبعيناً
تطوفُ بى من الأتراكِ أغزلةٌ
مثل الغصونِ على كثبان يبرينا
وخرد من بنات الروم رائعة
يحكين بالحسنِ حورَ الجنة العِينا
يغمزننى بأساريعَ منعمة
تكاد تعقدُ من أطرافها لينا
يردن إحياءَ ميتٍ لا حراكَ به
وكيف يحيينَ ميتاً صار مدفوناً
قالوا أنينك طول الليل يسهرنا
فما الذى تشتكى قلت الثمانينا

وهذه الحالة هى الغالبة فإن الإنسان لا يكاد يجتمع له كل ما يحبه إلا عند قرب رحيله ، فإن بدر ما يحب فى بداية شبابه فالصبوة مانعة من فهم التدابير أو حسن الالتذاذ .

والإنسان فى حالة الصبوة لا يدرى أين هو إلا أن يبلغ ، فإذا بلغ كانت همته فى المنكوح كيف ما اتفق ، وإن تزوج جاء الأولاد فمنعوه اللذة وانكسر فى نفسه وافتقر إلى الكسب عليهم ، فبينماهو قد دعك فى تلك المديدة القريبة من الثلاثين وخطه الشيب فانفرق من نفسه لعلمه أن النساء ينفرقن منه ، كما قال ابن المعتز بالله :

لَقَدْ أَبْغَضْتُ نَفْسِى فِى مَشِيبِى
فَكَيْفَ تُحِبُّنِى الخَودُ الكِعَابُ

وهكذا لا ترى المتمتع بالمستحسنات ، إن وجدهن ، لم يجد مالاً يبلغ به المراد ، وإن اشتغل بجمع المال ضاع زمن تمتعه ، وإذا تم المطلوب فالشيب أقبح قذى وأعظم مبغض .

ثم إن صاحب المال خائف على ماله ، محاسب لمعامليه ، مذموم إن أسرف وإن قتر .

ولده يرصد موته ، وجاريته قد لا ترضى بشخصه ، وهو مشغول بحفظ حواشيه ، فقد مضى زمانه فى محن ، واللذات فيها خلس معتادة لا لذة فيها ، ثم فى القيامة يحشر الأمير والتاجر خزايا ، إلا من عصم الله .

فإياك إياك أن تنظر إلى صورة نعيمهم فإنك تستطيبه لبعده عنك ، ولو قد بلغته كرهته ، ثم فى ضمنه من محن الدنيا والآخرة مالا يوصف . فعليك بالقناعة مهما أمكن ، ففيها سلامة الدنيا والدين .

وقد قيل لبعض الزهاد وعنده خبز يابس : كيف تشتهى هذا ؟

فقال : أتركه حتى أشتهيه .

١٥٩ ـ فصل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

وقع بينى وبين أرباب الولايات نوع معاداة لأجل المذهب . فإنى كنت فى مجلس التذكير أنظر أن القرآن كلام الله وأنه قديم ، وأقدم أبا بكر .

واتفق فى أرباب الولايات من يميل إلى مذهب الأشعرى ، وفيهم من يميل إلى مذهب الروافض[1] ، وتمالؤا علىّ فى الباطن .

فقلت يوما فى مناجاتى للحق سبحانه وتعالى : سيدى نواصى الكل بيدك ، وما فيهم من يقدر لى على ضر ، إلا أن تجريه على يده ، وأنت قلت سبحانك « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله[2] » .

وطيبت قلب المبتلى بقولك ؛ « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا[3] » .

فإن أجريت على أيدى بعضهم ما يوجب خذلانى كان خوفى على ما نصرته أكثر من خوفى على نفسى ، لئلا يقال : لو كان على حق ما خذل .

وإن نظرت إلى تقصيرى وذنوبى فانى مستحق للخذلان ، غير أنى أعيش بما نصرته من السنة ، فأدخلنى فى خفارته .

---

(١) سبب تسميتهم الرافضة ، أن زيد بن الحسين بن على قالوا له : تبرأ من أبى بكر وعمر حتى نبايعك . فقال : بل أتبرأ ممن يتبرأ منهما فقالوا : إذن نرفضك . ومن هنا سموا الرافضة .

(٢) جزء من الآية ١٠٢ من سورة البقرة

(٣) جزء من الآية ٥١ من سورة التوبة

وقد استودعنى إياك خلق من صالحى عبادك ، فإن لم تحفظنى بى فاحفظنى بهم .

سيدى انصرنى على من عادانى . فإنهم لا يعرفونك كما ينبغى ، وهم معرضون عنك على كل حال ، وأنا ــ على تقصيرى ــ إليك أنسب .

١٦٠ - فصل : لا تكلف نفسك مالا تطيق

روى عن الحلاج الصوفى أنه كان يقعد فى الشمس فى الحر الشديد وعرقه يسيل ، فجاز بعض العقلاء فقال له : ياأحمق هذا تقاوى على الله تعالى ... !!

وما أحسن ما قال هذا ! فإنه ما وضع التكليف إلا على خلاف الأغراض وقد يحرج صاحبه إلى أن يعجز عن الصبر ، فالجاهل الأحمق من تقاوى أو من يسأل البلاء كما قال ذلك الأبله : فكيف ما شئت فاختبرنى .

١٦١ - فصل : اسألوا الله العافية

والسعيد من ذل لله وسأل العافية ، فإنه لا يوهب العافية على الإطلاق ، إذ لا بد من بلاء ، ولا يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على جمهور أحواله ، فيقرب الصبر على يسير البلاء .

وفى الجملة ينبغى للإنسان أن يعلم أنه لا سبيل إلى محبوباته خالصة ، ففى كل جرعة غصص ، وفى كل لقمة شجا :

وكم من يعشقُ الدنيا قديماً

ولكن لا سبيلَ إلى الوصالِ

وعلى الحقيقة ما الصبر إلا على الأقدار ، وقلّ أن تجرى الأقدار إلا على خلاف مراد النفس .

فالعاقل من دارى نفسه فى الصبر بوعد الأجر ، وتسهيل الأمر ليذهب زمان البلاء سالماً من شكوى ، ثم يستغيث بالله تعالى سائلا العافية .

فأما المتجلد فما عرف الله قط ، نعوذ بالله من الجهل به ، ونسأله عرفانه ، إنه كريم مجيب .

١٦٢ - فصل : من يطع الرسول فقد أطاع الله

الجادة السليمة ، والطريق القويمة ، الاقتداء بصاحب الشرع . والبدار إلى الاستنان به ، فهو الكامل الذى لا نقص فيه ، فإن خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزهد ، وحملوا أنفسهم فوق الجهد ، فأفاقوا فى أواخر العمر ، والبدن قد نهك ، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره .

وإن أقواماً انحرفوا إلى صورة العلم فبالغوا فى طلبه ، فأفاقوا فى أواخر قدم ، وقد فاتهم العمل به .

فطريق المصطفى صلى الله عليه وسلم العلم والعمل ؛ والتلطف بالبدن .

كما أوصى عبدالله بن عمر ، عمرو بن العاص وقال له : إن لنفسك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً .

فهذه هى الطريق الوسطى ، والقول الفصل .

فأما اليبس المجرد ، فكم فوّت من علم ، لو حصل نيل به أكثر مما نيل بالعمل .

فإن مثل العالم كرجل يعرف الطريق ، والعابد جاهل بها ، فيمشى العابد من الفجر إلى العصر ، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان وقد سبق العالم فضل شوطه .

فإن قال قائل: بين لى هذا ، قلت : صورة التعبد خدمة لله تعالى ؛ وذل له وربما لم يطلع العابد على معنى تلك الصورة ؛ لأنه ربما ظن أنه أهل لوجود الكرامة على يده ، وأنه مستحق تقبيل يده ؛ أو إنه خير من كثير من الناس وذلك كله لقلة العلم ، وأعنى بالعلم فهم أصول العلم ، لا كثرة الرواية ومطالعة مسائل الخلاف .

فإذا طالع العالم الأصولى؛ سبق هذا العابد بحسن خلق ، ومداراة الناس، وتواضعه فى نفسه ، وإرشاده الخلق إلى الله تعالى ، فيعسر هذا على العابد ، وهو فى ليل جهله بالحال راقد .

ربما تزوج العابد ثم حمل نفسه على التجفف ، فحبس زوجته عن مطلوبها ولم يطلقها ، وصار كالتى حبست الهرة فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض .

ومن تأمل حالة الرسول صلى الله عليه وسلم، رأى كاملا من الخلق يعطى كل ذى حق حقه .

فتارة يمزح ، وتارة يضحك ، ويداعب الأطفال ، ويسمع الشعر ، ويتكلم بالمعاريض ، ويحسن معاشرة النساء ، ويأكل ما قدر عليه وأتيح له ، وإن كان لذيذاً كالعسل. ويستعذب له الماء ، ويفرش له فى الظل ، ولم ينكر ذلك ، ولم يسمع عنه ما حدث بعده من جهال المتصوفة والمتزهدين ؛ من منع النفس شهواتها على الإطلاق .

فقد كان يأكل البطيخ بالرطب ، ويقبل ؛ ويمص اللسان ، ويطلب المستحسنات .

فأما أكل خبز الشعير ووزن المأكول ، وتجفيف البدن ، وهجر كل مشتهى ، فإنه تعذيب للنفس ، وهدم للبدن . لا يقتضيه عقل ، ولا يمدحه

شرع . وإنما اقتنع أقوام بالقليل ، لأسباب مثل أن حدثت شبهة فتقللوا ، أو اختلط طعام بطعام فتورعوا .

ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يوفى العبادة حقها بقيام الليل والاجتهاد فى الذكر .

فعليك بطريقته التى هى أكمل الطرق ، وبشرعته التى لا شوب فيها ، ودع حديث فلان وفلان من الزهاد . واحمل أمرهم على أحسن محمل ؛ وأقم لهم الأعذار مهما قدرت . فإن لم تجد عذراً فهم محجوجون بفعله ، إذ هو قدوة الخلق ، وسيد العقلاء . وهل فسد الناس الا بالانحراف عن الشريعة ؟

ولقد حدثت آفات من المتصوفة والمتزهدين . خرقوا بها شبكة الشريعة وعبروا . فمنهم من يدعى المحبة والشوق ؛ ولا يعرف المحبوب .

فتراه يصيح ويستغيث ويمزق ثيابه ويخرج عن حد الشرع بدعواه ومضمونها .

ومنهم من حمل على نفسه بالجوع والصوم الدائم ؛ وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعبد الله بن عمرو : صم يوما وأفطر يوما ؛ فقال أريد أفضل من ذلك ، فقال : لا أفضل .

وفيهم من خرج إلى السياحة ، فأفات نفسه الجماعة . وفيهم من دفن كتب العلم وقعد يصلي ويصوم ، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح ، لأن النفس تغفل وتحتاج إلى التذكير فى كل وقت ؛ ونعم المذكر كتب العلم .

وإنما دخل إبليس على كل قوم منهم من حيث قدر ، وكان مقصوده بدفن الكتب إطفاء المصباح ، ليسير العابد فى الظلمة .

وما أحسن ما قال بعض العلماء لرجل سأله فقال : أريد أن أمضى إلى جبل الآكام . فقال هذه — هوكلة — وهذه كلمة عامية معناها حب البطالة .

وعلى الحقيقة الزهاد فى مقام الخفافيش . قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس ، وهى حالة حسنة إذا لم تمنع من خير من جماعة ، واتباع جنازة ، وعيادة مريض .

إلا أنها حالة الجبناء ، فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون . وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام .

أترى كم بين العابد إذا نزلت به حادثة وبين الفقيه ؟

بالله لو مال الخلق إلى التعبد لضاعت الشريعة .

على أنه لو فهم معنى التعبد لم يقتصر به على الصلاة والصوم ، فرب ماش فى حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة .

والعمل بالبدن سعى الآلات الظاهرة . والعلم سعى الآلات الباطنة من العقل والفكر والفهم ، فلذلك كان أشرف .

فإن قلت : كيف تذم المعتزلين للشر وتنفى عنهم التعبد ؟ قلت : ما أذمهم بل حدثت منهم حوادث اقتضاها الجهل من الدعاوى والآفات التى سببها قلة العلم . وحملوا على أنفسهم التى ليست لهم . وعن غير إذن الآمر مالم يجز

حتى إن أحدهم يرى أن فعل ما يؤذى النفس على الإطلاق فضيلة . وحتى قال بعض الحمقى : دخلت الحمام فوجدت غفلة . فآليت ألا أخرج حتى أسبح كذا وكذا تسبيحة ؛ فطال الأمر ، فمرضت .

وهذا رجل خاطر بنفسه فى فعل ماليس له . ومن المتصوفة والزهاد من

قنع بصورة اللباس ، وركب من الجهل فى الباطن مالا يسعه كتاب .

طهر الله الأرض منهم ، وأعان العلماء عليهم .

فإن أكثر الحمقى معهم ، فلو أنكر عالم على أحدهم ، مال العوام على العالم بقوة الجهل .

ولقد رأيت كثيراً من المتعبدين وهو فى مقام العجائز يسبح تسبيحات لا يجوز النطق بها ، ويفعل فى صلاته مالم ترد به السنة .

ولقد دخلت يوما على بعض من كان يتعبد ، وقد أقام إماماً وهو خلفه فى جماعة يصلى بهم صلاة الضحى ويجهر ، فقلت لهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : صلاة النهار عجماء ، فغضب ذلك الزاهد وقال : كم ينكر هذا علينا !

وقد دخل فلان وأنكر وفلان وأنكر ، نحن نرفع أصواتنا حتى لا ننام .

فقلت : واعجباً ومن قال لكم لا تناموا ، أليس فى الصحيحين من حديث ابن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : قم ونم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام ، ولعله ما مضت عليه ليلة إلا ونام فيها .

ولقد شاهدت رجلا كان يقال له حسين القزوينى بجامع المنصور وهو يمشى فى الجامع مشياً كثيراً دائماً . فسألت ما السبب فى هذا المشى؟ فقيل لى: حتى لا ينام .

وهذه كلها حماقات أوجبتها قلة العلم ، لأنه إذا لم تأخذ النفس حظها من النوم اختلط العقل ، وفات المراد من التعبد لبعد الفهم .

ولقد حدثنى بعض الصالحين المجاورين بجامع المنصور أن رجلا اسمه كثير

دخل عليهم الجامع فقال : إنى عاهدت الله على أمر ونقضته ، وقد جعلت عقوبتى لنفسى ألا آكل شيئاً أربعين يوما ، قال : فمكث منها عشرة أيام قريب الحال يصلى فى جماعة ، ثم فى العشر الثانى بان ضعفه وكان يدارى الأمر ، ثم صار فى العشر الثالث يصلى قاعداً ، ثم استطرح فى العشر الرابع ، فلما تمت الأربعون جىء بنقوع فشربه ، فسمعنا صوته فى حلقه مثل ما يقع الماء على المقلاة ، ثم مات بعد أيام .

فقلت : يالله العجب ، انظروا ما فعل الجهل بأهله ، ظاهر هذا أنه فى النار ، إلا أن يعفى عنه ، ولو فهم العلم وسأل العلماء لعرّفوه أنه يجب عليه أن يأكل وأن ما فعله بنفسه حرام ، ولكن من أعظم الجهل استبداد الإنسان بعلمه ، وكل هذه الحوادث نشأت قليلا قليلا حتى تمكنت .

فأما الشرب الأول فلم يكن فيه من هذا شىء . وما كانت الصحابة تفعل شيئاً من هذه الأشياء . وقد كانوا يؤثرون ويأكلون دون الشبع . ويصبرون إذا لم يجدوا . فمن أراد الاقتداء فعليه برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ففى ذلك الشفاء والمطلوب .

ولا ينبغى أن يخلد العاقل إلى تقليد معظَّم شاع اسمه . فيقول : قال : أبو يزيد وقال الثورى . فإن المقلد أعمى . وكم قد رأينا أعمى يأنف من حمل عصا . فمن فهم هذا المشار إليه طلب الأفضل والأعلى . والله الموفق .

١٦٣ - فصل : لكل بدعة أصل

تأملت الدخَل الذى دخل فى ديننا من ناحيتى العلم والعمل ، فرأيته من طريقين قد تقدما هذا الدين وأنس الناس بهما .

فأما أصل الدخل فى العلم والاعتقاد فمن الفلسفة .

وهو أن خلقاً من العلماء فى ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله صلى الله عليه

وسلم من الانعكاف على الكتاب والسنة ، فأوغلوا فى النظر فى مذاهب أهل الفلاسفة وخاضوا فى الكلام الذى حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد.

وأما أصل الدخل فى باب العمل فمن الرهبانية .

فإن خلقاً من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التقشف ، ولم ينظروا فى سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وسمعوا ذم الدنيا وما فهموا المقصود ، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهم المقصود ، فحدثت منهم بدع قبيحة .

فأول ما ابتدأ به إبليس أنه أمرهم بالإعراض عن العلم ، فدفنوا كتبهم وغسلوها وألزمهم زاوية التعبد فيما زعم، وأظهر لهم من الخزعبلات ما أوجب إقبال العوام عليهم فجعل إلههم هواهم ،ولو علموا أنهم منذ دفنوا كتبهم وفارقوا العلم انطفأ مصباحهم ما فعلوا ، لكن إبليس كان دقيق المكر يوم جعل علمهم فى دفين تحت الأرض .

وبالعلم يعلم فساد الطريقين ، ويهتدى إلى الأصوب .

نسأل الله عز وجل ألا يحرمنا إياه فإنه النور فى الظلم ، والأنيس فى الوحدة ، والوزير عند الحادثة .

١٦٤ - فصل : « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »

أعوذ بالله من صحبة البطالين ، لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معى فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمـــة ، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعنى ، وما يتخلله غيبة .

وهذا شيء يفعله فى زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور وتشوق

إليه.واستوحش من الوحدة ، وخصوصاً فى أيام التهانى والأعياد .فتراهم يمشى بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان .

فلما رأيت أن الزمان أشرف شىء ، والواجب انتهاؤه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين :

إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت أدافع اللقاء جهدى ، فإذا غلب قصرت فى الكلام لأتعجل الفراق ، ثم أعددت أعمالا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضى الزمان فارغا . فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبرى الأقلام، وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لابد منها . ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شىء من وقتى .

نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر ، وأن يوفقنا لاغتنامه .

ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة ، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله ، فهو يقعد فى السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس ، وكم تمر به من آفة ومنكر .

ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج ؛ ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرخص ، إلى غير ذلك .

فعلمت أن الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم[1] » .

---

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة فصلت .

١٦٥ - فصل : اغتنم شبابك قبل هرمك

رأيت من الرأى القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة.

لأنى أشافه فى عمرى عدداً من المتعلمين وأشافه بتصنيفى خلقاً لا تحصى ما خلقوا بعد .

ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم .

فينبغى العالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد ، فإنه ليس كل من صنف صنف .

وليس المقصود جمع شيء كيف كان ، وإنما هى أسرار يطلع الله عز وجل عليها من شاء من عباده ويوفقه لكشفها ، فيجمع ما فرق ، أو يرتب ما شتت ، أو يشرح ما أهمل ، هذا هو التصنيف المفيد .

وينبغى اغتنام التصنيف فى وسط العمر ، لأن أوائل العمر زمن الطلب ، وآخره كلال الحواس .

وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره ، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة، لا أنه لا يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبتدىء بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم .

هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ، وأعين على تحصيل المطالب.

فأما إذا قلت الآلات عنده من الكتب ، أو كان فى أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريده فى هذا الأوان ، أخر التصانيف إلى تمام خمسين سنة .

ثم ابتدأ بعد الخمسين فى التصنيف والتعليم إلى رأس الستين . ثم يزيد فيما

بعد الستين فى التعليم ويسمع الحديث والعلم ويعالى التصانيف إلى أن يقع مهم إلى رأس السبعين ، فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل ، فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه ، أو تصنيف يفتقر إليه ، فذلك أشرف العُدَد للآخرة .

ولتكن همته فى تنظيف نفسه ، وتهذيب خلاله ، والمبالغة فى استدراك زلاته ، فإن اختطف فى خلال ما ذكرنا ، فنية المؤمن خير من عمله .

وإن بلغ إلى هذه المنازل ، فقد بينا ما يصلح لكل منزل .

وقد قال سفيان الثورى : من بلغ سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليتخذ لنفسه كفناً ، وقد بلغ جماعة من العلماء سبعاً وسبعين سنة، منهم أحمد بن حنبل، فإن بلغها فليعلم أنه على شفير القبر ، وأن كل يوم يأتى بعدها مستطرف .

فإن تمت له الثمانون فليجعل همته كلها مصروفة إلى تنظيف خلاله ، وتهيئة زاده ، وليجعل الاستغفار حليفه ، والذكر أليفه ، وليدقق فى محاسبة النفس وفى بذل العلم ، أو مخالطة الخلق .

فإن قرب الاستعراض للجيش يوجب عليه الحذر من العارض .

وليبالغ فى إبقاء أثره قبل رحيله ، مثل بث علمه ، وإنفاق كتبه ، وشىء من ماله .

وبعد ، فمن تولاه الله عز وجل علمه ، ومن أراده ألهمه .
نسأل الله عز وجل أن ينعم علينا بأن يتولانا ولا يتولى عنا إنه قريب مجيب

١٦٦ ـ فصل : الأنقياد للشرع لا اتباع العادات

رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع ، فهم يستوحشون من فعل الشىء لعدم جريان العادة لا لنهى الشرع !

فكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويشترى ، فإذا حصلت له القراضة باعها بالصحيح من غير تقليد لإمام ، أو عمل برخصة ، عادة من القوم ، واستثقالا للاستفتاء .

وترى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب ويتوانون عن الفرائض .

وكثيراً من المتصوفين لا يستوحشون من ظلم الناس ، ثم يتصدقون على الفقراء .

وربما توانوا عن إخراج الزكاة . وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها .

ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال .

ومنهم من يخرج بعض الزكاة مصانعة عما لم يخرجه .

ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام ، ويصعب عليه فراقه للعادة .

وفيهم من يحلف بالطلاق ويحنث ، ويرى الفراق صعباً .

فربما تأول ، وربما تكاسل عن التأويل اتكالا على عفو الله تعالى ، ووعداً من النفس بالتوبة .

ومنهم من يرى أن استعمال الشرع ربما كان سبباً فى تضييق معاشه .

وقد ألف النفسح فلا يسهل عليه فراق ما قد ألف والعادات فى الجملة هى المهلكة

ولقد حضر عندى رجل شيخ ابن ثمانين سنة ، فاشتريت منه دكانا وعقدت معه العقد . فلما افترقنا غدر بعد أيام .

فطلبت منه الحضور عند الحاكم فأبى .

فأحضرته فحلف باليمين الغموس أنه ما بعته ، فقلت ما تدور عليه السنة .

وأخذ يبرطل لمن يحول بينى وبينه من الظلمة .

فرأيت من العوام من قد غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها إلى قول فقيه، يقول هذا ما قبض الثمن فكيف يصح البيع ؟

وآخر يقول : كيف يجوز لك أن تأخذ دكانه بغير رضاه ؟

وآخر يقول : يجب عليك أن تقيله البيع .

فلما لم أقله أخذ هو وأقاربه يأخذون عرضى، ورأى أنه يحامى عن ملكه، ثم سعى بى إلى السلطان سعاية يحرض فيها من الكذب ما أدهشنى ؛ ويبرطل مالا لخلق من الظلمة ، فبالغوا وسعوا .

إلا أن الله تعالى نجانى من شرهم .

ثم إنى أقمت عليه البينة عند الحاكم ، فقال بعض أرباب الدنيا للحاكم : لا تحكم له ، فوقف عن الحكم بعد ثبوت البينة عنده ، فرأيت من هذا الحاكم ومن حاكم آخر أعلى منه من ترك إنفاذا الحق حفظا لرياستهم ما هوّن عندى ما فعله ذلك الشيخ حفظا لماله ، لجهله وعلم هؤلاء ، فينحل لى من الأمر أن العادات غلبت على الناس ، وأن الشرع أعرض عنه .

وإن وقعت موافقة للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة .

فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر فى رمضان عادة قد استمرت . ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة غالبة !!

فكم قد رأيت هذا الشيخ يصلى ويحافظ على الصلاة . ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانبا .

وكم قد رأيت أولئك الحكام يتعبدون ويطلبون العلم . غير أنهم لما خافوا على رياستهم أن تزول تركوا جانب الدين .

ثم إن الله تعالى نصرنى عليه وتقدم إلى الحاكم بإنفاذ ما ثبت عنده، ودارت السنة فمات الشيخ على قُل ، فنسأله عز وجل التوفيق للانقياد لشرعه ومخالفة أهوائنا .

١٦٧ - فصل : فضل عزلة العالم

ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزاً ولا شرفا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة ، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق ، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم ، ولا يعظم عندهم قدر المخالط لهم ، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم .

وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصاً فى أمر مباح هان عندهم ، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم .

فقد قال بعض السلف : كنا نمزح ونضحك ، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك .

وقال سفيان الثورى: تعلموا هذا العلم واكظموا عليه ، ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب .

فمراعاة الناس لا ينبغى أن تنكر .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : « لولا حدثان قومك فى الكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين » .

وقال أحمد بن حنبل فى الركعتين قبل المغرب : رأيت الناس يكرهونهما فتركتهما .

ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء ، إنما هذه صيانة للعلم .

وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو فى يده كسرة يأكلها قلّ عندهم وإن كان مباحا ، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية .

فلا ينبغى للعالم أن ينبسط عند العوام حفظا لهم ،ومتى أرادمباحافليستتر به عنهم .

وهذا القدر الذى لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قد قدم الشام راكباً على حمار ورجلاه من جانب،فقال : ياأميرالمؤمنين يتلقاك عظماء الناس ، فما أحسن مالاحظ .

إلا أن عمر رضى الله عنه أراد تأديب أبى عبيدة بحفظ الأصل فقال : إن الله أعزكم بالإسلام فمهما طلبتم العز فى غيره أذلكم .

والمعنى ينبغى أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الأفعال ، وإن كانت الصور تلاحظ .

فإن الإنسان يخلو فى بيته عرياناً ، فإذا خرج إلى النـــاس لبس ثوبين وعمامة ورداء .

ومثل هذا لا يكون تصنعاً ولا ينسب إلى كبر .

وقد كان مالك بن أنس يغتسل ويتطيب ويقعد للحديث ، ولا تلتفت ياهذا إلى ما ترى من بذل العلماء على أبواب السلاطين ، فإن العزلة أصون للعالم والعلم ، وما يخسره العلماء فى ذلك أضعاف ما يربحونه .

وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة ، وعن قول هذا سكتوا عنه ، وهذا فعل الحازم .

فإن أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك ، وكن معتزلا عن أهلك يطب لك عيشك ، واجعل للقاء الأهل وقتاً ، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك ، فكانت المعاشرة بذلك أجود .

وليكن لك مكان فى بيتك تخلو فيه ، وتحادث سطور كتبك ، وتجرى فى حلبات فكرك .

واحترس من لقاء الخلق وخصوصاً العوام .

واجتهد فى كسب يعفك عن الطمع ، فهذه نهاية لذة العالم فى الدنيا .

وقد قيل لابن المبارك : مالك لا تجالسنا ؟ فقال : أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين ، وأشار بذلك إلى أنه ينظر فى كتبه .

ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة ، فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته .

وإن رزق فهماً يرتقى إلى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات .

نسأل الله عز وجل همة عالية تسمو إلى الكمال ، وتوفيقاً لصالح الأعمال ، فالسالكون طريق الحق أفراد .

١٦٨ ـ فصل : حديث ابن الجوزى عن نفسه

تأملت أحوال الناس فى حالة علو شأنهم ، فرأيت أكثر الخلق تبين خسارتهم حينئذ .

فمنهم من بالغ فى المعاصى من الشباب ، ومنهم من فرط فى اكتساب العلم ، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات .

فكلهم نادم فى حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت ، أو قوى ضعفت ، أو فضيلة فاتت ، فيمضى زمان الكبر فى حسرات .

فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال واأسفا على ما جنيت .

وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ماكان يلتذ به .

فأما من أنفق عصر الشباب فى العلم فإنه فى زمن الشيخوخة يحمد جنى ماغرس ، ويلتذ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم .

هذا مع وجود لذاته فى الطلب الذى كان تأمل به إدراك المطلوب .

وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها ، كما قال الشاعر :

أهتز عند تَمَنّى وَصْلِها طرباً

ورُبَّ أمنية أحلى من الظفَرِ

ولقد تأملت نفسى بالإضافة إلى عشيرتى الذين أنفقوا أعمارهم فى اكتساب الدنيا ، وأنفقت زمن الصبوة والشباب فى طلب العلم ، فرأيتنى لم يفتنى ممانالوه إلا ما لو حصل لى ندمت عليه .

ثم تأملت حالى فإذا عيشى فى الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهى بين الناس أعلى من جاههم . وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم .

فقال لى إبليس : ونسيت تعبك وسهرك ؟

فقلت له : أيها الجاهل ، تقطيع الأيدى لا وقع له عند رؤية يوسف .

وما طالت طريق أدت إلى صديق .

جزى الله المسير إليه خيراً

وإن ترك المطايا كالمزاد

ولقد كنت فى حلاوة طلبى العلم ألقى من الشدائد ما هو عندى أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو .

كنت زمان الصبا آخذ معى أرغفة يابسة فأخرج فى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء .

فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم .

فأثمر ذلك عندى أنى عرفت بكثرة سماعى لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم ، فصرت فى معرفة طريقه كابن أجود .

وأثمر ذلك عندى من المعاملة مالا يدرى بالعلم ، حتى أنى أذكر فى زمان الصبوة ، ووقت الغلمة والعزبة قدرتى على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال ، ولم يمنعنى عنها إلا ما أثمر عندى العلم من خوف الله عز وجل .

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر ، لقد كنت أخاف على نفسى من العجب

غير أنه عز وجل صاننى ، وعلمنى ، وأطلعنى من أسرار العلم على معرفته، وإيثار الخلوة به ، حتى إنه لو حضر معى معروف وبشر لرأيتهما زحمة .

ثم عاد فغمسنى فى التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيراً منى .

وتارة يوقظنى لقيام الليل ولذة مناجاته ، وتارة يحرمنى ذلك مع سلامة بدنى .

ولولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب وتأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل ، وإما إلى اليأس عند البطالة .

لكن رجائى فى فضله قد عادل خوفى منه .

وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه ، لأنى رأيت أنه قد ربانى منذ كنت طفلا فإن أبى مات وأنا لا أعقل ، والأم لم تلتفت إلىّ . فركز فى طبعى حب العلم

ومازال يوقعنى على المهم فالمهم ، ويحملنى إلى من يحملنى على الأصوب ، حتى قوّم أمرى .

وكم قد قصدنى عدو فصدّه عنى . وإذ رأيته قد نصرنى وبصرنى ودافع عنى ، ووهب لى ، قوى رجائى فى المستقبل بما قد رأيت فى الماضى .

ولقد تاب على يدىّ فى مجالس الذكر أكثر من مائتى ألف ، وأسلم على يدى أكثر من مائتى نفس .

وكم سالت عين متجبر بوعظى لم تكن تسيل .

ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام .

وربما لاحت أسباب الخوف بنظرى إلى تقصيرى وزللى .

ولقد جلست يوماً فرأيت حولى أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رقّ قلبه ، أو دمعت عينه . فقلت لنفسى : كيف بك إن نجوا وهلكتُ : فصحت بلسان وجدى : إلهى وسيدى إن قضيت علىّ بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابى ، صيانة لكرمك لا لأجلى ، لئلا يقولوا عذّب من دلّ عليه .

إلهى قد قيل لنبيك صلى الله عليه وسلم : اقتل ابن أبىّ المنافق ، فقال : لا يتحدث الناس أن محمـــداً يقتل أصحابه .

إلهى فاحفظ حسن عقائدهم فىّ بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك .

حاشاك والله يارب من تـكدير الصافى .

لا تبْرِ عوداً أنتَ رَيَّشْتَهُ
حاشا لبانى الجودِ أن ينقضا
لا تعطش الزرعَ الذى نبته
بِصَوْبِ إنعامِك قد روضا

١٦٩ - فصل : اختر ما تميل النفس اليه ولا يرقى لمقام العشق

من الأمور التى تخفى على العاقل أن يرى أنه متى لم تـكن عنده امرأة أو جارية يهواها هوى شديداً أنه لا يلتذ فى الدنيا .

فإذا صور محبوبا مملوكا تخايل لذة عظيمة .

وإذا كان عنده من لا يميل اليه اعتقد نفسه محروما .

وهذا أمر شديد الخفاء . فينبغى أن يوضح . وهو أن المملوك مملول.
ومتى قدر الإنسان على ما يشتهيه مله ومال إلى غيره .

تارة لبيان عيوبه التى تـكشفها المخالطة فإنه قد قال الحـكماء : العشق يعمى عن عيوب المحبوب .

وتارة لمـكان القدرة عليه ، والنفس لا تزال تتطلع الى مالا تقدرعليه.

ثم لو قدرنا دوام المحبة مع القدرة فإنها قد تـكون ولـكن ناقصة بمقدار

القدرة ، وإنما يقويها تجنى المحبوب . فيكون تجنيه كالامتناع ، أو امتناعه من الموافقة .

فإذا صفا فلا بد من أكدار ، منها الحذر عليه ، ومنها قلة ميله إلى هذا العاشق . وربما يتكلف القرب منه، ويعلم الإنسان بقلة ميل محبوبه اليه فينغص بل يبغض .

فإن خاف منه خيانة احتاج إلى حراسة فقويت التنغص .

وأصلح المقامات التوسط ، وهو اختيار ما تميل النفس إليه ولا يرتقى إلى مقام العشق ، فإن العاشق فى عذاب . وإنما يتخايل الفارغ من العشق التذاذ العاشق وليس كذلك . فإنه كما قيل :

وما فى الأرضِ أشقَى من محبٍّ
وإن وجد الهوَى عذب المذاقِ
تراه باكياً فى كل وقت
مخافةَ فرقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكى إن نأوا شوقاً إليهم
ويبكى إن دنوا خوفَ الفراقِ
فتسخن عينُه عند التدانى
وتسخن عينُه عند الفراق

١٧٠ - فصل : نية المؤمن أبلغ من عمله

ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته . فإن من علت همته يختار المعالى وربما لا يساعده الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى فى عذاب .

وإنى أعطيت من علوّ الهمة طرفاً فأنا به فى عذاب ، ولا أقول ليته لم يكن فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل .

ولقد رأيت أقواماً يصفون علوّ هممهم ، فتأملتها فإذا بها فى فن واحد . ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم ، قال الرضى :

ولكل جسم فى النحول بلية

وبلاء جسمى من تفاوت همتى

فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة .

وكان أبو مسلم الخراسانى فى حال شبيبته لا يكاد ينام ، فقيل له فى ذلك فقال : ذهن صاف ، وهمّ بعيد ، ونفس تتوق إلى معالى الأمور ، مع عيش كعيش الهمج الرعاع .

قيل : فما الذى يبرد غليلك ؟ قال : الظفر بالملك .

قيل : فاطلبه ، قال : لا يطلب إلا بالأهوال .

قيل : فاركب الأهوال . قال : العقل مانع .

قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلى جهلا . وأحاول به خطراً لا ينال إلا بالجهل . وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به . فإن الخمول أخو العدم .

فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا هو قد ضيع أهم المهمات وهو جانب الآخرة ، وانتصب فى طلب الولايات . فكم فتك وقتل ؟ حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا .

ثم لم يتنعم فى ذلك غير ثمان سنين .

ثم اغتيل ، ونسى تدبير العقل ، فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال.

وكان المتنبي يقول :

وفى الناسِ من يرضى بميسورِ عيشِه
ومركوبه رجلاه والثوبُ جلدُه

ولكن قلباً – بين جنبىّ – ماله
مدى ينتهى بى فى مراد أحدّه

يرى جسمه يكسى شفوفاً تربّه
فيختار أن يكسى دروعا تهدّه

فتاملت هذا الآخر فإذا نهمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب.

ونظرت إلى علو همتى فرأيتها عجباً . وذلك أنى أروم من العلم ما أتيقن أنى لا أصل إليه ، لأنى أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها .

وأريد استقصاء كل فن ، هذا أمر يعجز العمر عن بعضه .

فإن عرض لى ذو همة فى فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصاً فى غيره ، فلا أعد همته تامة .

مثل المحدّث فاته الفقه . والفقيه فاته علم الحديث . فـلا أرى الرضى بنقصان من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة .

ثم إنى أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق إلى ورع بشر ، وزهادة معروف وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد .

ثم إنى أروم الغنى عن الخلق ، وأستشرف الإفضال عليهم . والاشتغال بالعلم مانع من الكسب . وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية .

ثم إنى أتوق إلى طلب الأولاد ، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف ، ليبقى الخلفان نائبين عنى بعد التلف . وفى طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم إنى أروم الاستمتاع بالمستحسنات ، وفى ذلك امتناع من جهة قلة المال ثم لو حصل فرق جمع الهمة .

وكذلك أطلب لبدنى ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود للترفه واللطف ، وفى قلة المال مانع ، وكل ذلك جمع بين أضداد .

فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا .

وأنا لا أحب أن يخدش حصول شىء من الدنيا وجه دينى بسبب .

ولا أن يؤثر فى علمى ولا فى عملى .

فواقلقى من طلب قيام الليل ، وتحقيق الورع مع إعادة العلم ، وشغل القلب بالتصانيف ، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم .

ووا أسفى على ما يفوتنى من المناجاة فى الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم

ويا كدر الورع مع طلب ما لابد منه للعائلة .

غير أنى قد استسلمت لتعذيبى ، ولعل تهذيبى فى تعذيبى ، لأن علو الهمة تطلب المعالى المقربة إلى الحق عز وجل .

وربما كانت الحيرة فى الطلب دليلا إلى المقصود . وها أنا أحفظ أنفاسى من أن يضيع منها نفس فى غير فائدة .

وإن بلغ همى مراده . . . وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله .

١٧١ - فصل : مغالطة النفس ليتم العيش

لما سطرت هذا الفصل المتقدم ، ورأيت ادكار النفس بما لا بد لها فى الطريق منه .

وهو أنه لا بد لها من التلطف ، فإن قاطع مرحلتين فى مرحلة خليق بأن يقف . فينبغى أن يقطع الطريق بألطف ممكن .

وإذا تعبت الرواحل نهض الحادى يغنيها ، وأخذ الراحة للجد جدّ ، وغوص السابح فى طلب الدر صعود .

ودوام السير يحسر الإبل ، والمفازة صعبة .

ومن أراد أن يرى التلطف بالنفس ، فلينظر فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان يتلطف بنفسه ، ويمازح ، ويخالط النساء ، ويقبّل ويمص اللسان[1] ، ويختار المستحسنات ، ويُستعذب له الماء ويختار الماء البارد، والأوفق من المطاعم ، كلحم الظهر والذراع والحلوى ، وهذا كله رفق بالناقة فى طريق السير .

فأما من جرد عليها السوط فإنه يوشك ألا يقطع الطريق .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فإن المنبَت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

واعلم أنه ينبغى للعاقل أن يغالط نفسه فيما يكشف العقل عن عواره ، فإن فكر المتيقظ يسبق قبل مباشرة المرأة إلى أنها اعتناق بجسد يحتوى على

---

(١) حديث مص اللسان لم يثبت .

قذارة ، وقبل بلع اللقمة إلى أنها متقلبة فى الريق ، ولو أخرجها الإنسان لفظها .

ولو فكر فى قرب الموت وما يجرى عليه بعده ، لبغض عاجل لذته .

فلابد من مغالطة تجرى لينتفع الإنسان بعيشه كما قال لبيد :

فَأَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا
إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِى بِالْأَمَلْ

وقال البستى :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بِالْهَمِّ رَاحَةً
تَجِمَّ وَعَلِّلْهُ بِشَىْءٍ مِنَ المَزْحِ
وَلٰكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَهُ ذَاكَ فَلْيَكُنْ
بِمِقْدَارِ مَا يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ المِلْحِ

وقال أبو على بن الشبل :

وَإِذَا هَمَمْتَ فَنَاجِ نَفْسَكَ بِالْمُنَى
وَعْداً ، فَخَيْرَاتُ الْجِنَانِ عِدَاتُ
وَاجْعَلْ رَجَاءَكَ دُونَ يَأْسِكَ جُنَّةً
حَتَّى تَزُولَ بِهَمِّكَ الْأَوْقَاتُ
وَاسْتُرْ عَنِ الْجُلَسَاءِ بَثَّكَ ، إِنَّمَا
جُلَسَاؤُكَ الْحُسَّادُ وَالشُّمَّاتُ
وَدَعِ التَّوَقُّعَ لِلْحَوَادِثِ إِنَّهُ
لِلْحَىِّ — مِنْ قَبْلِ الْمَمَاتِ — مَمَاتُ

فَالهَمُّ لَيسَ لَهُ ثَبَاتٌ مِثلَ مَا
في أهلِهِ مَا لِلسُّرُورِ ثَبَاتُ
لَولا مُغَالَطَةُ النُّفُوسِ عُقُولَهَا
لَمْ تَصْفُ لِلمُتَيَقِّظِينَ حَيَاةُ

وقال أيضاً :

بِحِفْظِ الجِسْمِ تَبْقَى النَّفْسُ فِيهِ
بَقَاءَ النَّارِ تُحْفَظُ بِالوِعَاءِ
فَباليَأْسِ المُمِضِّ فَلَا تُمِتْهَا
وَلَا تَمْدُدْ لَهَا طُولَ الرَّجَاءِ
وَعِدْهَا فِي شَدَائِدِهَا رَخَاءً
وَذَكِّرْهَا الشَّدَائِدَ فِي الرَّخَاءِ
يُعَدُّ صَلَاحُهَا هَذَا وَهَذَا
وَبِالتَّرْكِيبِ مَنْفَعَةُ الدَّوَاءِ

وقد كان عموم السلف يخضبون الشيب لئلا يرى الإنسان منهم ما يكره وإن كان الخضاب لا يعدم النفس علمها بذلك ، ولكنه نوع مخادعة للنفس .

ومازالت النفوس ترى الظاهر .

وإنما الفكر والعقل مع الغائب .

ولا بد من مغالطة تجرى ليتم العيش .

ولو عمل العامل بمقتضى قصر الأمل ، ما كتب العلم ولا صنف .

فافهم هذا الفصل مع الذى تقدمه ، فإن الأول فى مقام العزيمة، وهذا فى مكان الرخصة .

ولابد للتعب من راحة وإعانة ، والله عز وجل معك على قدر صدق الطلب ، وقوة اللجأ ، وخلع الحول والقوة ، وهو الموفق .

١٧٢ ـ فصل : بين الاسراف والاعتدال

قوام الآدمى بشيئين : الحرارة ، والرطوبة .

ومن شأن الحرارة أن تحلل الرطوبة وتفنيها ، فالآدمى محتاج إلى تحصيل خلف المتحلل[١] .

فأبدان النشو تغتذى بأكثر مما يتحلل منها .

والأبدان المتناهية تغتذى بمقدار ما يتحلل منها ، (والأبدان التى قد أخذت فى الهرم يتحلل منها أكثر مما تغتذى به)[٢] ، فينبغى[٣] للناشىء[٤] البالغ أن يتحفظ فى النكاح ، لأنه يربى قاعدة قوة يجد أثرها فى الكبر .

وأما المتوسط والواقف السن فينبغى أن يحذر فضول الجماع ، فإن حصل له مثل ما يخرج منه فأسرف ، فاللازم أخذ من الحاصل ، ويوشك أن يسرع النفاد .

وأما الشيخ فترك النكاح كاللازم له ، خصوصا إذا زاد علو السن ، لأنه ينفق من الجوهر الذى لا يحصل مثله أبداً .

---

(١) فى الحديثة : المتحلل .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .
(٣) فى الحديثة : وينبغى .
(٤) فى الحديثة : النشو .

ثم ينبغى أن ينظر العاقل فى ماله فيكتسب أكثر مما ينفق ليكون الفاضل مدخراً لوقت العجز .

وليحذر السرف ، فإن العدل[1] هو الأصلح .

ثم ينظر فى الزوجة ، والمطلوب منها شيئان: وجود الولد ، وتدبير المنزل، فإذا كانت مبذرة فعيب لا يحتمل ، فإن انضمت صفة العقر ، فلا وجه للإمساك

إلا أن تكون مستحسنة الصورة ، فإن ضم اليها عقل وعفاف ، حسن الإمساك .

وإن كانت مما يحتاج أن تحفظ فتركها لازم .

فأما الخدم فليجتهد فى تحصيل خادم لا تستعبده الشهوة ، فإن عبد الشهوة له مولى غير سيده .

ولينظر المالك فى طبع المملوك ، فنهم من لا يأتى إلا على الإكرام فليكرمه ، فإنه يربح محبته .

ومنهم من لا يأتى إلا على الإهانة ، فليداره وليعرض عن الذنوب .

فإن لم يمكن عاتب بلطف ، وليحذر العقوبة ما أمكن ، وليجعل للماليك زمن راحة .

والعجب ممن يعنى بدابته وينسى مداراة جاريته ، وأجود المماليك الصغار ، وكذلك الزوجات ، لأنهم متعودون خلق المشترى .

---

(١) زاد فى الحديثة : فى النفقة .

وليحفظ نفسه بالهيبة من الانحراف مع الزوجة ، ولا يطلعها على ماله ؛ فإنها سفيهة تطلب كثرة الإنفاق .

وأما تدبير الأولاد فحفظهم من مخالطة تفسد[1] .

ومتى كان الصبي ذا أنفة — حَيِيًّا — رُجِيَ خيره .

وليحمل على صحبة الأشراف والعلماء ، وليحذر من مصاحبته الجهال[2] والسفهاء ، فإن الطبع لص .

وليحذّر الصبي من الكذب غاية التحذير ، ومن المخالطة للصبيان[3]

وليوصه بزيادة البر للوالدين ، وليحفظ من مخالطة النساء .

فإذا بلغ فليزوج بصبية[4] فينتفعان .

هذه الإشارة إلى تدبير أمور الدنيا .

فأما تدبير العلم فينبغي أن يحمل الصبي من حين يبلغ خمس سنين على التشاغل بالقرآن والفقه وسماع الحديث .

وليحصل له المحفوظات أكثر من المسموعات ، لأن زمان الحفظ إلى خمس عشرة سنة ، فإذا بلغ تشتتت همته ، فليضرب تارة ، ويرشى أخرى ، ليبلغ وقد حصّل محفوظات سنية .

---

(١) زاد في الحديثة : مستقبلهم . دون تنبيه .

(٢) في الحديثة : للجهال .

(٣) زاد في الحديثة : المعوجين .

(٤) في الحديثة زيادة : لم تعرف غيره . دون تنبيه .

وأول ما ينبغي أن يكلف حفظ القرآن متقناً ، فإنه يثبت ويختلط باللحم والدم ، ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن ، ثم الفقه مذهباً وخلافاً ، وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظه حسن .

وليحذر من عادات أصحاب الحديث . فإنهم يفنون الزمان فى سماع الأجزاء التى تتكرر فيها الأحاديث ، فيذهب العمر وما حصلوا فَهْم شيء .

فإذا بلغوا سناً طلبوا جواز فتوى ، أو قراءة جزء من القرآن ، فعادوا القهقرى .

لأنهم يحفظون بعد كبر السن ، فلا يحصل مقصودهم ، فالحفظ فى الصبا للمهم من العلم ، أصل عظيم .

وقد رأينا كثيراً ممن تشاغل بالمسموعات وكتابة الأجزاء ورأى الحفظ صعباً ، فمال إلى الأسهل فمضى عمره فى ذلك .

فلما احتاج إلى نفسه ، قعد يتحفظ على كبر ، فلم يحصل مقصوده .

فاليقظة لفهم ما ذكرت ، وانظر فى الإخلاص ، فما ينفع شيء دونه .

١٧٣ ـ فصل : النظر فى العاقبة

اشتد الغلاء ببغداد فى أول سنة خمس وسبعين ، وكلما جاء الشعير زاد السعر .

فتواقع[1] الناس على اشتراء الطعام ، فاغتبط من يستعد كل سنة يزرع ما يقوته ، وفرح من بادر فى أول النيسان إلى اشتراء الطعام فإنه[2] يضاعف ثمنه .

(١) فى الحديثة : فتدافع .
(٢) فى الحديثة : قبل أن يضاعف .

وأخرج الفقراء ما فى بيوتهم فرموه فى سوق الهوان .

وبان ذل نفوس كانت عزيزة .

فقلت : يانفس خذى من هذه الحال إشارة ، ليغبطن من له عمل صالح وقت الحاجة إليه ، وليفرحنّ من له جواب عند إقبال المسألة .

وكل الويل على المفرّط الذى لا ينظر فى عاقبته ، فتلبهى .

فقد نبهت ناسا الدنيا على أمر الآخرة .

وبادرى موسم الزرع مادامت الروح فى البدن .

فالزمان كله تشرين قبل أن يدخل نيسان الحصاد .

ومالك زرع ، وحاجة المفتقرين إلى أموالهم تمنعهم من الإيثار .

١٧٤ ـ فصل : الخوف من الله

تأملت حالة أزعجتنى ، وهو أن الرجل قد يفعل مع امرأته كل جميل وهى لا تحبه ، وكذا يفعل مع صديقه والصديق يبغضه ، وقد يتقرب إلى السلطان بكل ما يقدر عليه والسلطان لا يؤثره ، فيبقى متحيراً يقول : ما حيلتى .

فخفت أن تكون هذه حالى مع الخالق سبحانه ، أتقرب إليه وهو لا يريدنى .

وربما يكون قد كتبنى شقياً فى الأزل .

ومن هذا خاف الحسن فقال : أخاف أن يكون اطلع على بعض ذنوبى فقال : لا غفرت لك .

فليس إلا القلق والخوف لعل سفينة الرجا تسلم — يوم دخولها الشاطيء — من جرف .

١٧٥ - فصل : شبهة فى عدد الأحاديث والرد عليها

جرى بينى وبين أحد أصحاب الحديث كلام فى قول الإمام أحمد : صح من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبع مائة ألف حديث .

فقلت له : إنما يعني به الطرق ، فقال : لا ، بل المتون ، فقلت : هـذا بعيد التصور .

ثم رأيت لأبى عبد الله الحاكم كلاما ينصر ما قال ذلك الشخص ، وهو أنه قال فى كتاب المدخل إلى كتاب الإكليل : كيف يجوز أن يقال : إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عشرة آلاف حديث ، وقد روى عنه من أصحابه أربعة آلاف رجل وامرأة ، صحبوه نيفاً وعشرين سنة بمكة ثم بالمدينة ، حفظوا أقواله وأفعاله ، ونومه ويقظته وحركاته وغير ذلك، سوى ما حفظوا من أحكام الشريعة .

واحتج بقول أحمد : صح من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع مائة ألف حديث وكسر ، وأن إسحاق بن راهويه كان يملى سبعين ألف حديث حفظا ، وأن أبا العباس بن عقدة قال : أحفظ لأهل البيت ثلاث مائة ألف حديث .

قال ابن عقدة : وظهر لابن كريب بالكوفة ثلاثمائة ألف حديث .

قلت : ولا يحسن أن يشار بهذا إلى المتون . وقد عجبت كيف خفى هذا على الحاكم وهو يعلم أن أجمع المسانيد الظاهرة مسند أحمد بن حنبل ، وقد طاف الدنيا مرتين حتى حصله وهو أربعون ألف حديث ، منها عشرة آلاف مكررة .

قال حنبل بن إسحق: جمعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبدالله ، وقرأ علينا المسند ، وقال لنا : هذا كتاب جمعته من أكثر من سبع مائة ألف وخمسين ألفا .

فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا إليه ، فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة[1] .

أفترى يخفى على متيقظ أنه أراد بكونه جمعه من سبعمائة ألف أنه أراد الطرق . لأن السبع مائة الألف ، إن كانت من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف أهملها ؟

فإن قيل : فقد أخرج فى مسنده أشياء ضعيفة . ثم أعوذ بالله أن يكون سبع مائة ألف ما تحقق منها سوى ثلاثين ألفا .

وكيف ضاعت هذه الجملة ؟ ولم أهملت وقد وصلت كلها إلى زمن أحمد فانتقى منها ورمى الباقى ؟

وأصحاب الحديث قد كتبوا كل شىء من الموضوع والكذب .

وكذلك قال أبو داود : جمعت كتاب السنن من ستمائة ألف حديث

ولا يحسن أن يقال : إن الصحابة الذين رووها ماتوا ولم يحدثوا بها التابعين .

فإن الأمر قد وصل (إلى)[2] أحمد فأحصى سبع مائة ألف حديث ، وما كان الأمر ليذهب هكذا عاجلا .

---

(١) بل وجد فيه ضعاف . وقال هو : جمعت فيه ما اشتهر لا ما صح .
(٢) ساقطة من الحديثة .

ومعلوم أنه لو جمع الصحيح والمحال الموضوع وكل منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما بلغ خمسين ألفا ، فأين الباقى ؟

ولا يجوز أن يقال تلك الأحاديث كلام التابعين ، فإن الفقهاء نقلوا مذاهب القوم ودونوها وأخذوا بها ، ولا وجه لتركها .

ففهم كل ذى لب أن الإشارة إلى الطرق ، وأن ما توهمه الحاكم فاسد .

ولو عرض هـذا الاعتراض عليه ، وقيل له : فأين الباقى ؟ لم يكن له جواب .

لكن الفهم عزيز . والله المنعم بالتوفيق .

ومثل هذا تغفيل قوم قالوا : إن البخارى لم يخرج كل ما صح عنده ، وأن ما أخرج كالأنموذج ، وإلا فكان يطول .

وقد ذهب إلى نحو هذا أبو بكر الإسماعيلى .

وحكى عن البخارى أنه قال : ما تركت من الصحيح ، أكثر .

وإنما يعنى الطرق ، يدل على ما قلته ، أن الدارقطنى — وهو سيد الحفاظ جمع ما يلزم البخارى ومسلم إخراجه (فبلغ)[1] مالم يذكراه أحاديث يسيرة ، ولو كان كما قالوا ، لأخرج مجلدات .

ثم قوله : « ما يلزم البخارى » دليل صريح على ما قلته ، لأنه من أخرج الأنموذج ، لا يلزمه شىء .

وكذلك أخرج أبو عبد الله الحاكم كتاباً ، جمع فيـــه ما يلزم البخارى

---

(١) ساقطة من الحديثة .

إخراجه ، فذكر حديث الطائر ، فلم يلتفت الحفاظ إلى ما قال .

فما أقل فهم هؤلاء الذين شغلهم نقل الحديث عن التدقيق الذى (لا)[1] يلزم فى صحة الحديث . وإنما وقع لقلة الفقه والفهم .

إن البخارى ومسلم ، تركا أحاديث أقوام ثقات ، لأنهم خولفوا فى الحديث ، فنقص الأكثرون من الحديث وزادوا .

ولو كان ثمّ فقه ، لعلموا أن الزيادة من الثقة مقبولة .

وتركوا أحاديث أقوام ، لأنهم انفردوا بالرواية عن شخص . ومعلوم أن انفراد الثقة لا عيب فيه ، وتركوا من ذلك الغرائب ، وكل ذلك سوء فهم .

ولهذا لم يلتزم الفقهاء هذا[2] ، وقالوا : الزيادة من الثقة مقبولة ولا يقبل القدح حتى يبين سببه .

وكل من لم يخالط الفقهاء وجهد مع المحدثين ، تأذى وساء فهمه . فالحمد لله الذى أنعم علينا بالحالتين .

١٧٦ — فصل : فى الفرق بين اللغة والنحو

اعلم أن الله عز وجل وضع فى النفوس أشياء لا تحتاج إلى دليل . فالنفوس تعلمها ضرورة ، وأكثر الخلق لا يحسنون التعبير عنها .

فإنه وضع فى النفس أن المصنوع لابد له من صانع ، وأن المبنى لابد له من بان ، وأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين فى حالة واحدة . ومثل هذه الأشياء لا تحتاج إلى دليل .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) زاد فى الحديثة : المنهج .

وألهم العرب النطق بالصواب من غير لحن ، فهم يفرقون بين المرفوع والمنصوب بأمارات فى جبلتهم ، وإن عجزوا عن النطق بالعلة .

قال عثمان بن جنى : سألت يوماً أبا عبد الله محمد بن عساف[1] العقيلى فقلت له : كيف تقول ضربت أخوك ؟ فقال : أقول ضربت أخاك .

فأدرته على الرفع فأبى وقال لا أقول أخوك أبداً .

قال : فكيف تقول ضربنى أخوك ؟ فرفع ، فقلت : أليس زعمت أنك لا تقول أخوك أبداً ؟ فقال : إيش هذا ، اختلفت جهتها فى الكلام .

وهذا أدل شىء على تأملهم مواقع الكلام ، وإعطائهم إياه فى كل موضع حقه ، وإنه ليس استرسالا ولا ترخيما .

قال عثمان : واللغة هى أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، والنحو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللغة أهلها .

١٧٧ ـ فصل : تعجيل اللذة يفوت الفضائل

تدبرت أحوال الأخيار والأشرار فرأيت سبب صلاح الأخيار النظر ، وسبب فساد الأشرار ، إهمال النظر .

وذاك أن العاقل ينظر فيعلم أنه لابد من صانع ، وأن طاعته لازمة ، ويتأمل معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسلم قياده إلى الشرع .

ثم ينظر فيما يقربه إليه . ويزلفه لديه .

---

(١) فى الحديثة : العساف

فإذا شق عليه إعادة العلم ، تأمل ثمرته ، فسهل ذلك .

وإذا صعب عليه قيام الليل ، فكذلك .

وإذا رأى مشتهًى ، تأمل عاقبته ، فعلم أن اللذة تفنى ، والعار والإثم يبقيان ، فيسهل عليه الترك .

وإذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه ، ذكر ثواب الصبر ، وندم الغضبان على أفعاله فى حال الغضب .

ثم لا يزال يتأمل سرعة مر العمر فيغتنمه بتحصيل أفضل الفضائل فينال مناه .

وأما الغافل ، فإنه لا يرى إلا الشيء الحاضر .

فمنهم من لم يتأمل فى معنى المصنوع وإثبات الصانع ، فجحدوا وتركوا النظر ، وجحدوا الرسل وما جاءوا به ، ونظروا إلى العاجل ، ولم يتفكروا فى مبدئه(١) ومنتهاه .

فليس عندهم من عرفان المطعم ، إلا الأكل .

ولو تأملوا كيف أنشىء ؟ ولماذا جعل حافظاً للأبدان ؟ لعرفوا حقائق الأمور .

وكذلك كل شهوة تعرض لهم لا ينظرون فى عاقبتها ، بل فى عاجل لذتها وكم قد جنت عليهم من وقوع حد ، وقطع يد ، وفضيحة .

فتعجيل اللذة يفوّت الفضائل ، ويحصل الرذائل .

---

(١) فى الحديثة : فى مبتداه .

وسببه ، عدم النظر فى العواقب ، وهذا شغل العقل ، وذاك المذموم ، شغل الهوى .

نسأل الله عز وجل ، يقظة ترينا العواقب ، وتكشف لنا الفضائل والمعائب إنه قادر على ذلك .

١٧٨ ـ فصل : الهمة تطلب الغايات

خلقت لى همة عالية تطلب الغايات .

فقلت[1] السنّ وما بلغت ما أمّلت ، فأخذت أسأل تطويل العمر ، وتقوية البدن ، وبلوغ الآمال .

فأنكرت علىّ العادات وقالت : ماجرت عادة بما تطلب .

فقلت : إنما أطلب من قادر يخرق[2] العادات .

وقد قيل لرجل : لنا حُوَيجةَ ، فقال : اطلبوا لها رُجَيلاً .

وقيل لآخر : جئناك فى حاجة لا ترزؤك ، فقال : هلا طلبتم لها سفاسف الناس ؟

فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا ، فلِمَ لا نطمع فى فضل كريم قادر ؟

وقد سألته هذا السؤال فى ربيع الآخر ، من سنة خمس وسبعين ، فإن مُدّ لى أجلٌ ، وبلغت ما أملته ، نقلت هذا الفصل إلى ما بعد وبيضته ، وأخبرت ببلوغ آمالى .

---

(١) فى الحديثة : بلغت .
(٢) فى الحديثة : على تجاوز .

وإن لم يتفق ذلك ، فسيدى أعلم بالمصالح ، فإنه لا يمنع بخلاً ، ولا حول إلا به .

١٧٩ — فصل : تزينوا للحق لا للخلق

ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً ، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم

وسفيان الثورى كان يقول : « لا أعتد بما ظهر من عملى » .

وكانوا يسترون أنفسهم .

واليوم ثياب القوم تشهرهم ، وقد كان أيوب السختيانى يطوّل قميصه ، حتى يقع على قدميه ، ويقول : كانت الشهرة فى التطويل ، واليوم الشهرة فى التقصير[1] .

فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل وإخلاص القصد وستر الحال ، هو الذى رفع من رفع .

فقد كان أحمد بن حنبل يمشى حافياً فى وقت ويحمل نعليه[2] فى يديه ويخرج للقاط ، و «بشر»[3] يمشى حافياً على الدوام وحده ، و «معروف»[4] يلتقط النوى .

واليوم صارت الرياسات أكثر من كل جانب[5] ، وما تتمكن الرياسات

---

(١) اقتبس هذا الفصل من المحاسبى فى كتاب (المسائل فى أعمال القلوب والجوارح) انظر فيه باب الشهرة .

(٢) فى الحديثة ، ونعلاه فى يديه .

(٣) أى بشر الحافى .

(٤) أى معروف الكرخى .

(٥) فى الحديثه : من كل حاجة .

حتى تتمكن من القلب الغفلة ، ورؤية الخلق ، ونسيان الحق ، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا .

ولقد رأيت من الناس عجباً ، حتى من يتزيّى بالعـــلم ، إن رآنى أمشى وحدى أنكر علىّ ، وإن رآنى أزور فقيراً عظم ذلك ، وإن رآنى أنبسط بتبسم ، نقصت من عينه .

فقلت : فواعجباً ، هذه كانت طريق الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم .

فصارت أحوال الخلق ، نواميس لإقامة الجاه .

لا جرم — والله — سقطتم من عين الحق ، فأسقطكم من عين الخلق .

فكم ممن يتعب فى تربية ناموس ، ولا يلتفت إليه ولا يحظى بمراده ، ويفوته المراد الأكبر .

فالتفتوا — إخوانى — إلى إصلاح النيات ، وترك التزين للخلق . ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق ، فبذلك صعد السلف وسعدوا .

وإياكم وما الناس عليه اليوم ، فإنه ، بالإضافة إلى يقظة السلف ، نوم .

١٨٠ ـ فصل : إن الهدى هدى الله

والله ما ينفع تأديب الوالد إذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الولد ، فإنه سبحانه إذا أراد شخصاً ، رباه من طفولته ، وهداه إلى الصواب ، ودله على الرشاد ؛ وحبب إليه ما يصلح ، وصحّبه من يصلح ، وبغض إليه ضد ذلك ، وقبح عنده سفساف الأمور ، وعصمه من القبائح ، وأخذ بيده كلما عثر .

وإذا أبغض شخصاً ، تركه دائم التعثير ، متخبطاً فى كل حال ، ولم يخلق

له همة لطلب المعالى ، وشغله بالرذائل عن الفضائل .

وإن قال : لم خصصت بهـــذا ؟

قال الخطاب الذى لا يحاب : « فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ[1] » .

١٨١ ـ فصل : نفس الانسان أكبر الادلة على وجود الخالق

من أكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه هذه النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى إرادتها التى[2] دبرت مصالحها ؛ وترقت إلى معرفة الأفلاك ، واكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم ؛ وشاهدت الصانع فى المصنوع ، فلم يحجبها ستر ، وإن تكاثف ، ولا يعرف مع هذا ، ماهيتها ولا كيفيتها ، ولا جوهرها ولا محلها .

ولا يفهم من أين جاءت ، ولا يدرى أين تذهب ، ولا كيف تعلقت بهذا الجسد ؟؟

وهذا كله يوجب عليها أن لها مدبراً وخالقاً ، وكفى بذلك دليلا عليه .

إذ لو كانت وجدت بها لما خفيت أحوالها عليها . فسبحانه سبحانه .

١٨٢ - فصل : من لم يتشاغل بالعلم كيف يبلغ الشريعة للخلق ؟

سبحان من منّ على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الأمر ومراد الشارع ، فهم حفظة الشريعة ، فأحسن الله جزاءهم .

وإن الشيطان ليتجافاهم خوفاً منهم ، فإنهم يقدرون على أذاه . وهو لا يقدر على أذاهم .

---

(١) جزء من الآية ٣٠ من سورة الشورى .

(٢) فى الحديثة . فقد .

ولقد تلاعب بأهل الجهل والقليلى الفهم .

وكان من أعجب تلاعبه ، أن حسن لأقوام ترك العلم ، ثم لم يقنعوا بهذا حتى قدحوا فى المتشاغلين به .

وهذا — لو فهموه — قدح فى الشريعة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بلغوا عنى » ، وقد قال له ربه عز وجل : « بَلِّغْ »[1] .

فإذا لم يتشاغل بالعلم ، فكيف يبلغ الشريعة إلى الخلق ؟

ولقد نقل مثل هذا عن كبار الزهاد ، كبشر الحافى ، فإنه قال لعباس بن عبد العظيم : « لا تجالس أصحاب الحديث » .

وقال لإسحاق بن الضيف : « إنك صاحب حديث ، فأحب ألا تعود إلىّ » .

ثم اعتذر فقال : «إنما الحديث فتنة ، إلا لمن أراد الله به، وإذا لم يعمل به فتركه أفضل » . وهذا عجب منه .

من أين له أن طلابه لا يريدون الله به ، وأنهم لا يعملون به ؟

أو ليس العمل به على ضربين: عمل بما يجب ، وذلك لا يسع أحداً تركه.

والثانى : نافلة ، ولا يلزم .

والتشاغل بالحديث ، أفضل من التنفل بالصوم والصلاة .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة المائدة : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » .

وما أظنه أراد إلا طريقه فى دوام الجوع والتهجد ، وذلك شىء لا يلام تاركه .

فإن كان يريد ألا يوغل فى علوم الحديث ، فهذا خطأ ، لأن جميع أقسامه محمودة .

أفترى لو ترك الناس طلب الحديث كان بشرٌ يفتى ؟

فاللهَ اللهَ فى الالتفات إلى قول من ليس بفقيه ، ولا يهولنك تعظيم اسمه فالله يعفو عنه[1] .

١٨٣ ـ فصل : التماس رضا الله وان سخط الناس

العاقل من يحفظ جانب الله عزّ وجلّ ، وإن غضب الخلق .

وكل من يحفظ جانب المخلوقين ، ويضيع حق الخالق ، يقلّب الله قلب الذى قصد أن يرضيه فيسخطه عليه .

قال المأمون لبعض أصحابه : لا تعص الله بطاعتى فيسلطنى عليك .

ولما بالغ طاهر بن الحسين فيما فعل بالأمين وقتك به ، وصلب رأسه وإن كان ذلك عن إرادة المأمون ، ولكن بقى أثر ذلك فى قلبه ، فكان (المأمون)[2] لا يقدر أن يراه .

ولقد دخل عليه يوماً فبكى المأمون ، فقال له طاهر : لم تبكى لا أبكى الله عينك ، فلقد دانت لك البلاد ؟

---

(١) بل إنما حذر بشر أهل الحديث لأنهم شغلوا أنفسهم بالجرح والتعديل ، وغفلوا عن الخلوة مع الله . لا كما فهمه ابن الجوزي .

(٢) ساقطة من الحديثة .

فقال : أبكي لأمر ذكره ذل ، وسره حزن ، ولن يخلو أحد من شجن .

فلما خرج طاهر أنفذ[1] إلى حسين الخادم مائتي ألف درهم ، وسأله أن يسأل المأمون لم بكى ؟ فلما تغدى المأمون قال : ياحسين اسقني .

قال : لا والله لا أسقيك حتى تقول لم بكيت حين دخل عليك طاهر ؟

قال : ياحسين وكيف عنيت بهذا حتى سألت عنه ؟ قال : لغمي بذلك .

قال : ياحسين أمر إن خرج من رأسك قتلتك .

قال : ياسيدي ومتى أخرجت لك سراً ؟

قال : إني ذكرت أخي محمداً وما ناله من الذلة ، فخنقتني العبرة ، فاسترحت إلى إفاضتها ولن يفوت طاهراً مني ما يكره .

فأخبر حسين طاهراً بذلك ، فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد .

فقال له : إن المعروف عندي ليس بضائع ، فغيبني عن عينه . قال:سأفعل

فدخل على المأمون فقال : ما بتّ البارحة . قال : ولم ؟ قال : لأنك وليت غسان[2] بن عباد خراسان . وهو ومن معه أكلة رأس ، فأخاف أن يخرج خارج من الترك فيصطلمه .

قال : فمن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فعقد له فمضى ، فبقي مدة ثم قطع الدعاء للمأمون على المنبر يوم الجمعة .

فقال له صاحب البريد: ما دعوت لأمير المؤمنين . قال : سهو فلا تكتب

---

(١) في الحديثة: نفذ .

(٢) في الدمشقية : غان .

فمعل ذلك فى الجمعة الثانية والثالثة . فقال له : لا بُدَّ أن أكتب لئلا يكتب التجار ويسبقونى . قال : اكتب . فكتب .

فدعا المأمون أحمد بن أبى خالد وقال : إنه لم يذهب علىّ احتيالك فى أمر طاهر ، وأنا أعطى الله عهداً إن لم تشخص حتى توافينى به كما أخرجته من قبضتى لتذمن عقباك .

فشخص وجعل يتلوَّم فى الطريق ويعتل بالمرض ، فوصل إلى الرىّ وقد بلغته وفاة طاهر .

قلت : ولما خرج الراشد من بغداد وأرادوا تولية المقتفى ، شهد جماعة من الشهود بأن الراشد لا يصلح للخلافة ، فنزعوه ، وولى المقتفى .

فبلغنى أنه ذكر للمقتفى بعض الشهود فذمّه ، وقال : كان فيمن أعان على أبى جعفر .

وعلى ضد هذا ، كل من يراعى جانب الحق والصواب ، يرضى عنه من سخط عليه .

ولقد حدثنى الوزير ابن هبيرة أن المستنجد بالله كتب إليه كتاباً وهو يومئذ ولىّ عهد ، وأراد أن يستره من أبيه قال فقلت للواصل به : والله ما يمكننى أقرؤه ولا أجيب عنه.

فلما ولى الخلافة دخلت عليه فقلت : أكبر دليل على صدقى وإخلاصى أنى ما حابيتك فى أبيك . فقال : صدقت أنت الوزير .

وحدثنى بعض الأصدقاء أن قوما ألحقوا إلى المخزن بعض دين لهم ليُستخلصَ ، فقال المسترشد لصاحب المخزن : خلصه لهم ، وحذما ضمنوا النا

فأحضر ابن الرطبي وعرض الأمر عليه ، فقال : هذا أمر بظلم ، وما أحكم فيه .

فقال : إن السلطان قد تقدم ، قال : ما أفعل .

فأحضر قاضيا آخر ، فبتّ الحكم ، فأخبر الخليفة بالحال .

فقال : أما ابن الرطبي فيشكر على ما قال . وأما الآخر فيعزل

وذلك لأنه بان له أن الحق ما قاله ابن الرطبي .

وكذلك ما طلبه السلطان من أن يلقب ملك الملوك ، فاستفتى الفقهاء فأجازوا ذلك ، وامتنع من إجازته الماوردى ، فعظم قدره عند السلطان .

ومثل هذا — إذا تتبع — كثير .

فيلبغى أن يحسن القصد لطاعة الخالق . وإن سخط المخلوق ، فإنه يعود صاغراً

ولا يسخط الخالق ، فإنه يسخط المخلوق ، فيفوت الحظان جميعا .

١٨٤ — فصل : الحذر واجب

يلبغى للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ويزوجه أو يتزوج إليه .

ثم ينظر بعد ذلك فى الصور ، فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن .

أما الأصول فإن الشيء يرجع إلى أصله ، وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن .

وإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت ردىء فقلّ أن تكون صينة، وكذلك أيضاً المخالط والصديق والمباضع والمعاشر .

فإياك أن تخالط إلا مَن له أصل يخاف عليه الدنس، فالغالب معه السلامة وإن وقع غير ذلك كان نادراً .

وقد قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لرجل : أشر علىّ فيمن أستعمل .
فقال : أما أرباب الدين فلا يريدونك أى لا يسألونك الرياسة ، وأما أرباب الدنيا فلا تردهم ، ولكن عليك بالأشراف ، فإنهم يصونون شرفهم عما لا يصلح .

وقد روى أبو بكر الصولى قال : حدثنى الحسين بن يحيى عن إسحاق قال: دعانى المعتصم يوماً فأدخلنى معه الحمام ، ثم خرج فخلابى وقال: يا أبا إسحاق فى نفسى شىء أريد أن أسألك عنه .

إن أخى المأمون اصطنع قوماً فأنجبوا ، واصطفيت أنا مثلهم فلم ينجبوا .

قلت : ومن هم ؟ قال : اصطنع طاهراً وابنه وإسحاق وآل سهل فقد رأيت كيف هم .

واصطنعت أنا الافشين فقد رأيت إلى ما آل أمره . وأسناش فلم أجده شيئاً ، وكذلك إيتاخ ووصيف .

قلت : يا أمير المؤمنين ، ههنا جواب ، على أمان من الغضب .

قال : لك ذاك . قلت : نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعملت فروعا لا أصول لها فلم تنجب .

فقال : يا أبا إسحاق مقاساة ما مر بى طول هذه المدة أهون علىّ من هذا الجواب .

أما الصور ، فإنه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب فى الباطن أيضاً .

فاحذر من به عاهة كالأقرع والأعمى وغير ذلك ، فإن بواطنهم فى الغالب رديئة.

ثم مع معرفة أصول المخالط ، وكمال صورته لابد من التجربة قبل المخالطة واستعمال الحذر لازم ، وإن كان كما ينبغى .

١٨٥ ـ فصل : ملاطفة الاعداء حتى التمكن منهم

ينبغى أن يكون شغل العاقل النظر فى العواقب والتحرز مما يمكن أن يكون

ومن الغلط النظر[1] فى الحالة الحاضرة الموافقة لمعاشه ولصحة بدنه، وربما لا يجرى له مصحوبه فينبغى أن يعمل على انقطاع[2] ذلك ، فيكون مستعداً لتغير الأحوال .

وكذلك النظر[3] فى لذة تفنى وتبقى تبعتها وعارها ، وإيثار الكسل والدعة لما[4] يجيء بعدهما من بقاء الجهل .

وكذلك تحصيل المرادات التى لا تحصل إلا بالتلطف فى الاحتيال ، خصوصا إذا أريد من ذكى فإنه يفطن بأقل تلويح .

فمن أراد غلبة الذكى دقق النظر وتلطف فى الاحتيال .

وقد ذكر فى كتب الحيل ما يشحذ الخواطر ، وأتينا بجملة منه فى كتاب الأذكياء .

---

(١) فى الحديثة : الاستغراق .

(٢) فى الحديثة : على خوف من انقطاع ذلك .

(٣) فى الحديثة : ينبغى النظر .

(٤) فى الحديثة : مع ما .

مثل ماروى أن رجلا من الأشراف كان لا يقوم لأحد ولا يخشى أحداً ، فجاز عليه بعض الوزراء وحي فلم يرد ولم يقم .

فقال ذاك الوزير لرجل : أخبر فلاناً أنى قد كلمت أمير المؤمنين فى حقه، وقد أمر له بمائة ألف ، فليحضر ليقبضها ، فأخبره ذلك الرجل .

فقال الشريف : إن كان أمر لى بشىء فلينفذه لى ، وإنما مقصوده أن يضع منى بالتردد عليه .

فتى وقع الإنسان مع ذكى فينبغى أن يتحرز منه، ويسرق أغراضه بصنوف الاحتيال وينظر فيما يجوز وقوعه فليحترز منه (كما ينظر صاحب الرقعة[١] النقلات)[٢] .

وكثير من الأذكياء لم يقدروا على أغراضهم من ذكى فاعطوه وبالغوا فى إكرامه ليصيدوه ؛ فإن كان قليل الفطنة وقع فى الشرك ، وإن كان أقوى منهم ذكاء علم أن تحت هذه النية[٣] خبيئاً فزاده ذلك احترازاً .

وأقوى ما ينبغى أن يكون الاحتراز من موتور ، فإنك إذا آذيت شخصاً فقد غرست فى قلبه عداوة ، فلا تأمن تفريع تلك الشجرة ، ولا تلتفت إلى ما يُظهر من ودّ وإن حلف ، فإن قاربته فكن منه على حذر .

ومن التغفل أن تعاقب شخصاً أو تسىء إليه إساءة عظيمة وتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد ، فتراه ذليلا لك طائعاً تائباً مقلعاً عما فعل ، فتعود فتستطيبه وتنسى ما فعلت وتظن أنه قد انمحى من قلبه ماأسلفت .

فربما عمل لك المحن ، ونصب لك المكايد ، كما جرى لقصير مع الزباء ، وأخباره معروفة .

---

(١) الرقعة : رقعة الشطرنج . والنقلات : نقلات اللعب .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

(٣) فى الدمشقية : الجنية . واحدة من جنى الثمار .

فإياك أن تساكن من آذيته ، بل إن كان ولا بد فمن خارج ، فما تؤمن الأحقاد .

ومتى رأيت عدوك فيه غفلة لا يثنيه مثل هذا فأحسن إليه ، فإنه ينسى عداوتك ولا يظن أنك قد أضمرت له جزاء على قبيح فعله ، فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه .

ومن الخور إظهار العداوة للعدو . . . . ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن كسر شوكتهم . . . . ولو لم يمكن ذاك كان اللطف سبباً فى كف أكفهم عن الأذى ، وفيهم من يستحيي لحسن فعلك فيتغير قلبه لك .

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلا قد شتمهم أهدوا إليه وأعطوه ، فهم بالعاجل يكفون شره ، ويحتالون فى تقليب قلبه ، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه إن أرادوا .

وكفى بالذهن الناظر إلى العواقب والتأمل لكل ممكن (مؤدباً)[1] .

١٨٦ ـ فصل : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان

رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم ، فإذا ظهر عاتبوا من أخبروا به .

فواعجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعا ثم لاموا من أفشاه .

وفى الحديث : استعينوا على قضاء أموركم بالكتمان .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الدمشقية .

ولعمرى إن النفس يصعب عليها كتم الشىء ، وترى بإفشائه راحة ، خصوصاً إذا كان مرضاً أو هماً أو عشقاً .

وهذه الأشياء فى إفشائها قريبة . إنما اللازم كتمانه احتيال المحتال فيما يريد أن يحصّل به غرضاً .

فإن من سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه ، فإنه إذا ظهر بطل ما يراد[1] أن يفعل ، ولا عذر لمن أفشى هذا النوع .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً[2] ورّى بغيره .

فإن قال قائل : إنما أحدّث من أثق به .
قيل له : وكل حديث جاوز الاثنين شائع ، وربما لم يكتم صديقك .

وكم قد سمعنا من يحدّث عن الملوك بالقبض على صاحب فَنَمّ الحديث إلى الصاحب وهرب ففات السلطان مراده .

وإنما الرجل الحازم الذى لا يتعداه سره ولا يفشيه إلى أحد .

ومن العجز إفشاء السر إلى الولد والزوجة .

والمال من جملة السر . فاطلاعهم عليه[3] ، إن كان كثيراً فربما تمنوا هلاك الموروث . وإن كان قليلا تبرموا بوجوده .

وربما طلبوا من الكثير على مقدار كثرته فأتلفته النفقات .

---

(١) فى الحديثة : يريد .
(٢) فى الحديثة : غزواً .
(٣) زا فى الحديثة يجر المتاعب .

وستر المصائب من جملة كتمان السر ، لأن إظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب .

وكذلك ينبغى أن يكتم مقدار السن ، لأنه إن كان كبيراً استهرموه ، وإن كان صغيراً احتقروه .

ومما قد انهال فيه كثير من المفرطين أنهم يذكرون بين أصدقائهم أميراً أو سلطانا فيقولون فيه فيبلغ ذلك إليه فيكون سبب الهلاك .

وربما رأى الرجل من صديقه إخلاصاً وافياً فأشاع سره . وقد قيل :

اِحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً
وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّمَا انقَلَبَ الصَّدِيقُ
فَكَانَ أَدْرَى بِالْمَضَرَّهْ

وربَّ مفشٍ سره إلى زوجة أو صديق فيصير بذلك رهيناً عنده و ولا يتجاسر أن يطلق الزوجة ، ولا أن يهجر الصديق ، مخافة أن يظهر سره القبيح .

فالحازم من عامل الناس بالظاهر ؛ فلا يضيق صدره بسره[1] فإن فارقته امرأة أو صديق أو خادم لم يقدر أحد منهم أن يقول فيه ما يكره .

ومن أعظم الأسرار الخلوات ، فليحذر الحازم فيها من الانبساط برأى من مخلوق . ومن خلق له عقل ثاقب دله على الصواب قبل الوصايا .

---

(١) فى الحديثة : سره فى صدره .

١٨٧ - فصل - في طريق الاستذكار

ما رأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم والتكرار له .

وخصوصاً تكرار ما ليس لها فى تكراره وحفظه حظ، مثل مسائل الفقه بخلاف الشعر والسجع ، فإن لها لذة فى إعادته وإن كان يصعب[1] لأنها تلتذّ به مرة ومرتين .

فإذا زاد التكرار صعب عليها ، ولكن دون صعوبة الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع ، فتراها تخلد إلى الحديث والشعر والتصانيف والنسخ لأنه يمر بها كل لحظة ما لم تره ، فهو فى المعنى كالماء الجارى ، لأنه جزء بعد جزء .

وكذا من ينسخ ما يحب أن يسمعه أو يصنف ، فإنه يلتذ بالجدة ويستريح من تعب الإعادة .

إلا أنه ينبغى للعاقل أن يكون جلّ زمانه للإعادة ، خصوصاً الصبى والشاب ، فإنه يستقر المحفوظ عندهما استقراراً لا يزول .

ويجعل أوقات التعب من الإعادة للنسخ ، ويحذر من تفلتها إلى النسخ عند الإعادة فيقهرها ، فإنه يحمد ذلك حمد السرى وقت الصباح .

وسيندم من لم يحفظ ندم الكسعى وقت الحاجة إلى النظر والفتوى .

وفى الحفظ نكتة ينبغى أن تلحظ ، وهو أن الفقيه يحفظ الدرس ويعيده

---

(١) فى الحديثة : صعباً .

ثم يتركه فينساه فيحتاج إلى زمان آخر لحفظه ، فينبغى أن يحكم الحفظ ويكثر التكرار ليثبت قاعدة الحفظ .

١٨٨ ـ فصل : فى العزلة التفكير فى زاد الرحيل

ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخلق خصوصاً للعالم والزاهد فإنك لا تكاد ترى إلا شامتاً بنكبة أو حسوداً على نعمة ، ومن يأخذ عليك غلطاتك .

فيا للعزلة ما ألذّها ، سلمت من كدر غيبة ، وآفات تصنع ، وأحوال المداجاة ، وتضييع الوقت .

ثم خلا فيها القلب بالفكر ، لأنه مستلذ عنه[1] بالمخالطة ، فدبر أمر دنياه وآخرته . فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المعى بالأخلاط فيذيبها .

وما رأيت مثل ما يصنع المخالط ، لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء الناس وكلامهم فيشتغل بها عما بين يديه . فمثله كمثل رجل يريد سفراً قد أزف ، فجالس أقواما فشغلوه بالحديث حتى ضرب البوق وما تزود .

فلو لم يكن فى العزلة إلا التفكير فى زاد الرحيل والسلامة من شر المخالطة كفى .

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد ، فإنهما يعلمان مقصود العزلة وإن كانا لا فى عزلة[2] .

أما العالم فعلمه مؤنسه ، وكتبه محدّثه ، والنظر فى سير السلف مقوّمه ، والتفكر فى حوادث الزمان السابق فرجته .

---

(١) فى الحديثة : بعد ما كان مشغولا عنه .

(٢) فى الحديثة . ويحسنان الإفادة منها . ولا أصل له . —

فإن ترقى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه ، وتشبث بأذيال محبته ، تضاعفت لذاته ، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها .

فخلا بحبيبه ، وعمل معه بمقتضى علمه .

وكذلك الزاهد ، تعبده أنيسه ، ومعبوده جليسه ، فإن كشف لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق ، وغابوا عنه .

إنما اعتزلا ما يؤذى . فهما فى الوحدة بين جماعة . فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق ، وسلم الخلق من شرورهما .

بل هما قدوة للمتعبدين ، وعلم للسالكين . ينتفع بكلامهما السامع ، وتجرى موعظتهما المدامع ، وتنتشر هيبتهما فى المجامع .

فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة وإن كرهها ، ليثمر له الصبر العسل .

وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالم ، خصوصاً لأرباب المال والسلاطين ، يجتلب ويُجتلب ويختلب ، فما يحصل له شيء من الدنيا إلا وَقَدْ ذهب من دينه أمثاله .

ثم أين الأنفة من الذل للفساق ؟

فالذى لا يبالى بذلك هو الذى لا يذوق طعم العلم ولا يدرى ما المراد به

وكأنه به وقد وقع فى بادية جرُز ، وقفر مهلك فى تلك البرارى .

وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط ، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنُّع والنفاق فيفوته الحظان ، لا الدنيا ونعيمها تحصل له ولا الآخرة .

فنسأل الله عز وجل خلوة حلوة، وعزلة عن الشر (لذيذة)[١] يستصلحنا بها لمناجاته، ويلهم كلا منا طلب نجاته. إنه قريب مجيب.

١٨٩ ـ فصل : الاستعداد للقاء الموت

ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت، وهو لا يستعد للقائه.

وأشد الناس بلهاً وتغفيلا من (قد)[٢] عبر الستين وقارب السبعين — فإن ما بينهما هو معترك المنايا. ومن نازل المعترك استعد — وهو مع ذلك غافل عن الاستعداد.

قال الشباب لعلنا في شيبنا
ندع الذنوب فما يقول الأشيب؟

والله إن الضحك من الشيخ ماله معنى. وإن المزاح منه بارد المعنى.

وإن تعرضه بالدنيا وقد دفعته عنها يضعف القوى ويضعف الرأى.

وهل بقي لابن ستين منزل؟

فإن طمع في السبعين فإنما يرتقى اليها بعناء شديد، إن قام دفع الأرض. وإن مشى لهث، وإن قعد تنفس.

ويرى شهوات الدنيا ولا يقدر على تناولها. فإن أكل كد المعدة، وصعب الهضم، وإن وطىء أذى المرأة، ووقع دنفاً لا يقدر على رد ما ذهب من القوة إلى مدة طويلة. فهو يعيش عيش الأسير.

---

(١) ساقطة من الحديثة.

(٢) ساقطة من الحديثة

فإن طمع فى الثمانين فهو يزحف اليها زحف الصغير

وَعَشْرُ الثَّمَانِينَ مَنْ خَاضَهَا

فَإِنَّ الْمُلِمَّاتِ فِيهَا فُنُونُ

فالعاقل من فهم مقادير الزمان . فإنه فيما قيل قبل البلوغ صبى ليس على عمره عيار .

إلا أن يرزق فطنة ففى بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم .

فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى ، وتعلم العلم

فإذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة ، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه وقضى مناسك الأجل . ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن .

كَأَنَّ الفَتَى يَرْقَى مِنَ العُمْرِ سُلَّماً

إِلَى أَنْ يَجُوزَ الأَرْبَعِينَ وَيَنْحَطُّ

فينبغى له عند تمام الأربعين أن يجعل جلّ همته التزود للآخرة ، ويكون كل تلمحه لما بين يديه ، ويأخذ فى الاستعداد للرحيل .

وإن كان الخطاب بهذا لابن عشرين ، إلا أن رجاء التدارك فى حق الصغير لا فى حق الكبير .

فإذا بلغ الستين فقد أعذر الله إليه فى الأجل وجاز من الزمن[1] . فليقبل بكليته على جمع زاده ، وتهيئة آلات السفر .

---

(١) زاد فى الحديثة : أخطاره .

وليعتقد أن كل يوم يحيا فيه غنيمة ما هى فى الحساب .

خصوصاً إذا قوى عليه الضعف وزاد .

وكلما علت سنه فيلبغى أن يزيد اجتهاده . فإذا دخل فى عشر الثمانين فليس إلا الوداع وما بقى من العمر الا أسف على تفريط ، أو تعبد على ضعف .

نسأل الله عز وجل يقظة تامة تصرف عنا رقاد الغفلات ، وعملا صالحاً نأمن معه من الندم يوم الانتقال ، والله الموفق .

١٩٠ ـ فصل : سبب النهي عن الاشتغال بالكلام

ما نهى السلف عن الخوض فى الكلام إلا لأمر عظيم ، وهو أن الإنسان يريد أن ينظر مالا يقوى عليه بصره ، فربما تحير فخرج إلى الجَحْد .

لأنا إذا نظرنا فى ذات الخالق حار العقل وبهت الحس ، فهو لا يعرف شيئاً لا بداية له . إنه لا يعلم إلا الجسم والجوهر والعرَض ، فإثبات ما يخرج عن ذاك لا يفهمه

وإن نظرنا فى أفعاله رأيناه يحكم البناء ثم ينقضه ولا نطلع على تلك الحكمة

فالأولى للعاقل أن يكف التطلع إلى مالا يطيق النظر إليه .

ومتى قام العقل فنظر فى دليل وجود الخالق بمصنوعاته ، وأجاز بعثة نبى واستدل بمعجزاته ، كفاه ذلك أن يتعرض لما قد أغنى عنه

وإذا قال القرآن كلام الله تعالى بدليل قوله « حَتّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ الله[1] » كفاه

وأما من تحذلق فقال : التلاوة هى المتلو أو غير المتلو ، والقراءة هى المقروء أو غير المقروء ، فيضيع الزمان فى غير تحصيل ، والمقصود العمل بما فهم

(١) جزء من الآية ٦ من سورة التوبة

وقد حكى أن ملكا كتب إلى عماله فى البلدان أنى قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا ، فعملوا إلا واحداً منهم .

فإنه قعد يتفكر فى الكتاب فيقول : أترى كتبه بمداد أو بحبر ؟ أترى كتبه قائماً أو قاعداً ؟

فما زال يتفكر حتى قدم الملك ولم يعمل مما أمره به شيئاً .

فأحسن جوائز الكل وقتل هذا .

١٩١ – فصل : لذة الدنيا شرف العلم

لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها ، واللذة فيها شرف[1] العلم وزهرة العفة وأنفة الحمية ، وعز القناعة ، وحلاوة الإفضال على الخلق .

فأما الالتذاذ بالمطعم والمنكح فشغل جاهل باللذة ، لأن ذاك لا يراد لنفسه ، بل لإقامة العوض فى البدن والولد .

وأى لذة فى النكاح ، وهى قبل المباشرة لا تحصل .

وفى حال المباشرة قلق لا يثبت .

وعند انقضائها ، كأن لم تكن ، ثم تثمر الضعف فى البدن .

وأى لذة فى جمع المال فضلا عن الحاجة . فإنه مستعبد للخازن ، يبيت حذراً عليه ، ويدعوه قليله إلى كثيره .

وأى لذة فى المطعم ، وعند الجوع يستوى خشنه وحسنه .

فإن ازداد الأكل خاطر بنفسه

---

(١) فى الحديثة : وما اللذة إلا شرف العلم .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : بنيت الفتنة على ثلاث، النساء وهن فخ إبليس المنصوب، والشراب وهو سيفه المرهف ، والدينار والدرهم ، وهما سهماه المسمومان .

فمن مال إلى النساء لم يصْف له عيش. ومن أحب الشراب لم يمتع بعقله . ومن أحب الدينار والدرهم كان عبداً لهما ماعاش .

١٩٢ ـ فصل : قياس صفات الخالق على صفات المخلوقين كفر

أصل كل محنة فى العقائد قياس أمر الخالق على أحوال الخلق .

فإن الفلاسفة لما رأوا إيجاد شىء لا من شىء كالمستحيل فى العادات قالوا بقدم العالم .

ولما عظم عندهم فى العادة الإحاطة بكل شىء قالوا : إنه يعلم الجمل لا التفاصيل .

ولما رأوا تلف الأبدان بالبلاء أنكروا إعادتها . وقالوا الإعادة رجوع الأرواح إلى معادنها .

وكل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين خرج إلى الكفر .

فإن المجسمة دخلوا فى ذلك لأنهم حملوا أوصافه على ما يعقلون .

وكذلك تدبيره عز وجل ، فإن من حمله على ما يعقل فى العادات رأى ذبح الحيوان لا يستحسن ، والأمراض تستقبح ، وقسمة الغنى للأبله ، والفقر للجلد العاقل أمراً ينافى الحكمة .

وهذا فى الأوضاع بين الخلق . فأما الخالق سبحانه فإن العقل لا ينتهى إلى حكمته . بلى . قد ثبت عنده وجوده وملكه وحكمته .

فتعرضه بالتفاصيل على ما تجرى به عادات الخلق ، جهل .

ألا ترى إلى أول المعترضين وهو إبليس كيف ناظر فقال : أنا خير منه ، وقول خليفته وهو أبو العلاء المعرى :

رَأى مِنكَ مَالاَ يَشْتَهِى فَتَزَندَقاَ

ونسأل الله عز وجل توفيقاً للتسليم ، وتسليما للحكيم « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا[1] » .

أترى نقدر على تعليل أفعاله فضلا عن مطالعة ذاته ؟

وكيف نقيس أمره على أحوالنا ؟

فإذا رأينا نبينا صلى الله عليه وسلم يسأل فى أمه وعمه فلا يقبل منه، ويتقلب جائعا والدنيا ملك يده . ويقتل أصحابه والنصر بيد خالقه ، أو ليس هذا مما يحير !

فما لنا والاعتراض على مالك قد ثبتت حكمته واستقر ملكه .

١٩٣ - فصل : احتقار الاعمال والاعتذار عن التقصير

تأملت عجباً ، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب فى تحصيله .

فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة . حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهى الهريسة لا أقدر ، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس .

---

(١) جزء من الآية ٨ من سورة آل عمران .

ونحو هذا تحصيل المال فإنه يحتاج إلى المخاطرات والأسفار والتعب الكثير.

وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود، فإنه يفتقر إلى جهاد النفس فى بذل المحبوب، وربما آل إلى الفقر.

وكذلك الشجاعة، فإنها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس. قال الشاعر:

لَوْلا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ
الجودُ يُفْقِرُ وَالإقْدَامُ قَتَّالُ

ومن هذا الفن تحصيل الثواب فى الآخرة، فإنه يزيد على قوة الاجتهاد والتعبد، أو على قدر وقع المبذول من المال فى النفس. أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الجزع.

وكذلك الزهد يحتاج إلى صبر عن الهوى.

والعفاف لا يكون إلا بكف كف الشره.

ولولا ما عانى يوسف عليه السلام ما قيل له: «أيها الصديق[1]».

ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يبالغون فى كل علم، ويجتهدون فى كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة. فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون.

وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم. فهم يحتقرونها مع التمام، ويعتذرون من التقصير.

---

(١) جزء من الآية ٤٦ من سورة يوسف.

ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك .

ومنهم من لا يرى ما عمل أصلا ، لأنه يرى نفسه وعمله لسيده .

وبالعكس من المذكور من[1] أرباب الاجتهاد حال أهل الكسل والشره والشهوات .

فلئن التذّوا بعاجل الراحة لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة.

ومن تلمّح صبر يوسف عليه السلام ، وعجلة ماعِز ، بان له الفرق ، وفهم الربح من الخسران .

ولقد تأملت نيل الدرّ من البحر ، فرأيته بعد معاناة الشدائد .

ومن تفكر فيما ذكرته مثلا بانت له أمثال .

فالموفق من[2] تلمح قصر الموسم المعمول فيه ، وامتداد زمان الجزاء الذى لا آخر له ، فانتهب حتى اللحظة ، وزاحم كل فضيلة ، فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها .

أو ليس فى الحديث يقال للرجل : « اقرأ وارق فمنزلك عند آخر آية تقرؤها » .

فلو أن الفكر عمل فى هذا حق العمل حفظ القرآن عاجلا .

١٩٤ - فصل : المؤمن هو من إذا اشتد البلاء زاد إيمانا

ليس المؤمن بالذى يؤدى فرائض العبادات صورة ، ويتجنب المحظورات فحسب .

---

(١) فى الحديثة : عن أرباب .

(٢) فى الحديثة : من إذا . ولا أصل لها .

إنما المؤمن (هو)[١] الكامل الإيمان[٢] ، لا يختلج فى قلبه اعتراض ، ولا يساكن نفسه فيما يجرى وسوسة .

وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوى تسليمه .

وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً ، وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته.

فإن اختلج فى قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة ، كما جرى لإبليس .

والإيمان القوى يبين أثره عند قوة البلاء .

فأما إذا رأينا[٣] مثل يحيى بن زكريا تسلط[٤] عليه فاجر فيأمر بذبحه فيذبح وربما اختلج فى الطبع أن يقول فهلا ردعنه[٥] من جعله نبياً ؟ .

وكذلك كل تسلط من الكفار على الأنبياء والمؤمنين وما وقع ردٌّ عنهم ، فإن هجس بالفكر أن القدرة تعجز عن الرد عنهم كان كفراً

وإن علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردَّت ، ويجوع[٦] المؤمنين ويشبع الكفار ، ويعافى العصاة . ويمرض المتقين ، لم يبق إلا التسليم للمالك وإن أمض وأرمض .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) فى الحديثة : ومن لا .

(٣) فى الحديثة : فقد يرى .

(٤) فى الحديثة : يتسلط.

(٥) فى الحديثة : فهل رد

(٦) فى الحديثة : وإن الله قد يجيع .

وقد ذهب يوسف بن يعقوب عليهما السلام فبكى (يعقوب)[١] ثمانين سنة (ثم)[٢] لم ييأس ، فلما ذهب ابنه الآخر قال : « عَسَى اللهُ أنْ يَأتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً[٣] » .

وقد دعا موسى عليه السلام على فرعون ، فأجيب بعد أربعين سنة .

وكان يذبح الأنبياء ولا تردُه القدرة القديمة العظيمة ، وصلب[٤] السحرة ، وقطع أيديهم .

وكم من بلية نزلت بمعظم القدر ، فما زاده ذلك إلا تسليما ورضىً فهناك يبين معنى قوله : « وَرَضُوا عَنْهُ[٥] » .

وههنا يظهر قدر قوة الإيمان لا في ركعات .

قال الحسن البصري : استوى الناس في العافية ، فإذا نزل البلاء تباينوا .

١٩٥ ـ فصل : خطر عام الكلام على العامة

أضر ما على العوام المتكلمون فإنهم يخلطون[٦] عقائدهم بما يسمعونه منهم .

من أقبح الأشياء أن يحضر العامي الذي لا يعرف أركان الصلاة ولا الربا

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) ساقطة من الحديثة .

(٣) جزء من الآية ٨٣ من سورة يوسف .

(٤) في الحديثة : وكذلك صلب .

(٥) جزء من الآية ٨ من سورة البينة .

(٦) في الدمشقية : يخبطون .

فى البيع مجلس الوعظ فلا ينهاه[1] عن التوانى فى الصلاة ، ولا يعلمه الخلاص من الربا ، بل يقول له القرآن قائم بالذات ، والذى عندنا مخلوق .

فيهون القرآن عند ذلك العامى ، فيحلف به على الكذب .

ويح المتكلم لو كان له فهم لعلم أن الله سبحانه وتعالى نصب أعلاما تأنس بها النفوس وتطمئن إليها كالكعبة وسماها بيته ، والعرش وذكر استواءه عليه

وذكر من صفاته اليد والسمع والبصر والعين ، وينزل إلى السماء الدنيا ، ويضحك ، وكل هذا لتأنس النفوس بالعادات .

وقد جلّ عما تضمنته هذه الصفات من الجوارح .

وكذلك عظم أمر القرآن ، ونهى المحدث أن يمس المصحف فآل الأمر بقوم من المتكلمين إلى أن أجازوا الاستنجاء به .

فهؤلاء على معاندة الشريعة ، لأنهم يهينون ماعظم الشرع .

وهل الإيغال فى الكلام مما يقرب إلى معرفة الحقائق التى لا يمكن خلافها !

هيهات لو كان كذلك ما وقع بين المتكلمين خلاف .

أوليس الشرب الأول ما تكلموا فى شىء من هذا ! وإن كانوا تعرضوا ببعض الأصول .

ثم جاء فقهاء الأمصار فنهوا عن الخوض فى الكلام ، لعلمهم ما يجلب وما يجتنب .

---

(١) فى الحديثة : فلا ينهاه المتكلم .

ومن لم يقنع بعقيدة مثل الصحابة ، ولا بطريق مثل طريق أحمد والشافعى فى ترك الخوض فلا كان من كان .

ثم بالله تأملوا أليس قد وجب علينا هجر الربا بقوله تعالى : «وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا»[1] ، وهجر الزنا بقوله : «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا»[2] .

فأى فائدة لنا فى ذكر قراءة ومقروء وتلاوة ومتلو وقديم ومحدث ؟

فإن قيل : فلابد من اعتقاد .

قلنا : طريق السلف أوضح حجة ، لأنا لا نقوله[3] تقليداً ، بل بالدليل ، ولكنا لم نستفده عن جوهر وعرض وجزء لا يتجزأ .

بل بأدلة النقل مع مساعدة العقل من غير بحث عما لا يحتاج إليه .

وليس هذا مكان الشرح .

١٩٦ ـ فصل : نفس المؤمن طائر تعلق فى الجنة

مازلت على عادة الخلق فى الحزن على من يموت من الأهل والأولاد ، ولا أتخايل إلا بلى الأبدان فى القبور ، فأحزن لذلك . فمرت بى أحاديث قد كانت تمر بى ولا أتفكر فيها .

منها قول النبى صلى الله عليه وسلم : إنما نفس المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرده الله عزوجل إلى جسده يوم يبعثه . فرأيت أن الرحيل إلى الراحة ،

---

(١) جزء من الآية ١٣٠ من سورة آل عمران .

(٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

(٣) فى الحديثة : لأنا ما نقوله .

وأن هذا البدن ليس بشيء ، لأنه مركب تفكك وفسد ، وسيبنى جديداً يوم البعث ، فلا ينبغى أن يتفكر فى بلاء .

ولتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة فلا يبقى كبير حزن ، وأن اللقاء للأحباب عن قرب .

وإنما يبق الأسف لتعلق الخلق بالصور ، فلا يرى الإنسان إلا جسداً مستحسناً قد نقض فيحزن لنقضه .

والجسد ليس هو الآدمى ، وإنما هو مركبه ، فالأرواح لا ينالها البِلى . والأبدان ليست بشيء .

واعتبر هذا بما إذا قلعت ضرسك ورميته فى حفرة ، فهل عندك خبر بما يلقى فى مدة حياتك ؟

فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس ، لا تدرى النفس ما يلقى ، ولا ينبغى أن تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاه .

واذكر تنعمَ الأرواح ، وقرب التجديد ، وعاجل اللقاء ، فإن الفكر فى تحقيق هذا يهون الحزن ، ويسهل الأمر .

١٩٧ - فصل : ينبغى كتمان المذاهب

ينبغى للعاقل ألا يتكلم فى الخلوة عن أحد بشيء حتى يمثل ذلك الشيء ظاهراً معلناً به ثم ينظر فيما يجنى .

فرُبَّ رجل وثق بصديق[1] فتكلم أمامه عن سلطان بأمر فبلغه فأهلكه .

أو عن صديق فبلغه فوقعت الواقعة .

---

(١) فى الحديثة : بصدق .

وكذلك ينبغى كتم المذاهب ، فإنه ما يربح مظهرها إلا المعاداة .

ولما صرح الشريف أبو جعفر فى زمان المقتدى بمخالفة الأشاعرة ، أخذ وحبس حتى مات .

وكان المقصود قطع[1] الفتن وإصلاح الرعية ، فإنه أهم إلى السلطان من التعصب لمذهب .

١٩٨ ـ فصل : هل يرد الاعتراض الأقدار ؟

رأيت كثيراً من المغفلين[2] يظهر عليهم السخط بالأقدار .

وفيهم من قلّ إيمانه ، فأخذ يعترض.

وفيهم من خرج إلى الكفر ، ورأى أن ما يجرى كالعبث ، وقال مافائدة الإعدام بعد الإيجاد ، والابتلاء ممن هو غنىّ عن أذانا ؟

فقلت لبعض من كان يرمز إلى هذا : إن حضر عقلك وقلبك حدثتك .

وإن كنت تتكلم بمجرد واقعك من غير نظر وإنصاف فالحديث معك ضائع

ويحك ، أحضر عقلك ، واسمع ما أقول :

أليس قد ثبت أن الحق سبحانه مالك، وللمالك[3] أن يتصرف كيف يشاء ؟

أليس قد ثبت أنه حكيم والحكيم لا يعبث ؟ .

وأنا أعلم أن فى نفسك من هذه الكلمة شيئاً ، فإنه قد سمعنا عن جالينوس أنه قال : ما أدرى ؟ أحكيم هو أم لا .

والسبب فى قوله هذا ؛ أنه رأى نقضاً بعد إحكام ، فقاس الحال على

(١) زاد فى الحديثة دون تنبيه : من حبسه فى نظر الوالى .

(٢) فى الدمشقية : المتغفلين .

(٣) فى الحديثة : وللمالك الحق .

أحوال الخلق ، وهو أن من بنى ثم نقض لا لمعنى فليس بحكيم.

وجوابه لو كان حاضراً أن يقال : بماذا بان لك أن النقض ليس بحكمة ؟

أليس بعقلك الذى وهبه الصانع لك ؟

وكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال ؟

وهذه هى المحنة التى جرت لإبليس . فإنه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، ولو تفكر علم أن واهب العقل أعلى من العقل ، وأن حكمته أوفى من كل حكيم ، لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول .

فهذا إذا تأمله المنصف زال عنه الشك .

وقد أشار سبحانه إلى نحو هذا فى قوله تعالى: « أمْ له : البَنَاتُ وَلَكُمُ البَنُون [1]» .

أى أجعل لنفسه الناقصات وأعطاكم الكاملين ؟

فلم يبق إلا أن نضيف العجز عن فهم ما يجرى إلى نفسنا .

ونقول هذا فعل عالم حكيم ولكن ما يبين لنا معناه .

وليس هذا بعجب ، فإن موسى عليه السلام خفى عليه وجه الحكمة فى نقض السفينة الصحيحة ، وقتل الغلام الجميل ، فلما بين له الخضر وجه الحكمة أذعن فلنكن[2] مع الخالق كموسى مع الخضر .

أولسنا نرى المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعام (النظيف)[3] الظريف يقطع ويمضغ ويصير إلى ما نعلم . ولسنا نملك ترك تلك الأفعال ولا ننكر الإفساد له ، لعلمنا بالمصلحة الباطنة فيه .

---

(١) الآية ٣٩ من سورة الطور .

(٢) فى الحديثة : فليكن المرء .

(٣) ساقطة من الحديثة

فما المانع أن يكون فعل الحق سبحانه له باطن لا نعلمه ؟

ومن أجهل الجهال العبد المملوك إذا طلب أن يطلع على سر مولاه ، فإن فرضه التسليم لا الاعتراض .

ولو لم يكن فى الابتلاء بما تنكره الطباع إلا أن يقصد إذعان العقل وتسليمه لكفى .

ولقد تأملت حالة عجيبة ، يجوز أن يكون المقصود بالموت هى ، وذلك أن الخالق سبحانه فى غيب(١) لا يدركه الإحساس .

فلو أنه لم ينقض هذه البنية لتخايل للإنسان أنه صنع لا بصانع .

فإذا وقع الموت عرفت النفس نفسها التى كانت لا تعرفها لكونها فى الجسد ، وتدرك عجائب الأمور بعد رحيلها .

فإذا رُدت إلى البدن عرفت ضرورة أنها مخلوقة لمن أعادها .

وتذكرت حالها فى الدنيا — الأفكار(٢) تعاد كما تعاد الأبدان — فيقول قائلهم « إنَّا كُنَّا قبلُ فى أهلنا مُشْفِقين(٣) » .

ومتى رأت ما قد وعدت به من أمور الآخرة ، أيقنت يقيناً لاشك معه .

ولا يحصل هذا بإعادة ميت سواها . وإنما يحصل برؤية هذا الأمر فيها .

فتبنى بنية تقبل البقاء وتسكن جنة لا ينقضى دوامها .

---

(١) فى الحديثة : غيب فى غيب .

(٢) فى الحديثة : الذكريات .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الطور .

فيصلح بذلك اليقين أن تجاور الحق ، لأنها آمنت بما وعد ، وصبرت بما ابتلى ، وسلمت لأقداره ، فلم تعترض ، ورأت فى غيرها العبر ، ثم فى نفسها . فهذه هى التى يقال لها : « ارْجِعِى إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فادْخُلِى فى عِبَادِى وادْخُلِى جَنَّتِى [1] » .

فأما الشاكّ والكافر فيحق لهما الدخول إلى النار واللبث فيها ، لأنهما رأيا الأدلة ولم يستفيدا ونازعا الحكيم واعترضا عليه ، فعاد شؤم كفرهما يطمس قلوبهما ، فبقيت [2] على ما كانت عليه .

فلما لم تنتفع بالدليل فى الدنيا لم تنتفع بالموت والإعادة ودليل بقاء الخبث فى القلوب قوله تعالى « ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عَنْه [3] » .

فنسأل الله عز وجل عقلا مسلما يقف على حده ، ولا يعترض على خالقه وموجده .

ثم الويل للمعترض ، أيرد اعتراضه الأقدار ؟

فما يستفيد إلا الخزى ، نعوذ بالله ممن خذل .

١٩٩ ـ فصل : الجزاء من جنس العمل

لا ينبغى للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت ، وإن كان الطبع لا يملك .

إلا أنه ينبغى له التصبر مهما أمكن ، إما لطلب الأجر بما يعانى ، أو

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الفجر .

(٢) فى الحديثة : فبقيت نفوسهما .

(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

لبيان أثر الرضى بالقضاء ، وما هى إلا لحظات ثم تنقضى .

وليتفكر المعافى[1] من المرض فى الساعات التى كان يقلق فيها أين هى فى زمان العافية ؟ ذهب البلاء وحصل الثواب .

كما تذهب حلاوة اللذات المحرمة ويبقى الوزر . ويمضى زمان التسخط بالأقدار ، ويبقى العتاب .

وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب .

فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس ، وقد هان ما يلقى ، كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة .

ولا ينبغى أن يقع جزع بذكر البلى ، فإن ذلك شأن المركب ، أما الراكب ففى الجنة أو فى النار .

وإنما ينبغى أن يقع الاهتمام الكلى بما يزيد فى درجات الفضائل قبل نزول المعوّق عنها .

فالسعيد من وفق لاغتنام العافية ، ثم يختار تحصيل الأفضل فالأفضل فى زمن الاغتنام .

وليعلم أن زيادة المنازل فى الجنة على قدر التزيد من الفضائل ههنا ، والعمر قصير ، والفضائل كثيرة ، فليبالغ فى البدار .

فياطول راحة التعب ، ويافرحة المغموم ، وياسرور المحزون .

ومتى تخايل دوام اللذة فى الجنة من غير منغص ولا قاطع ، هان عليه كل بلاء وشدة .

---

(١) فى الحديثة : المعانى . وهو عكس المعنى .

٢٠٠ - فصل : تذكر الموت

حضرنا يوماً جنازة شاب مات أحسن ما كانت الدنيا له ، فرأيت من ذم الناس للدنيا ، وعيب من سكن إليها ، والتقبيح للغافلين عن الاستعداد لهذا المصرع أمراً كبيراً من الحاضرين .

فقلت : نِعم ما قلتم . ولكن اسمعوا منى مالم تسمعوه .

أعجب الأشياء أن العاقل إذا علم قرب هذا المصرع منه أوجب عليه عقله البدار بالعمل والقلق من الخوف .

وقد اشتدّ ذلك بأقوام فهاموا فى البرارى ، وطووا الأيام بالمجاعة ، وداموا على سهر الليل ، ولازموا المقابر ، فهلكوا سريعاً .

ولعمرى إن ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل .

ولكن نرى العقل الذى أوجب هذا القلق قد أمر بما يوجب السكون، فقال : إنما خلق هذا البدن ليحمل النفس كما تحمل الناقة الراكب .

ولابد من التلطف بالناقة ليحصل المقصود من السير ، ولايحسن فى العقل دوام السهر وطول القلق ، لأنه يؤثر فى البدن فيفوت أكثر المقصود .

كيف وقد خلق بدن الآدمى خلقاً لطيفاً ، فإذا هجر الدسم نشف الدماغ

وإذا دام على السهر قوى اليبس ، وإذا لازم الحزن مرض القلب .

فلابد من التلطف بالبدن بتناول ما يصلحه ، وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذى له .

وإلا فمتى دام المؤذى عجل التلف .

ثم يأتى الشرع بما قد قاله العقل ، فيقول : « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، فصم وأفطر ، وقم ونم » .

ويقول : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » .

ويحث على النكاح، ودوام[1] القلق واليبس يترك الزوجة كالأرملة ، والولد كاليتيم .

ولا وجه للتشاغل بالعلم مع هذا القلق .

ومن أراد مصداق ما قلته ، فليتأمل حالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فإنه كان يعدّل ما عنده من الخوف فيمازح ، ويسابق عائشة ، ويكثر من التزوج .وكان يتلطف ببدنه ، فيختار الماء البائت ، ويحب الحلوى واللحم .

ولولا مساكنة نوع غفلة لما صنف العلماء ، ولا حفظ العلم ، ولا كتب الحديث .

لأن من يقول : ربما مت اليوم كيف يكتب وكيف يسمع ويصنف .

فلا يهولنكم ماترون من غفلة الناس عن الموت وعدم ذكره حق ذكره ، فإنها نعمة من الله سبحانه بها تقوم الدنيا ويصلح الدين .

وإنما تذم قوة الغفلة الموجبة للتفريط والإهمال للمحاسبة[2] للنفس ، وتضييع الزمان فى غير التزود ، وربما قويت فحملت على المعاصى .

فأما إذا كانت بقدر كانت كالملح فى الطعام لابد منه ،فإن كثر صار الطعام زعافا .

---

(١) فى الحديثة : ويرى دوام .

(٢) فى الحديثة : وإهمال المحاسبة .

فالغفلة تمدح إذا كانت بِقَدَر كما بينا . ومتى زادت وقع الذم .

فافهم ما قلته .

ولا تقل فلان شديد اليقظة ماينام الليل ، وفلان غافل ينام أكثر الليل، فإن غفلة توجب مصلحة البدن والقلب لا تُذَمّ ، والسلام .

٢٠١ ـ فصل : الزهد الظاهرى

ما يكاد يحب الاجتماع بالناس إلاّ فارغ .

لأن المشغول القلب بالحق يفر من الخلق ومتى (تمكن)[١] فراغ القلب من معرفة الحق امتلأ بالخلق فصار يعمل لهم ومن أجلهم ، ويهلك بالرياء ولا يعلم .

وإنى لأ تأمل بعض[٢] من يتزيى بالفقر والتصوف وهو يلبس ثياباً لا تساوى ديناراً ، وعنده المال الكثير ، وقد أمرع[٣] نفسه فى المطاعم الشهية وهو عامل بمقتضى الكبر والتصدر ، فيتقرب إلى أرباب الدنيا ، ويستذرى أرباب العلم ، ويزور أولئك دونهم .

وإنما يرد مايعطى ليشيع له اسم زاهد ، فتراه يربى الناموس وهو فى احتياله كثعلب ، وفى نهوضه إلى أغراضه فىالباطن كلب شرى .

فأقول : سبحان الله ، ما يزهد إلا الثياب ، أترى : ما سمع قول النبىصلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ؟ .

---

(١) ساقطة من الحديثة .
(٢) فى الحديثة : على بعض
(٣) فى الحديثة : أمرح .

وأعوذ بالله من رؤية النفس، ورؤية الخلق، فإن من رأى نفسه تكبر، والمتكبر أحمق، لأنه ما من شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه.

ومن راءى الخلق عبدهم وهو لا يعلم.

فأما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد من الخلق، فإن تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بُعدهم عنه.

وقد رأينا من يرائى ولا يدرى فيمتنع من المشى فى السوق، ومن زيارة الإخوان، ومن أن يشترى شيئاً بنفسه.

وتوهمه نفسه أنى أكره مخالطة السوقة، وإنما هذا يربى جاهاً بين العلماء[1] إذ لو خالطهم لا متُحى جاهه، وبطل تقبيل يده.

وقد كان بشر الحافى يجلس فى مجلس عند العطار.

وأبلغ من هذا كله أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان يشترى حاجته ويحملها[2]، وخرج على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين فاشترى ثوباً. وقد كان طلحة بن مطرف قارىء أهل الكوفة، فلما كثر الناس عليه مشى إلى الأعمش فقرأ عليه، فمال الناس إلى الأعمش وتركوا طلحة.

هذا والله الكبريت الأحمر، والإكسير، لا ما يظن إكسيراً فى الكيمياء.

والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون.

---

(١) فى الحديثة: العامة. وهى على عكس المعنى.
(٢) فى الحديثة: الشىء ويحمله.

فأما ضد هذه الحال فحالة عابد للخالق ملبس[1] . وقد عم هذا جمهور الخلق حاشا السلف .

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا
مَضْغَ الكَلامِ وَلاَ صَبْغَ الحَوَاجِبِ

٢٠٢ ـ فصل : الزنا أقبح الذنوب

كل المعاصي قبيحة ، وبعضها أقبح من بعض .

فإن الزنا من أقبح الذنوب ، فإنه يفسد الفرش ، ويغير الأنساب ، وهو بالجارة أقبح .

فقد روى فى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ».

قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك من أجل أن يطعم معك »

قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك »

وقد روى البخارى فى تاريخه من حديث المقداد بن الأسود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر من أن يزنى بامرأة جاره ، ولأن يسرق من عشرة أبيات ، أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » .

وإنما كان هذا ، لأنه يضم إلى معصية الله عز وجل انتهاك حق الجار .

ومن أقبح الذنوب أن يزنى الشيخ ، فنى الحديث : « إن الله يبغض الشيخ الزانى » لأن شهوة الطبع قد ماتت ، وليس فيها قوة تغلب ، فهو يحركها ويبالغ فكانت معصيته عناداً .

---

(١) فى الحديثة : ملبس بمظهره .

ومن المعاصى التى تشبه المعاندة لبس الرجل الحرير والذهب ، خصوصاً خاتم الذهب الذى يتحلى به الشيخ، وأنه من أرد الأفعال وأقبح الخطايا .

ومن هذا الفن ، الرياء والتخاشع ، وإظهار التزهد للخلق ، فإنه كالعبادة لهم مع إهمال جانب الحق عز وجل .

وكذلك المعاملة بالربا الصريح ، خصوصاً من الغنى الكثير المال .

ومن أقبح الأشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب من ذنب، لا يعتذر من زلة ، ولا يقضى ديناً ، ولا يوصى بإخراج حق عليه .

ومن قبائح الذنوب ، أن يتوب السارق أو الظالم ، ولا يرد المظالم .

والمفرط فى الزكاة أو فى الصلاة ، ولا يقضى .

ومن أقبحها ، أن يحنث فى يمين طلاقه ، ثم يقيم مع المرأة .

وقس على ماذكرته ، فالمعاصى كثيرة ، وأقبحها لا يخفى .

وهذه المستقبحات فضلا عن القبائح[1] تشبه العناد للآمر ، فيستحق صاحبها اللعن ودوام العقوبة .

وإنى لأرى شرب الخمر من ذلك الجنس ، لأنها ليست مشتهاة لذاتها ، ولا لريحها ولا لطعمها ، فيما يذكر .

إنما لذتها — فيما يقال — بعد تَجَرّعِ مرارتها .

فالإقدام على مالا يدعو إليه الطبع إلى أن يصل التناول إلى اللذة معاندة

نسأل الله عز وجل إيماناً يحجز بيننا وبين مخالفته ، وتوفيقاً لما يرضيه ، فإنما نحن به وله .

---

(١) فى الحديثة : القبائح الأخرى .

٢٠٣ - فصل الكبر وخطره على العالم

انتقدت(١) على أكثر العلماء والزهاد أنهم يبطنون الكبر .

فهذا ينظر فى موضعه وارتفاع غيره عليه ، وهذا لا يعود مريضاً فقيراً يرى نفسه خيراً منه .

حتى إنى رأيت جماعة يوماً إليهم ، منهم من يقول لا أدفن إلا فى دكة أحمد ابن حنبل ، ويعلم أن فى ذلك كسر عظام الموتى ، ثم يرى نفسه أهلا لذلك التصدر .

ومنهم من يقول : ادفنونى إلى جانب مسجدى ، ظناً منه أنه يصير بعد موته مزاراً كمعروف الكرخى .

وهذه خلة مهلكة ولا يعلمون

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر »

وقلّ من رأيت ، إلا وهو يرى نفسه .

والعجب كل العجب ممن يرى نفسه ، أتراه بماذا رآها ؟

إن كان بالعلم ، فقد سبقه العلماء ، وإن كان بالتعبد ، فقد سبقه العبّاد ، أو بالمال ، فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية .

فإن قال : قد عرفت ما لم يعرف غيرى من العلم فى زمنى ، فما علىّ ممن تقدم .

---

(١) فى الأصول : اعتبرت

قيل له : ما نأ مرك ُ يا حافظ القرآن ، أن ترى نفسك فى الحفظ كمن يحفظ النصف .

ولا يافقيه أن ترى نفسك فى العلم كالعامى .

إنما نحذر عليك أن ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وإن قلّ علمه .

فإن الخيرية بالمعانى لا بصورة العلم(١) والعبادة .

ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره على شك .

فالذى يُحذر منه الإعجاب بالنفس ، ورؤية التقدم فى أحوال الآخرة ، والمؤمن(٢) لايزال يَحتقر نفسه .

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إن متّ ندفنك فى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : «لأنْ ألقى الله بكل ذنب غير الشرك ، أحب إلىّ من أن أرى نفسى أهلا لذلك » .

وقد روينا : أن رجلا من الرهبان رأى فى المنام قائلا يقول له : « فلان الإسكافى خير منك » فنزل من صومعته ، فجاء إليه فسأله عن عمله ، فلم يذكر كبير عمله .

فقيل له فى المنام : عُدْ إليه ، وقل له : مِمّ صفرة وجهك ؟

---

(١) فى الحديثة : لا بصور العلم .

(٢) فى الحديثة : والمؤمن الحق .

فعاد فسأله فقال : ما رأيت مسلماً إلا وظننته خيراً منى ، فقيل له : فبذاك ارتفع(١)

٢٠٤ - فصل : الغضب غلبة من الشيطان

متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح ، فلا ينبغى أن تعقد على ما يقوله خنصراً ، ولا أن تؤاخذه به .

فإن حاله حال السكران ، لا يدرى ما يجرى .

بل اصبر لفورته ، ولا تعوّل عليها ، فإن الشيطان قد غلبه ، والطبع قد هاج ، والعقل قد استتر .

ومتى أخذت فى نفسك عليه ، أو أجبته بمقتضى فعله ، كنت كعاقل واجه مجنوناً ، أو كمفيق عاتب مغمى عليه . فالذنب لك .

بل انظر بعين الرحمة ، وتلمح تصريف القَدر له ، وتفرج فى لعب الطبع به . واعلم أنه إذا انتبه ندم على ماجرى ؛ وعرف لك فضل الصبر .

وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل فى غضبه إلى ما يستريح به .

وهذه الحالة ينبغى أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد، والزوجة عند غضب الزوج ، فتتركه يشتفى بما يقول ، ولا تعول على ذلك ، فسيعود نادماً معتذراً .

ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة ، وجازى فى الإفاقة على ما فُعل فى حقه وقت السكر .

وأكثر الناس على غير هذه الطريق .

---

(١) هذا المعنى والذى سبقه فى الفصل قبله تماما وأوسع منه فى آداب النفوس للمحاسبى .

متى رأوا غضبان قابلوه بما يقول ويعمل ، وهذا على غير مقتضى الحكمة، بل الحكمة ماذكرته ، وما يعقلها إلا العالمون .

٢٠٥ ـ فصل : الحذر من الحديث عن الناس

ليس فى الدنيا أكثر بلاهة ممن يسىء إلى شخص ويعلم أنه قد بلغ إلى قلبه بالأذى ثم يصطلحان فى الظاهر ، فيعلم أن ذلك الأثر محى بالصلح .

وخصوصاً مع الملوك ، فإن لذتهم الكبرى ألا يرتفع عليهم أحد ، ولا ينكسر لهم غرض ،فإذا جرى شىء من ذلك لم ينجبر .

واعتبر هذا بأبى مسلم الخراسانى، فإنه غض من قدر المنصور قبل ولايته فحصل ذلك فى نفسه فقتله .

ومن نظر فى التواريخ رأى جماعة قد جرى لهم مثل هذا .

ولا ينبغى لمن أساء إلى ذى سلطان أن يقع فى يده ، فإنه إذا رام التخلص لم يقدر . فيبقى ندمه على ترك احترازه ، وحسرته على مساكنة الضمان للسلامة ، أشد عليه من كل ما يلقى به من الهوان والأذى .

ومن هذا الجنس الأصدقاء المتماثلون ، فإنك متى آذيت شخصاً وبلغ إلى إلى قلبه أذاك فلا تثق بمودته ، فإن أذاك نصب عينه ، فإن لم يحتل عليك لم يصْفُ لك .

ولا تخالط إلا من أنعمت عليه فحسب ، فهو لم ير منك إلا خيراً ، فيكون فى نفسه ، وكذلك الولد والزوجة والمعاملون .

ويلحق بهذا أن أقول : لا ينبغى أن تعادى أحداً ولا تتكلم فى حقه ، فربما صارت له دولة فاشتفى .

وربما احتيج إليه فلم يقدر عليه .

فالعاقل يصوّر فى نفسه كل ممكن ، ويستر ما فى قلبه من البغض والود ، ويدارى مع[1] الغيظ والحقد ، هذه مشاورة العقل إن قبلت .

٢٠٦ - فصل : لا تسوف فى التوبة

كل من يتلمح العواقب ولا يستعد لما يجوز وقوعه فليس بكامل العقل

واعتبر هذا فى جميع الأحوال ، مثل أن يغتر بشبابه ويدوم على المعاصى ويُسوّف بالتوبة .

فربما أخذ بغتة ولم يبلغ بعض ما أمل .

وكذلك إذا سوّف بالعمل أو بحفظ العلم ، فإن الزمان ينقضى بالتسويف ويفوت المقصود .

وربما عزم على فعل خير أو وقف شىء من ماله فسوّف فبُغت .

فالعاقل من أخذ بالحزم فى تصوير ما يجوز وقوعه وعمل بمقتضى ذلك .

فإن امتد الأجل لم يضره ، وإن وقع المخوف كان محترزاً .

ومما يتعلق بالدنيا أن يميل مع السلطان ويسيء إلى بعض حواشيه ثقة بقربه منه ، فربما تغير ذلك السلطان فارتفع عدوه فانتقم منه .

وقد يعادى بعض الأصدقاء ولا يبالى به لأنه دونه فى الحالة الحاضرة .

فربما صعدت مرتبة ذلك فاستوفى ما أسلفه إليه من القبيح وزاد .

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه ولم يعاد أحداً .

---

(١) فى الحديثة : مع من يكنون له الغيظ .

فإن كان بينهما ما يوجب المعاداة كتم ذلك ، فإن صح له أن يثب على عدوه فينتقم منه انتقاماً يبيحه الشرع جاز ، على أن العفو أصلح فى باب العيش .

ولهذا ينبغى أن يُخدم البطال[1] ، فإنه ربما عمل فعرف ذلك لمن خدم .

وقس على أنموذج ما ذكرته من جميع الأحوال .

٢٠٧ ـ فصل : عزة العلم تضع أصحابها فوق الملوك

بقدر صعود الإنسان فى الدنيا تنزل مرتبته فى الآخرة .

وقد صرح بهذا ابن عمر رضى الله عنهما فقال : والله لا ينال أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله ، وإن كان عنده كريماً .

فالسعيد من اقتنع بالبلغة ، فإن الزمان أشرف من أن يضيع فى طلب الدنيا .

اللهم إلا أن يكون متورعا فى كسبه ، معيناً لنفسه عن الطمع ، قاصداً إعانة أهل الخير ، والصدقة على المحتاجين ، فكسب هذا أصلح من بطالته .

فأما الصعود الذى سببه مخالطة السلاطين فبعيد أن يسلم معه الدين ، فإن وقعت سلامته ظاهراً فالعاقبة خطرة .

قال أبو محمد التميمى : ما غبطت أحداً إلا الشريف أبا جعفر يوم مات القائم بأمر الله فإنه غسّله وخرج ينفض أكمامه فقعد فى مسجده لا يبالى بأحد ونحن منزعجون لا ندرى ما يجرى علينا .

وذاك أن التميمى كان متعلقاً على السلطان يمضى له فى الرسائل ، فخاف مغبة القرب .

---

(١) يعنى : العاطل من المنصب .

وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة .

ولعمرى إنهم طلبوا الراحة فأخطئوا طريقها ، لأن غموم القلب لا توازيها لذة مال ولا لذة مطعم ، هذا فى الدنيا قبل الآخرة .

ومن أشرف وأطيب عيشاً من منفرد فى زاوية(١) لا يخالط السلاطين ولا يبالى أطاب مطعمه أم لم يطب .

فإنه لا يخلو من كسرة وقعب ماء ، ثم هو سليم من أن تقال له كلمة تؤذيه أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق .

ومن تأمل حال أحمد بن حنبل فى انقطاعه، وحال ابن أبى دؤاد(٢)، ويحيى ابن أكثم عرف الفرق فى طيب العيش فى الدنيا والسلامة فى الآخرة .

وما أحسن ما قال ابن أدهم : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف .

ولقد صدق ابن أدهم ، فإن السلطان إن أكل شيئاً خاف أن يكون قد طرح له فيه سم ، وإن نام خاف أن يغتال ، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة ، فإن خرج كان منزعجاً من أقرب الخلق إليه ، واللذة التى ينالها تبرد عنده ، ولا تبقى له لذة مطعم ولا منكح .

وكلما استظرف المطاعم أكثر منها ففسدت معدته ، وكلما استجد الجوارى أكثر منهن فذهبت قوّته ، ولا يكاد يبعد ما بين الوطء والوطء فلا يجد فى الوطء كبير لذة لأن لذة الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين ، وكذلك لذة الأكل

---

(١) لقد عاب هذا النوع من قبل .

(٢) فى الحديثة : أبى داود . خطأ

فإن من أكل على شبع ، ووطىء من غير صدق شهوة وقلق ، لم يجد اللذة التامة التى يجدها الفقير إذا جاع ، والعزب إذا وجد امرأة .

ثم إن الفقير يرمى نفسه على الطريق فى الليل فينام ، ولذة الأمن قد حرمها الأمراء فلذتهم ناقصة ، وحسابهم زائد .

والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغاً من اللذات ما لم يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان (وأحمد)[١] والعباد المحققين كمعروف ، فإن لذة العلم تزيد على كل لذة .

وأما ضرهم إذا جاعوا أو ابتلوا بأذى ، فإن ذلك يزيد فى رفعتهم .

وكذلك لذة الخلوة والتعبد . فهذا معروف ، كان منفرداً بربه طيب العيش معه ، لذيذ الخلوة به .

ثم قد مات منذ نحو أربعمائة سنة فما يخلو أن يهدى إليه كل يوم ماتقدير مجموعه أجزاء من القرآن .

وأقله من يقف على قبره فيقرأ : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد[٢] » ويهديها له . والسلاطين تقف بين يدى قبره ذليلة .

هذا بعد الموت ، ويوم الحشر تنشر الكرامات التى لا توصف ، وكذلك قبور العلماء المحققين .

ولما بليت أقوام بمخالطة الأمراء أثر ذلك التكدير فى أحوالهم كلها .

---

(١) ساقطة من الحديثة.

(٢) الآية ١ من سورة الإخلاص .

فقال سفيان بن عيينة : منذ أخذت من مال فلان الأمير ، مُنعت ما كان وهب لى من فهم القرآن .

وهذا أبو يوسف القاضى ، لا يزور قبره اثنان .

فالصبر عن مخالطة الأمراء وإن أوجب ضيق العيش من وجه ، يحصل طيب العيش من جهات .

ومع التخليط ، لا يحصل مقصود . فمن عزم جزم .

كان أبو الحسن القزوينى ، لا يخرج من بيته إلا وقت الصلاة ، فربما جاء السلطان فيقعد لانتظاره ، ليسلم عليه .

ومد النفس فى هذا ربما أضجر السامع ، ومن ذاق عرف .

٣٠٨ ـ فصل : معرفة الله والشرع تهدى لسبل الخير

من عرف الشرع كما ينبغى وعلم حالة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحوال الصحابة وأكابر العلماء ، علم أن أكثر الناس على غير الجادة .

وإنما يمشون مع العادة ، يتزاورون ، فيغتاب بعضهم بعضاً ، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه ، ويحسده إن كانت نعمة ، ويشمت به إن كانت مصيبة ويتكبر عليه إن نصح له ، ويخادعه لتحصيل شىء من الدنيا ، ويأخذ عليه العثرات إن أمكن .

هذا كله يجرى بين المنتمين إلى الزهد لا الرعاع .

فالأولى بمن عرف الله سبحانه ، وعرف الشرع ، وسير السلف الصالحين الانقطاع عن الكل .

فإن اضطر إلى لقاء منتسب إلى العلم والخير تلقاه وقد لبس درع الحذر ، ولم يطل معه الكلام ، ثم عجل الهرب منه إلى مخالطة الكتب التى تحوى تفسيراً لنطاق الكمال .

٢٠٩ ـ فصل : الكمال قليل الوجود

الكمال عزيز . والكمال قليل الوجود .

فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن ، وحسن صورة الباطن .

فصورة البدن تسمى خَلقاً ، وصورة الباطن تسمى خُلقاً

ودليل كمال صورة البدن حسن السمت(١) واستعمال الأدب .

ودليل صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق .

فالطبائع : العفة . والنزاهة ، والأنفة من الجهل ، ومباعدة الشره .

والأخلاق : الكرم ، والإيثار ، وستر العيوب ، وابتداء المعروف ، والحلم عن الجاهل .

فمن رزق هذه الأشياء ، رقته إلى الكمال ، وظهر عنه أشرف الخلال ، وإن نقصت خلة ، أوجبت النقص .

٢١٠ ـ فصل : فى التسليم يظهر جواهر الرجال

ليس فى الدنيا أبله(٢) ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الأغراض . فأين تكون البلوى إذن ؟ .

---

(١) فى الأصول : الصمت . وهو خطأ .
(٢) فى الحديثة : أشد بلها .

لا والله ، لابد من انعكاس المرادات ، ومن توقف أجوبة السؤالات ، ومن تشفى الأعداء فى أوقات.

فأما من يريد أن تدوم له السلامة والنصر على من يعاديه ، والعافية من غير بلاء ، فما عرف التكليف ، ولا فهم التسليم .

أليس الرسول صلى الله عليه وسلم ينصر يوم بدر ثم يجرى عليه ما جرى يوم أحد ! .

أليس يصد عن البيت ثم قهر(١) بعد ذلك(٢) !

فلابد من جيد وردىء ، والجيد يوجب الشكر ، والردىء يحرك إلى السؤال والدعاء .

فإن امتنع الجواب ، أريد نفوذ البلاء ، والتسليم للقضاء .

وههنا يبين الإيمان ، ويظهر فى التسليم جواهر الرجال .

فإن تحقق التسليم باطناً وظاهراً فذلك شأن الكامل .

وإن وجد فى الباطن انعصار من القضاء لا من المقضى – فإن الطبع لابد أن ينفر من المؤذى دل – على ضعف المعرفة .

فإن خرج الأمر إلى الاعتراض باللسان ، فتلك حال الجهال ، نعوذ بالله منها .

٢١١ - فصل : الله ينظر كيف تعملون

من الابتلاء العظيم إقامة الرجل فى غير مقامه . مثل أن يحوج الرجل

---

(١) فى الحديثة : ويقهر .

(٢) زاد فى الحديثة : على العودة .

الصالح إلى مداراة الظالم والتردد إليه ، وإلى مخالطة من لا يصلح ، وإلى أعمال لا تليق به ؛ أو إلى أمور تقطع عليه مراده الذى يؤثره .

مثل أن[١] يقال للعالم : تردد على الأمير وإلا خفنا عليك سطوته ، فيتردد فيرى مالا يصلح له ولا يمكنه أن ينكر .

أو يحتاج إلى شىء من الدنيا وقد منع حقه ، فيحتاج أن يعرّض بذكر ذلك ، أو يصرح لينال بعض حقه ، ويحتاج إلى مداراة من تصعب مداراته ، بل تتشتت همته لتلك الضرورات .

وكذلك يفتقر إلى الدخول فى أمور لا تليق به ، مثل أن يحتاج إلى الكسب فيتردد إلى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته .

وهذا لا يحتمله قلب المراقب لله سبحانه لأجل ما يخالطه من الأكدار .

أو يكون له عائلة وهو فقير فيتفكر فى إغنائهم ، فيدخل فى مداخل كلها عنده عظيم[٢] .

وقد يبتلى بفقد من يحب ، أو ببلاء فى بدنه ، وبعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه ، فيرى الفاسق يقهره . والظالم يذله .

وكل هذه الأشياء تكدر عليه العيش ، وتكاد تزلزل القلب .

وليس فى الابتلاء بقوة الأشياء إلا التسليم واللجأ إلى القدر فى الفرج .

فيُرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم، ولا يتغير قلبه ، ولا ينطق بالشكوى لسانه .

---

(١) فى الحديثة : فقد يقال .

(٢) فى الحديثة : عظيمة .

أو ليس الرسول صلى الله عليه وسلم يحتاج أن يقول : من يؤويني[1] من ينصرني ؟

ويفتقر إلى أن يدخل مكة في جوار كافر ؟

ويشق السلى على ظهره ، وتقتل أصحابه ، ويداري المؤلفة ، ويشتد جوعه وهو ساكن لا يتغير ؟

وماذاك إلا أنه علم أن الدنيا دار ابتلاء ، لينظر الله فيها كيف تعملون .

ومما يهوّن هذه الأشياء علم العبد بالأجر ، وأن ذلك مراد الحق .

فَمَا لِجُرْحٍ إذَا أرْضَاكُمُ أَلَمُ[2]

٣١٢ ـ فصل : العجماوات خير من علماء يعبدون المال

لا ينكر أن الطباع تحب المال ، لأنه سبب بقاء الأبدان ، لكنه يزيد حبه في بعض القلوب حتى يصير محبوباً لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد .

فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب ، ويمنعها اللذات ، وتصبر لذاته في جمع المال . وهذه جبلة في خلق كثير .

وليس العجب أن تكون في الجهال[3] وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته ، خصوصاً في الأفعال . اللازمة في المال .

فأما أن يكون العالم جامعاً للمال من وجوه قبيحة ومن شبهات قوية

---

(١) في الحديثة : يواريني .

(٢) البيت للمتنبي وصدره : إن كان سركم ما قال حاسدنا .

(٣) زاد في الحديثة : بل العجب أن تكون في أهل العلم .

وبحرص شديد وبِذُلّ فى الطلب ، ثم يأخذ من الزكوات ولا تحل له مع الغنى ، ثم يدخره ولا ينفع به ، فهذه بهيمية تخرج من صفات الآدمية .

بل البهيمية أعذر ، لأنها بالرياضة تتغير طباعها ، وهؤلاء ما غيرتهم رياضة ، ولا أفادهم العلم .

ولقد كان أبو الحسن البسطامى مقيما فى رباط البسطامى الذى على نهر عيسى ، وكان لا يلبس إلى الصوف شتاء وصيفاً ، وكان يحترم ويقصد ، فخلف مالاً يزيد على أربعة آلاف دينار .

ورأينا بعض أشياخنا وقد بلغ الثمانين وليس له أهل ولا ولد ، وقد مرض فألقى نفسه عند بعض أصدقائه يتكلف له ذلك الرجل ما يشتهيه وما يشفيه ، فمات فخلف أموالا عظيمة .

ورأينا صدقة بن الحسين الناسخ ، وكان على الدوام يذم الزمان وأهله ، ويبالغ فى الطلب من الناس ويتجفف[1] وهو فى المسجد وحده ليس له من يقوم بأمره ، فمات فخلف فيما قيل ثلاث مائة دينار .

وكان يصحبنا أبو طالب بن المؤيد الصوفى . وكان يجمع المال ، فسرق منه نحو مائة دينار ، فتلهف عليها وكان ذلك سبب هلاكه .

ومن أحوال الناس أنك ترى أقواما جلسوا على صفة القوم يطلبون الفتوح فيأتيهم منها الكثير الذى يصيرون به من الأغنياء ، وهم لا يمتنعون من أخذ زكاة ولا من طلب .

وكذلك القُصّاص ، يخرجون إلى البلاد ويطلبون ، فيحصل لهم المال الكثير ، فلا يتركون الطلب عادة .

---

(١) فى الحديثة : يتخفف . والتجفف : طلب الخبز الجاف .

فيا سبحان الله . أى شىء أفاد العلم . بل الجهل كان لهؤلاء أعذر .

ومن أقبح أحوالهم لزومهم الأسباب التى تجلب لهم الدنيا من التخاشع والتمسك فى الظاهر ، وملازمة (حث)[1] العزلة عن المخالطة ؛ وكل هؤلاء بمعزل عن الشرع .

ولقد تأملت على بعضهم من القدح فى نظيره إلى أن يبلغ به إلى التعرض به للهلاك .

فالويل لهم ، ما أقلّ ما يتمتعون بظواهر الدنيا ، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم ؛ لأن الحق عز وجل لا يميل بالقلوب إلا إلى المخلصين .

فقد فاتهم الدنيا على الحقيقة ، وما حصلوا إلا صورة الحطام .

نسأل الله عز وجل عقلا يدبر دنيانا ؛ويحصل لنا آخرتنا ، والرزاق قادر

٢١٣ ـ فصل : أنفس الاشياء معرفة الله

ينبغى لمن عرف شرف الوجود أن يحصل أفضل الموجود .

هذا العمر موسم . والتجارات تختلف . والعامة تقول : عليكم بما خف حمله وكثر ثمنه .

فينبغى للمستيقظ ألا يطلب إلا الأنفس .

وأنفس الأشياء فى الدنيا معرفة الحق عز وجل .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

فمن العارفين السالكين من وافى فى طريقه بغيته فى السفر، ومنهم من همته متعلقة بطلب ربحه ، ومنهم من ينظر إلى مايرضى الحبيب فيجلبه إلى بلد المعاملة ، ويرضى بالقبول ثمناً ، ويرى أن كل البضائع لا تفى بحق الخفارة(١)

ومنهم من يرى لزوم الشكر فى اختياره هذاالسلوك دون غيره فيقربالعجز

وقد ارتفع قوم عن هذه الأحوال، فرأوا مجرد التوفيق يشغلهم عن النظر إلى العمل .

أولئك الأقلون عدداً، وإن الأعظمين قدراً أقل نسلا من عنقاء مغرب .

٢١٤ - فصل : البدار أيها المسنون

من علم قرب الرحيل عن مكة ، استكثر من الطواف ، خصوصاً إن كان لا يؤمل العود لكبر سنه وضعف قوته .

فكذلك ينبغى لمن قاربه ساحل الأجل بعلو سنه أن يبادر اللحظات ، وينتظر الهاجم بما يصلح له .

فقد كان فى قوس الأجل منزع زمان الشباب، واسترخى الوتر فى المشيب عن سية القوس . فانحدر إلى القلب(٢) وضعفت القوى .

وما بقى إلا الاستسلام لمحارب التلف ، فالبدارالبدار (أن يوثر)(٣) إلى التنظيف ليكون القدوم على طهارة .

وأى عيش فى الدنيا يطيب لمن أيامه السليمة تقربه(٤) إلى الهلاك ،

---

(١) فى الحديثة : الحفاوة .
(٢) فى الحديثة : القاب .
(٣) ساقطة من الحديثة .
(٤) فى الحديثة : تغربه .

وصعود عمره نزول عن الحياة ، وطول بقائه نقص مدى المدة ، فليتفكر فيما بين يديه ، وهو أهم مما ذكرناه .

أليس فى الصحيح : ما منكم أحد إلا ويعرض عليه مقعدة بالغداة والعشى من الجنة والنار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله .

فوا أسفا لمهدّد ، لم يحسن التأهب ، وياطيب عيش الموعود بأزيد المنى

وليعلم من شارف السبعين ، أن النفس أنين ، أعان الله من قطع عقبة العمر على رملٍ زرود الموت .

٢١٥ - فصل : تذكر أحوال الرسول

من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله عز وجل فى أفعاله ، وأن يدرى من أين ينشأ الرضى ، فليتفكر(١) فى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك ، وللمالك التصرف فى مملوكه ، ورآه حكيما لا يصنع شيئاً عبثاً ، فسلم تسليم مملوك لحكيم فكانت العجائب تجرى عليه ولا يوجد منه تغير ، ولا من الطبع تأفف .

ولا يقول بلسان الحال : لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح .

هذا سيد الرسل صلى الله عليه وسلم بعث إلى الخلق وحده ، والكفر قد ملأ الآفاق ، فجعل يفر من مكان إلى مكان ، واستتر فى دار الخيزران(٢) ، وهم يضربونه إذا خرج ، ويدمون عقبه ، وشق السلى على ظهره ، وهو ساكت ساكن .

---

(١) فى الحديثة : فليفكر .
(٢) هى دار الأرقم . آلت إلى الخيزران بعد ذلك .

ويخرج كل موسم فيقول : من يؤويني ، من ينصرني ؟

ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر ، ولم يوجد من الطبع تأنف ، ولا من الباطن اعتراض .

إذ لو كان غيره لقال : يارب أنت مالك الخلق ، وقادر على النصر ، فلم أذل ؟

كما قال عمر رضى الله عنه يوم صلح الحديبية : ألسنا على الحق ؟ فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟

ولما قال هذا ، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : إنى عبد الله ولن يضيعنى ، فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما .

فقوله : إنى عبدالله ، إقرار بالملك وكأنه قال : أنا مملوك يفعل بى مايشاء

وقوله : لن يضيعنى ، بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً .

ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجر ، ولله خزائن السموات والأرض .

وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويمثل بعمه وهو ساكت

ثم يرزق ابناً ويسلب منه ، فيتعلل بالحسن والحسين ، فيخبر بما سيجرى عليهما .

ويسكن بالطبع إلى عائشة رضى الله عنها ، فينغص عيشه بقذفها .

ويبالغ فى إظهار المعجزات فيقام فى وجهه مسيلمة والعنسى وابن صياد

ويقيم ناموس الأمانة والصدق ، فيقال : كذاب ساحر .

ثم يعلقه المرض كما يوعك رجلان وهو ساكن ساكت .

فإن أخبر بحاله فليعلم الصبر .

ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريفة وهو مضطجع فى كساء ملبد وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلتئذ .

هذا شيء[1] ما قدر على الصبر عليه كما ينبغى نبي قبله ، ولو ابتليت به الملائكة ما صبرت .

هذا آدم عليه السلام يباح له الجنة سوى شجرة فلا يقع ذباب حرصه إلا على العقر[2] .

ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول فى المباح : مالى وللدنيا !

وهذا نوح عليه السلام يضج مما لاقى ، فيصيح من كمد وجده « لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً[3] » . ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

هذا الكليم موسى صلى الله عليه وسلم ، يستغيث عند عبادة قومه العجل على القدر[4] قائلا « إن هى إلا فتنتك[5] » ، ويوجه إليه ملك الموت فيقلع عينه .

---

(١) فى الحديثة : الشيء .
(٢) فى الحديثة : الفقر .
(٣) جزء من الآية ٢٦ من سورة نوح .
(٤) فى الحديثة : ويتوكأ على القدر . ولا أصل لها .
(٥) جزء من الآية ١٥٥ من سورة الأعراف .

وعيسى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن صرفت الموت عن أحـــد فاصرفه عنى » .

ونبينا صلى الله عليه وسلم يخير بين البقاء والموت ، فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى .

هذا سليمان صلى الله عليه وسلم يقول : هب لى ملـكا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجد ، فماتت أغراضه ، وسكنت اعتراضاته ، فصار هواه فيما يجرى .

٢١٦ ـ فصل : لا يحصل المراد التام

أكثر شهوات الحس النساء ، وقد يرى الإنسان امرأة فى ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته .

أو يتصور بفـكره المستحسنات وفـكره لا ينظر إلا إلى الحسن من المرأة ، فيسعى فى التزوج والتسرى .

فإذا حصل له مراده لم يزل ينظر فى عيوب الحاصل التى ما كان يتفـكر فيها ، فيمل ويطلب شيئاً آخر .

ولا يدرى أن حصول أغراضه فى الظاهر ربما اشتمل على محن .

منها أن تكون الثانية لادين لها أو لاعقل، أولا محبة لها ، أو لاتدبير ، فيفوت أكثر مما حصل .

وهذا المعنى هو الذى أوقع الزناة فى الفواحش ، لأنهم يجالسون المرأة

حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها ، فتلذهم[1] تلك الساعة، ثم ينتقلون إلى أخرى .

فليعلم العاقل أن لا سبيل إلى حصول مراد تام كما يريد « وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ[2] » .

وما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله عز وجل « وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ[3] » .

وذو الأنفة يأنف من الوسخ صورة ، وعيب الخلق معنى .

فليقنع بما باطنه الدين ، وظاهره الستر والقناعة . فإنه يعيش مرفه السر ، طيب القلب . ومتى ما استكثر ، فإنما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه .

٢١٧ - فصل : يخلق ما يشاء ويختار

سبحان من شغل كل شخص بفن لتنام العيون فى الدنيا .

فأما فى العلوم فحبب إلى هذا القرآن ، وإلى هذا الحديث، وإلى هذا النحو إذ لولا ذلك ما حفظت العلوم .

وألهم هذا المتعيش أن يكون خبازاً ، وهذا أن يكون هراساً ، وهذا أن ينقل الشوك من الصحراء ، وهذا أن ينقى البثار ليلتئم الخلق .

ولو ألهم أكثر الناس أن يكونوا خبازين مثلا ، بات الخبز وهلك ،

---

(١) فى الحديثة : فتلذ لهم .

(٢) جزء من الآية ٢٦٧ من سورة البقرة .

(٣) جزء من الآية ٢٥ من سورة البقرة .

أو هراسين جفت الهرايس ، بل يلهم هذا وذاك بقدَر لينتظم أمر الدنيا وأمر الآخرة .

ويندر من الخلق من يلهمه الكمال وطلب الأفضل ، والجمع بين العلوم والأعمال ، ومعاملات القلوب ، وتتفاوت أرباب هذه الحال .

فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار .

نسأله العفو إن لم يقع الرضى ، والسلامة إن لم نصلح للمعاملة .

٣١٨ - فصل : القرآن والسنة أساس الدين

علم الحديث هو الشريعة ، لأنه مبين للقرآن وموضح للحلال والحرام ، وكاشف عن سيرة رسول الله[1] صلى الله عليه وسلم وسير أصحابه .

وقد مزجوه بالكذب ، وأدخلوا فى المنقولات كل قبيح .

فإذا وفق الزاهد والواعظ لم يذكرا إلا ما شهدا بصحته .

وإن حرما التوفيق ، عمل الزاهد بكل حديث يسمعه لحسن ظنه بالرواة ، وقال الواعظ كل شيء يراه الجهلة بالتصحيح ، ففسدت أحوال الزاهد ، وانحرف عن جادة الهدى ، وهو لا يعلم .

وكيف لا وعموم الأحاديث الدالة على الزهد لاتثبت ، مثل حديث ابن عمر رضى الله عنهما : أيما امرىء مسلم اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له . وهذا حديث موضوع ، يمنع الإنسان ما أبيح له مما يتقوى به على الطاعة .

---

(١) فى الحديثة : سيرة الرسول .

ومثل قوله : من وضع ثياباً حساناً ، وكذلك مارووا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أدمان فقال : أدمان فى قدح ، لا حاجة لى فيه ، أكره أن يسألنى الله عن فضول الدنيا » .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكل البطيخ بالرطب ، ومثل هذا إذا تتبع كثير ، فقد بنوا على فساد ، ففسدت أحوال الواعظ والموعوظ ، لأنه يبنى كلامه على أشياء فاسدة ومحالات .

ولقد كان جماعة من المتزهدين يعملون على أحاديث ومنقولات لاتصح فيضيع زمانهم فى غير المشروع .

ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات، ويرون أن التجفف هو الدين

وكذلك الوعاظ يحدثون الناس بما لا يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ، فقد صار المحال عندهم شريعة .

فسبحان من حفظ هذه الشريعة بأخبار أخيار ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين .

٢١٩ ـ فصل : مسند الامام أحمد وما فيه من الاحاديث

كان قد سألنى بعض أصحاب الحديث : هل فى مسند أحمد ماليس بصحيح ؟ فقلت : نعم .

فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب، فحملت أمرهم على أنهم عوام، وأهملت فكر ذلك .

وإذا بهم قد كتبوا فتاوى ، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان ، منهم أبو العلاء الهمدانى يعظمون هذا القول ، ويردونه ويقبحون قول من قاله .

فبقيت دهشاً متعجباً ، وقلت فى نفسى : واعجباً صار المتقسبون إلى العلم عامة أيضاً .

وما ذاك إلا أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه ، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد .

وليس كذلك ، فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والردىء .

ثم هو قد رد كثيراً مما روى ، ولم يقل به ، ولم يجعله مذهباً له .

أليس هو القائل فى حديث الوضوء بالنبيذ مجهول !

ومن نظر فى كتاب العلل الذى صنفه أبو بكر الخلال[1] رأى أحاديث كثيرة كلها فى المسند ، وقد طعن فيها أحمد .

ونقلت من خط القاضى أبى يعلى محمد بن الحسين الفراء[2] فى مسئله النبيذ قال : إنما روى أحمد فى مسنده ما اشتهر ، ولم يقصد الصحيح ولا السقيم .

ويدل على ذلك أن عبدالله قال: قلت لأبى : ما تقول فى حديث ربعى بن حراش عن حذيفة ؟ قال : الذى يرويه عبد العزيز بن أبى داود ؟ قلت : نعم

قال : الأحاديث بخلافه . قلت : فقد ذكرته فى المسند . قال قصدت فى المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ماصح عندى لم أردهذا المسند إلاالشىء بعد الشىء اليسير .

---

(١) هو أحمد بن محمد الخلال . وكنيته أبو بكر . مات فى بغداد سنة ٣١١ هـ وله كتاب الجامع لعلوم الإمام أحمد .

(٢) توفى سنة ٤٥٨ وكان عالم عصره . وكان مقربا من الخلفاء العباسيين ، وولى القضاء بشرط ألا يحضر الموكب . ولا يدخل دار السلطان . وله كتاب (الأحكام السلطانية) .

ولكنك يابنى تعرف طريقى فى الحديث ، لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه .

قال القاضى — وقد أخبر عن نفسه — كيف طريقه فى المسند فمن جعله أصلا للصحة فقد خالفة وترك مقصده .

قلت : قد غمنى فى هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم فى العلم صاروا كالعامة . وإذا مربهم حديث موضوع قالوا قد روى .

والبكاء ينبغى أن يكون على خساسة الهمم ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

٢٢٠ ـ فصل : اتباع الشهوات

بلغنى عن بعض فساق القدماء أنه كان يقول :

ما أرى العيش غير أن تتبع النفس هواها ، فمخطئاً أو مصيباً .

فتدبرت حال هذا ، وإذا به ميت النفس ، ليس له أنفة على عرضه ، ولاخوف عار .

ومثل هذا ليس فى مسلاخ الآدميين ، فإن الإنسان قد يقدم على القتل لئلا يقال جبان . ويحمل الأثقال ليقال ما قصر . ويخاف العار فيصبر على كل آفة من الفقر ، وهو يستر ذلك حتى لا يرى بعين ناقصة .

حتى إن الجاهل إذا قيل له ياجاهل غضب . واللصوص المتهيئون للحرام إذا قال أحدهم للآخر لا تتكلم ، فإن أختك تفعل وتصنع ، أخذته الحمية فقتل الأخت .

ومن له نفس لا يقف فى مقام تهمة لئلا يظن به .

فأما من لا يبالى أن يُرى سكران ، ولا يهمه أن شهر بين الناس ، ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسوء فذاك فى عداد البهائم .

وهذا الذى يريد أن يتبع النفس هواها لا يلتذ به لأنه لا يخاف عنتاً ولا لوماً ، ولا يكون له عرض يحذر عليه، فهو بهيمة فى مسلاخ إنسان .

وإلا فأى عيش لمن شرب الخمر ، وأخذ عقيب ذلك وضرب وشاع فى الناس ما قد فعل به .

أما يفى ذلك باللذة ، لا ؟ بل يربو عليها أضعافاً .

وأى عيش لمن ساكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا فى العلم وهو جاهل .

أو استغنوا بالتجارة وهو فقير ، فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى ؟

ولو تفكر الزانى فى الأحدوثة عنه ، أو تصور أخذ الحد منه ، لكف الكف .

غير أنه يرى لذة حاضرة كأنها لمع برق ، ويا شؤم ما أعقبت من طول الأسى

هذا كله فى العاجل . فأما الآجل فنغصة العذاب دائمة ، « والذين آمنوا مشفقون منها[1] » .

نسأل الله أنفة من الرذائل ، وهمة فى طلب الفضائل ، إنه قريب مجيب .

---

(١) جزء من الآية ١٨ من سورة الشورى .

٢٣١ - فصل : أتبع السيئة الحسنة تمحها

قد تبغت العقوبات ، وقد يؤخرها الحلم .

والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة ، فكم مغرور بإمهال العصاة لم يمهل .

وأسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسى النهى ، فتكون تلك الخطيئة كالمعاندة والمبارزة .

فإن كانت توجب اعتراضاً على الخالق أو منازعة له فى عظمته ، فتلك التى لا تتلافى .

خصوصاً إن وقعت من عارف بالله ، فإنه يندر إهماله .

قال عبد المجيد بن عبد العزيز[1] : كان عندنا بخراسان رجل كتب مصحفاً فى ثلاثة أيام فلقيه رجل فقال : فى كم كتبت هذا ؟ فأومأ بالسبابة والوسطى والإبهام وقال : فى ثلاث « وما مسنا من لغوب » فجفت أصابعه الثلاث ، فلم ينتفع بها فيما بعد .

وخطر لبعض الفصحاء أن يقدر أن يقول مثل القرآن ، فصعد إلى غرفة فانفرد فيها ، وقال : أمهلونى ثلاثاً ، فصعدوا إليه بعد الثلاث ويده قد يبست على القلم وهو ميت .

قال عبد الحميد : ورأيت رجلا كان يأتى امرأته حائضاً ، فحاض[2] ، فلما كثر الأمر به تاب فانقطع عنه .

---

(١) هو ابن أبى رواد .

(٢) هذه أخبار أكثر المؤلف من مثلها ، وهى كاذبة .

ويلحق هذا أن يعير الإنسان شخصاً بفعل ، وأعظمه أن يعيره بما ليس إليه ، فيقول يا أعمى ، ويا قبيح الخلقة .

وقال ابن سيرين : عيرت رجلا بالفقر ، فحبست على دَين .

وقد تتأخر العقوبة وتأتى فى آخر العمر .

فياطول التعثير مع كبر السن لذنوب كانت فى الشباب .

فالحذر الحذر من عواقب الخطايا . والبدار البدار إلى محوها بالإنابة .

فلها تأثيرات قبيحة إن أسرعت ، وإلا اجتمعت وجاءت .

٢٢٢ - فصل : معرفة الخالق بالدليل واجبة

اعلم أن الآدمى قد خلق لأمر عظيم . . . وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل ، ولا يكفيه التقليد . وذلك يفتقر إلى جمع الهم فى طلبه .

وهو مطالب بإقامة المفروضات ، واجتناب المحارم . فإن سمت همته إلى طلب العلم احتاج إلى زيادة جمع الهم .

فأسعد الناس من له قوت دارٌ بقدر الكفاية ، لا من منن الناس وصدقاتهم وقد قنع به .

وأما إذا لم يكن له قوت يكفى فالهم الذى يريد اجتماعه فى تلك الأمور يتشتت ويصير طالباً للتحيل فى جمع القوت .

فيذهب العمر فى تحصيل قوت البدن الذى يريد من بقائه غير بقائه ، ويفوت المقصود ببقائه ، وربما احتاج إلى الأنذال ، قال الشاعر :

حَسْبِي مِنَ الدَّهْرِ مَا كَفَانِي

يَصُونُ عِرْضِي عن الهَوَانِ

مخافةَ أنْ يقولَ قومٌ
فضلُ فلانٍ على فلانِ

فينبغى للعاقل أن إذا رزق قوتاً أو كان له مواد أن يحفظها ليتجمع همه ولا ينبغى أن يبذر فى ذلك فإنه يحتاج فيتشتت همه .

والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت ، فإن لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته ، وقلل الغلو ليجمع بين همه وضرورته .

وليقنع بالقليل ، فإنه متى سمت همته إلى فضول المال وقع المحذور من التشتت ، لأن التشتت فى الأول للعدم ، وهذ التشتت يكون للحرص على الفضول فيذهب العمر على البارد :

ومَنْ يُنفقِ الأيامَ فى حفظِ مالهِ
مخافةَ فقرٍ فالذى فعلَ الفقرُ

فافهم هذا ياصاحب الهمة فى طلب الفضائل ، فإنك مالم تعزل قوت الصبيان شتتوا قلبك ، وطبعك طفل . ففرغ همك من استعانته .

واعرف قدر شرف المال الذى أوجب جمع همك ، وصان عرضك عن الخلق .

وإياك أن يحملك الكرم على فرط الإخراج ، فتصير كالفقير المتعرض لك بالتعرض لغيرك .

وفى الحديث أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عليه آثار الفقر ، فعرض به فأعطى شيئاً . فجاء فقير آخر فآثره الأول ببعض ما أعطى فرماه النبى صلى الله عليه وسلم ، ونهاه عن مثل ذلك .

والقناعة بما يكفى ، وترك التشوف إلى الفضول أصل الأصول .

ولما آيس الإمام أحمد بن حنبل نفسه من قبول الهدايا والصلات اجتمع همه، وحسن ذكره. ولما أطمعها ابن المدينى[1] وغيره سقط ذكره.

ثم فيمن! إنما هو سلطان جائر، أو مزك منان؟ أو صديق مدل بما يعطى والعز ألذ من كل لذة، والخروج عن ربقة المنن ولو بسف التراب أفضل.

٢٢٣ - فصل: الحذر من الافراط فى إظهار النعم

قد ركب فى الطباع حب التفضيل على الجنس، فما أحد إلا وهو يحب أن يكون أعلى درجة من غيره.

فإذا وقعت نكبة أوجبت نزوله عن مرتبة سواه، فينبغى أن يتجلد بستر تلك النكبة، لئلا يرى بعين نقص.

وليتجمل المتعفف حتى لا يرى بعين الرحمة، وليتحامل المريض لئلا يشمت به ذو العافية.

وقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين قدومه مكة وقد أخذتهم الحمى فخاف أن يشمت بهم الأعداء حين ضعفهم عن السعى، فقال: رحم الله من أظهر من نفسه الجلد، فيرملوا — والرمل شدة السعى.

وزال ذلك السبب وبقى الحكم، ليتذكر السبب فيفهم معناه.

واستأذنوا على معاوية وهو فى الموت، فقال لأهله أجلسونى، فقعد متمكناً يظهر العافية، فلما خرج العواد أنشد:

---

(١) على بن عبدالله بن المدينى، كان من أقران ابن حنبل. وكان حافظ عصره مات بسامرا سنة ٢٣٤ هـ.

وَتَجَلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ
أَنِّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا
أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

ومازال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء، لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها لأشد من كل نائبة.

وكان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية.

بلى، ثم نكتة ينبغى التفطن لها، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ النعم، فأصابه عدوه بالعين، فلا يفى ماتبجح به بما يلاقى من انعكاس النعمة.

والعين لا تصيب إلا ما يستحسن، ولا يكفى الاستحسان فى إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفى ذلك حتى يكون من شرير الطبع.

فإذا اجتمعت هذه الصفات خيف من إصابة العين، فليكن الإنسان مظهراً للتجمل مقدار ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه فى خير.

وليحذر الإفراط فى إظهار النعم، فإن العين هناك محذورة.

وقد قال يعقوب لبنيه عليهم السلام «لاَ تَدْخُلوا مِنْ بابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقة»[1].

وإنما خاف عليهم العين. فليفهم هـذا الفصل فإنه ينفع من له تدبر.

---

(١) جزء من الآية ٦٧ من سورة يوسف.

٢٢٤ ـ فصل : بادر بطى صحيفتك

إنما خلقنا لنحيا مع الخالق فى معرفته ومحادثته ورؤيته فى البقاء الدائم .

وإنما ابتدىء كوننا فى الدنيا لأنها فى مثال مكتب تتعلم فيه الخط والأدب ليصلح الصبى عند بلوغه للرتب .

فمن الصبيان بعيد الذهن يطول مكثه فى المكتب ويخرج وما فهم شيئاً .

وهذا مثال من لا يعلم وجوده ، ولا نال المراد من كونه .

ومن الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه ،وقلة فهمه وعدم تعلمه أذى الصبيان، فهو يؤذيهم، ويسرق مطاعمهم ، ويستغيثون من يده ، فلا هو صلح ، ولا فهم، ولا كف عن الشر .

وهذا مثل أهل الشر والمؤذيين .

ومن الصبيان من علق بشىء من الخط لكنه ضعيف الاستخراج ،ردىء الكتابة ، فخرج ولم يعلق إلا بقدر ما يعلق به حساب معاملته .

وهذا مثل من فهم بعض الشىء وفاتته الفضائل التامة .

ومنهم من جود الخط ولم يتعلم الحساب ، وأتقن الآداب حفظا ، غير أنه قاصر فى أدب النفس .

فهذا يصلح أن يكون كاتباً للسلطان على مخاطرة لسوء ما فى باطنه من الشره وقلة التأدب .

ومنهم من سمت همته إلى المعالى الكاملة ، فهو مقدم الصبيان فى المكتب ،

ونائب عن معلمهم ، ثم يرتفع عنهم بعزة نفسه ، وأدب باطنه ، وكمال صناعة الآداب الظاهرة .

ولا يزال حاثّ من باطنه يحثه على تعجيل التعلم ، وتحصيل كل فضيلة ، لعلمه أن المكتب لا يراد لنفسه بل لأخذ الأدب منه ، والرحلة إلى حالة الرجولية والتصرف ، فهو يبادر الزمان فى نيل كل فضيلة .

فهذا مثل المؤمن الكامل يسبق الأقران يوم التجارى[1] ، ويعرض لوح عمله جيد الخط ، فيقول بلسان حاله « هاؤم اقرؤا كتابيه »[2] .

وكذلك الدنيا وأهلها . من الناس هالك بعيد عن الحق ، وهم الكفار .

ومنهم خاطىء مع قليل من الإيمان ، فهو معاقب ، والمصير إلى خير .

ومنهم سليم ، لكنه قاصر .

ومنهم تام ، لكنه بالإضافة إلى من دونه ، وهو ناقص بالإضافة إلى من فوقه .

فالبدار البدار يا أرباب الفهوم ، فإن الدنيا معبر إلى دار إقامة ، وسفر إلى المستقر والقرب من السلطان ومجاورته ، فتهيئوا للمجالسة ، واستعدوا للمخاطبة ، وبالغوا فى استعمال الأدب ، لتصلحوا للقرب من الحضرة .

ولا يشغلنكم عن تضمير الخيل تكاسل ، وليحملكم على الجد فى ذلك تذكركم يوم السباق .

---

(١) فى الحديثة : التجاريب .

(٢) جزء من الآية ١٩ من سورة الحاقة

فإن قرب المؤمنين من الخالق على قدر حذرهم فى الدنيا .

ومنازلهم على قدرهم ، فما منزل النفاط كمنزل الحاجب ، ولا منزل الحاجب كما كان الوزير .

جنتان من ذهب ، آنيتهما ومافيهما . وجنتان من فضة، آنيتهما ، و مافيهما، والفردوس الأعلى لآخرين .

والذين فى أرض الجنة ينظرون أهل الدرجات كما يرون الكوكب الدرى

فليتذكر الساعى حلاوة التسليم إلى الأمين .

وليتذكر فى لذاذة المدح يوم السباق .وليحذر المسابق من تقصير لا يمكن استدراكه .

وليخف من عيب يبقى قبح ذكره .

هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن ، أزرى بهم اتباع الهوى ، ثم لحقتهم العافية فنجوا بعد لأى ، فليتعظ وليصبر عن المشتهى ، فالأيام قلائل .

يدخل فقراء المؤمنين قبل الأغنياء إلى الجنة بخمس مائة عام ، فالجد الجد، بإقدام المبادرة .

فقد لاح العَلَمَ خصوصاً لمن بانت له بَانَةُ الوادى ، إما بالعلم الدال على الطريق ، وإما بالشيب الذى هو علم الرحيل ، وهو ما يأمله أهل الجد .

وكان الجنيد يقرأ وقت خروج روحه ، فيقال له فى هذا الوقت ! فيقول أبادر طىَّ صحيفتى .

وبعد هذا ، فالمراد موفق ، والمطلوب معان . وإذا أرادك لأمر هيألك له .

٢٣٥ ـ فصل : الدنيا ميدان سباق

تأملت حالة عجيبة ، وهو أن أهل الجنة الساكنين فى أرضها فى نقص عظيم بالإضافة إلى من فوقهم ، وهم يعلمون فضل أولئك .

فلو تفكروا فيما فاتهم من ذلك وقعت الحسرات ، غير أن ذلك لا يكون، لأن ذلك لا يقع لهم لطيب منازلهم ، ولا يقع فى الجنة غم .

ويرضى كل بما أعطى من وجهين : أحدهما أنه لا يظن أن يكون نعيم فوق ما هو فيه ، وإن علت منزلة غيره . والثانى أنه يحبب إليه كما يحبب إليه ولده المستوحش الخلقة ، فإنه يؤثره على الأجنبى المستحسن .

إلا أن تحت هذا معنى لطيفاً ، وهو أن القوم خلقت لهم همم قاصرة فى الدنيا عن طلب الفضائل يتفاوت[1] قصورها .

فمنهم من يحفظ بعض القرآن ولا يتوق إلى التمام ، ومنهم من يسمع يسيراً من الحديث ، ومنهم من يعرف قليلا من الفقه ، ومنهم من قد رضى من كل شىء بيسيره ، ومنهم مقتصر على الفرائض ، ومنهم قنوع بصلاة ركعتين فى الليل. ولو علت بهم الهمم لجدّت فى تحصيل كل الفضائل ، ونبَت عن النقص فاستخدمت البدن ، كما قال الشاعر :

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فى النُّحُولِ بَلِيَّةٌ
وَبَلاءُ جِسْمِى مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِى

ويدل على تفاوت الهمم أن فى الناس من يسهر فى سماع سمر ولا يسهل عليه السهر فى سماع القرآن .

---

(١) فى الحديثة : ثم يتفاوت .

والإنسان يحشر ومعه تلك الهمة ، فيعطى على مقدار ما حصلت فى الدنيا لم تشُقْ إلى الكمال وقنعت بالدون ، قنعت فى الآخرة بمثل ذلك .

ثم إن القوم يتفكرون بعقولهم ، فيعلمون أن الجزاء على قدر العمل ، ولا يطمع من صلى ركعتين فى ثواب من صلى ألفاً .

فإن قال قائل : فكيف يتصور لها ألا تروم مان‍اله من هو أفضل منها ؟

قلت : إن لم يتصور نيله يتصور الحزن على فوته .

وهل رأيت عامياً يحزن على فوات الفقه حزناً يقلقه ؟ هيهات .

لو كان ذلك الحزن عنده لحركه إلى التشاغل .

فليس عندهم همة توجب الأسف مع أنهم قد رضوا بما فيه . فافهم ما قلته وبادر ، فهذا ميدان السباق .

٤٣٦ ـ فصل : الحكمة فى الابقاء على اليهود والنصارى

تفكرت فى إبقاء اليهود والنصارى بيننا وأخذ الجزية منهم ، فرأيت فى ذلك حكما عجيبة .

منها : ما قد ذكر أن الإسلام كان ضعيفاً فتقوى بما يؤخذ من جزيتهم .

ومنها ظهور عِزِّهِ بذُلِّهم ، إلى غير ذلك مما قد قيل .

ووقع لى فيه معنى عجيب ، وهو أن وجودهم وتعبدهم وحفظهم شرع نبيهم صلى الله عليه وسلم دليل على أنه قدكان أنبياء وشرائع .

وأن نبينا صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من الرسل ، فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صانع ، وإقرار برسل ، فبان أننا ما ابتدعنا مالم يكنْ .

وهم[1] يصبرون على باطلهم ، ويؤدون الجزية ، فكيف لا نصبر على حق ، والدولة لنا .

وفى بقائهم احترام لما كان صحيحاً من الدين ، وليرجع متبصر ، وليستعمل مفكر .

٢٧٧ ــ فصل : ما يجب على العالم

قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله ، إلا أن طلاب العلم افترقوا ، فكل تدعوه نفسه إلى شيء .

فمنهم من أذهب عمره فى القراءات ، وذاك تفريط فى العمر[2] ، لأنه إنما ينبغى أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ .

وما أقبح القارىء يسأل عن مسألة فى الفقه وهو لا يدرى .

وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق فى روايات القراءات .

ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب ، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب . ومنهم من يكتب الحديث ويكثر ، ولا ينظر فى فهم ما كتب .

وقد رأينا فى أشياخنا المحدثين من كان يسأل عن مسئلة فى الصلاة فلا يدرى ما يقول .

وكذلك القراء ، وكذلك أهل اللغة والنحو .

وحدثنى عبدالرحمن بن عيسى الفقيه قال حدثنى ابن المنصورى قال: حضرنا

---

(١) فى الحديثة . ثم هم .
(٢) فى الحديثة : فى العلم .

مع أبى محمد بن الخشاب ، وكان إمام الناس فى النحو واللغة ، فتذاكروا الفقه فقال : سلونى عما شئتم ، فقال له رجل : إن قيل لنا رفع اليدين فى الصلاة ماهو فماذا نقول ؟ فقال : هو ركن ! فدهشت الجماعة من قلة فقهه .

وإنما ينبغى (للعاقل) أن يأخذ من كل علم طرفاً ثم يهتم بالفقه .

ثم ينظر فى مقصود العلوم ، وهو المعاملة لله سبحانه ، والمعرفة به ، والحب له .

وما أبله من يقطع عمره فى معرفة علم النجوم ، وإنما ينبغى أن يعرف من ذلك اليسير والمنازل لعلم الأوقات ، فأما النظر فيما يدعى أنه القضاء والحكم فجهل محض لأنه لا سبيل إلى علم ذلك حقيقة ، وقد جرب فبان جهل مدعيه .

وقد تقع الإصابة فى وقت . وعلى تقدير الإصابة لا فائدة فيه إلا تعجيل الغم .

فإن قال قائل : يمكن دفع ذلك فقد سلم أنه لا حقيقة له .

وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيميا [١] فإنه هذيان فارغ . وإذا كان لا يتصور قلب الذهب نحاساً لم يتصور قلب النحاس ذهباً .

فإنما فاعل هذا مستحل للتدليس على الناس فى النقود [٢] .

هذا إذا صح له مراده .

وينبغى لطالب العلم أن يصحح قصده ، إذ فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال .

---

(١) معناها القديم : تحويل المعادن إلى ذهب .

(٢) فى الحديثة : فى جمع النقود .

وليجتهد فى مجالسة العلماء ، والنظر فى الأقوال المختلفة ، وتحصيل الكتب ، فلا يخلو كتاب من فائدة .

وليجعل همته للحفظ ، ولا ينظر ولا يكتب إلا وقت التعب من الحفظ .

وليحذر صحبة السلطان ، ولينظر فى منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وليجتهد فى رياضة نفسه والعمل بعلمه ، ومن تولاه الحق وفقه .

٢٢٨ - فصل : عناد الكافرين

طال تعجبى من أقوام لهم أنفة ، وعندهم كبر زائد فى الحد .

خصوصاً العرب الذين من كلمة ينفرون، ويحاربون ، ويرضون بالقتل[1] حتى إن قوما منهم أدركوا الإسلام فقالوا : كيف نركع ونسجد فتعلونا أستاهنا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود » .

ومع هذه الأنفة ، يذلون لمن هم خير منه . هذا يعبد حجراً ، وهذا يعبد خشبة .

وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر ، وإن هؤلاء لأخس من إبليس ، فإن إبليس أنف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »[2] ، وفرعون أنف أن يعبد شيئاً أصلا .

---

(١) فى الحديثة : بالقل والذل .

(٢) جزء من الآية ٧٦ من سورة ص .

فالعجب ذل هؤلاء المفتخرين المتعاظمين[1] المتكبرين لحجر أو خشبة .

وإنما ينبغى أن يذل الناقص للكاملين . وقد أشير إلى هذا فى ذم الأصنام فى قوله تعالى «أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا[2]» .

والمعنى : أنتم[3] لكم هذه الآلات المدركة وهم ليس لهم[4] فكيف يعبد الكاملُ الناقص ؟

غير أن هوى القوم فى متابعة الأسلاف، واستحلاء ما اخترعوه بآرائهم ، غطى على العقول ، فلم تتأمل حقائق الأمور .

ثم غطى الحسد على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه .

فأمية بن (أبى)[5] الصلت ، يقر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقصده ليؤمن به ، ثم يعود فيقول : لا أؤمن برسول ليس من ثقيف .

وأبو جهل يقول : والله ما كذب محمد قط ، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة فى بنى هاشم ثم النبوة فما بقى لنا ؟

وأبو طالب يرى المعجزات ويقول : إنى لأعلم أنك على الحق ولولا أن تعيرنى نساء قريش لأقررت بها عينك .

---

(١) فى الحديثة : المتعجبين .

(٢) جزء من الآية ١٩٥ من سورة الاعراف

(٣) فى الحديثة : أن لكم .

(٤) فى الحديثة : ليس لهم شىء منها .

(٥) ساقطة من الحديثة .

فنعوذ بالله من ظلمة حسد، وغيابة كبر، وحماقة هوى يغطى على نور العقل.

ونسأله إلهام الرشد، والعمل بمقتضى الحق.

٢٢٩ ـ فصل : لايجعل فى قلبك اعتراض

قد سمعنا بجماعة من الصالحين عاملوا الله عز وجل على طريق السلامة والمحبة واللطف فعاملهم كذلك، لأنهم لا يحتمل طبعهم غير ذلك.

فنى الأوائل برخ العابد خرج يستسقى فقال : (مناجياً الله) ما هذا الذى لانعرفه منك. اسقنا الساعة، فسُقُوا.

وفى الصحابة أنس بن النضر يقول : والله لا تكسر سن الربيع، فجرى الأمر كما قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لوْ أقْسَمَ علَى اللهِ لأبَرَّهُ».

وهؤلاء قوم غلب عليهم ملاحظة اللطف والرفق، فلطف بهم، وأجْرُوا على ما أعتقدوا.

وهناك أعلى من هؤلاء يسألون فلا يجابون، وهم بالمنع راضون.

ليس لأحدهم انبساط، بل قد قيدهم الخوف، ونكس رءوسهم الحذر، ولم يروا ألسنتهم أهلا للانبساط، فغاية آمالهم العفو.

فإن انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الإجابة عاد على نفسه بالتوبيخ، فقال مثلك لايجاب، وربما قال لعل المصلحة فى منعى.

وهؤلاء الرجال حقاً، والأبله الذى يرى له من الحق أن يجاب، فإن لم يجب تذمر فى باطنه، كأنه يطلب أجرة عمله، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته.

وإنما العبد حقاً من يرضى مايفعله الخالق .

فإن سأل فأجيب ، رأى ذلك فضلا .

وإن منع رأى تصرف مالك ، فلم يجل فى قلبه اعتراض بحال .

٢٣٠ - فصل : الله يغفر للجاهل قبل العالم

رأيت جماعة من العلماء يتفسحون[١] ويظنون أن العلم يدفع عنهم ، وما يدرون أن العلم خصمهم ، وأنه يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب .

وذاك لأن الجاهل لم يتعرض بالحق ، والعالم لم يتأدب معه .

ورأيت بعض القوم يقول : أنا قد ألقيت منجلى بين الحصادين ونمت . ثم كان يتفسح فى أشياء لا تجوز .

فتفكرت فإذا العلم الذى هو معرفة الحقائق ، والنظر فى سير القدماء ، والتأدب بآداب القوم ، ومعرفة الحق وما يجب له ، ليس عند القوم .

وإنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم ، وليس ذلك[٢] العلم النافع .

إنما (العلم)[٣] فهم الأصول ومعرفة المعبود وعظمته ومايستحقه ، والنظر فى سير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والتأدب بآدابهم ، وفهم ما نقل عنهم ، هو العلم النافع الذى يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال

---

(١) فى الحديثة : يعصون الله.

(٢) فى الحديثة : كذلك .

(٢) ساقطة من الحديثة .

ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر ، فبلغنى أنه قال : قد عبدته عبادة ما عبده بها أحد ، والآن قد ضعفت .

فقلت : ما أخوفنى أن تكون كلمته هذه سبباً لرد الكل .

لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئاً ، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات ، فى حق نفسه فعل .

وما مثله إلا كمثل من وقف يكدى ، فلا ينبغى أن يمن على المعطى .

وإنما سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق ، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثل صلة[1] بن أشيم إذا رآه السبع هرب منه وهو يقول إذا انقضى الليل عند صلاته : يارب أجرنى من النار . أو مثلى يسأل الجنة !

وأبلغ من ذا قول عمر : وددت أن أنجو كفافا لا لى ولا علىّ .

وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمة : أترجو لمثلى أن ينجو من النار .

وقول أحمد : لا بعد .

فأنا أحمد الله عز وجل إذا تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم . وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهم ، فإنى قد اطلعت من عظمة الخالق وسير المحققين على ما يخرس لسان الانبساط ، ويمحو النظر إلى كل فعل .

وكيف أنظر إلى فعلى المستحسن ، وهو الذى وهبه لى وأطلعنى على ما خفى عن غيرى .

فهل حصل ذلك بى أو بلطفه ؟ وكيف أشكر توفيق الشكر !

---

(١) ذكر فى الحديثة : محرفا

ثم أى عالم إذا سبر أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه ؟

هذا فى صورة العلم ، فدع معناه .

وأى عابد يسمع بالعباد ولا يجرى فى صورة التعبد ، فدع المعنى .

نسأل الله عز وجل معرفة تعرفنا أقدارنا ، حتى لا يبقى للعجب بمحتقر ماعندنا أثر فى قلوبنا .

ونرغب إليه فى معرفة لعظمته تخرس الألسن أن تنطق بالإدلال .

ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به آفات الأعمال التى بها نزهو حتى تثمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها ، إنه قريب مجيب .

٢٣١ ـ فصل : وأن الآخرة هى دار القرار

سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة . وليس فى الدنيا طيب عيش على الدوام إلا للعارف الذى شغله رضى حبيبه والتزود للرحيل إليه .

فإنه إن وجد راحة فى الدنيا استعان بها على طلب الآخرة .

وإن وجد شدة اغتنم الصبر عليها لثواب الآخرة ، فهو راض بكل ما يجرى عليه .

يرى ذلك من قضاء الخالق ، ويعلم أنه مراده ، كما قال قائلهم :

إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِى سَهَرِى
فَسَلَامُ اللهِ عَلَى وَسَنِى

فأما من طلب حظه فإنه يقلق لفوات مراده ، ويتنغص لبعد ما يشتهى .

فلو افتقر تغير قلبه ، ولو ذل تغير ، وهذا لأنه قائم مع غرضه وهواه

وما أحسن قول الحصرى : إيش علىَّ منى ، وإيش لى فىَّ ؟

وهذا كلام عارف ، لأنه إن كان ينظر إلى حقيقة الملكية[1] ، فعبد يتصرف فيه مولاه .

فاعتراضه لا وجه له ، وإرادته أن يقع غير ما يحب فضول فى البين .

وإن نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم « إن الله اشترى » .

أفيحسن لمن باع شاة أن يغضب على المشترى إذا ذبحها أو يتغير قلبه ؟

والله لو قال المالك سبحانه : إنما خلقتكم ليستدل على وجودى ، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة ، لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً لما قلت وطاعة .

وأى شىء لنا فينا حتى نتكلم .

فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل ، والخلود فى النعيم ، الذى لا ينفد .

لكن طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة وما يبقى لتعب رمل زرود أثر إذا لاح الحرم .

فالصبر الصبر ياأقدام المبتدئين ، لاح المنزل .

والسرور السرور يامتوسطين ، ضربت الخيم .

والفرح الكامل ياعارفين ، قد تلقيتم بالبشائر .

---

(١) فى الحديثة : الملكة .

زالت والله أثقال المعاملات عنكم ، فكانت معرفتكم بالمبتلى حلاوة أعقبت[1] شربة المجاهدة ، فلم يبق فى الفم للمر أثر .

تخايلوا قرب المناجاة ولذة الحضور . ودوار كئوس الرضى عنكم فقد أخذت شمس الدنيا فى الأفول :

مَا بَيْننا له إلاّ تصَرُّ م هذهِ السَّبْع البواقِي
حَتَّى يَطولَ حَديثُنا بِصنوفِ مَا كنّا نلاقِي

٢٣٢ — فصل : الدنيا لم تخلق للتنعيم

تفكرت فى قول شيبان الراعى لسفيان : ياسفيان عدّ منع الله إياك عطاء منه لك ، فإنه لم يمنعك بخلا ، إنما منعك لطفاً ـ فرأيته كلام من قد عرف الحقائق .

فإن الإنسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر وعجزه أصلح له ، لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه ، إما بحفظهن ، أو بالكسب عليهن .

فإن قوى عشقه لهنّ ضاع عمره وانقلب هم الآخرة إلى الاهتمام بهن.

فإن لم يردنه فذاك الهلاك الأكبر .

وإن طلبن نفقة لم يطقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه .

وإن أردن الوطء وهو عاجز فربما أهلكته أو فجرن .

وإن مات معشوقه هلك هو أسفاً .

فالذى يطلب الفائق ، يطلب سكيناً لذبحه وما يعلم .

---

(١) فى الحديثة : تعقبت .

وكذلك إنقاذ قدر القوت فإنه نعمة ، وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

ومتى كثر ، تشتتت الهمم ، فالعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعيم ، فقنع بدفع الوقت على كل حال .

٢٢٣ ـ فصل : افتح عين الفكر فى ضوء العبر

رأيت جماعة من الخلق يتعللون بالأقدار ، فيقول قائلهم : إن وفقت فعلت ، وهذا تعلل بارد ، ودفع للأمر بالراح .

وهو يشير إلى رد أقوال الأنبياء والشرائع جميعها .

فإنه لو قال كافر للرسول : إن وفقنى أسلمت . لم يجبه إلا بضرب العنق .

وهذا جنس قول الناس لعلى رضى الله عنه : ندعوك إلى كتاب الله ، فقال : كلمة حق أريد بها باطل .

وكذلك قول الممتنعين عن الصدقة « أنطعِمُ مَنْ لوْ يَشاء الله أطعمه »(١)

ولعمرى إن التوفيق أصل الفعل ، ولكن التوفيق أمر خفى . والخطاب بالفعل أمر جلى .

فلا ينبغى أن يتشاغل عن الجلى بذكر الخفى .

ومما يقطع هذا الاحتجاج أن يقال لهذا القائل : إن الله سبحانه لم يكلفك شيئاً إلا وعندك أدوات ذلك الفعل ، ولك قدرة عليه .

فإن كانت القدرة عليه معدومة والأدوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف

---

(١) جزء من الآية ٤٧ من سورة يس .

وإن كنت تسعى بتلك الأدوات فى تحصيل غرضك وهواك ، فاسع بها فى إقامة مفروضك .

مثال ذلك : أنك تسافر فى طلب الربح ، وتسأل الحج فلا تفعل ، ويثقل عليك الانتباه بالليل . فلو أردت الخروج إلى العيد انتبهت سحراً .

وتقف فى بعض أغراضك مع صديق تحادثه ساعات ، فإذا وقفت فى الصلاة استعجلت وثقل عليك .

فإياك إياك أن تتعلق بأمر لاحجة لك فيه . ثم من نصيبك ينقص ، ومن حظك يضيع ، فإنما تحرك لك ، وإنما تحرض لنفعك .

فبادر فإنك مبادَر بك .

ومما يزيل كسلك ـ إن تأملته ـ أن تتخايل ثواب المجتهدين وقد فاتك .

ويكفى ذلك فى توبيخ المقصر إن كانت له نفس . فأما الميت الهمة ، فما لجرح بميت إيلام .

كيف بك إذا قمت من قبرك وقد قربت نجائب النجاة لأقوام وتعثرتَ ، وأسرعت أقدام الصالحين على الصراط وتخبطتَ ؟

هيهات ، ذهبت حلاوة البطالة ، وبقيت مرارة الأسف ، ونضب ماء كأس الكسل ، وبقى رسوب الندامة !

بما قدر البقاء فى الدنيا بالإضافة إلى دوام الآخرة ؟

ثم ماقدر عمرك فى الدنيا ونصفه نوم ، وباقيه غفلة ؟

فياخاطباً حور الجنة وهو لايملك فلساً من عزيمة ، افتح عين الفكر فى ضوء العبر ، لعلك تبصر مواقع خطابك .

فإن رأيت تثبيطاً من الباطن فاستغث بعون اللطف ، وتنبه فى الأسحار لعلك تتلمح ركب الأرباح ، وتعلق على قطار المستغفرين ولو خطوات ، وانزل فى رباع المجتهدين ولو منزلا أى منزل .

٢٣٤ ـ فصل : بدع أدخلت على الدين

نظرت فى قول أبى الدرداء رضى الله عنه : ما أعرف شيئاً مما كنا عليه اليوم إلا القبلة .

فقلتُ : واعجباً ، كيف لو رآنا اليوم وما معنا من الشريعة إلا الرسم ؟

والشريعة هى الطريق . وإنما تعرف شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إما بأفعاله أو أقواله .

وسبب الانحراف عن طريقه صلى الله عليه وسلم : إما الجهل بها[1] ، فيجرى الإنسان مع الطبع والعادات ، وربما اتخذ مايضاد الشريعة طريقاً ، وقد كانت الصحابة شاهدته وسمعت منه فقلّ أن ينحرف أحد منهم عن جادته ، إلا أن أبا الدرداء رضى الله عنه رأى بعض الانحراف لميل الطباع فضج فإنه قد يعرف الإنسان الصواب ، غير أن طبعه يميل عنه .

ومازالت الأحاديث المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يقل الإسعاد بها والنظر فيها إلى أن أعرض عنها بالكلية فى زماننا هذا وجهلت إلا النادر ، واتخذت طرائق تضاد الشريعة ، وصارت عادات ، وكانت أسهل عند الخلق من اتباع الشريعة .

وإذا كان عامة من ينسب إلى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة فكيف العوام ؟

---

(١) زاد فى الحديثة : أو الخروج عليها .

ولما أعرض كثير من العلماء عن المنقولات ابتدعوا فى الأصول والفروع .

فالأصوليون تشاغلوا بالكلام وأخذوه من الفلاسفة وعلماء المنطق .

ودخلت أيدى الفروعيين فى ذلك فتشاغلوا بالجدل ، وتركوا الحديث الذى يدور عليه الحكم .

ثم رأى القصاص أن النَّفاق[1] بالنّفاق ، فأقبل قوم منهم على التلبيس بالزهد ، ومقصودهم الدنيا .

ورأى جمهورهم أن القلوب تميل إلى الأغانى ، فأحضروا المطربين من القراء وأنشدوا أشعار الغزل ، وتركوا الاشتغال بالحديث ، ولم يلتفتوا إلى نهى العوام عن الربا والزنا ، وأمرهم بأداء الواجبات .

وصار متكلمهم يقطع المجلس بذكر ليلى والمجنون والطور وموسى وأبى يزيد والحلاج ، والهذيان الذى لامحصول له .

وانفرد أقوام بالتزهد والانقطاع ، فامتنعوا عن عيادة المرضى ، والمشى بين الناس ، وأظهروا التخاشع ، ووضعوا كتباً للرياضات ، والتقلل من الطعام . وصارت الشريعة عندهم كلام أبى يزيد والشبلى والمتصوفة .

ومعلوم أن من سبر الشريعة لم ير فيها من ذاك شيئاً .

وأما الأمراء فجروا مع العادات ، وسموا مايفعلونه من القتل والقطع[2] سياسات لم يعملوا فيها بمقتضى الشريعة ، وتبع الأخير فى ذلك المتقدم .

فأين الشريعة المحمدية ؟

---

(١) أى : رواج السلع .

(٢) فى الحديثة : من التنطع .

ومن أين تعرف مع الإعراض عن المنقولات ؟

نسأل الله عز وجل التوفيق للقيام بالشريعة ، والإعانة على رد البدع إنه قادر .

٢٣٥ - فصل : ليس فى الدنيا حقيقة لذة

كنت أسمع على بن الحسين الواعظ يقول على المنبر : والله لقد بكيت البارحة من يد نفسى .

فبقيت أنا أتفكر وأقول : أى شىء قد فعلت نفس هذا حتى يبكى ؟

هذا رجل متنعم له الجوارى التركيات . وقد بلغنى أنه تزوج فى السر بجملة من النساء ، ولا يطعم إلا الغاية من الدجاج والحلوى .

وله الدخل الكثير ، والمال الوافر ، والجاه العريض والأفضال على الناس .

وقد حصل طرفاً من العلم ، واستعبد كثيراً من العلماء بمعروفه ، وراحته دائمة الندى . فما الذى يبكيه[1] ؟

فتفكرت فعلمت أن النفس لا تقف عند حد بل تروم من اللذات ما لا منتهى له ، وكلما حصل لها غرض برد عندها وطلبت سواه ، فيفنى العمر ، ويضعف البدن ، ويقع النقص ، ويرق الجاه ، ولا يحصل المراد .

وليس فى الدنيا أبله ممن يطلب النهاية فى لذات الدنيا ، وليس فى الدنيا على الحقيقة لذة ، إنما هى راحة من مؤلم .

فالسعيد من إذا حصلت له امرأة أو جارية فمال إليها ومالت إليه ، وعلم

---

(٢) فى الحديثة : يبكيه منها .

سترها ودينها ، أن يعقد الخنصر على صحبتها .

وأكثر أسباب دوام محبتها ألا يطلق بصره ، فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه فى غيرها ، فإن الطمع فى الجديد ينغص الخُلق وينقص المخالطة ، ويستر[1] عيوب الخارج ، فتميل النفس إلى المشاهد الغريب ، ويتكدر العيش مع الحاضر القريب ، كما قال الشاعر :

وَالمرءُ مَا دامَ ذَا عَيْنٍ يقَلِّبُهَا
فِى أعْيُنِ الحور[2] مَوْقُوفٌ على الْخطر
يَسُرُّ مُقْلتَهُ مَا ضَرَّ مهْجَتَهُ
لاَ مَرْحَباً بسُرورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

ثم تصير الثانيةُ كالأولى ، وتطلب النفس ثالثة وليس لهذا آخر ، بل الغض عن المشتهيات ، ويأس النفوس من طلب المستحسنات ، يطيب العيش مع المعاشر .

ومن لم يقبل هذا النصح تعثر فى طرق الهوى وهلك على البارد ، وربما سعى لنفسه فى الهلاك العاجل ، أو فى العار الحاضر ، فإن كثيراً من المستحسنات لسن بصيِّنات ولا يفى التمتع بهن بالعار الحاصل .

ومنهن المبذرات فى المال ، ومنهن المبغضة للزوج وهو يحبها كعابد صنم .

وَأبله النُّبْلهِ الشَّيْخ الذى يطلب صَبيَّةً ... ولعمرى إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا ، كما قال القائل :

---

(١) فى الحديثة : ولا يستر .

(٢) فى الدمشقية : الناس .

« فقلت[1] بنفسى النساء[2] الصغار »

ومتى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل الاستمتاع ، فإذا بلغت أرادت كثرة الجماع ، والشيخ لا يقدر .

فإن حمل على نفسه لم يبلغ مرادها ، وهلك سريعاً .

ولا ينبغى أن يغتر بشهوته الجماع ، فإن شهوته كالفجر الكاذب .

وقد رأينا شيخنا اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتاً .

وكان فى المارستان شاب قد بقى شهرين بالقيام ، فدخلت عليه زوجته فوطئها فانقلب عنها ميتاً .

فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم ، والمنى ، فإذا فرغا ولم تجد ما تعتمد عليه ذهبت .

وإن قنع الشيخ بالاستمتاع من غير وطء فهى لا تقنع فتصير كالعدو له .

فربما غلبها الهوى ففجرت أو احتالت على قتله ، خصوصاً الجوارى اللواتى أغلبهن قد جئن من بلاد الشرك ، ففيهن قسوة القلب .

وقبيح بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء ، فإن اتفق معه صاحبة دين قبل ذلك فليرع لها معاشرتها ، وليتمم نقصه عندها تارة بالإنفاق ، وتارة بحسن الخلق .

---

(١) فى الحديثة : فعلت .

(٢) فى الدمشقية : النشء .

وليزد فى تعريفها أحوال الصالحات والزاهدات ، وليكثر من ذكر القيامة وذم الدنيا ، وليعرّض بذكر محبة العرب ، فإنهم كانوا يعشقون ولا يرون وطء المعشوق ، كما قال قائلهم :

إِنَّمَا الْحُبُّ قُبْلَةٌ
وَغَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ
إنما العشق هكذا
إنْ نكحت الحبُّ فسدْ

فإن قدر أن يشغلها بحمل ، أو ولد عرقلها به ، فاستبقى قوته فى مدة شتغالها بذلك .

فإن وطىء فليصبر عن الإنزال حفظا لقوته وقضاء لحقها .

وقد قيل لبشر : لم لم تتزوج ؟ فقال : على ماذا أغرُّ مسلمة، وقد قال الله عز وجل « ولهنَّ مثلُ الذى عليهنَّ بالمعروف[1] » .

والمسكين من دخل فى أمر لم يتلمح عواقبه قبل الدخول، ورأى حبة الفخ فبادر طالباً لها ناسياً تعرقل الجناح والذبح .

ومجموع ما قد بسطته حفظ البصر عن الإطلاق ، ويأس النفس عن التحصيل ، قنوعاً بالحاصل ، خصوصاً من قد علت سنه ، وعلم أن الصبية عدو له متمنية هلاكه ، وهو يربيها لغيره .

وفى بعض ما ذكرته ما يردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات . نسأل الله

(١) جزء من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

عز وجل توفيقاً من فضله وعملا بمقتضى العقل والشرع ، إنه مجيب قريب .

٢٣٦ - فصل : لا تغتر بالسلامة وانشد الاصلاح

أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة ، وتأميله الإصلاح فيما بعد وليس لهذا الأمل منتهى ، ولا للاغترار حدّ .

فكلما أصبح وأمسى معافى ، زاد الاغترار وطال الأمل .

وأى موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين ، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم ، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك ، هذا والله شأن الحمقى .

حاشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك .

بلى والله إن العاقل ليبادر السلامة ، فيدخر من زمنها للزمن ، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة .

خصوصاً لمن[1] قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل لها ، وأن التدارك بعد الفوت لا يمكن .

وقدّر أن العاصى عفى عنه ، أينال مراتب العمال ؟

ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التى لا موت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم ، بل لذّاتها متصلة من غير انقطاع ، وزيادتها على قدر زيادة الجد هنا ، انتهب هذا الزمان فلم ينم إلا ضرورة ، ولم يغفل عن عمارة لحظة .

ومن رأى أن ذنباً قد مضت لذته وبقيت آفاته دائمة ، كفاه ذلك زاجراً

---

(١) فى الحديثة : من

عن مثله ، خصوصاً الذنوب التى تتصل آثارها مثل أن يزنى بذات زوج ، فتحمل منه فتلحق بالزوج فيمنع الميراث أهله ويأخذه من ليس من أهله ، وتتغير الأنساب والفرش ، ويتصل ذلك أبداً ، وكله شؤم لحظة .

فنسأل الله عز وجل توفيقاً يلهم الرشاد ، ويمنع الفساد ، إنه قريب مجيب .

٢٣٧ - فصل : قياس الغائبات على الحاضر تخليط للعقيدة

تأملت سبب تخليط العقائد ، فإذا هو الميل إلى الحس وقياس الغائبات على الحاضر .

فإن أقواماً غلب عليهم الحس ، فلما لم يشاهدوا الصانع جحدوا وجوده ونسوا أنه قد ظهر بأفعاله . وأن هذه الأفعال لابد لها من فاعل .

فإن العاقل إذا مر على صحراء خالية ثم عاد وفيها غرس وبناء علم أنه لابد من غارس ، إذ الغرس لا يكون بنفسه ولا البناء .

ثم جاء قوم فأثبتوا وجود الصانع ، ثم قاسوه على أحوالهم فشبهوا ، حتى إن قائلهم يقول : فى قوله : ينزل إلى السماء : ينتقل ، ويستدل بأن العرب لاتعرف النزول إلا الانتقال .

وضل خلق كثير فى صفاته كما ضل خلق[1] فى ذاته . فظن أقوام أنه يتأثر حين سمعوا أنه يغضب ويرضى .

ونسوا أن صفته تعالى قديمة لا يحدث منها شىء .

---

(١) فى الحديثة : خلق كثير .

وضل خلق فى أفعاله فأخذوا يعللون فلم يقنعوا[١] بشىء فخرج منهم قوم إلى أن نسبوا فعله إلى ضد الحكمة ، تعالى عن ذلك .

ومن رزق التوفيق فليحضر قلبه لما أقول :

اعلم أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات ، وصفاته ليست كالصفات ، وأفعاله لا تقاس بأفعال الخلق .

أما ذاته سبحانه فإنا لا نعرف ذاتاً إلا أن تكون جسما وذاك يستدعى سابقة تأليف ، وهو منزه عن ذلك ، لأنه المؤلف ، أو[٢] أن يكون جوهراً فالجوهر متحيز ، وله أمثال ، وقد جل عن ذلك ، أو عرضاً ، فالعرض لا يقوم بنفسه بل بغيره ، وقد تعالى على ذلك .

فإذا أثبتنا ذاتاً قديمة خارجة عما يعرف ، فليعلم أن الصفات تابعة لتلك الذات ، فلا يجوز لنا أن نقيس شيئاً منها على ما نفعله ونفهمه ، بل نؤمن به ونسلمه .

وكذلك أفعاله ، فإن أحدنا لو فعل فعلا لا يجتاب به نفعاً ولا يدفع عنه ضراً عدّ عابثاً . وهو سبحانه أوجد الخلق لا لنفع يعود إليه ، ولا لرفع ضر ، إذ المنافع لا تصل إليه ، والمضار لا تتطارق عليه .

فإن قال قائل : إنما خلق الخلق لينفعهم . قلنا : يبطله ، أنه خلق خلقاً منهم[٣] للكفر وعذبهم[٤] .

---

(١) فى الحديثة : فلم يقعوا .
(٢) فى الحديثة : وإما أن يكون .
(٣) فى الحديثة : منهم صنفاً
(٤) فى الحديثة : وعذبه .

ونراه يؤلم الحيوان والأطفال[1] وهو قادر ألا يفعل ذلك .

فإن قال قائل : إنه يثيب على ذلك .

قلنا : وهو قادر أن يثيب بلا هذه الأشياء ، فإن السلطان لو أراد أن يغنى فقيراً فجرحه ثم أغناه ليم على ذلك ، لأنه قادر أن يغنيه بلا جراح .

ثم من يرى ماجرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه من الجوع والقتل مع قدرة الناصر ، ثم يسأل فى أمه [2] فلا يجاب ، ولو كان المسئول بعضنا قلنا لِمَ تمنع مالا يضرك ؟

غير أن الحق سبحانه لاتقاس أفعاله على أفعالنا ولا تعلل .

والذى يوجب علينا التسليم أن حكمته فوق العقل ، فهى تقضى على العقول ، والعقول لا تقضى عليها .

ومن قاس فعله على أفعالنا غلط الغلط الفاحش ؛ وإنما هلكت المعتزلة من هذا الفن .

فإنهم قالوا : كيف يأمر بشىء ويقضى بامتناعه ؟ ولو أن إنسانا دعانا إلى داره ثم أقام من يصد الداخل لعيب .

ولقد صدقوا فيما يتعلق بالشاهد . فأما مَن أفعاله لا تعلل ولا يقاس بشاهد ، فإنا لانصل إلى معرفة حكمته .

فإن قال قائل : فكيف يمكننى أن أقود عقلى إلى ماينافيه ؟

قلنا : لامنافاة ، لأن العقل قد قطع بالدليل الجلى أنه حكيم ، وأنه مالك ،

---

(١) زاد فى الحديثة : ويخلق المضار .

(٢) فى الحديثه . أمته .

والحكيم لا يفعل شيئا إلا لحكمة ، غير أن (تلك)[1] الحكمة، لا يبلغها العقل .

ألا ترى أن الخضر خرق سفينة وقتل شخصاً ، فأنكر عليه موسى عليهما السلام بحكم العلم ، ولم يطلع على حكمة فعله ، فلما أظهر له الحكمة أذعن ؟

ولله المثل الأعلى .

فإياك إياك أن تقيس شيئاً من أفعاله على أفعال الخلق ، أو شيئاً من صفاته أو ذاته سبحانه وتعالى . فإنك إن حفظت هذا سلمت من التشبيه الذى وقع فيه من رأى الاستواء اعتماداً ، والنزول نقلة ، ونجوت من الاعتراض الذى أخرج قوما إلى الكفر حتى طعنوا فى الحكمة .

وأول القوم إبليس . فإنه رأى تقديم الطين على النار ليس بحكمة ، فنسى أنه إنما علم ذلك بزعمه بالفهم الذى وهب له ، والعقل الذى منحه فنسى أن الواهب أعلم « أولَمْ يرَوْا أنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهمْ هوَ أشَدُّ مِنْهمْ قوَّةً[2] » .

ولقد رأيت لابن الرومى اعتراضاً على من يقول بتخليد الكفار فى النار قال : إن ذلك التأبيد مزيد من الانتقام ينكره العقل ، وينبغى أن يقبل كل ما يقوله العقل ، ولا رد بعضه إذ ليس رد بعضه بأولى من رد الكل ، وتخليد الكفار لا غرض فيه للمعذب ولا للمعذب فلا يجوز أن يكون .

فقلت : العجب من هذا الذى يدعى وجود العقل ولا عقل عنده . وأول ما أقول له : أصحَّ عندك الخبر عن الخالق سبحانه أنه أخبر بخلود أهل النار أم لم يصح ؟

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) جزء من الآية ١٥ من سورة فصلت .

فإن كان ما صح عنه فالكلام إذن فى إثبات النبوة وصحة القرآن .

فما وجه ذكر الفرع مع جحد الأصل ؟

وإن قال : قد ثبت ، عندى فواجب عليه أن يتمحل لإقامة العذر ، لا أن يقف فى وجه المعارضة .

وإنما ينكر هذا من يأخذ الأمر من الشاهد ، وقد بينا أن ذات الحق لا كالذوات ، وأن صفته لا كالصفات ، وأن أفعاله لاتعلل .

ولو تلمح شيئاً من التعليل لخلود الكفار لبانَ ، إذ من الجائز أن يكون دوام تعذيبهم لإظهار صدق الوعيد . فإنه قال : من كفر بى خلدته فى العذاب ولا جناية كالكفر ، ولا عقوبة كدوام الإحراق ، فهو يدوم ليظهر صدق الوعيد[1] .

ومن الجائز أن يكون ذلك لتتمة تنعيم المؤمنين فإنهم أعداء الكفار . وقد قال سبحانه « ويشْفِ صدور قومٍ مؤمنين[2] » .

وكم من قلق فى صدر ، وحنق على أبى جهل فيما فعل ، وكم من غم فى قلب عمار وأمه سمية وغيرهم من أفعال الكفار بهم . فدوام عذابهم شفاء لقلوب أهل الإيمان .

ومن الجائز أن يدوم العذاب لدوام الاعتراض وذكر المعذب بما لا يحسن فكلما زاد عذابهم زاد كفرهم واعتراضهم فهم يعذبون لذلك .

---

(١) فى الدمشقية : الوعد . وهو خطأ .

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة التوبة .

ودليل كفرهم « وَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ[1] » فإذن كفرهم مازال ، ومعرفتهم به ما حصلت ، والشركامن فى البواطن ، وعلى ذلك يقع التعذيب « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ[2] » .

٢٣٨ - فصل : الرضا بتدبير الله

ينبغى للمؤمن بالله سبحانه إذا نظر فى الفصل الذى قد تقدم هذا ألا يعترض على الله سبحانه فى شىء لا فى باطنه ولا فى ظاهره ، ولا يطلب تعليلات أفعاله كلها .

فإن المتكلمين أعرضوا عن السنن وتكلموا بآرائهم ، فما صفى لهم شرب ، بدليل اختلافهم .

وكذلك إضمار[3] القياس ؛ فإنهم لما أعملوه جاءت أحاديث تعكر عليهم .

والصواب التعليل لما يمكن ، والتسليم لما يخفى .

وكذلك سؤال الحق سبحانه، فإذا دعاه المؤمن ولم ير إجابة سلم وفوض وتأول للمنع .

فيقول : ربما يكون المنع أصلح ، وربما يكون لأجل ذنوبى ، وربما يكون التأخير أولى ، وربما لم يكن هذا مصلحة .

وإذا لم يجد تأويلا لم يختلج فى باطنه نوع اعتراض ، بل يرى أنه قد تعبد بالدعاء فإن أنعم عليه فبفضل ، وإن لم يجب فالمالك يفعل مايشاء .

---

(١) جزء من الآية ١٨ من سورة المجادلة .

(٢) جزء من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

(٣) فى الحديثة : إضمارهم .

على أن أكثر السؤال إنما يقع فى طلب أغراض الدنيا التى إذا ردت كان أصلح .

فليكن همّ العاقل فى إقامة حق الحق والرضى بتدبيره وإن أساء .

فمتى أقبلتَ عليه أقبل على إصلاح شأنك .

وإذا عرفت أنه كريم فلذ به ولا تسأل .

ومتى أقبلت على طاعاته فمحال أن يجود صانع وينصح فى العمل ثم لا يعطى الأجرة .

٢٣٩ ـ فصل : الجنة ودرجاتها

والله إنى لأتخايل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة تطرأ بل صحة دائمة وأغراض متصلة لا يعتورها منغص ، فى نعيم متجدد فى كل لحظة ، إلى زيادة لا تتناهى . فأطيش ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك ، لولا أن الشرع قد ضمنه .

ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدر الاجتهاد ههنا .

فواعجباً من مضيع لحظة فيها .

فتسبيحة تغرس له فى الجنة نخلة أكلها دائم وظلها .

فيا أيها الخائف من فوت ذلك شجع قلبك بالرجاء .

ويا أيها المنزعج لذكر الموت تلمح ما بعد مرارة الشربة من العافية .

فإنه من ساعة خروج الروح ، لا بل قبل خروجها تنكشف المنازل لأصحابها فيهون سير المجذوب للذة المنتقل إليه .

ثم الأرواح فى حواصل طير تعلق فى أشجار الجنة .

فكل الآفات والمخافات فى نهار الأجل ، وقد اصفرت شمس العمر . فالبدار البدار قبل الغروب ولا معين يرافق على تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب .

فإذا فرغ ذلك[1] المجلس ، فالنظر فى سير المجدّين فإنه يعود مستجلباً للفكر منها للفضائل ، والتوفيق من وراء ذلك .

ومتى أرادك لشىء هيأك له .

فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر إلا (من)[2] العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل .

والعزلة عن الشر حمية ، والحمية سبب العافية .

٢٤٠ - فصل : لايجتمع حب الدنيا وحب الآخرة

رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله عز وجل ، والإقبال على الدنيا .

وكلما فات منها شىء وقع الغمّ لفواته .

فأما من رزق معرفة الله تعالى استراح لأنه يستغنى بالرضا بالقضاء ، فمهما قدّر له رضى .

---

(١) ساقطة من الحديثة.

(٢) ساقطة من الحديثة .

وإن دعا فلم ير أثر الإجابة لم يختلج فى قلبه اعتراض ، لأنه مملوك مدبر فتكون همته فى خدمة الخالق .

ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال ، ولا مخالطة الخلق ولا الالتذاذ بالشهوات .

لأنه إما أن يكون مقصراً فى المعرفة فهو مقبل على التعبد المحض ، يزهد فى الفانى لينال الباقى .

وإما أن يكون له ذوق فى المعرفة ، فإنه مشغول عن الكل بصاحب الكل .

فتراه متأدباً فى الخلوة به ، مستأنساً بمناجاته ، مستوحشاً من مخالطة خلقه راضياً بما يقدر له .

فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه ، لا يريد سواه ، ولا يهتم بغيره .

فأما من لم يرزق هذه الأشياء ، فإنه لا يزال فى تنغيص متكدر العيش ، لأن الذى يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه ، فيبقى أبداً فى الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة .

نسأل الله عز وجل أن يستصلحنا له ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به .

٢٤١ ـ فصل : ما العيش إلا فى الجنة

تفكرت فى نفسى فرأيتنى مفلساً من كل شىء !.

إن اعتمدت على الزوجة لم تكن كما أريد . إن حسنت صورتها لم تكمل أخلاقها ، وإن تمت أخلاقها كانت مريدة لغرضها لا لى . ولعلها تنتظر رحيلى .

وإن اعتمدت على الولد فكذلك ، والخادم والمريد لى كذلك ، فإن لم يكن لهما منى فائدة لم يريدانى .

وأما الصديق فليس ثمّ ، وأخ فى الله كعنقاء مغرب ، ومعارف يفتقدون أهل الخير ، ويعتقدون فيهم قد عدموا ، وبقيت وحدى .

وعدت إلى نفسى — وهى لا تصفو إلىّ أيضاً ولا تقيم على حالة سليمة — فلم يبق إلا الخالق سبحانه ، فرأيت أنى إن اعتمدت على إنعامه فما آمن ذلك البلاء ، وإن رجوت عفوه فما آمن عقوبته ، فوا أسفا لا طمأنينة ولا قرار .

واقلقى من قلق ، واحرقى من حرق .

بالله ما العيش إلا فى الجنة ، حيث يقع اليقين بالرضى ، والمعاشرة لمن لا يخون ولا يؤذى . فأما الدنيا فما هى دار ذاك .

٢٤٢ ـ فصل : لا تثق بمودة لا أصل لها .

ينبغى لمن صحب سلطاناً أو محتشَماً أن يكون ظاهره معه وباطنه سواء ؛ فإنه قد يدس إليه من يخبره ، فربما افتضح فى الابتلاء .

وقد كان جماعة من الملوك يقصدون تقريب المنادم ، ويجعلون له حجرة فى دورهم ، فإذا أرادوا أن يختصوه اختبروه باطناً وذاك لا يدرى ، فيظهر منه ما لا يصلح فيطرد .

ولقد امتحن أبرَويز[1] رجلا من خاصته ، فدس إليه جارية معها ألطاف ، وأمرها ألا تقعد عنده فحملتها .

---

(١) كسرى أبرويز ملك فارس .

ثم أنفذها مرة أخرى وأمرها أن تقعد بعد التسليم هنيهة ففعلت ، فلاحظها الرجل .

ثم بعثها (مرة)[1] ثالثة وأمرها أن تطيل القعود عنده وتحدثه ، فأطالت الحديث معه ، فأبدى لها شيئاً من الميل إليها ، فقالت : أخاف أن يطلع علينا ، ولكن دعني أدبر في هذا .

فذهبت فأخبرت الملك بذلك ، فوجه غيرها من خواص جواريه بمثل ذلك ، فلما جاءته قال : ما فعلت فلانة ؟ قالت : مريضة ، فاربدّ لونه .

ثم فعلت الجارية الثانية مثل ما فعلت الأولى ، فقالت له : إن الملك يمضي إلى بستانه فيقيم هناك .

فإن أرادك (على)[2] أن تمضي معه فأظهر أنك عليل .

فإن خيرك بين الانصراف إلى دور نسائك ، أو المقام هنا ، فاختر المقام ههنا ، وأخبره أنك لا تقدر على الحركة .

فإن أجابك إلى ذلك جئت إليك كل ليلة مادام الملك غائباً ، فسكن إلى قولها ، ثم مضت وأخبرت الملك بذلك .

فلما كان بعد ثلاث ، استدعاه الملك فقال : إني مريض .

فعاد الرسول فأخبره فتبسم ، وقال : هذا أول الشر .

فوجه إليه محفة حمل فيها إليه ، فلما بصر به أبرويز قال : والمحفة الشر الثاني .

فرأى العصابة على رأسه . قال : والعصابة الشر الثالث .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) ساقطة من الحديث .

فقال له الملك : أيهما أحب إليك ، الانصراف إلى نسائك ليمرضنّك أو المقام ههنا إلى وقت رجوعى ؟ قال : المقام ههنا أرفق لى لقلة الحركة ، فتبسم وقال : حركتك ههنا إن تركت أكثر من حركتك إلى منزلك .

ثم أمر له بعصا الزناة التى كان يوسم بها من زنا .

فأيقن الرجل بالأمر ،وأمر أن يكتب ما كان من أمره حرفا حرفا فيقرأ على الناس حرفا حرفا إذا حضروا ، وأن ينفى إلى أقصى المملكة ، وتجعل العصا على رأس رمح يكون معه حيث كان ، ليحذر منه من لا يعرفه .

فلما نفى أخذ من بعض الموكلين مُدْية فجبّ بها ذكره وقال : [1] ومات من ساعته .

قلت : وقد كان جماعة من الأمراء يتنكرون ويسألون العوام عن سيرتهم، فيتكلم العامى بما لا يصلح فيضبطونه وربما بعثوا دسيساً عليه .

ورب كلمات قالها مسترسل فبلغها فضولى فأهلكت صاحبها .

ورأى عمر بن عبد العزيز رجلا من العمال كثير الصلاة ، فدس عليه من قال له : إن أخذت لك الولاية الفلانية فما تعطينى ؟ قال : أعطيتك كذا وكذا ، قال له عمر : غررتنا بصلاتك .

وقد بلّغت أن رجلا كلم امرأة فأجابته فاستدعته إلى دارها فلما دخل أقامت على قتله .

فقد ينجلى من هذه الحكاية أنه لا ينبغى أن يسكن إلى قول امرأة أو بعل يجوز أنه يكون جاسوساً ومختبراً .

---

(١) زاد فى الحديثة : وقال من أطاع عضواً صغيراً أفسد عليه جميع أعضائه.

وكذلك لا يظهر ما ينبغي إخفاؤه من مال أو مذهب ، أو سب رجل ، فربما كان له في الحاضرين قريب .

ولا يوثق بمودة لا أصل لها ، فربما كانت تحتها آفة تقصده .

وليحذر من كل أمر يحتمل . ورب كلمة نقلها صديق إلى صديق فتحدث بها من لا يقصد أذى القائل فبُلغت فتأذى .

ورب مُظهر المحبة مبالغ حتى يستمكن من مراده .

فالحذرَ الحذرَ من الطمأنينة إلى أحد ، خصوصاً من عدو آذيته أو قتلت له قريباً .

فربما أظهر الجميل شبكة لاصطيادك كحديث الزباء .

٢٤٣ — فصل : الحرص والامل آفتان

رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد حرصها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : يشيب ابن آدم وتشب منه خصلتان : الحرص والأمل .

ورأيت أكثر أسباب ذلك فراغ اليد من الدنيا ، وكثرة العائلة ، وقوة الحاجة .

فيحتاج الإنسان إلى التعرض بما يشين العرض ليحصل الغرَض .

فقلت: إلهي أبَعدَ رؤية جبال عرفة أضِل ؟

أبعد مشارفة الحرم تأخذني أعراب البادية ؟

واأسفا أيطلع فجر النحر وما وصلت إلى عرفات ؟

ويا ضياع سفر العمر ، وما حصل المقصود .

قدْ كُنْتُ أرْجُوكَ لِنَيْلِ المُنَى
والْيَوْمَ لاَ أَطْلُبُ إلاّ الرِّضَى

ثم قال : يانفس مالك ملجأ إلا اللجأ واستغاثة الغريق .

فإن رُحمت وإلا فكم من حسرة تحت التراب .

٢٤٤ ـ فصل : اكبح جماح الرغبة

شكا لى بعض الأشياخ فقال : قد علت سنى وضعفت قوتى ، ونفسى تطلب منى شراء الجوارى الصغار .

ومعلوم أنهن يردن النكاح وليس فىّ .

ولا تقنع منى النفس بربة البيت إذ قد كبرت .

فقلت له : عندى جوابان : أحدهما الجواب العامى ، وهو أن أقول : ينبغى أن تشتغل بذكر الموت وما قد توجهت إليه ، وتحذر من اشتراء جارية لا تقدر على إيفاء حقها فإنها تبغضك ، فإن أجهدت استعجلت التلف . وإن استبقيت قوتك غضبت هى ، على أنها لا تريد شيخاً كيف كان .

قد أنشدنا على بن عبيدالله ، قال أنشدنا محمد التميمى :

أفِقْ يافُؤادِى مِنْ غَرامِكَ وَاسْتَمِعْ
مَقالَةَ محزونٍ عَلَيْكَ شفيقُ
علقتَ فَتاةً قَلْبُها متعلّقٌ
بِغَيْرِكَ فاسْتَوثقتَ غيرَ وَثِيقِ

وَأَصْبَحْتَ مَوْثُوقاً وَرَاحَتْ طَلِيقَةً
فَكَمْ بَيْنَ مَوْثُوقٍ وَبَيْنَ طَلِيق

فاعلم أنها تعد عليك الأيام ، وتطلب منك فضل المال لتستعد لغيرك .

وربما قصدت حتفك ، فاحذر ، والسلامة فى الترك ، والاقتناع بما يدفع الزمان .

والجواب الثانى فإنى أقول : لا يخلو أن تكون قادراً على الوطء فى وقت أو لا تكون .

فإن كنت لا تقدر فالأولى مصابرة الترك للكل . وإن كان يمكن الحازم أن يدارى المرأة بالنفقة وطيب الخلق إلا أنه يخاطر .

وإن كنت تقدر فى أوقات على ذلك ، ورأيت من نفسك توقاً شديداً ، فعليك بالمراهقات فإنهن ما عرفن النكاح ، وما طلبن بالوطء ، واغمرهن بالإنفاق وحسن الخلق مع الاحتياط عليهن ، والمنع من مخالطة النسوة .

وإذا اتفق وطء فتصبر عن الإنزال ريثما تقضى المرأة حاجتها .

واعتمد وعظها وتذكيرها بالآخرة ، واذكر لها حكايات العشاق من غير نكاح ، وقبح صورة الفعل ، ولفت قلبها إلى ذكر الصالحين ، ولا تخل نفسك من الطيب والتزين والكياسة والمداراة والإنفاق الواسع .

فهذا ربما حرك الناقة للسير مع خطر السلامة .

٢٢٥ - فصل : الاحتراز من جائز الوقوع

أبله الناس من عمل على الحال الحاضرة ، ولم يتصور تغيرها ولا وقوع ما يجوز وقوعه .

مثاله أن يغتر بدولة فيعمل بمقتضى ملكه فإذا تغيرت هلك .

وربما عادى خلقاً اغتراراً بأنه متسلط أو أنه صاحب سلطان ، فإذا تغيرت حاله أكل كفه[1] ندماً عند فوات التدارك .

وكذلك من له مال يبذره سكوناً إلى وجود المال ، وينسى حاله عند العدم .

ومن[2] يتناول الشهوات ، ويكثر من المآكل والمشارب والنكاح ثقة بعافيته ، وينسى ما يعقب ذلك من الأمراض والآفات .

ومن أظرف الأحوال أن يحب جاريته فيعتقها ويهب لها ، أو امرأة فيسكن اليها ويهب لها فتتمكن ، ولا تمضى الأيام حتى يسلوها أو يطلب غيرها ولا يجد طريقاً للخلاص .

فإن تخلص منها أخذت ما غنمت منه فلقى من الغيظ أضعاف ما يلتذ به

فلا ينبغى أن يوثق بامرأة ولا بمحبة إنسان ، فإنه قد يحب امرأة ويظن أنه لا يسلوها أبداً فيسترسل إليها والسلو يحدث .

وربما أحب غيرها فينسى الأولى فيصعب عليه الخلاص من الأولى .

فالعاقل لا يدخل فى شىء حتى يهيىء الخروج منه ، فإن الأشياء لا تثبت، والمحبة لا تدوم ، والتغير مقرون بكل حال .

وكذلك يعطى ماله ولده ثم يبقى كلاً عليه فيتمنى الولد هلاكه ، وربما علّ به فى النفقة .

---

(١) فى الحديثة : كفيه .

(٢) فى الحديثة : وكذا من يتناول .

وكذلك قد يثق بالصديق فيبث أسراره إليه ، فربما أظهر ذلك فكان منها ما يوجب هلاكه .

وكذلك يغتر الإنسان بالسلامة وينسى طروق الموت فيأتيه بغتة فيبهته وقد فات الاستدراك ولم يبق إلا الندم .

فالعاقل من كانت عينه مراقبة للعواقب ، محترزة بما يجوز وقوعه ، عاملة بالاحتياط فى كل حال، حافظة المال والسر [1] ، غير واثقة بزوجة ولا ولد ولا صديق ، متأهبة للرحيل ، متهيئة للنقلة . هذه صفة أهل الحزم .

٢٤٦ ـ فصل : لا تبحثوا فى ذات الله

من أعجب الأمور طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله عزّ وجل وصفاته وأفعاله ، وهيهات ، ليس إلا المعرفة بالجملة .

ولقد أوغل المتكلمون فما وقعوا بشىء ، فرجع عقلاؤهم إلى التسليم .

وكذلك أصحاب الرأى ، مالوا إلى القياس ، فإذا أشياء كثيرة بعكس مرادهم ، فلم يجدوا ملجأ إلا التسليم ، فسموا ما خالفهم استحساناً .

فالفقيه من عال بما يمكن ، فإذا عجز استطرح للتسليم ، هذا شأن العبيد

فأما من يقول : لم فعل كذا ، وما معنى كذا ، فإنه يطلب الاطلاع على سر الملك ، وما يجد إلى ذلك سبيلا لوجهين :

أحدهما : أن الله تعالى ستر كثيراً من حكمه عن الخلق .

والثانى : أنه ليس فى قوى البشر إدراك حِكم الله تعالى كلها ، فلا يبقى مع

---

(١) فى الدمشقية : السر والمال .

المعترض سوى الاعتراض المخرج إلى الكفر « فليمدد بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ[1] » .

والمعنى من رضى بأفعالى وإلا فليخنق نفسه فما أفعل إلا ما أريد .

٢٤٧ ـ فصل : من خالط أوذى

من رزقه الله تعالى العلم ، والنظر فى سير السلف ، رأى أن هذا العالم ظلمة وجمهور العالم على غير الجادة ، والمخالطة لهم تضر ولا تنفع .

فالعجب لمن يترخص فى المخالطة ، وهو يعلم أن الطبع (لص)[2] يسرق من المخالطة .

وإنما ينبغى أن تقع المخالطة للأرفع والأعلى فى العلم وللعمل ليستفاد منه فأما مخالطة الدون فإنها تؤذى ، إلا أن يكون عامياً يقبل من معلمه ، فينبغى أن يخالط بالاحتراز .

وفى هذا الزمان إن وقعت المخالطة للعوام[3] فهم ظلمة مستحكمة ، فإذا ابتلى العالم بمخالطتهم فليشمر ثياب الحذر ، ولتكن مجالسته إياهم للتذكرة والتأديب فحسب .

وإن وقعت المخالطة للعلماء فأكثرهم على غير الجادة ، مقصودهم صورة العلم لا العمل به . فلا تكاد ترى من تذاكره أمر الآخرة ، إنما شغلهم الغيبة ، وقصد الغلبة ، واجتلاب الدنيا .

---

(١) جزء من الآية ١٥ من سورة الحج .
(٢) ساقطة من الحديثة .
(٣) زاد فى الحديثة : عكرت الفؤاد .

ثم فيهم من الحسد للنظراء مالا يوصف .

وإن وقعت المخالطة للأمراء ، فذاك تعرض لفساد الدين .

لأنه إن تولى لهم ولاية دنيوية فالظلم من ضروراتها ، لغلبة العادة عليهم والإعراض عن الشرع .

وإن كانت ولاية دينية كالقضاء ، فإنهم يأمرونه بأشياء لا يكاد يمكنه المراجعة فيها ، ولو راجع لم يقبلوا .

وأكثر القوم يخاف على منصبه ، فيفعل ما أمر به وإن لم يجبر .

وربما رأيت فى هذا الزمان أقواماً يبذلون المال ليكونوا قضاة ، أو شهوداً ومقصودهم الرفعة .

ثم أكثر الشهود يشهد على من لا يعرفه ، ويقول إنه معروف ويدرى أنه كذاب ، وإنما عرف لأجل حبة يعطاها .

وكم قد وقعت شهادة على غير المشهود عليه ، وعلى مكره .

وإن وقعت المخالطة للمتزهدين فأكثرهم على غير الجادة ، وعلى خلاف العلم ، قد جعلوا لأنفسهم نواميس ، فلا يتلسمون ولا يخرجون إلى سوق ، ويظهرون التخشع الزائد وكله نفاق .

وفيهم من يلبس الصوف تحت ثيابه ، وربما لوح بكمه ليرى . وقد حكى عن طاهر بن الحسين أنه قال لبعض المتزهدين : مذكم قدمت العراق ؟ قال : دخلتها منذ عشرين سنة ، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم .

قال : سألناك[1] مسألة فأجبت : عن اثنتين .

---

(١) فى الحديثة : عن مسألة .

وبلت(١) الصوفية أربطة فهى خوارج على المساجد .

وهى دكاكين كريهة يقعد فيها الكسالى عن الكسب مع القدرة عليه ، ويتعرضون بالقعود للصدقات ، ولأحوال الظلمة .

وقد أراحوا أنفسهم من إعادة العلم .

وأكثرهم لا يصلى نافلة ، ولا يقوم الليل ، بل يهمهم المأكول والمشروب والرقص .

وقد اتخذوا سمتاً تخالف الشريعة فهم يلبسون المرقع لا من فقر . وهذا قبيح . لأنه ليس عندهم من أمارات الزهد سوى الملبس الدون ، فثيابهم تصيح نحن زهاد ، وباقى أفعالهم المستورة تفضحهم إذا اطلع عليها .

فالمطبخ دائر ، والحمام والحلوى كثيرة ، والطيب والدعة ، والكبر حاصل بذلك الزى(٢) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمالك بن فضيلة(٣) وقد رآه أشعث الهيئة أما لك مال؟ قال: بلى من كل المال آتانى الله عز وجل! قال : فإن الله عز وجل إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن ترى عليه .

ومن أخلاقهم تنفير الناس عن العلم(٤) ، ويزعمون ألا حاجة إلى الوسائط وإنما هو قلب ورب .

---

(١) فى الحديثة : وبيوت .

(٢) فى الدمشقية : الكبر .

(٣) فى الحديثة : ابن فضلة .

(٤) فى الحديثة : من العلم .

ولهم من الأقوال والأفعال المنكرات ما قد ذكرته فى تلبيس إبليس .

آه لو كان للزمان عمر لا حتاج كل يوم إلى مائة درة ، لا بل كان يستعمل السيف فى هؤلاء الخوارج .

وهم داخل البلد لا قدرة للعلماء عليهم ، إذ قولهم فيهم لا يقبل .

فمن رزقه الله سبحانه النظر فى سير السلف ، ووفقه للاقتداء بهم ، آثر أن يعتزل عن أكثر الخلق ، ولا يخالطهم ، فإنه من خالط[1] أوذى .

ومن دارى[2] يسلم من المداهنة . فالنصح اليوم مردود .

٢٤٨ ـ فصل : لا تبادر بالمخاصمة

من البله أن تبادر عدواً أو حسوداً بالمخاصمة .

وإنما ينبغى إن عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما .

إن اعتذر قبلتَ ، وإن أخذ فى الخصومة صفحتَ ، وأريته أن الأمر قريب .

ثم تبطن الحذر منه ، فلا تثق به فى حال، وتتجافاه باطناً مع إظهار المخالطة فى الظاهر .

فإذا أردت أن تؤذيه فأول ما تؤذيه به إصلاحك لنفسك واجتهادك فى علاج ما يعرفك به .

ومن أعظم العقوبة له العفو عنه لله .

وإن بالغ فى السب فبالغ فى الصفح تنب عنك العوام فى شتمه ، ويحمدك العلماء على حلمك .

---

(١) فى الحديثة : خالطهم .

(٢) فى الحديثة : داراهم .

وما تؤذيه به من ذلك، وتورثه به الكمد ظاهراً، وغيره فى الباطن أضعاف وخير مما تؤذيه به من كلمة إذا قلتها له سمعت أضعافها.

ثم بالخصومة تعلمه أنك عدوه فيأخذ الحذر ويبسط اللسان، وبالصفح يجهل ما فى باطنك، فيمكنك حينئذ أن تشتفى منه. أما أن تلقاه بما يؤذى دينك فيكون هو الذى قد اشتفى منك.

وما ظفر قط من ظفر به الاثم بل الصفح الجميل.

وإنما يقع هذا ممن يرى أن تسليطه عليه إما عقوبة لذنب أو لرفع درجة بالابتلاء فهو لا يرى الخصم وإنما يرى القدرة.

٢٤٩ - فصل: الاستعارة من حسن المشاورة

إذا وقعت فى محنة يصعب الخلاص منها، فليس لك إلا الدعاء واللجأ (إلى الله) بعد أن تقدم التوبة من الذنوب.

فإن الزلل يوجب العقوبة فإذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب.

فإذا تبت[1] ودعوتَ ولم تر للاجابة أثراً فتفقد أمرك، فربما كانت التوبة ما صَحّت، فصححها ثم ادع ولا تملّ من الدعاء.

فربما كانت المصلحة فى تأخير الإجابة، وربما لم تكن المصلحة فى الإجابة فأنت تثاب وتجاب إلى منافعك.

---

(١) فى الحديثة: تبت.

ومن منافعك ألا تعطى ما طلبت بل تعوض غيره .

فإذا جاء إبليس فقال : كم تدعوه ولا ترى إجابة ؟

فقل : أنا أتعبد بالدعاء ، وأنا موقن أن الجواب حاصل .

غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح (على مناسب[1]) ، ولو لم يحصل حصل التعبد والذل .

فإياك أن تسأل شيئاً إلا وتقرنه بسؤال الخيرة .

فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سبباً للهلاك .

وإذا كنت قد أمرت بالمشاورة فى أمور الدنيا (لجليسك)[2] ليبين لك فى بعض الآراء ما يعجز رأيك[3] وترى أن ما وقع لك لا يصلح فكيف لا تسأل الخير ربك وهو أعلم بالمصالح ؟ والاستخارة من حسن المشاورة .

٢٥٠ ـ فصل : الناس بين العلم والجهل

نظرت إلى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل .

فأما الجهال فانقسموا ، فمنهم سلطان قد رُبِّيَ فى الجهل ولبس الحرير وشرب الخمور وظلم الناس ، وله عمال على مثل حاله ، فهؤلاء بمعزل عن الخير بالجملة .

ومنهم تجار ، همتهم الاكتساب ، وجمع الأموال ، وأكثرهم لا يؤدى الزكاة ، ولا يتحاشى من الربا ، فهؤلاء فى صور الناس .

---

(١) سقطت من الحديثة : وزاد بدلها : فهو يجىء فى وقت مناسب .

(٢) فى الحديثة : فى أمور الدنيا ليبين ، فسقطت (لجليسك) .

(٣) فى الحديثة : ما يعجز رأيك عنه .

ومنهم أرباب معاش ، يطففون المكيال ، ويخسرون الميزان ، ويبخسون الناس ، ويتعاملون بالربا وهم فى الأسواق طول النهار لا همة لهم إلا ماهم فيه ، فإذا جاء الليل وقعوا نياماً كالسكارى ، فهمة أحدهم ما يأكل ويلتذ به ، وليس عندهم من الصلاة خبر ، فإن صلى أحدهم نقرها أو جمع بينها ، فهؤلاء فى عداد البهائم .

ومن الناس ذو رذالة فى جميع أحوالهم ، فهذا كناس ، وهذا زبال ، وهذا نخال ، وهذا يكسح الحش ، فهؤلاء أرذل القوم .

ومنهم من يطلب اللذات ولا يساعده المعاش فيخرج إلى قطع الطريق ، وهؤلاء أحمق الجماعة ، إذ لا عيش لهم .

فإن التذوا لحظة بأكل أو شرب فحركت الريح قصبة هربوا خوفاً من السلطان ، وما أقل بقاءهم ، ثم القتل والصلب مع إثم الآخرة .

ومنهم أرباب قرى قد عمهم الجهل ، وأكثرهم لا يتحاشى من نجاسة ، فهم فى زمرة البقر .

ورأيت النساء ينقسمن أيضاً ، فمنهن المستحسنة التى تبغى .

ومنهن الخائنة لزوجها فى ماله .

ومنهن من لا تصلى ولا تعرف شيئاً من الدين ، فؤلاء حشو النار .

فإذا سمعن موعظة فإنها كأمرت على حجر .

وإذا قرىء عندهن القرآن ، فكأنهن يسمعن السمر .

وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذى نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل ، ويميل إلى الفسق ظناً أن العلم يدفع عنه ، وإنما هو حجة عليه .

وأما المتوسطون والمشهورون ، فأكثرهم يغشى السلاطين ويسكت عن إنكار المنكر .

وقليل من العلماء من تسلم له نيته ، ويحسن قصده .

فمن أراد الله به خيراً رزقه حسن القصد فى طلب العلم ، فهو يحصله لينتفع به وينفع ، ولا يبالى بعمل مما يدله عليه العلم .

فتراه يتجافى أرباب الدنيا ، ويحذر مخالطة العوام ، ويقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة فى الدنيا فى تحصيل الكثير .

ويؤثر العزلة ، فليس مذكراً للآخرة مثلها .

وليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين، فإنه يحسّن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر .

وربما أراد أن ينكر فلا يصح له ، فان عَدِمَ القناعة وغلبت نفسه فى طلب فضول الدنيا سلم عليه[1] لأنه يتعرض بأربابها .

وإن الإنسان ليمشى فى السوق ساعة ، فينسى بما يرى ، ما يعلم .

فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء والطمع فى أموالهم .

فأما الوحدة فإنها سبب رجوع القلب وجمع الهم ، والنظر فى العواقب والتهيؤ للرحيل وتحصيل الزاد .

فإذا انضمت إليها القناعة ، جلبت الأحوال المستحسنة .

---

(١) فى الحديثة : فهيهات أن يسلم منها .

ولا تحسن اليوم المجالسة إلا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف .

فأما مجالسة العلماء فخاطرة ، إذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة فى الأغلب .

ومجالسة العوام فتنة للدين ، إلا أن يحترز فى مجالسهم ويمنعهم من القول فيقول هو ويكلفهم السماع .

ثم يستوفز للبعد عنهم، ولا يمكن الانقطاع الكلى إلا بقطع الطمع . ولا ينقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير أو يتجر[1] بتجارة ، أو أن يكون له عقار يستغله .

فإنه متى احتاج تشتت الهم ، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم وتوفر على ذكر الآخرة فذاك الذى ينفع وينتفع به . والله الموفق .

٢٥١ ـ فصل : بع دنياك بآخرتك .

من تأمل بعين الفكر دوام البقاء فى الجنة فى صفاء بلا كدر ، ولذات بلا انقطاع ، وبلوغ كل مطلوب للنفس ، والزيادة مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر، من غير تغيير ولا زوال ، إذ لا يقال ألف ألف سنة ، ولا مائة ألف ألف ، بل ولو أن الإنسان عد الألوف ألوف السنين لا ينقضى عدده وكان له نهاية ، وبقاء[2] الآخرة لا نفاد له .

إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر .

وما مقدار عمر غايته مائة سنة منها خمسة عشر صبوة وجهل ، وثلاثون بعد السبعين ـ إن حصلت ـ ضعف وعجز .

---

(١) فى الحديثة : أو يتميز .

(٢) فى الحديثة : ولا كان له نهاية فبقاء .

والتوسط نصفه نوم ، وبعضه زمان أكل وشرب وكسب ، والمتنخل منه للعبادات يسير .

أفلا يشترى ذلك الدائم بهذا القليل ؟ إن الإعراض عن الشروع فى هذا البيع والشراء ، لغبن فاحش فى العقل ، وخلل داخل فى الإيمان بالوعد .

(فإن من يدرى كيف يعقد البيع بالعلم)[1] هو الذى يدل على الطريق ويعرّف ما يصلح لها ويحذر من قطاعها .

ولقد دخل إبليس على طائفة من المتزهدين بآفات أعظمها إنه صرفهم عن العلم . فكأنه شرع فى إطفاء المصباح ليسرق فى الظلمة ، حتى إنه أخذ قوماً من كبار العلماء فسلك بهم من ذلك ما ينهى عنه العلم .

فرأيت أبا حامد الطوسى يحكى عن نفسه فى بعض مصنفاته قال: شاورت متبوعاً مقدماً من الصوفية فى المواظبة على تلاوة القرآن فمنعنى منه ، وقال : السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية ، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم ، بل تصير إلى حالة يستوى عندك وجود ذلك وعدمه . ثم تخلو بنفسك فى زاوية ، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغ القلب ، ولا تزال تقول : الله الله إلى أن تنتهى إلى حالة لو ترك تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك ، ثم تنتظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء .

قلت : وهذا أمر لا أتعجب أنا فيه من الموصى به وإنما أتعجب من الذى

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

قبله مع معرفته وفهمه[١] .

وهل يقطع الطريق بالإعراض عن تلاوة القرآن ؟

وهل فتح للأنبياء ما فتح بمجاهدتهم ورياضتهم ؟

وهل يوثق بما يظهر من هذه المسالك ؟

ثم ما الذى يفتح ؟ أثمّ اطلاع على علم الغيب أم هو وحى ؟ .

فهذا كله من تلاعب إبليس بالقوم .

وربما كان ما يتخايل لهم من أثر الماليخوليا أو من إبليس .

فعليك بالعلم . وانظر فى سير السلف هل فعل أحد منهم من هذا شيئاً ؟ أو أمر به ؟

وإنما تشاغلوا بالقرآن والعلم فدلهم على إصلاح البواطن وتصفيتها .

نسأل الله عز وجل علماً نافعاً ، للعدو مانعاً ، إنه قادر .

٢٥٣ - فصل : الحزم كتمان الحب والبغض

من أراد اصطفاء محبوب ؛ فالمحبوب نوعان : امرأة يقصد منها حسن الصورة ، وصديق يقصد منه حسن المعنى .

فإذا أعجبك صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة مُدَيْدَة[٢] قبل أن يتعلق

---

(٢) ينظر الصوفى المحقق إلى تلاوة القرآن نظرة : إكبار وإجلال، ويرى لها استعداداً لا يمكن أن يكون لأى إنسان ، وإنما يتهيأ بهذه الرياضة الأولى لحال يصلح معها لقراءة القرآن كما ينبغى أن يقرأ ، وليس هذا صداً عن القرآن كما فهم ابن الجوزى .

(١) فى الحديثة : مدة مديدة .

القلب بها تعلقاً محكماً ، فإن رأيتها كما تحب - وأصل ذلك كله الدين كما قال : عليك بذات الدين — فمل إليها واستولدها .

وكن فى ميلك معتدلا ، فإنه من الغلط أن تظهر لمحبوبك المحبة ، فإنه يشتط عليك ، وتلقى منه الأذى (من)[1] التجنى والهجران والإدلال[2] وطلب الإنفاق الكثير - وإن كانت تحبك - لأن هذا إنما يجتلبه حب الإدلال (والتسلط على) المقهور .

وثم نكتة عجيبة ، وهو أنك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة ، وهى تحكم بكمال الحب ، ثم إن ذلك لا يثبت إليك فتقع وتبقى مقهوراً ، ويصعب عليك الخلاص .

وربما تمكنت بمعرفة سرك أو بأخذ كثير من مالك .

ومن أحسن ما بلغنى فى هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حبا شديداً ، ولا تظهر له ذلك ، فسئلت عن هذا ، فقالت : لو أظهرت ما عندى فجفانى هلكت ، قال الشاعر :

لا تظهرنْ مودةً لحبيب
فترى بعينكَ منه كلَّ عجيب
أظهرتُ يوماً للحبيب مودتى
فأخذتُ من هجرانه بنصيبى

وكذا ينبغى أن تكتم بعض حبك للولد ، لأنه يتسلط عليك ، ويضيع مالك ، ويبالغ فى الإدلال ، ويمتنع عن التعلم والتأدب .

---

(١) ساقطة من الحديثة .
(٢) فى الحديثة : والإذلال .

وكذلك إذا اصطفيت صديقاً وخبرته ، فلا تخبره بكل ما عندك ، بل تعاهده بالإحسان كما تتعاهد الشجرة ، فإنها إذا كانت جيدة الأصل حسنت ثمرتها بالتعاهد ، ثم كن منه على حذر فقد تتغير الأحوال ، وقد قيل :

إِحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلفَ مَرَّة
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَدْرَى بِالمَضَرَّة

وأما إذا أبغضت شخصاً لأنه يسوؤك فلا تظهرن ذلك ، فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك ، وتدعوه إلى المبارزة ، فيبالغ فى حربك والاحتيال عليك، بل ينبغى أن تظهر له الجميل إن قدرت ،وتبره ما استطعت حتى تنكسر معاداته بالحياء من بغضك .

فإن لم تطق فهجر جميل ، لاتبين فيه ما يؤذى .

ومتى سمعت عنه[1] كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة .فهى أقوى فى كف لسانـــه .

وكذلك جميع ما يخاف إظهاره ،فلا تتكلمن به . فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان ، فنقلت إليه ، فكانت سبب هلاكك .

أو عن صديق فكانت سبب عداوته ، أو صرت رهيناً لمن سمعها خائفاً أن يظهرها .

فالحزم كتمان الحب والبغض .

وكذا ينبغى أن تكتم سنك[2] فإن كنت كبيراً استهرموك ، وإن كنت صغيراً استحقروك .

---

(١) فى الحديثة : منه .

(٢) زاد فى الحديثة : فلا تلهو به بين الناس ،

وكذلك مقدار مالك ، فإنه إن كان كثيراً نسبوك فى نفقتك إلى البخل . وإن كان قليلا طلبوا الراحة منك .

وكذلك المذهب ، فإنك إن أظهرته لم تأمن أن يسمعه مخالف فيقطع بكفرك وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقى البزار :

احفَظْ لسَانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثةٍ
سِنٍّ ومَالٍ ، مَا استَطعتَ ومَذْهَبِ
فعَلَى الثَلاثةِ تُبْتَلَى بِثلاثَة
بِمُمَوِّهٍ ومُخرِّفٍ ومُكذِّبِ

٢٥٤ - فصل : المعين للظالم ظالم

طال تعجبى من مؤمن بالله عز وجل ، مؤمن بجزائه ، يؤثر خدمة السلطان مع ما يرى منه من الجور الظاهر .

فواعجباً ما الذى يعجبه ؟

إن كان الذى يعجبه دنيوياً فليس ثم إلا أن يصاح بين يديه بسم الله[١] وأن يتصدر فى المجالس ويلوى عنقه كبراً على النظراء ، ويأخذ الأسحات وهو يعلم من أين حصل[٢] ، وربما انبسط فى البرطيل .

ثم يقابل[٣] هذا أن يصادر ويعزل ، فتستخرج (منه)[٤] تلك المرارة

---

(١) زاد فى الحديثة : الذى ينسب إليه زوراً وهو ما يريد إلا .
(٢) فى الحديثة : تحصل .
(٣) فى الحديثة : ثم قد يقابل .
(٤) ساقطة من الحديثة .

منه[١] كل حلاوة كانت فى الولاية .

وربما كان قريب الحال[٢] فافتقر بالمصادرة جداً ، ثم تنطلق الألسن المادحة بالذم .

ثم لو سلم من هذا فإنه لا يسلم من الرقيب له والحذر منه ، فهو كراكب البحر إن سلم بدنه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف .

وإن كان دَيِّناً فإنه يعلم أنهم لا يمكنونه فى الغالب من العمل بمقتضى الدين فإنهم[٣] يأمرونه بترك ما يجب وفعل ما لا يجوز ، فيذهب دينه على البارد .

ولعقاب الآخرة أشق .

٢٥٥ - فصل : الحر لا يشترى إلا بالاحسان

العجب من الذى أنف الذل كيف لا يصبر على جلف الخبز ، ولا يتعرض لمنن الأنذال .

أتراه ما يعلم أنه ما بقى صاحب مروءة ! وأنه إن سأل (سأل)[٤] بخيلا لا يعطى ، فإن أعطى نزراً فإنه يستعبد المعطى بذلك العمر[٥]

ثم ذاك القدر النزر يذهب عاجلا ، وتبقى المنن والخجل ورؤية النفس بعين الاحتقار ، إذ صارت سائلة ، ورؤية المعطى بعين التعظيم أبداً .

---

(١) فى الحديثة : من كل حلاوة .

(٢) أى ليس غنياً .

(٣) فى الحديثة : إنهم .

(٤) ساقطة من الحديثة .

(٥) فى الحديثة : يستعبد المعطى طول العمر بذلك .

ثم يوجب ذلك السكوت عن معائب المعطى ، والبدار إلى قضاء حقوقه ، وخدمته فيما يفى .

وأعجب من هذا من يقدر أن يستعبد الأحرار بقليل العطاء الفانى ، ولا يفعل ، فإن الحر لا يشترى إلا بالإحسان . قال الشاعر :

تَفَضَّلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ وَاعْنَ بِأَمرِهِ
فَأَنتَ وَلَوْ كَانَ الأَمِيرَ أَمِيرُهُ
وكُنْ ذَا غِنىً عَنْ مَنْ تشاء مِنَ الوَرَى
وَلَوْ كَانَ سُلطاناً فَأَنتَ نَظِيرُهُ
وَمَنْ كُنتَ مُحتاجاً إليهِ وَوَاقِفاً
عَلَى طَمَعٍ مِنْهُ فَأَنتَ أَسِيرُهُ

٢٥٦ ـ فصل : نصيحة للشباب

ينبغى للصبى إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ليبقى جوهره فيفيده ذلك فى الكبر . لأنه من الجائز كبره .

والاستعداد للجائز حزم ، فكيف للغالب ؟ كما ينبغى أن يستعد للشتاء قبل هجومه .

ومتى أنفق الحاصل وقت القدرة ، تأذى بالفقر إليه وقت الفاقة .

وليعلم ذو الدين والفهم أن المتعة إنما تكون بالقرب من الحبيب ، والقرب يحصل بالتقبيل والضم ، وذلك يقوى المحبة ، والمحبة يلذ وجودها ، والوطء ينقص المحبة ويعدم تلك اللذة .

وقد كان العرب يعشقون ولا يرون وطء المعشوق . قال قائلهم : إن نكح الحب فسد . فأما الالتذاذ بنفس الوطء فشأن البهائم .

ولقد تأملت المراد من الوطء فوجدت فيه معنى عجيباً يخفى على كثير من الناس ، وهو أن النفس إذا عشقت شخصاً أحبت القرب منه ، فهى تؤثر الضم والمعانقة ، لأنهما غاية فى القرب .

ثم تريد قرباً يزيد على هذا ، فيقبل الخد .

ثم تطلب القرب من الروح ، فيقبل الفم ، لأنه منفذ إلى الروح .

ثم تطلب الزيادة فيمصّ لسان المحبوب ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوشح عائشة ويقبلها ويمص لسانها .

فإذا طلبت النفس زيادة فى القرب إلى النفس ، استعملت الوطء .

فهذا سره المعنوى ، ويحصل منه الالتذاذ الحسى .

٢٥٧ ـ فصل : على العامى الايمان بالاصول

ليس على العوام أضر من سماعهم علم الكلام .

وإنما ينبغى أن يحذر العوام من سماعه ، والخوض فيه ، كما يحذر الصبى من شاطىء النهر ، خوف الغرق .

وربما ظن العامى أن له قوة يدرك بها هذا ، وهو فاسد ، فإنه قد زل فى هذا خلق من العلماء ، فكيف العوام .

وما رأيت أحمق من جمهور قصاص زماننا ، فإنه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهونهم عن خمر وزناً وغيبة ، ولا يعلمونهم أركان الصلاة ووظائف التعبد ، بل يملأون الزمان بذكر الاستواء وتأويل الصفات ، وأن الكلام قائم بالذات ، فيتأذى بذلك من كان قلبه سليماً[1] .

وإنما على العامى أن يؤمن بالأصول الخمسة بالله وملائكته وكتبه ورسله

---

(١) أوضح ابن الجوزى منهجه فى الوعظ فى مقدمة كتابه : « المنتخب » فلتراجع [مخطوط رقم ١٠١٤ تصوف دار الكتب المصرية] .

واليوم الآخر، ويقنع بما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق . والاستواء حق والكيف مجهول .

وليعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكلف الأعراب سوى مجرد الإيمان ، ولم تتكلم الصحابة فى الجواهر والأعراض .

فمن مات على طريقهم مات مؤمناً سليماً من بدعة .

ومن تعرض لساحل البحر وهو لا يحسن السباحة ، فالظاهر غرقه .

٢٥٨ - فصل : المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل

أشد الناس جهلا منهوم باللذات . واللذات على ضربين : مباحة ومحظورة.

فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء إلا بضياع ما هو مهم من الدين .

فإذا حصلت منها حبة قارنها قنطار من الهم .

ثم لا تكاد تصفو فى نفسها بل مكدراتها ألوف .

فإذا صور[١] عدمها بعد انقضائها وبقاء هذه الألوف المكدرة صار التصوير مغلصاً للهوى مجرّئاً[٢] للنفس .

فإذا أنفت أنفت من الأسف على الدوام مالا تحويه صفة ، فهى[٣] تغر الغمر[٤] وتهدم العمر ، وتديم الأسى .

ومع هذا فالمنهوم كلما عب من لذة طلب أختها ، وقد عرف جناية الأولى وخياناتها .

---

(١) فى الحديثة : تصور .

(٢) فى الحديثة : حزناً .

(٣) فى الحديثة : الدوام المستعبد ، وعرفت أنها لذة تغر الغمر .

(٤) الغمر : الجاهل .

وهذا مرض العقل ، وداء الطبع ، فلا يزال هذا كذلك ، إلى أن يختطف بالموت ، فيلقى على بساط ندم لا يستدرك .

فالعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر ، ثم لا يهتم بآخرته التى لذتها سليمة من شامت[1] ، منزهة عن معائب دائمة الأمد ، باقية ببقاء الأبد .

وإنما يحصل تقريب هذه بإبعاد تلك ، وعمران هذه بتخريب تلك .

فواعجباً لعاقل حصيف حسن التدبير ، فاته النظر فى هذه الأحوال ، وغفل عن التمييز[2] بين هذين الأمرين .

وإن كانت اللذة معصية انضم إلى ما ذكرناه عار الدنيا ، والفضيحة بين الخلق ، وعقوبة الحدود ، وعقاب الآخرة ، وغضب الحق سبحانه .

بالله ، إن المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل ، فذم ذلك لبيان الحزم .

فكيف بالمحرمات التى هى غاية الرذائل ؟

نسأل الله عز وجل يقظة تحركنا إلى منافعنا . وتزعجنا عن خوادعنا ، إنه قريب .

٢٥٩ ـ فصل : رجاء الرحمة

تأملت على[3] الخلق وإذا هم فى حالة عجيبة ، يكاد يقطع معها بفساد العقل .

---

(١) فى الحديثة : شوائب .

(٢) فى الحديثة : تمييز .

(٣) فى الحديثة : فى الخلق . وما أثبتناه تعبير اعتاده المؤلف وهو من عامية الشام .

وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ ، وتذكر له الآخرة ، فيعلم صدق القائل ، فيبكي وينزعج على تفريطه ، ويعزم على الاستدراك ، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه .

فإذا قيل له : أتشكّ فيما وُعدت به ؟ قال : لا والله ، فيقال له : فاعمل ، فينوى ذلك ثم يتوقف عن العمل .

وربما مال إلى لذة محرمة ، وهو يعلم النهى عنها .

ومن هذا الجنس تأخُّر الثلاثة الذين خُلِّفوا ، ولم يكن لهم عذر ، وهم يعلمون قبح التأخر ، وكذلك كل عاص ومفرط .

فتأملت السبب مع أن الاعتقاد صحيح ، والفعـــل بطيء ، فإذا له ثلاثة أسباب :

أحدها : رؤية الهوى العاجل ، فإن رؤيته تشغل عن الفكر فيما يجنيه .

والثاني : التسويف بالتوبة ، فلو حضر العقل لحذر من آفات التأخير ، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة .

والعجب ممن يجوز سلب روحه قبل مضى ساعة ، ولا يعمل على الحزم ، غير أن الهوى يطيل الأمد ، وقد قال صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم : « صلّ صلاة مودِّع » . وهذا نهاية الدواء لهذا الداء ، فإنه من ظن أنه لا يبقى إلى صلاة أخرى جدّ واجتهد .

والثالث : رجاء الرحمة ، فيرى العاصي يقول : ربي رحيم ، وينسى أنه شديد العقاب .

ولو علم أن رحمته ليست رقة ، إذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفوراً ، ولا

آلم طفلا ، وعقابه غير مأمون ، فإنه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط[1] .

فنسأل الله عز وجل أن يهب لنا حزماً يبت[2] المصالح جزماً .

٢٦٠ ـ فصل : ذل النفس للخالق

نظرت فى قول[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما[4] لبس الخاتم[5] ثم رمى به وقال : « شغلنى نظرى إليكم ، ونظرى إليه »[6] وقوله : هذا[7] رجل يتبختر فى حلته مرجلا جمته خسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . فرأيت أنه لا ينبغى لأحد[8] أن يلبس ثوباً معجباً ولا شيئاً من زينة ، لأن ذلك يوجب النظر إلى النفس بعين الإعجاب ، والنفس ينبغى أن تكون ذليلة للخالق .

وقد كان قدماء أحبار فى بنى إسرائيل[9] يمشون على العصى لئلا يقع منهم بطر فى المشي .

---

(١) فى الحديثة : دراهم . وزاد فيها : لجد وأناب .

(٢) فى الحديثة : يبت .

(٣) فى الحديثة : فيما روى .

(٤) فى الحديثة : أنه لبس .

(٥) فى الحديثة : خاتماً .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

(٧) فى الحديثة : بينا رجل .

(٨) فى الحديثة : المؤمن .

(٩) فى الحديثة : القدماء من أحبار بنى إسرائيل .

ولبست أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها درعاً لها فأعجبت به ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لا ينظر إليك فى حالتك هذه .

ولما لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم خميصة لها أعلام قال : « ألهتنى هذه عن صلاتى » . وهذا كله يوجب الإعراض عن الزينة وما يحرك إلى الفخر والزهو والعجب .

ولهذا حرم الحرير .

وأقول على أسباب هذا : إن المرقعات التى يتتوق[1] فيها المتصوفة بالسوارك والتلبيع ، ربما أوجبت زهو اللابس[2] إما لحسنها فى ذاتها ، أو اعلامه أنها تنبىء عنه بالتصوف والزهد .

وكذلك الخاتم فى اليد ، وطول الأكمام والنعال الصرارة[3] .

ولا أقول : إن هذه الأشياء تحرم ، بل ربما جلبت ما يحرم من الزهو .

فينبغى للعاقل أن يتنبه بما قلت فى دفع كل مايحذر من شرّه .

وقد ركب ابن عمر نجيباً فأعجبه مشيه فنزل ، وقال يانافع : أخله فى البدن .

٢٦١ ـ فصل : الزم خلوتك

من أراد اجتماع همه وإصلاح قلبه ، فليحذر من مخالطة الناس فى

(١) فى الحديثة : يظهر .

(٢) فى الحديثة : الملابس .

(٣) التى تحدث صوتاً .

هذا الزمان ، فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكره ، فصار الاجتماع على ما يضر .

وقد جربت على نفسى مراراً أن أحصرها فى بيت العزلة ، فتجتمع هى ، ويضاف إلى ذلك النظر فى سير السلف ، فأرى العزلة حمية ، والنظر فى سير القوم دواء ، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع .

فإذا فسحت لنفسى فى مجالسة الناس ولقائهم تشتت القلب المجتمع، ووقع الذهول عما كنت أراعيه ، وانتقش فى القلب ما قد رأته العين ، وفى الضمير ما تسمعه الأذن ، وفى النفس ما تطمع فى تحصيله من الدنيا . وإذا جمهور المخالطين أرباب غفلة ، والطبع بمجالستهم يسرق من طباعهم .

فإذا عدت أطلب القلب لم أجده ، وأروم ذاك الحضور فأفقده ، فيبقى فؤادى فى غمار ذلك اللقاء للناس أياماً حتى يسلو الهوى .

وما فائدة تعريض البناء للنقض ؟

فإن دوام العزلة كالبناء ، والنظر فى سير السلف يرفعه، فإذا وقعت المخالطة انتقض ما بنى فى مدة ، فى لحظة ، وصعب التلاقى ، وضعف القلب .

ومن له فهم يعرف أمراض القلب ، وإعراضه عن صاحبه ، وخروج طائره من قفصه .

ولا يؤمن على هذا المريض أن يكون مرضه هذا سبب التلف ، ولا على هذا الطائر المحصور أن يقع فى الشبكة .

وسبب مرض القلب أنه كان محمياً عن التخليط ، مغذواً بالعلم وسير السلف ، فخلط ، فلم يحتمل مزاجه ، فوقع المرض .

فالجد الجد فإنما هى أيام وما نرى من يلق ، ولا من يؤخذ منه ، ولا من تنفع مجالسته ، إلا أن يكون نادراً ما أعرفه :

مَا فِى الصِّحَابِ أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ
حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلٌّ نُجَارِيهِ

فالزم خلوتك ، وراع - ما بقيت النفس - وإذا قلقت النفس مشتاقة إلى لقاء الخلق فاعلم أنها بعدُ كدرة ، فرضْها ليصير لقاؤهم عندها مكروها .

ولو كان عندها شغل بالخالق لما أحبت الزحمة ، كما أن الذى يخلو بحبيبه لا يؤثر حضور غيره .

ولو أنها عشقت طريق اليمن ، لم تلتفت إلى الشام .

٢٦٣ - فصل : إنما يتعثر من لم يخلص

تفكرت فى سبب هداية من يهتدى ، وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته ، فوجدت السبب الأكبر اختيار الحق عز وجل لذلك الشخص ، كما قيل : إذا أرادك لأمر هيأك له .

فتارة تقع اليقظة بمجرد فكر يوجبه نظر العقل ، فيتلمح الإنسان وجود نفسه ، فيعلم أن لها صانعاً ، وقد طالبه بحقه ، وشكر نعمته ، وخوفه عقاب مخالفته ، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر .

ومن هذا ما جرى لأهل الكهف : « إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [1] » .

---

(١) جزء من الآية ١٤ من سورة الكهف .

وفى التفسير : أن كل واحد منهم ألقى فى قلبه يقظة ، فقال : لا بد لهذا الخلق من خالق ، فاشتـدّ كرب بواطنهم من وقود نار الحذر ، فخرجوا إلى الصحراء ، فاجتمعوا عن غير موعد .

فـكل واحد يسأل الآخر : ما الذى أخرجك . . . ؟ فتصادقوا .

ومن الناس من يجعل الخالق سبحانه وتعالى لذلك السبب الذى هو الفكر والنظر سبباً ظاهراً ، إما من موعظة يسمعها أو يراها ، فيحرك هذا السبب الظاهر فكرة القلب الباطنة ، ثم ينقسم المتيقظون ، فمنهم من يغلبه هواه ويقتضيه طبعه ، ما يشتهى مما قد اعتاده ، فيعود القهقرى ، ولا ينفعه ما حصل له من الانتباه ، فانتباه مثل هذا زيادة فى الحجة عليه .

ومنهم من هو واقف فى مقام المجاهدة بين صفين : العقل الآمر بالتقوى ، والهوى المتقاضى بالشهوات .

فمنهم من يُغلب بعد المجاهدات الطويلة فيعود إلى الشر ويختم له به .

ومنهم من يَغلب تارة ويُغلب أخرى ، بجراحاته لا فى مقتل .

ومنهم من يقهر عدوه فيسجنه فى حبس ، فلا يبقى للعدو من الحيلة إلا الوساوس .

ومن الصفوة أقوام مذ تيقظوا ما ناموا ، ومذ سلكوا ما وقفوا .

فهمهم صعود وترَقٍّ .

كلما عبروا مقاما إلى مقام ، رأوا نقصَ ما كانوا فيه فاستغفروا .

ومنهم من يرقى عن الاحتياج إلى مجاهدة ، إما لخسة ما يدعو إليه الطبع عنده ولا وقع له .

وإما لشرف مطلوبه فلا يلتفت إلى عائق عنه .

واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالأقدام ، وإنما يقطع بالقلوب .

والشهوات العاجلة قطاع الطريق ، والسبيل كالليل المدلهم .

غير أن عين الموفَّق بصر فرس ، لأنه يرى فى الظلمة ، كما يرى فى الضوء .

والصدق فى الطلب منار[1] أين وجد يدل على الجادة ، وإنما يتعثر من لم يخلص .

وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يراد ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

٢٦٣ - فصل : الروح لا الجسد

عجبت لمن يعجب بصورته ويختال فى مشيته ، وينسى مبدأ أمره .

إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء ، فإن شئت، (فقل)[2] كسيرة خبز معها تمرات[3] ، وقطعة من لحم ، ومذقة من لبن ، وجرعة من ماء ، ونحو ذلك ، طبخته الكبد فأخرجت منه قطرات منىّ ، فاستقر فى الأنثيين فحركتها الشهوة ، فصبت فى بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها ، فخرجت طفلا تتقلب فى خرق البول .

وأما آخره فإنه يلقى فى التراب ، فيأكله الدود ، ويصير رفاتاً تسفيه السوافى .

---

(١) فى الدمشقية : إنار .

(٢) ساقطة من الحديثة .

(٣) فى الحديثة : ثمرات .

وكم يخرج تراب بدنه من مكان إلى مكان آخر ؟ ويقلب فى أحوال إلى أن يعود فيجمع .

هذا خبر البدن . إنما الروح[1] عليها العمل ، فإن تجوهرت بالأدب ، وتقومت بالعلم ، وعرفت الصانع ، وقامت بحقه ، فما يضرها نقض المركب .

وإن هى بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين، بل صارت إلى أخس حالة منه .

٣٦٤ - فصل : البعد عمن كان همه الدنيا

هيهات أن يجتمع الهم مع التلبس بامور الدنيا ، خصوصاً الشاب[2] الفقير الذى قد ألف الفقر .

فإنه إذا تزوج وليس له شىء من الدنيا ، اهتم بالكسب ، أو بالطلب من الناس فتشتتت همته ، وجاءه الأولاد فزاد الأمر عليه .

ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل إلى أن يتلبس بالحرام .

ومن يفكر[3] فهمته ما يأكل وما يأكله أهله ، وما ترضى به الزوجة من النفقة والكسوة ، وليس له ذلك ؛ فأى قلب يحضر له ؟ وأى همٍّ يجتمع ؟ هيهات .

والله لا يجتمع الهمّ والعين تنظر إلى الناس ، والسمع يسمع حديثهم ، واللسان يخاطبهم ، والقلب متوزع فى تحصيل مالابد منه .

---

(١) فى الحديثة : الروح التى .
(٢) فى الحديثة : بالشاب .
(٣) فى الحديثة زاد المحقق : إنه أسير ضرورات لا يجدها .

فإن قال قائل : فكيف أصنع ؟

قلت : إن وجدت ما يكفيك من الدنيا ، أو معيشة تكفك[١] فاقنع بها ، وانفرد فى خلوة عن الخلق مهما قدرت ، وإن تزوجت ففقيرة تقنع باليسير ، وتصبر أنت على صورتها وفقرها ، ولاتترك نفسك تطمح إلى من تحتاج إلى فضل نفقته .

فإن رزقت امرأة صالحة جمعت همك فذاك ، وإن لم تقدر فمعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة .

وإياك والمستحسنات ، فإن صاحبهن إذا سلم كعابد صنم ، وإذاحصل بيدك شىء فأنفق بعضه [٢] ، فبحفظ الباقى تحفظ شتات قلبك .

واحذر كل الحذر من هذا الزمان وأهله فما بقى مواس ولا مؤثر ، ولا من يهتم لِسَدّ خلة ، ولا من لو سئل أعطى ، إلا أن يعطى نذراً بتضجر .

ومنّة يستعبد بها المعطى بقية العمر ، ويستثقله كلما رآه ، أو يستدعى بها خدمته له والتردد إليه .

وإنما كان فى الزمان الماضى مثل أبى عمرو بن نجيد سمع أبا عثمان المغربى يقول يوماً على المنبر : علىّ ألف دينار ، وقد ضاق صدرى .

فمضى أبو عمرو إليه فى الليل بألف دينار ، وقال اقض دينك .

فلمـــا عاد وصعد المنبر ، قال : نشكر الله لأبى عمرو ، فإنه أراح قلبى وقضى دينى .

---

(١) فى الحديثة : أو معيشة ما تكفيك .

(٢) زاد فى الحديثة : وادخر لغدك .

فقام أبو عمرو فقال : أيها الشيخ ذلك المال كان لوالدتى وقد شق عليها ما فعلت ، فإن رأيت أن تتقدم برده فافعل .

فلما كان فى الليل عاد إليه ، وقال له : لماذا شهرتنى بين الناس ؟

فأنا ما فعلت ذلك لأجل الخلق ، فخذه ولا تذكرنى :

مَاتُوا وَغُيِّبَ فِى التُّرَابِ شُخُوصُهُمْ
وَالنَّشْرُ مِسْكٌ وَالعِظَامُ رَمِيمُ

فالبعد البعد عن من همته الدنيا ، فإن زادهم اليوم إلى أن يحصل أقرب منه إلى أن يؤثر .

ولا تكاد ترى إلا عدواً فى الباطن ، صديقاً فى الظاهر ، شامتاً على الضر ، حسوداً على النعمة .

فاشتر العزلة بما بيعت ، فإن من له قلب إذا مشى فى الأسواق وعاد إلى منزله تغير قلبه .

فكيف إن عرقله بالميل إلى أسباب الدنيا ، واجتهد فى جمع الهم بالبعد عن الخلق ليخلو القلب بالتفكر فى المآب ، وتتلمح عين البصيرة خيمَ الرحيل ؟

٣٦٥ - فصل : زيارة الصالحين تجلو القلب

كان المريد فى بداية الزمان إذا أظلم قلبه أو مرض لبه قصد زيارة بعض الصالحين ، فانجلى ما أظلم[1] .

---

(١) فى الحديثة : فانجلى عن نفسه ما أظلم منها .

واليوم متى[1] حصلت ذرة من الصدق لمريد فردته فى بيت عزلة ، ووجد نسيما من روح العافية ، ونوراً فى باطن قلبه ، وكاد همه يجتمع ، وشتاته ينتظم، فخرج فلقى من يوماً إليه بعلم أو زهد رئى عند البطالين[2] يجرى معهم فى مسلك الهذيان الذى لا ينفع .

ورأى صورته صورة منمّس[3] وأهون ماعليه تضييع الأوقات فى الحديث الفارغ. فما يرجع المريد عن ذلك الوطن إلا وقد أكتسب ظلمة فى القلب، وشتاتاً فى العزم ، وغفلة عن ذكر الآخرة ، فيعود مريض القلب ، يتعب فى معالجته أياماً كثيرة حتى يعود إلى ما كان فيه .

وربما لم يعد ، لأن المريد فيه ضعف .

فإنه[4] إذا رأى شيخاً قد جرب وعرف ثم يؤثر البطالة ، لم يأمن أن يتبعه الطبع .

فالأولى للمريد اليوم ألا يزور إلا المقابر ، ولا يفاوض إلا الكتب ، التى قد حوت محاسن القوم .

وليستعن بالله تعالى على التوفيق لمراضيه ، فإنه إن أراده هيأه لما يرضيه .

٢٦٦ ـ فصل : أولياء الله

تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه. فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم ، ممن رأيناه .

---

(١) فى الحديثة : أما اليوم فمتى .

(٢) فى الحديثة : رأى عنده البطالين .

(٣) المنمس : الدجال .

(٤) فى الحديثة زاد : وربما فتن فإنه إذا راى .

فوجدته سبحانه لايختار إلا شخصاً كامل الصورة ، لا عيب فى صورته ، ولا نقص فى خلقته . فتراه حسن الوجه ، معتدل القامة ، سليما من آفة فى بدنه .

ثم يكون كاملا فى باطنه ، سخياً جواداً ، عاقلا ، غير خب ولا خادع ، ولا حقود ولا حسود ، ولا فيه عيب من عيوب الباطن .

فذاك الذى يربيه من صغره ، فتراه فى الطفولة معتزلا عن الصبيان ، كأنه فى الصبا شيخ ، ينبو عن الرذائل ، ويفزع من النقائص ، ثم لا تزال شجرة همته تنمو حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، محافظ[1] للزمان ، مراع للأوقات ، ساع فى طلب الفضائل ، خائف من النقائص .

ولو رأيت التوفيق والإلهام الربانى يحوطه ، لرأيت كيف يأخذ بيده إن عثر ، ويمنعه من الخطأ إن همّ ، ويستخدمه فى الفضائل ، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه .

ثم ينقسم هؤلاء . فمنهم من تفقه على قدم الزهد والتعبد ، ومنهم من تفقه على العلم واتباع السنة .

ويندر منهم من يجمع[2] له الكل ويرقيه إلى مزاحمة الكاملين .

وعلامة إثبات الكمال فى العلم والعمل ، الإقبال بالكلية على معاملة الحق ومحبته ، واستيعاب الفضائل كلها ، (وسناء الهمة فى نشدان الكمال الممكن) .

---

(١) فى الحديثة : حافظ .

(٢) فى الحديثة : من يجمع الله له .

فلو تصورت النبوة أن تكتسب لدخلت فى كسبه .

ومراتب هذا(١) لا يحتملها الوصف ، لكونه درة الوجود ، التى لا تكاد تنعقد فى الصدف إلا فى كل ودود(٢) .

نسأل الله عز وجل توفيقنا لمراضيه وقربه ، ونعوذ به من طرده وإبعاده .

٢٦٧ ـ فصل : ذلك مبلغهم من العلم

أكثر الخلائق على طبع ردىء لا تقومه الرياضة . لا يدرون لم(٣) خلقوا ولا ما المراد منهم .

وغاية همتهم حصول بغيتهم من أغراضهم . ولا يسألون عند نيلها ما اجتلبت لهم من ذم .

يبذلون العرض دون الغرض ، ويؤثرون لذة ساعة ، وإن اجتلبت زمان مرض .

يلبسون عند التجارات ثياب محتال ، فى شعار مختال ، ويلبّسون فى المعاملات ، ويسترون الحال .

إن كسبوا فشبهة وإن أكلوا فشهوة . ينامون الليل وإن كانوا نياماً بالنهار فى المعنى ، ولا نوم بهذه الصورة .

فإذا أصبحوا سعوا فى تحصيل شهواتهم بحرص خنزير ، وتبصبص كلب ، وافتراس أسد ، وغارة ذئب ، وروغان ثعلب .

---

(١) فى الحديثة : هذا الاصطفاء .
(٢) فى الحديثة : إلا بين قرون وقرون .
(٣) فى الحديثة : لماذا .

ويتأسفون عند الموت على فقد الهوى ، لا على عدم التقوى .

ذلك مبلغهم من العلم .

كيف يفلح من يؤثر ما يراه بعينه على ما يبصره بعقله (١) ، وما يدركه ببصره أعز عنده مما يراه ببصيرته .

تالله لو فتحوا أسماعهم لسمعوا هاتف الرحيل فى زمان الإقامة يصيح فى عرصات الدنيا : تلمحوا تقويض خيام الأوائل .

لكن غمرهم سكر الجهالة ، فلم يفيقوا إلا بضرب الحد .

٢٦٨ـ فصل : الله لا يقبل إلا الطيب

رأيت بعض المتقدمين سئل عن من يكتسب حلالا وحراما من السلاطين والأمراء ، ثم يبنى المساجد والأربطة : هل له فيها ثواب ؟ فأفتى بما يوجب طيب قلب المنفق ، وأن(٢) له فى إنفاق مالا يملكه نوع سمسرة(٣) ، لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيردها .

فقلت : واعجباً ! من المتصدين(٤) للفتوى الذين لا يعرفون أصول الشريعة .

ينبغى أن ينظر فى حال هذا المنفق أولا ، فإن كان سلطاناً فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه مصارفه ، فكيف يمنع مستحقه ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط .

(١) فى الحديثة : ومن يرى أن ما يدركه ببصره .
(٢) فى الحديثة : وذكر أن .
(٣) فى الحديثة : نوع حسنة .
(٤) فى الدمشقية : من متصدين .

وإن كان المنفق من الأمراء ونواب السلاطين ، فإنه يجب أن (يرد)[١] ما يجب رده إلى بيت المال ، وليس (له)[٢] فيه إلا ما فرض من إيجاب يليق به .

فإن تصرف فى غير ذلك كان مصروفاً[٣] فيما ليس له ، ولو أذن له كان[٤] الإذن جائزاً .

وإن كان قد أقطع مالاً يقاوم عمله ،كان ما يأخذه فاضلا من أموال المسلمين لاحق له فيه .

وعلى من أطلقه فى ذلك إثم أيضاً .

هذا وإذا كان حراماً أو غصباً فكل تصرف فيه حرام ، والواجب رده على من أخذ منه أو على ورثتهم .

فإن لم يعرف طريق الردكان فى بيت مال المسلمين ، يصرف فى مصالحهم أو يصرف فى الصدقة ، ولم يحظ آخذه بغير الإثم .

أنبأنا أحمد بن الحسن بن البنا قال : أخبرنا محمد بن على الزجاجى قال : أخبرنا عبد الله بن محمد الأسدى قال : أخبرنا على بن الحسن قال : حدثنا أبو داود قال : حدثنا محمد بن عون الطائى قال : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا الأوزاعى قال: حدثنى موسى بن سليمان قال : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اكتسب مالاً من مأثم ، فوصل

---

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) ساقطة من الحديثة .

(٣) فى الحديثة : متصرفا .

(٤) فى الحديثة : ما كان .

رحماً ، أو تصدق به ، أو أنفقه فى سبيل الله ، جمع ذلك جميعاً فقذف به فى جهنم » .

فأما إذا كان البانى تاجراً مكتسباً للحلال ، فبنى مسجداً أو وقف وقفاً للمتفقهة ، فهذا مما يثاب عليه .

ويبعد من يكتسب الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار ، أو يخرج الزكاة مستقصاة ، ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء والنفقة .

إذ مثل هذا البنيان لا يجوز أن يكون من زكاة .

وأين سلامة النية وخلوص المقصد .

وإن[١] بناء المدارس اليوم مخاطرة ، إذ قد انعكف أكثر المتفقهة على علم الجدل ، وأعرضوا عن علوم الشريعة ، وتركوا التردد إلى[٢] المساجد ، وقنعوا[٣] بالمدارس والألقاب .

وأما بناء الأربطة فليس بشىء أصلا ، لأن جمهور المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل ، ثم يدعى مدعيهم المحبة والقرب ، ويكره التشاغل بالعلم ، وقد تركوا سيرة سرى وعادات الجنيد ، واقتنعوا بأداء الفرائض ، ورضوا بالمرقعات[٤] .

---

(١) فى الحديثة : ثم إن .
(٢) فى الحديثة : على .
(٣) فى الحديثة : واقتنعوا .
(٤) رأى المؤلف فيه بعض الصواب ، وليس كل الصواب إلا إذا أراد سد الذرائع ، فكأنه صواب ، والصوفية لا تدعوا إلى الكسل ولا إلى هجران العلم . وعيب الناس لا يعيب المذاهب .

فلا تحسن إعانتهم على بطالتهم وراحتهم ، ولا ثواب فى ذلك .

٢٦٩ - فصل : القلوب تشهد للصالح بالصلاح

عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم ، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له .

فإن رضى عمله ورآه خالصاً لفت القلوب إليه ، وإن لم يره خالصاً أعرض بها عنه .

ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشرك[1] ، لأنه ينبغى أن يقنع بنظر من يعمل له .

ومن ضرورة الإخلاص ألا يقصد التفات القلوب إليه ، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك .

وليعلم الإنسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة . وإن لم يطلعوا عليها .

فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح ، وإن لم يشاهد منه ذلك .

فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد مضى العمل ضائعاً ، لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق ، لأن قلوبهم قد ألفتت عنه ، فقد ضاع العمل وذهب العمر .

ولقد أخبرنا ابن الحصين قال : أخبرنا ابن المذهب قال : أخبرنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا حسن بن موسى قال : حدثنا ابن لهيعة قال : حدثنا دراج

---

(١) فى الحديثة : زاحم الشرك نيته . ومعنى : زاحم الشرك : أى : صار قريباً منه . وهو رياء ، والرياء قريب من الشرك الخفى .

عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج للناس عمله كائناً ما كان » .

فليتق الله العبد ، وليقصد من ينفعه قصده ، ولا يتشاغل بمدح من عن قليل يبتلى هو ... وهم .

٢٧٠ - فصل : سيرة السلف الصالح

قدم علينا بعض فقهاء من بلاد الأعاجم ، وكان قاضياً ببلده ، فرأيت على دابته الذهب ومعه أتوار[1] الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات .

فقلت : أى شىء أفاد هذا العلم ؟ بل والله قد كثرت عليه الحجج .

وأكبر الأسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنهم يجهلون الجلة ، ويتشاغلون بعلم الخلاف ، ويقصدون التقدم بقشور المعرفة وليس يعنيهم سماع حديث ولا نظر فى سير السلف .

ويخالطون السلاطين فيحتاجون إلى التزى بزيهم ، وربما خطر لهم أن هذا قريب ، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالب بلا صاد .

وربما خطر لهم أن[2] : هذا يحتمل ويغفر ، فى جانب تشاغلنا بالعلم ، ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شىء من دنياهم ، ولا ينكرون عليهم .

ولقد رأيت من الذين ينتسبون إلى العلم من يستصحب المردان ، ويشترى المماليك ، وما كان يفعل هذا إلا مَنْ قد يئس من الآخرة .

---

(١) أوانى الشرب .

(٢) فى الحديثة : نعم ربما خطر لهم أن يقولوا .

ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء ، وهو على هذه الحالة .

فالله الله يامن يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة ، إياك والتأويلات الفاسدة، والأهواء الغالبة ، فإنك إن ترخصت بالدخول فى بعضها جرّك الأمر إلى الباقى، ولم تقدر على الخروج لموضع إلف الهوى .

فاقبل نصحى ، واقنع بالكسرة ، وابعد عن أرباب الدنيا ، فإذا ضج الهوى فدعه لهذا[1] .

وربما قال لك : فالأمر الفلانى قريب ، فلا تفعل ، فإنه لو كان قريباً يدعو إلى غيره ويصعب التلافى .

فالصبرَ الصبرَ على شظف العيش، والبعدَ عن أرباب الهوى ، فما يتم دين إلاّ بذلك .

ومتى وقع الترخص حمل إلى غيره ، كالشاطىء إلى اللجة . وإنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، ووجه أصبحُ من وجه ، وإنما هى أيام يسيرة . .

٣٧١ ـ فصل : سلم لما لا تعلم

من تفكر فى عظمة الله عز وجل ، طاش عقله ، لأنه يحتاج أن يثبت موجوداً لا أول لوجوده .

وهذا شىء لا يعرفه الحس ، وإنما يُقِر به العقل ضرورة .

وهو متحير بعد هذا الإقرار ، ثم[2] يرى من أفعاله ما يدل على وجوده

(١) فى الحديثة : فدعه ولا تجبه .

(٢) فى الحديثة : إذ يرى .

ثم تجرى فى أقداره أمور لولا ثبوت الدليل على وجوده لأوجبت الجحد .

فإنه يفرق البحر لبنى إسرائيل ، وذلك شىء لا يقدر عليه سوى الخالق ، ويصير العصا حية ثم يعيدها عصا تلقف ما صنعوا ولا يزيد فيها شىء .

فهل بعد هذا بيان ؟

فإذا آمنت السحرة تركهم مع فرعون يصلبهم ولا يمنع ، والأنبياء يبتلون بالجوع والقتل ، وزكريا ينشر ، ويحى تقتله زانية ، ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول كل عام : من يؤوينى ؟ من ينصرنى ؟

فيكاد الجاهل بوجود الخالق يقول : لو كان موجوداً لنصر أولياءه .

فينبغى للعاقل الذى قد ثبت عنده وجوده بالأدلة الظاهرة الجلية ألا يمكن عقله من الاعتراض عليه فى أفعاله ، ولا يطلب لها علة .

إذ قد ثبت أنه مالك وحكيم ، فإذا خفى علينا وجه الحكمة فى فعله، نسبنا ذلك العجز إلى فهومنا .

وكيف لا وقد عجز موسى عليه السلام أن يعرف حكمة خرق السفينة ، وقتل الغلام ، فلما بان له حكمة ذلك الفساد فى الظاهر أقر[1] .

فلو قد بانت الحكمة فى أفعال الخالق جحد العقل جحد موسى يوم الخضر .

فمتى رأيت العقل يقول لِمَ فأخرسه بأن تقول له : يا عاجز أنت لا تعرف حقيقة نفسك ، فما لك والاعتراض على المالك ؟

---

(١) فى الحديثة والخانجى : أقره .

وربما قال العقل : أى فائدة فى الابتلاء وهو قادر أن يثيب ولا بلاء ؟

وأى غرض فى تعذيب أهل النار وليس ثم تشفٍّ ؟

فقل له : حكمته فوق مرتبتك ، فسلم لما لا تعلم ، فإن أول من اعترض بعقله إبليس ، رأى فضل النار على الطين فأعرض عن السجود .

وقد رأينا خلقاً كثيراً وسمعنا عنهم أنهم يقدحون فى الحكمة لأنهم يحكمون العقول على مقتضاها ، وينسون أن حكمة الخالق وراء العقول .

فإياك أن تفسح لعقلك فى تعليل ، أو أن تطلب له جواب اعتراض ، وقل له : سَلِّم تسلم ، فإنك لا تدرى غور البحر إلا وقد أدركك الغرق قبل ذلك .

هذا أصل عظيم ، متى فات الآدمى أخرجه الاعتراض إلى الكفر .

٢٧٢ — فصل : الخروج للمقابر للعظة

العجب ممن يقول : أخرج إلى المقابر فاعتبر بأهل البلى [١] .

ولو فطن علم أنه مقبرة يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها .

خصوصاً من قد أوغل فى السن ، فإن شهوته ضعفت ، وقواه قلَّت ، والحواس كلت ، والنشاط فتر ، والشعر ابيض .

فليعتبر بما فقد ، وليستغن عن ذكر من فقد ، فقد استغنى بما عنده عن التطلع إلى غيره .

---

(١) سبق أن أوصى المؤلف بالخروج إلى المقابر .

٢٧٣ - فصل : لا غفلة لكامل العقل

متى تكامل العقل فقدت لذة الدنيا ، فتضاءل الجسم ، وقوى السقم ، واشتد الحزن .

لأن العقل كلما تلمح العواقب أعرض عن الدنيا ، والتفت إلى ما تلمح ولا لذة عنده بشيء من العاجل .

وإنما يلتذ أهل الغفلة عن الآخرة ، ولا غفلة لكامل العقل .

ولهذا لا يقدر على مخالطة الخلق ، لأنهم كأنهم من غير جنسه ، كما قال الشاعر :

مَا فِى الدِّيارِ أخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ
حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلٌّ نُجَارِيهِ

٢٧٤ - فصل : هل البعث للروح أم الجسد ؟

ادعى الطبائعيون أن مادة الموجودات الماء والتراب والنار والهواء، فإذا كان فى القيامة أذهب الأصول[١] ، ثم أعاد الله الحيوان[٢] ليعلم أنها كانت بالقدرة لا عن تأثير الكليات .

أقول : من قدح فى البعث فقد بالغ فى القدح فى الحكمة .

ومن قال : الروح عرض ، فقد جحد البعث ، لأن العرض لا يبقى[٣] والأجساد تصير ترابا ، فإن وجد شيء ، فهو ابتداء خلق .

---

(١) فى الحديثة : فنيت هذه الأصول المادية . والزيادة دون تنبيه .

(٢) فى الحديثة : الحياة الروحية — والحيوان : الحياة .

(٣) فى الحديثة : لا يبقى وحده .

كلا والله (بل)[1] يعيد النفس بعينها روحاً وجسداً بدليل إعادة مذكوراتها «قالَ قائِلٌ مِنهُمْ إنى كانَ لِى قرينٌ» .

وعزته ، إن لطفه فى البداية ، لدليل على النهاية .

حنن الوالدين ، وأجرى اللبن فى الثدى ، وأنشأ الأطعمة ، وأطلع العقل على العواقب .

أفيحسن أن يقال بعد هذا للتدبير ، إنه يهمل بعد الموت فلا يبعث[2] .

أترى من أحب أن يُعرَف فأنشأ الخلق وقال : «كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرَف» : يؤثر أن يعدمهم فيجهل قدره ؟

سبحان من أعمى أكثر القلوب عن معرفته .

٢٧٥ - فصل : الصنعة دليل على وجود الصانع

سبحان من ظهر لخلقه حتى لم يبق خفاء ، ثم خفى حتى كأنه لاظهور .

أى ظهور أجلى من هذه المصنوعات التى تنطق كلها[3] بأن لى صانعاً صنعنى ورتبنى على قانون الحكمة .

خصوصاً هذا الآدمى الذى أنشأه من قطرة ، وبناه على أعجب فطرة ، ورزقه الفهم والذهن واليقظة والعلم ، وبسط له المهاد ، وأجرى له الماء

---

(١) ساقطة من الحديثة . وفى الحديثة : كلا الله يعيد .

(٢) فى الحديثة : إنه يهمل العالم بعد الموت فلا يبعث أحداً .

(٣) فى الحديثة : كلها تنطق .

والريح ، وأنبت له الزرع ، ورفع له من فوقه السماء ، فأوقد له مصباح الشمس بالنهار ، وجاء بالظلمة ليسكن ، إلى غير ذلك ، مما لا يخفى .

وكله ينطق بصوت فصيح يدل على خالقه .

وقد تجلى الخالق سبحانه بهذه الأفعال ، فلا خفاء .

ثم بعث الرسل فقراء من الدنيا ، ضعاف الأبدان ، فقهرَ بهم الجبابرة ، وأظهر على أيديهم من المعجزات مالا يدخل تحت مقدور بشر .

وكل ذلك ينطق بالحق ، وقد تجلى سبحانه بذلك .

ثم يأتى موسى عليه السلام إلى البحر فينفرق ، فلا يبقى شك فى أن الخالق فعل هذا .

ويكلم عيسى عليه السلام الميت ، فيقوم .

ويبعث طيراً أبابيل تحفظ بيته ، فيهلك قاصديه .

وهذا أمر يطول ذكره ؛ كله يدل على تجلى الخالق سبحانه بغير خفاء .

فإذا ثبت عند العقلاء ذلك من غير ارتياب ولاشك ، ثم جاءت أشياء كأنها تستر الظاهر ، مثل ماسبق من تسليط الأعداء على الأولياء .

إذا ثبت التجلى بأدلة لاتحتمل التأويل ، علمت أن لهذا الخفاء سِرًّا لا نعلمه ، يفترض على العقل فيه التسليم للحكيم .

فمن سَلَّمَ سَلِم ، ومن اعترض هلك .

٢٧٦ - فصل : الاجتهاد فى معرفة الحق

قد يدّعى أهل كل مذهب الاجتهاد فى طلب الصواب وأكثرهم [١] لا يقصد إلا الحق ، فترى الراهب يتعبد ويتجوع ، واليهودىّ يذل ويؤدى الجزية .

وصاحب كل مذهب يبالغ فيه ويحتمل الضيم والأذى طلباً للهدى وتحصيل الأجر ـ فى اعتقاده ـ ومع هذا فيقطع بضلال الأكثرين .

وهذا قد يشكل . وإنما كشفه أنه ينبغى أن يطلب الهدى بأسبابه ، ويستعمل الاجتهاد بالإبانة [٢] .

فأما من فاتته الأسباب ، أو فقد بعض الآلات ، فلا يقال له مجتهد .

فاليهود والنصارى بين عالم قد عرف صدق نبينا صلى الله عليه وسلم لكنه يجحد إبقاء لرئاسته فهذا معاند ، وبين مقلد لا ينظر بعقله فهذا مهمل ، فهو يتعبد مع إهمال الأصل ، وذاك لا ينفع ، وبين ناظر منهم لا ينظر حق النظر ، فيقول: فى التوراة أن ديننا لا ينسخ . ونسخ الشرائع لاختلاف الأزمنة حق ، ولكنه يقول النسخ بداء ولا ينظر فى الفرق بينهما ، فينبغى أن ينظر حق النظر .

ومن هذا الجنس تعبد الخوارج مع اقتناعهم بعلمهم القاصر ، وهو قولهم : لاحكم إلا لله ، ولم يفهموا أن التحكيم من حكم الله فجعلوا قتال علىّ رضى الله عنه وقتله مبنياً على ظنهم الفاسد .

---

(١) فى الحديثة : وقد ترى أكثرهم .

(٢) فى الحديثة : بأدواته .

ولما نهب مسلم بن عقبة المدينة وقتل الخلق قال : إن دخلت النار بعد هذا إنى لشقى . فظن بجهله أنهم لما خالفوا بيعة يزيد يجوز استباحتهم وقتلهم .

فالويل لعامى قليل العلم لا يتهم نفسه فى واقعة ولا يذاكر من هو أعلم منه، بل يقطع بظنه ويقدم .

وهذا أصل ينبغى تأمله ، فقد هلك فى إهماله خلق لا تحصى . وقد رأينا خلقاً من العوام إذا وقع لهم واقعة لم يقبلوا فتوى « وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً »[1]

٢٧٧ — فصل : التقوى خير ذخيرة للنفس

للنفس ذخائر فى البدن ، منها الدم والمنى وأشياء تتقوى بها .

فإذا فقدت الذخائر ولم يبق منها شىء ذهبت .

ومن ذخائرها التقوِّى بالمال والجاه وما يوجب الفرح .

فإذا فقدت ذلك وكانت عزيزة ذات أنفة حرجت .

وقد يهجم عليها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يقاومه فتذهب .

ويغلب عليها الفرح فلا تجد من الحزن ما يقاومه فتذهب .

فاجتهد فى حفظ ذخائرها وخصوصاً الشيخ ، فإنه ينبغى له ألا يفرح بإخراج الدم ، ولا بإخراج المنى وإن وجد شبقاً ، إلا أن يكون الشبق زائداً فى الحد فيخرج المؤذى فى كل حين .

---

(١) الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الغاشية .

وعلامة أن يكون مؤذياً وجود الراحة عند خروجه ، فمتى وجد ضعفاً فقد آذى خروجه .

وليحفظ ذو الأنفة على نفسه حشمته ، بألا يقف فى موقف يعاب به ، فإنه يتمتع بذخيرة العز والأنفة ويضاد النفس وجود ضد ذلك[١] .

وكذلك ينبغى أن يستعد لآخر عمره بالمال مخافة أن يحتاج فيذل أو يسعى وقد كلت الآلة .

ولأن يخلف لعدوه ، أولى من أن يحتاج إلى صديقه .

ولا يلتفت إلى من يذم المال ، فإنهم الحمقى الجهال ، الذين اتكلوا على خبز الراحة ، فاستطابوا الكسل والدعة ، ولم يأنفوا من تناول الصدقة ، ولا من التعرض للسؤال .

وقد كان لكل نبى معاش ، ولجميع الصحابة ، وخلفوا أموالا كثيرة .

فافهم هذا الأصل ، ولا تلتفت إلى كلام الجهال .

٣٧٨ — فصل : الزهد الكاذب

رأيت فى زهاد زماننا من الكبر وحفظ الناموس[٢] ، ورتبة الجاه فى قلوب العامة ، ما كدت أقطع به أنهم أهل رياء ونفاق .

فترى أحدهم يلبس الثوب الذى يرى بعين الزهد ، ويأكل أطايب الطعام ، ويتكبر على أبناء الجنس ، ويصادق الأغنياء ، ويباعد الفقراء ، ويحب الخطاب

---

(١) فى الحديثة : غير ذلك .
(٢) أى عادات المظاهر .

بمولانا ، والمشى[١] بحاجبه ، ويضيع الزمان فى الهذيان ، ويتقوت بخدمة الناس له والتسليم عليه .

ولو أنه لبس ثوباً يخالطه بالفقهاء لذهب الجاه ولم يبق له متعلق . ولو أن أفعاله ناسبت ثيابه لهان الأمر ، لكنهم بهرجوا على من لا يخفى أمرهم عليه من الخلق ، فكيف الخالق سبحانه وتعالى ؟

٢٧٩ ـ فصل : التشاغل بالمعاش .

كثيراً ما أعيد هذا المعنى (الذى أنا ذاكره)[٢] فى هذا الكتاب بعبارات .

ينبغى للمؤمن أن يتشاغل بمعاشه ويرفق فى نفقته .

فإنه قد كان للعلماء شىء من بيت المال ورفق من الإخوان ، ومعونة من العوام . فانقطع الكل ، وبقى المتشاغل بالعلم أو التعبد مسكيناً ، خصوصاً ذو[٣] العائلة .

وما رأينا مثل هذا الزمان القبيح . فما بقى من يوماً إليه بمعونة ولا باستقراض فيحتاج الإنسان المؤمن أن يدخل فى مداخل لا تليق به ، وأن يتعرض بما لا يصلح .

فينبغى تقليل العائلة ، وتقويت القوت ، وترقيع الخلق .

وإن أمكن معاش فهو أولى من التشاغل بالتعبد والتعلم لفضول العلم ، وإلا ضاع الدين فى مداخل لا تصلح ، أو التعرض لبذل نذل .

---

(١) فى الحديثة : ويمشى .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .
(٣) خصوصا ذا العائلة . هكذا فى الحديثة .

٢٨٠ ـ فصل : لا يغني حذر عن قدر

ينبغي للعاقل أن يحترز غاية ما يمكنه ، فإذا جرى القدر مع احترازه لم يُلم .

والاحتراز ينبغي من كل شيء يمكن وقوعه ، وأخذ العدة لذلك واجب ، وهذا يكون في كل حال ، فقد قص رجل ظفره فجار عليه فخبثت يده فمات .

ومر شيخنا أحمد الحربي وهو راكب بمكان ضيق فتطأطأ على السرج فانعصر فؤاده ، فمرض فمات .

وكان يحيي بن نزار[1] شيخاً يحضر مجلسي قد طرق عليه ثقل الأذن ، فاستدعى طرقياً ، فمصّ أذنه فجرى شيء من مخه فمات .

وانظر إلى احتراز رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر على حائط مائل فأسرع .

ويلبغي أن يحترز بالكسب في زمن شبابه ادّخاراً لزمن شيبه .

ولا ينبغي أن يثق بمعامل إلا بوثيقة . يبادر[2] بالوصية مخافة أن يطرقه الموت ، ويحترز من صديقه فضلا عن[3] عدوه .

ولا يثق بمودة من قد آذاه هو ، فإن الحقد في القلوب قلما يزول .

وليحترز من زوجته ، فربما أطلعها على سره ، ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به .

---

(١) في ت : بزاز .
(٢) في الحديثة : وليبادر .
(٣) في الدمشقية : من .

وقد كان ابن أفلح الشاعر يكاتب رئيساً فى زمن المسترشد فعلم بذلك بوابه، واتفق أنه صرف بوابه فنمّ عليه ونقضت داره .

فهذه المذكرات أمثلة تنبه على مالم يذكر .

وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة ، وتحقيق التوبة ، قبل أن يهجم (عليه)[1] مالا يؤمن هجومه .

وليحذر من لص الكسل ، فإنه محتال على سرقة الزمان .

٢٨٩ ـ فصل : اللذات الحسية

تأملت خصومات الملوك ، وحرص التجار ، ونفاق المتزهدين ، فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس .

وإذا تفكر العاقل فى ذلك علم أن أمر الحسيات قريب يندفع بأقل شىء ، وأن الغاية منه لا يمكن نيلها .

وإن بالغ عاد بالأذى على نفسه[2] أضعاف ماناله من اللذة ، كمن يأكل كثيراً أو ينكح كثيراً .

فالسعيد من اهتم لحفظ دينه ، وأخذ من ذلك بمقدار الحاجة .

واعجباً ، هذا الملبوس إذا كان وسطا خدم، وإذا (٣) كان مرتفعاً خُدم .

فإن نظر اللابس إليه معجباً به ، فإنّ الله لا ينظر إليه حينئذ .

---

(١) ساقطة من الحديثة .
(٢) زاد فى الحديثة : فناله من الضر .
(٣) فى الحديثة : وإن .

وفى الصحيح : بينا رجل يتبختر فى بردته خسف به .

والمشروب إن كان حراماً ، فعقابه أضعاف لذته .

وهتك العرض بين الناس عقاب آخر .

وإن كان مباحاً ، فالشره فيه يؤذى البدن .

وأما المنكوح فمداراة المستحسن يؤذى فوق كل أذى.

ومقاساة المستقبح أشد أذى . فعليك بالتوسط .

وتفكر فى أحوال السلاطين كم[1] قتلوا ظلما ، وكم ارتكبوا حراما ؟ وما نالوا إلا يسيراً من لذات الحس .

فانقشع غيم العمر عن حسرات الفضائل[2] وحصول العقاب .

فليس فى الدنيا أطيب عيشاً من منفرد عن العالم بالعلم ، فهو أنيسه وجليسه قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة ، لا عن تكلف ولا تضييع دين ، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها ، والتحف بالقناعة باليسير ، إذ لم يقدر على الكثير ، فوجدته[3] يسلم دينه ودنياه .

واشتغاله بالعلم يدله على الفضائل ، ويفرحه فى البساتين ، فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة .

ولكن لا يصلح هـــذا إلا للعالم ، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط .

---

(١) فى الحديثة : كيف .

(٢) زاد فى الحديثة : الفائتة .

(٣) فى الحديثة بدل (فوجدته) بهذا الاستعفاف .

٢٨٢ ـ فصل : فضل الاعادة والحفظ

تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود ، وهو حرصهم على الكتابة ، خصوصا المحدثين ، فيستغرق ذلك زمانهم عن أن يحفظوا ويفهموا ، فيذهب العمر وقد عرَوا عن العلم إلا اليسير .

فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفا فى الإعادة والحفظ ، وجعل وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد .

والموفق من طلب المهم ، فإن العمر يعجز عن تحصيل الكل ، وجمهور العلوم الفقه . وفى الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه ، وكأنه ماحصل شيئاً . نعوذ بالله من الخذلان .

٢٨٣ ـ فصل : التثبت والنظر فى العواقب

ما اعتمد أحد أمراً إذا همّ بشيء مثل التثبت ، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم .

ولهذا أمر[١] بالمشاورة لأن الإنسان بالتثبت يفتكر[٢] فتعرض على نفسه الأحوال وكأنه شاور .

وقد قيل : خمير الرأى خير من فطيره .

وأشد الناس تفريطا من عمل مبادرة فى واقعة من غير تثبت ولا استشارة . خصوصاً فيما يوجبه الغضب، فإنه طلب الهلاك أو الندم[٣] العظيم .

---

(١) فى الحديثة : أمر الإنسان .

(٢) فى الحديثة : يطول تفكيره .

(٣) فى الحديثة : فإنه بنزقه طلب الهلاك أو استتبع الندم .

وكم من غضب فَقَتَلَ وضرب ، ثم لما سكن غضبه بقى طول دهره فى الحزن والبكاء والندم .

والغالب فى القاتل أنه يقتل فتفوته الدنيا والآخرة . فكذلك من عرضت له شهوة فاستعجل لديها ونسى عاقبتها .

فكم من ندم يتجرعه فى باقى عمره ، وعتاب يستقبله من بعد موته ، وعقاب لا يؤمن وقوعه .

كل ذلك للذة لحظة كانت كبرْق

فالله الله ، التثبت التثبت فى كل الأمور ، والنظر فى عواقبها .

خصوصاً الغضب المثير للخصومة وتعجيل الطلاق .

٢٨٤ ـ فصل : الكمال للخالق وحده

سألنى سائل ، قد قال بعض الحكماء : من لم يحترز بعقله هلك بعقله ، فما معنى هذا ؟ فبقيت مدة لا ينكشف لى المعنى ، ثم اتضح .

وذلك أنه إذا طلبت معرفة ذات الخالق سبحانه من العقل فزع إلى الحس فوقع التشبيه .

فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر ، فيعلم أنه لا يجوز أن يكون جسما ، ولا شبهاً لشىء .

وإذا نظر العاقل إلى أفعال البارى سبحانه ، رأى أشياء لا يقتضيها العقل ، مثل الآلام ، والذبح للحيوان ، وتسليط الأعداء على الأولياء ، مع القدرة على المنع ، والابتلاء بالمجاعة للصالحين ، والمعاقبة على الذنب بعد البعد بزلة ،

وأشياء كثيرة من هذا الجنس يعرضها العقل على العادات فى تدبيره ، فيرى أنه لا حكمة تظهر له فيها .

فالاحتراز من العقل به أن يقال له :

أليس قد ثبت عندى أنه مالك وأنه حكيم وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً ؟

فيقول : بلى .

فيقال: فنحن نحترز من تدبيرك الثانى بما ثبت عندك فى الأول .

فلم يبق إلا أنه خفىَ عليك وجه الحكمة فى فعله .

فيجب التسليم له ، لعلمنا أنه حكيم .

حينئذ يذعن ويقول : قد سلمت .

وكثير من الخلق نظروا لمقتضى واقع العقل الأول ، فاعترضوا .

حتى إن العامى يقول : كيف قضى على سوء عاقبتى ؟ ولمَ ضيق رزقى ؟

وما وجه الحكمة فى ابتلائى بفنون البلاء ؟

ولو أنه تلمح أنه مالك حكيم ، لم يبق إلا التسليم لما خفى .

ولقد أنس بديهة العقل خلق من الأكابر أولهم إبليس،فإنه رأى تفضيل النار على الطين ، فاعترض .

ورأينا خلقاً ممن نسب إلى العلم قد زلوا فى هذا واعترضوا ، ورأوا أن كثيراً من الأفعال لا حكمة تحتها .

والسبب ماذكرنا ، وهو الأنس بنظر العقل فى البديهة والعادات ،والقياس على أفعال المخلوقين ،

ولو استخرجوا علم العقل الباطن ، وهو أنه قد ثبت الكمال للخالق ، وانتفت عنه النقائص، وعلم أنه حكيم لا يعبث ، لبقى التسليم لما لا يُعقَل .

واعتبر هذا بحال الخضر وموسى عليهما السلام ، لما فعل الخضر أشياء تخرج عن العادات ، أنكر موسى ونسى إعلامه له بأنى أنظر فيما لا تعلمه من العواقب .

فإذا خفيت مصلحة العواقب على موسى عليه السلام مع مخلوق، فأولى أن يخفى علينا كثير من حكمة الحكيم .

وهذا أصل إن لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الاعتراض والكفر ، وإن ثبت استراح عند نزول كل آفة .

٢٨٥ ـ فصل : أعظم التوسل الى الله بالله

بلغنى عن بعض الكرماء أن رجلا سأله فقال : أنا الذى أحسنت إلىّ يوم كذا وكذا ، فقال : مرحباً بمن يتوسل إلينا بنا ، ثم قضى حاجته .

فأخذت من ذلك إشارة ، فناجيت بها فقلت : أنت الذى هديته من زمن الطفولة ، وحفظته من الضلال ، وعصمته عن كثير من الذنوب ، وألهمته طلب العلم لا بفهم لشرفه[١] ، لموضع الصغر ، ولا بحب والده[٢] ـ ورزقته فهماً لتفقهه وتصنيفه ، وهيأت له أسباب جمعه ، وقمت برزقه من غير تعب منه، ولا ذل للخلق بالسؤال ، وحاميت عنه الأعداء ، فلم يقصده جبار ، وجمعت

---

(١) فى الحديثة : لشرف العلم .

(٢) زاد فى الحديثة : لموت الوالد .

له ما لم تجمع لأكثر الخلق من فنون العلم ، التى لا تكاد تجتمع فى شخص ، وأضفت إليها تعلق القلب بمعرفتك ومحبتك ، وحسن العبارة[1] ولطفها فى الدلالة عليك ، ووضعت له فى القلوب القبول حتى أن الخلق يقبلون عليه ويقبلون ما يقوله ، ولا يشكّون فيه ، ويشتاقون إلى كلامه ، ولا يدركهم الملل منه ، وصلته بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح ، وآنسته فى خلوته بالعلم تارة ، وبمناجاتك أخرى . وإن ذهبت أعدّ لم أقدر على إحصاء عشير العشير « وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها »[2] .

فيا محسناً إلىّ قبل أن أطلب ، لا تخيّبْ أملى فيك وأنا أطلب .

فبإنعامك المتقدم أتوسل إليك .

٣٨٦ ـ فصل : شر البلاء عشق المال

سبحان من جعل الخلق بين طرَفْى نقيض ، والمتوسط منهم يندر .

منهم من يغضب فيقتل ويضرب .

ومنهم من هو أبله بقوة الحلم لا يؤثر عنده السب .

ومنهم شرِهٌ يتناول كل ما يشتهى .

ومنهم متزهد يتجفف فيمنع النفس حقها .

وكذلك سائر الأشياء المحمود منها المتوسط .

فالمنفق كل ما يجد مبذر ، والبخيل يخبىء المال ، ويمنع نفسه حظها .

---

(١) فى الدمشقية و ت : العبادة .

(٢) جزء من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم ، ١٨ من سورة النحل .

ومعلوم أن المال لا يراد لنفسه ، بل للمصالح ، فإذا بذر الإنسان فيه احتاج إلى بذل وجهه ودينه ، ومنّة البخلاء عليه ، وهذا لا يصلح .

ولأن يخلف الإنسان لعدوه ، أحسن من أن يحتاج إلى صديقه .

ومن الناس[١] من يبخل ، ثم يتفاوتون فى البخل حتى ينتهى البلاء بهم إلى عشق عين المال .

فربما مات أحدهم هزالا وهو لا ينفقه ، فيأخذه الغير ويندم المخلف .

ولقد بلغنى فى هذا ماليس فوقه مزيد ، ذكرته لتعتبر به .

فحدثنى شيخنا أبو الفضل بن ناصر عن شيخه عبد المحسن الصورى ، قال : كان بصور تاجر فى غرفة له يأخذ كل ليلة من البقال رغيفين وجوزة ، فيدخل إلى غرفته وقت المغرب ، فيضرم النار فى الجوزة ، فتضىء بمقدار ما ينزع ثوبه .

وفى زمان إحراق القشر تكون قد استوت فيمسح بها الرغيفين ويأكلهما .

فبقى على هذا مدة فمات ، فأخذ منه ملك صور ثلاثين ألفاً .

ورأيت أن رجلا[٢] من كبار العلماء قد مرض ، فاستلقى عند بعض أصدقائه ، ليس له من يخدمه ، ولا يرافقه ، وهو مضر[٣] فلما مات وجدوا بين كتبه خمسمائة دينار .

---

(١) فى الحديثة : وفى الناس .
(٢) فى الحديثة : ورأيت أنا .
(٣) فى الحديثة : وهو يتضرر به . والمراد : وهو مضر ، أى : مريض ،

وحدثني أبو الحسن الراندسي قال: مرض رجل عندنا، فبعث إليّ فحضرت، فقال: قد ختم القاضي على مالي، فقلت: إن شئت قمت وفتحت الختم وأعطيتك الثلث تفرقه وتعمل به ما تشاء.

فقال: لا والله ما أريد أن أفرقه، بل أريد مالي يكون عندي. فقلت: ما يعطونك (بلى) أنا[1] آخذ لك الثلث كي تكون حراً فيه.

فقال: لا أريد، فمات وأخذ ماله.

قال: وجاء رجل فحدثني بعجيبة، قال: مرضت حماتي، فقالت لي: أريد أن تشتري لي خبيصاً، فاشتريت لها، وكانت ملقاة في صفّة، ونحن في صفة أخرى.

فجاءني ولدي الصغير وقال: ياسيدي، إنها تبلع الذهب، فقمت. وإذا بها تجعل الدينار في شيء من الخبيص فتبلعه.

فأمسكت يدها، وزجرتها عن هذا.

فقالت: أنا أخاف أن تتزوج على بنتي، فقلت: ما أفعل، فقالت: احلف لي، فحلفت، فأعطتني باقي الذهب، ثم ماتت فدفنتها.

فلما كان بعد أشهر، مات لنا طفل، فحملناه إليها، وأخذت معي خرقة خام، وقلت للحفار: اجمع لي عظام تلك العجوز في الخرقة، فجئت بها إلى البيت، وتركتها في أجّانة، وصببت عليها الماء وحركتها، فأخرجت ثمانين ديناراً أو نحوها كانت قد ابتلعتها.

---

(١) ساقطة من الحديثة.

وحكى لى صديق لنا ، أن رجلا مات ودفن فى الدار ، ثم نبش بعد مدة ليخرج فوجد تحت رأسه لبنة مقيَّرة .

فسئل أهله عنها فقالوا : هو قيّر هذه اللبنة وأوصى أن تترك تحت رأسه فى قبره وقال : إن اللبن يبلى سريعا ، وهذه لموضع القار لاتبلى .

فأخذوها فوجدوها رزينة ، فكسروها فوجدوا فيها تسعمائة دينار فتولاها أصحاب التركات .

وبلغنى أن رجلا كان يكنس المساجد ، ويجمع ترابها ، ثم ضربه لبنا ، فقيل له هذا لأى شىء ؟ فقال : هذا تراب مبارك ، وأريد أن يجعلوه على لحدى ، فلما مات جعل على لحده ، ففضل منه لبنات ، فرموها فى البيت ، فجاء المطر فتفسخت اللبنات فإذا فيها دنانير .

فمضوا وكشفوا اللبن عن لحده وكله مملوء دنانير .

ولقد مات بعض أصدقائنا وكنت أعلم له مالاً كثيراً ، وطال مرضه فما أطلع أهله على شىء ولا أكاد أشك أنه من شحه وحرصه على الحياة، ورجائه أن يبقى لم يعلمهم بمدفونه ، خوفا أن يؤخذ فيحيا هو ، وقد أخذ المال .

وما يكون بعد هذا الخزى شىء .

وحدثنى بعض أصحابنا عن حالة شاهدها من هذا الفن . قال : كان فلان له ولدان ذكران وبنت وله ألف دينار مدفونة .

فمرض مرضاً شديداً فاحتوشته أهله ، فقال لأحد ابنيه : لا تبرح من عندى .

فلما خلا به قال له : إن أخاك مشغول باللعب بالطيور ، وإن أختك لها

زوج زكى ومتى وصل من مالى إليهما شىء أنفقوه فى اللعب ، وأنت على سيرتى وأخلاقى ، ولى فى الموضع الفلانى ألف دينار ، فإذا أنامت فخذها وحدك .

فاشتد بالرجل المرض فمضى الولد فأخذ المال فعوفى الأب ، فجعل يسأل الولد أن يرد المال إليه فلا يفعل ، فرض الولد (وأشفى)[1] فجعل الأب يتضرع إليه ويقول : ويحك خصصتك بالمال دونهم ، فتموت فيذهب المال ، ويحك لاتفعل ، فما زال به حتى أخبره بمكانه ، فأخذه ثم عوفى الولد ، ومضت مدة، فرض الأب ، فاجتهد الولد أن يخبره بمكان المال ، وبالغ فلم يخبره ، ومات وضاع المال .

فسبحان من أعدم هؤلاء العقول والفهوم ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلا سبيلا .

٢٨٧ ـ فصل : لاتنخدع بمن يظهر لك الود

كان لنا أصدقاء وإخوان أعتد بهم ، فرأيت منهم من الجفاء ، وترك شروط الصداقة والأخوة عجائب ، فأخذت أعتب .

ثم انتبهت لنفسى فقلت : وما ينفع العتاب ، فإنهم إن صلحوا فللعتاب لا للصفاء .

فهممت بمقاطعتهم ، ثم تفكرت فرأيت الناس بين معارف وأصدقاء فى الظاهر وإخوة مباطنين ، فقلت : لا تصلح مقاطعتهم .

إنما ينبغى أن تنقلهم من ديوان الأخوة ، إلى ديوان الصداقة الظاهرة .

فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف ، وعاملتهم معاملة المعارف ، ومن الغلط أن تعاتبهم .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

فقد قال يحيي بن معاذ : بئس الأخ أخ تحتاج أن تقول له اذكرني في دعائك .

وجمهور الناس اليوم معارف ، ويندر فيهم صديق في الظاهر ، فأما الأخوة والمصافاة فذاك شيء نسخ ، فلا يطمع فيه .

وما أرى الإنسان تصفو له أخوة من النسب ولا ولده ولا زوجته .

فدع الطمع في الصفا ، وخذ عن الكل جانباً ، وعاملهم معاملة الغرباء .

وإياك أن تنخدع بمن يظهر لك الود ، فإنه مع الزمان يبين لك الحال فيما أظهره ، وربما أظهر لك ذلك لسبب يناله منك .

وقد قال الفضيل بن عياض : إذا أردت أن تصادق صديقاً فأغضبه ، فإن رأيته كما ينبغي فصادقه .

وهذا اليوم مخاطرة ، لأنك إذا أغضبت أحداً صار عدواً في الحال .

والسبب في نسخ حكم الصفا ، أن السلف كان همتهم الآخرة وحدها ، فصفت نياتهم في الأخوة والمخالطة ، فكانت ديناً لا دنيا .

والآن فقد استولى حب الدنيا على القلوب ، فإن رأيت متملقاً في باب الدين فاخبره تقله .

٢٨٨ ـ فصل : النفس تطلب مالا تقدر عليه

رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا في المرض ، كما لا يعرف شكر الإطلاق إلا في الحبس .

وتأملت على الآدمي حالة عجيبة ، وهو أن تكون معه امرأة لا بأس بها ، إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلقاً يلتذ به .

ولذلك سببان : أحدهما :أن تكون غير غاية فى الحسن. والثانى : أن كل مملوك مكروه ، والنفس تطلب مالا تقدر عليه .

فتراه يضج ويشتهى شيئاً يحبه أو امرأة يعشقها ، ولا يدرى أنه إنما يطلب قيداً وثيقاً ، يمنع القلب من التصرف فى أمور الآخرة ، أو فى أى علم أو عمل ، ويخبطه فى تصريف الدنيا ، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق ، همه كله معه .

فالعجب لمطلق يؤثر القيد ، ومستريح يؤثر التعب .

فإن كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ ، فالويل له ، لا قرار له ، ولا سكون .

وإن كانت من المتبرجات اللواتى لا يؤمن فسادهن ، فذاك هلاكه بمرة .

فلا هو إن نام يلتذ بنومه ، ولا إن خرج من الدار يأمن (من)[1] محنة .

وإن كانت تريد نفقة واسعة وليس له ، فكم يدخل مدخل سوء لأجلها .

وإن كانت تؤثر الجماع وقد علت سنه ، فذاك الهلاك العظيم .

وإن كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية ، فيكون هذا ساعياً فى تلف نفسه ، كما قال القائل :

نُحِبُّ القُدُودَ ونَهْوَى الخُدُود

وَنَعْلَمُ أنّا نُحِبُّ المَنُونَا

وهذا على الحقيقة كعابد صنم .

فليتق الله من عنده امرأة لا بأس بها ، وليعرض عن حديث النفس ومناها فما له منتهى .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

ولو حصل له غرضه كما يريد ، وقع الملل وطلب ثالثة .

ثم يقع الملل ويطلب رابعة ، وما لهذا آخر .

إنما يفيده ذلك فى العاجلة تعلق قلبه وأسر لبه ، فيبقى كالمبهوت .

فكره كله فى تحصيل ما يريد محبوبه ، فإن جرت فرقة أو آفة ، فتلك الحسرات الدائمة ، إن بقى ، أو التلف عاجلا .

وأين(١) المستحسن المصون الدين القنوع المحب لمن يحبه(٢) هذا أقل من الكبريت الأحمر .

فلينظر فى تحصيل ما يجمع معظم الهم ، ولا يلتفت إلى سواد الهوى وغاية المنى ، يسلم .

٢٨٩ — فصل : إنما يخشى الله من عباده العلماء

إذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملا ، وإنما يرى إنعام الموفق لذلك العمل الذى يمنع العاقل أن(٣) يرى لنفسه عملا أو يعجب به .

وذلك بأشياء : منها أنه وفق لذلك العمل « حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وَزَيَّنَهُ فِى قلوبكم »(٤) .

ومنها : أنه إذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عشرها .

---

(١) فى الحديثة : ثم إن الحبيب المستحسن . وهو خطأ .
(٢) فى الحديثة : القنوع بمن يحبه .
(٣) فى الحديثة : ويجب على العاقل ألا يرى لنفسه . تحريف .
(٤) جزء من الآية ٧ من سورة الحجرات .

ومنها : أنه إذا لوحظت عظمة المخدوم ، احتقر كل عمل وتعبّد .

هذا إذا سلم من شائبة وخلص من غفلة ، فأما والغفلات تحيط به ، فينبغى أن يغلب الحذر من رده ، ويخاف العتاب على التقصير فيه ، فيشتغل عن النظر إليه .

وتأمل على الفطناء أحوالهم فى ذلك ، فالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون قالوا : ما عبدناك حق عبادتك .

والخليل عليه السلام يقول : « وَالذِى أطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لِى[1] » ، وما أدل بتصبُّره على النار وتسليمه الولد إلى الذبح .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما منكم من ينجيه عمله . قالوا : ولا أنت ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

وأبو بكر رضى الله عنه يقول : وهل أنا ومالى إلا لك يارسول الله .

وعمر رضى الله عنه يقول: لو أن لى طلاع الأرض لافتديت بها من هول ما أمامى قبل أن أعلم ما الخبر .

وابن مسعود يقول : ليتنى إذا مت لا أبعث .

وعائشة رضى الله عنها تقول: ليتنى كنت نسياً منسياً .

وهذا شأن جميع العقلاء فرضى الله عن الجميع .

وقد روى عن قوم من صلحاء بنى إسرائيل ما يدل على قلة الأفهام لما شرحته ، لأنهم نظروا إلى أعمالهم فأدلُّوا بها . فمنه حديث العابد الذى تعبد خمسمائة سنة فى جزيرة ، وأخرج له كل ليلة رمانة ، وسأل الله تعالى

---

(١) جزء من الآية ٨٢ من سورة الشعراء .

أن يميته فى سجوده ، فإذا حشر قيل له ادخل الجنة برحمتى ، قال : بل بعملى ، فيوزن جميع عمله بنعمة واحدة فلا يفى ، فيقول : يارب برحمتك .

وكذلك أهل الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ، فإن أحدهم توسل بعمل كان ينبغى أن يستحيي من ذكره ، وهو أنه عزم على الزنا ، ثم خاف العقوبة فتركه .

فليت شعرى بماذا يُدِلُّ من خاف أن يعاقب على شيء فتركه تخوف العقوبة.

إنما لو كان مباحاً فتركه كان فيه مافيه. ولو فهم لشغله خجل الهمة عن الإدلال، كما قال يوسف عليه السلام : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي [1] » .

والآخر ترك صبيانه يتضاغون إلى الفجر ليسقى أبويه اللبن . وفى [2] هذا البر أذى للأطفال ، ولكن الفهم عزيز .

وكأنهم لما أحسنوا — قال لسان الحال : أعطوهم ما طلبوا ؛ فإنهم يطلبون أجرة ما عملوا .

ولولا عزة الفهم ما تكبر متكبر على جنسه ، ولكان كل كامل خائفاً محتقراً لعمله ، حذراً من التقصير فى شكر ما أنعم عليه .

وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبر ، ويوجب مساكنة الذل . فتأمله فإنه أصل عظيم .

٢٩٠ - فصل : الخوف من الذنوب ولو بعد التوبة .

ينبغى للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكى عليها .

---

(١) جزء من الآية ٥٣ من سورة يوسف .

(٢) فى الحديثة : وفى ضمن هذا البر .

وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة ، وكأنهم قد قطعوا على ذلك .

وهذا أمر غائب ، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها .

ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح : أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام فيقولون : اشفع لنا فيقول: ذنبي. وإلى نوح عليه السلام فيقول: ذنبي ، وإلى إبراهيم ، وإلى موسى ، وإلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم .

فهؤلاء إذا اعتبرت ذنوبهم لم يكن أكثرها ذنوباً حقيقة .

ثم إن كانت فقد تابوا منها واعتذروا ، وهم بعد على خوف منها .

ثم إن الخجل بعدقبول التوبة لايرتفع .وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : واسوأتاه منك وإن عفوت . فأف والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لا تزول عن قلب المؤمن وإن غفر له .

فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلا .

وهذا أمر قلّ أن ينظر فيه تائب أو زاهد ، لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة .

وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل .

٢٩١ - فصل : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم

نعوذ بالله من سوء الفهم وخصوصاً من المتسمين بالعلم .

روى أحمد في مسنده أنه تنازع أبو عبدالرحمن السلمي وحيان بن عبدالله، فقال أبو عبد الرحمن لحيان : قد علمت ما الذي حدا صاحبك ، يعني علياً .

قال : ماهو ؟ .

قال : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وهذا سوء فهم من أبي عبدالرحمن حين ظن أن علياً قاتل وقتل اعتماداً على أنه غفر له .

وينبغي أن يعلم أن معنى الحديث : لتكن أعمالكم المتقدمة ما كانت ، فقد غفرت لكم .

فأما غفران ما سيأتي فلا يتضمنه ذلك ، أتراه لو وقع من أهل بدر — وحاشاهم — الشرك — إذ ليسوا بمعصومين — أما كانوا يؤاخذون به ؟ فكذلك المعاصي .

ثم لو قلنا : إنه يتضمن غفران ما سيأتي ، فالمعنى أن مآ لكم إلى الغفران .

ثم دعنا من معنى الحديث ، كيف يحل لمسلم أن يظن في أمير المؤمنين على رضى الله عنه (أنه)[1] فعل مالا يجوز اعتماداً على أنه سيغفر له ؟ حوشى من هذا .

وإنما قاتل بالدليل المضطر له إلى القتال ، فكان على الحق .

ولا يختلف العلماء أن علياً رضى الله عنه لم يقاتل أحداً إلا والحق مع علي.

كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أدر معه الحق كيفما دار » .

فقد غلط أبو عبد الرحمن غلطا قبيحاً ، حمله عليه أنه كان عثمانياً . . .

٢٩٢ ـ فصل : الزهد بلا اخلاص

تأملت على متزهدى زماننا أشياء تدل على النفاق والرياء ، وهم يدعون الإخلاص .

---

(١) ساقطة من الحديثة .

منها أنهم يلتزمون[1] زاوية فلا يزورون صديقاً ، ولا يعودون مريضاً ، ويدعون أنهم يريدون الانقطاع عن الناس اشتغالا بالعبادة .

وإنما هى إقامة نواميس ليشار إليهم بالانقطاع ، إذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتهم .

وماكان الناس كذلك ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويشترى الحاجة من السوق . وأبو بكر رضى الله عنه يتجر فى البز . وأبو عبيدة ابن الجراح يحفر القبور . وأبو طلحة أيضاً . وابن سيرين يغسل الموتى . وماكان عند القوم إقامة ناموس .

وأصحابنا يلزمون الصمت بين الناس والتخشع والتماوت، وهذا هو النفاق .

فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار ، وبين الناس ، ويبكى بالليل .

وقد رأيت من المتزهدين من يلزم المسجد ويصلى فيجتمع الناس فيصلون بصلاته ليلا ونهاراً ، وقد شاع هذا له ، فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة .

والنبى صلى الله عليه وسلم قال فى صلاة التطوع : اجعلوا هذه فى البيوت .

وفى أصحابنا من يظهر الصوم الدائم ، ويتقوت بقول الناس : فلان مايفطر أصلا .

وهذا الأبله مايدرى أنه لأجل الناس يفعل ذلك ، لولا هذا كان يفطر والناس يرونه يومين أو ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسم ثم يعود إلى الصوم .

وقد كان إبراهيم بن أدهم إذا مرض يترك عنده من الطعام مايأكله الأصحاء .

---

(١) فى الحديثة : يلزمون .

ورأيت فى زهادنا من يصلى الفجر يوم الجمعة بالناس ، ويقرأ المعوذتين . والمعنى قد ختمت !!! .

فإن هذه الأعمال هى صريحة فى النفاق والرياء .

وفيهم من يأخذ الصدقات وهو غنى ، ولا يبالى أخذ من الظلمة أو من أهـــل الخير ، ويمشى إلى الأمراء يسألهم ، وهو يدرى من أين حصلت أموالهم .

فالله الله فى إصلاح النيات ، فإن جمهور هذه الأعمال مردود .

قال مالك بن دينار : وقولوا لمن لم يكن صادقا لا يتعنى .

وليعلم المرائى أن الذى يقصده يفوته ، وهو التفات القلوب إليه .

فإنه متى لم يخلص حرم محبة القلوب ، ولم يلتفت إليه أحد ، والمخلص محبوب .

فلو علم المرائى أن قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه ، لما فعل .

وكم رأينا من يلبس الصوف ويظهر النسك لا يلتفت إليه ، وآخر يلبس جيد الثياب ويتبسم والقلوب تحبه .

نسأل الله عز وجل إخلاصاً يخلصنا ، ونستعيذ به من رياء يبطل أعمالنا إنه قادر .

٢٩٣ - فصل : ليس لك من الأمر شىء

من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف ، فإنه موضوع على عكس الأغراض .

فينبغى للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض . فإن دعا وسأل بلوغ غرض تعبد الله بالدعاء .

فإن أعطى مراده شكر ، وإن لم ينل مراده فلا ينبغى أن يلح فى الطلب، لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض ، وليقل لنفسه « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[1] » .

من أعظم الجهل أن يمتعض فى باطنه لانعكاس أغراضه ، وربما اعترض فى الباطن ، أو ربما قال : حصول غرضى لا يضر ، ودعائى لم يستجب .

وهذا كله دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة .

ومن الذى حصل له غرض ثم لم يكدر ؟

هذا آدم طاب عيشه فى الجنة وأخرج منها .

ونوح سأل فى ابنه فلم يعط مراده . والخليل ابتلى بالنار . واسماعيل بالذبح ويعقوب بفقد الولد . ويوسف بمجاهدة الهوى ، وأيوب بالبلاء . وداود وسليمان بالفتنة ، وجميع الأنبياء على هذا .

وأما ما لقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم .

فالدنيا وضعت للبلاء ، فينبغى للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر ، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فلطف ، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا ، كما قيل :

---

(١) جزء من الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
صَفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وهاهنا تتبين قوة الإيمان وضعفه ،فليستعمل المؤمن من أدويةهذا المرض التسليم للمالك ، والتحكيم لحكمته .

وليقل : قد قيل لسيد الكل : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ[1] » .

ثم ليسلِّ نفسه بأن المنع ليس عن بخل ، وإنما هو لمصلحة لايعلمها ، وليؤجر الصابر عن أغراضه ، وليعلم الله الذين سلموا ورضوا .

وإن زمن[2] الابتلاء مقدار يسير ، والأغراض مدخرة تلقى بعد قليل ، وكأنه بالظلمة قد انجلت ، وبفجر الأجر قد طلع .

ومتى ارتقى فهمه إلى أن ماجرى مراد الحق سبحانه ، اقتضى إيمانه أن يريد مايريد ، ويرضى بما يقدر ، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجا عن حقيقة العبودية فى المعنى .

وهذا أصل ينبغى أن يتأمل ويعمل عليه فى كل غرض انعكس .

٢٩٤ ـ فصل : التعفف عن مال الحكام

رأيت خلقاً من العلماء والقصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة

---

(١) جزء من الآية ١٢٨ من سورة آل عمران .
(٢) فى الحديثة ؛ ثم إن زمن .

السلاطين ، لينالوا من أموالهم ، وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها ، ولا يخرجونها فى حقها .

فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغى أن يصرف إلى المصالح وهبه لشاعر .

وربما كان معه جندى يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فأعطاه عشرة آلاف .

وربما غزا فأخذ ما ينبغى أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه .

هذا غير ما يجرى من الظلم فى المعاملات .

وأول ما يجرى على ذاك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه ، وقد رأى بعض الصالحين رجلا عالما يخرج من دار يحي بن خالد البرمكى ، فقال : أعوذ بالله من علم لا ينفع .

ألم ير[1] المنكرات ولا ينكر[2] ، ويتناول[3] من طعامهم الذى لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبه[4] ويحرم لذة المعاملة للحق سبحانه ، ثم لا يقدر لك أن يهتدى بك أحد . بل ربما كان فعل هذا سبباً لإضلال الناس وصرفهم عن الاقتداء به ، فهو يؤذى نفسه ويؤذى أميره ، لأنه يقول : لولا أننى على صواب ما صحبنى ولا نكر علىّ .

---

(١) فى الحديثة : ألم تر .

(٢) فى الحديثة : تنكر .

(٣) فى الحديثة : وتتناول .

(٤) فى الحديثة : قلبك .

ويؤذى العوام تارة بأن يروا أن ما فيه الأمير صواب ، وتارة بأن الدخول عليه والسكوت عن الإنكار جائز .

أو يحبب إليهم الدنيا ، ولا خير والله فى سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة .

وأنا أفتدى أقواماً صابروا عطش الدنيا فى هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضى ، وبقيت أذكارهم تروى ، فتروى صدأ القلوب وتجلو صداها .

هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقاط ولا يقبل مال سلطان .

هذا إبراهيم الحربى يتغذى بالبقل ويردّ على المعتصم ألف دينار .

هذا بشر الحافى يشكو الجوع ، فيقال له : يصنع لك حساء من دقيق ؟

فيقول : أخاف أن يقول الله لى : هذا الدقيق من أين لك ؟

بقيت والله أذكار القوم ، وما كان الصبر إلا غفوة نوم .

ومضت لذات المترخصين وبليت الأبدان ، ووهن الدين .

فالصبر الصبر يامن وفق ، ولا تغبطن من اتسع له أمر الدنيا .

فإنك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقاً فى باب الدين .

ولا ترخص لنفسك فى تأويل ، فعمرك فى الدنيا قليل :

وَسَوَاءٌ إِذَا انقَضَى يَوْمُ كِسْرَى
فِى سُرُورٍ وَيَوْمِ صَابِرٍ كِسْرَه

ومتى ضجت النفس لقلة صبر ، فاتل عليها أخبار الزهاد ، فإنها ترعوى وتستحيى وتنكسر ، إن كانت لها همة أو فيها يقظة .

ومثل لها بين ترخص على بن المديني وقبوله مـــال ابن أبي داود ، وصبر أحمد .

وكم بين الرجلين والذكرين .

وانظر ما يروى عن كل واحد منهما وما يذكران به .

وسيندم ابن المديني إذا قال أحمد : سلم لى ديني .

٢٩٥ ـ فصل : لا تغرك تأخير العقوبة

تأملت أحوال الناس فرأيت جمهورهم منسلا من ربقة العبودية .

فإن تعبَّدُوا فعادةً أو فيما لا ينافى أغراضهم منافاة تؤذى القلوب .

فأكثر السلاطين يحصلون الأموال من وجوه ردية، وينفقونها فى وجوه لاتصلح .

وكأنهم قد تملكوها ، وليست مال الله، إذا[1] غزا أحدهم ـ باسمه ـ فغنم الأموال اصطفاها لنفسه ، وأعطاها أصحابه كيف اشتهى .

والعلماء لقوة فقرهم وشدة شرههم ، يوافقون (الأمراء)[2] وينخرطون فى سلكهم .

والتجار على العقود الفاسدة ، والعوام فى المعاصى والإهمال لجانب الشريعة .

فإن فات بعض أغراضهم فربما قالوا : ما نريد نصلى ، لا صلى الله عليهم .

---

(١) فى الحديثة : الذى إذا غزا .

(٢) ساقطة من الحديثة .

وقد منعوا الزكاة وتركوا الأمر بالمعروف .

فمن الناس من يغره تأخير العقوبة ، ومنهم من كان يقطع بالعفو، وأكثرهم متزلزل الإيمان ، فنسأل الله أن يميتنا مسلمين .

٢٩٦ - فصل : ومن يتق الله يجعل له مخرجا

من العجيب سلامة دين ذى العيال إذا ضاق به الكسب ، فما مثله إلا كمثل الماء إذا ضرب فى وجهه سكر[1] ، فإنه يعمل باطناً ويبالغ حتى يفتح فتحة .

فكذلك صاحب العيال إذا ضاق به الأمر لا يزال يحتال ، فإذا لم يقدر على الحلال ، ترخص فى تناول الشبهات ، فإن ضعف دينه مدّ يده إلى الحرام .

فالمؤمن إذا علم ضعفه عن الكسب اجتهد فى التعفف عن النكاح، وتقليل النفقة إذا حصل الأولاد ، والقناعة باليسير .

فأما من ليس له كسب كالعلماء والمتزهدين، فسلامتهم ظريفة ، إذ قد انقطعت موارد السلاطين عنهم ، ومراعاة العوام لهم ، فإذا كثرت عائلتهم لم يؤمن عليهم شر ما يجرى على الجهال .

فمن قدر منهم على كسب بالنسخ وغيره فليجتهد فيه مع تقليل النفقة والقناعة باليسير .

فإنه من ترخص منهم اليوم أكل الحرام ، لأنه يأخذ من الظلمة خصوصاً بحجة التمسّس والتزهد .

---

(١) أى : سد .

ومن كان له منهم مال فليجتهد فى تنميته وحفظه ، فما بقى من يؤثر ولا من يقرض .

وقد صار الجمهور بل الكل كأنهم يعبدون المال ، فمن حفظه حفظ دينه.

ولا يلتفت إلى قول الجهلة الذين يأمرون بإخراج المال ، فما هذا وقته .

واعلم أنه إذا لم يجتمع الهمّ ، لم يحصل العلم ولا العمل ولا التشاغل بالفكر فى عظمة الله .

وقد كان همّ القدماء يجتمع بأشياء جمهورها أنه كان لهم من بيت المال نصيب فى كل عام .

وكان يصلهم فيفضل عنهم .

وفيهم من كان له مال يتّجر به كسعيد بن المسيب، وسفيان، وابن المبارك، وكان همه مجتمعاً ، وقد قال سفيان فى ماله : لولاك لتمندلوا بى !!

وفقدت بضاعة لابن المبارك فبكى وقال : هو قوام دينى .

وكان جماعة يسكنون إلى عطاء الإخوان الذين لا يمنـون .

وكان ابن المبارك يبعث إلى الفضل وغيره ، وكان الليث بن سعد يتفقد الأكابر ، فبعث إلى مالك ألف دينار ، وإلى ابن لهيعة ألف دينار ، وأعطى منصور بن عمار ألف دينار وجارية بثلاثمائة دينار .

وما زال الزمان على هـذا إلى أن آل الأمر إلى انمحاق ذلك ، فقلت عطايا السلاطين ، وقلّ من يؤثر من الإخوان .

إلا نه كان فى ذلك القليل ما يدفع الزمان [1] .

---

(١) فى الحديثة : عض الزمان .

فأما زماننا هذا ، فقد انقبضت الأيدى كلها ، حتى قلّ من يخرج الزكاة الواجبة ، فكيف يجتمع همّ من يريد من العلماء والزهاد أن يعمل همه ليلا ونهاراً فى وجوه الكسب وليس من شأنه هذا ولا يهتدى له .

فقد رأينا الأمر أخرج إلى التعرض للسلاطين والترخص فى أخذ ما لا يصلح وأخرج [1] المتزهدين إلى التصنع لتحصيل الدنيا .

فالله الله يامن يريد حفظ دينه ؛ قد كررت عليك الوصية بالتقليل جهدك ، وخفف العلائق مهما أمكنك ، واحتفظ بدرهم يكون معك فإنه دينك ، وافهم ما قد شرحته ، فإن ضجت النفس لمراداتها فقل لها : إن كان عندك إيمان فاصبرى ، وإن أردت التحصيل لما يفنى ببذل الدين فما ينفعك .

فتفكرى فى العلماء الذين جمعوا المال من غير وجهه وفى المتمسين ذهب دينهم ، وزالت دنياهم .

وتفكرى فى العلماء الصادقين كأحمد وبشر ، اندفعت الأيام وبقى لهم حسن الذكر .

وفى الجملة « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [2] » .

ورزق الله قد يكون بتيسير الصبر على البلاء والأيام تندفع .
وعاقبة الصبر الجميل جميلة .

---

(١) فى الحديثة : وأحوج فى الفقرة كلها .
(٢) جزء من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

٢٩٧ ـ فصل : انما تؤتى البيوت من أبوابها

شكا لى رجل من بغضه لزوجته ثم قال : ما أقدر على فراقها لأمور ، منها كثرة دَينها علىّ ، وصبرى قليل ، ولا أكاد أسلم من فلتات لسانى فى الشكوى ، وفى كلمات تعلم بغضى لها .

فقلت له : هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها ، فينبغى أن تخلو بنفسك فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك ؛ فتبالغ فى الاعتذار والتوبة .

فأما التضجر والأذى لها فما ينفع كما قال الحسن بن الحجاج : عقوبة من الله لكم ؛ فلا تقابلوا عقوبته بالسيف ؛ وقابلوها بالاستغفار .

واعلم أنك فى مقام مبتلى ، ولك أجر بالصبر « وَعَسى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[(١)] » .

فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى ، واسأله الفرج .

فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب ، والصبر على القضاء ، وسؤال الفرج ، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها .

ولا تضيع الزمان بشىء لا ينفع ، ولا تحتل ظاناً منك أنك تدفع ماقدّر ، « وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضرّ فلا كاشف له إلا هو » .

وقد روينا أن جندياً نزل يوما فى دار أبى يزيد ، فجاء أبو يزيد فرآه ، فوقف وقال لبعض أصحابه : أدخل إلى المكان الفلانى ، فاقلع الطين الطرى ؛ فإنه من وجه فيه شبهة ، فقلعه ، فخرج الجندى .

وأما أذاك للمرأة فلا وجه له ، لأنها مسلطة فليكن شغلك بغير هذا .

---

(١) جزء من الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

وقد روى عن بعض السلف أن رجلا شتمه فوضع خده على الأرض وقال : اللهم اغفر لى الذنب الذى سلطت هذا به على .

قال الرجل : وهذه المرأة تحبنى زائداً فى الحد، وتبالغ فى خدمتى ، غير أن البغض لها مركوز فى طبعى .

قلت له : فعامل الله سبحانه بالصبر عليها ، فإنك تثاب .

وقد قيل لأبى عثمان النيسابورى : ما أرجى عملك عندك ؟

قال : كنت فى صبوتى يجتهد أهلى أن أتزوج فآبى .

فجاءتنى امرأة ، فقالت : ياأبا عثمان ، إنى قد هَوَيْتُكَ ، وأنا أسألك بالله أن تتزوجنى .

فأحضرت أباها — وكان فقيراً — فزوجنى [1] وفرح بذلك .

فلما دخلت إلىّ رأيتها عوراء عرجاء مشوهة .

وكانت لمحبتها لى تمنعنى من الخروج ، فأقعد حفظا لقلبها ، ولا أظهر لها من البغض شيئاً ، وكأنى على جمر الغضا من بغضها .

فبقيت هكذا خمس عشرة سنة ، حتى ماتت ، فما من عملى شىء هو أرجى عندى من حفظى قلبها .

قلت له : فهذا عمل الرجال ، وأى شىء ينفع ضجيج المبتلى بالتضجر بإظهار البغض [2] .

وإنما طريقه ما ذكرته لك من التوبة والصبر ، وسؤال الفرج .

---

(١) فى الحديثة : فزوجنى منها .

(٢) فى الحديثة : وإظهار .

وتذكر ذنوباً كانت هذه عقوبتها [١] .

فإن وقع فرج فى الحساب [٢] وإلا فاستعمال الصبر على القضاء عبادة .

وتكلف إظهار المودة لها وإن لم تكن فى قلبك تثبتْ على هذا .

وليس للقيد ذنب فيلام [٣] ، إنما ينبغى التشاغل مع من قيده [٤] والسلام

٢٩٨ ـ فصل : طاعة الله يفتقر الى جمع الهم

لاريب أن القلب المؤمن بالإله سبحانه وبأوامره يحتاج إلى الإنعكاف على ذكره وطاعته وامتثال أوامره ، وهذا يفتقر إلى جمع الهم .

وكفى بما وضع فى الطبع من المنازعة إلى الشهوات مشتتاً للهم المجتمع .

فينبغى للإنسان أن يجتهد فى جمع همه لينفرد قلبه بذكر الله سبحانه وتعالى وإنفاذ أوامره والتهيؤ للقائه .

وذلك إنما يحصل بقطع القواطع ، والامتناع عن الشواغل .

وما يكن قطع القواطع جملة ، فينبغى أن يقطع ما يمكن منها .

وما رأيته مشتتاً للهمّ ، مبدداً للقلب مثل شيئين :

أحدهما : أن تطاع النفس فى طلب كل شىء تشتهيه وذلك لا يوقف على حد فيه ، فيذهب الدين والدنيا ولا ينال كل المراد .

---

(١) فى الحديثة زيادة : وبالغ فإن وقع .
(٢) فى الحديثة : فرج فى شىء كان ، ليس فى الحساب .
(٣) فى الحديثة : القيد ذنبا .
(٤) فى الحديثة : من قيدك به .

مثل أن تكون الهمة فى المستحسنات أو فى جمع المال أو فى طلب الرياسة، وما يشبه هذه الأشياء .

فيا له من شتات لا جامع له ، يذهب العمر ولا ينال بعض المراد منه .

والثانى : مخالطة الناس خصوصا العوام والمشى فى الأسواق، فإن الطبع يتقاضى بالشهوات وينسى الرحيل عن الدنيا ، ويحب الكسل عن الطاعة ، والبطالة والغفلة والراحة .

فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة .

ولا يزال يخالطهم حتى تهون عليه الغيبة وتضييع الساعات فى غير شىء .

فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة بحيث لا يسمع صوت أحد ، فحينئذ يخلو القلب بمعارفه ، ولا تجد النفس رفيقاً مثل الهوى يذكرها ما تشتهى .

فإذا اضطر إلى المخالطة كان على وفاق ، كما تهوى الضفدع لحظة ثم تعود إلى الماء ، فهذه طريق السلامة .

فتأمل فوائدها تطب لك .

٢٩٩ ـ فصل : لاتسبوا الدهر

ما رأت عينى مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان ، وعيبهم للدهر .

وقد كان هذا فى الجاهلية ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » .

ومعناه أنتم تسبون من فرق شملكم ، وأمات أهاليكم ، وتنسبونه إلى الدهر ، والله تعالى هو الفاعل لذلك .

فتعجبت كيف أعلم[1] أهل الأسقام بهذه الحال ، وهم على ما كان أهل الجاهلية عليه ما يتغيرون ، حتى ربما اجتمع الفطناء الأدباء الظراف على زعمهم فلم يكن لهم شغل إلا ذم الدهر .

وربما جعلوا الله الدنيا ، ويقولون : فعلت وصنعت ، حتى رأيت لأبى القاسم الحريرى يقول :

وَلَمَّا تَعَامَى الدَّهرُ وَهْوَ أبو الرَّدَى
عَنِ الرُّشْدِ فِى أنحائِهِ وَمَقَاصِدِهْ
تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إنِّى أخُو عَمىً
وَلا غَرْوَ أنْ يَحْذُو الفَتَى حَذْوَ والدِهْ

وقد رأيت خلقاً يعتقدون أنهم فقهاء وفهماء ولا يتحاشون من هذا .

وهؤلاء إن أرادوا بالدهر مرور الزمان ، فذاك لا اختيار له ولا مراد ولا يعرف رشداً من ضلال ، ولا ينبغى أن يلام .

فإنه زمان مدبَّر لا مُدَبِّر ، فيُتصرف فيه ولا يتصرف[2] .

وما يظن بعاقل أن يشير إلى أن المذموم[3] المعرض عن الرشد ، السىء الحكم ، هو الزمان .

فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربقة الإسلام ، ونسبوا هذه القبائح إلى

---

(١) فى الحديثة : كيف علم .
(٢) فى الحديثة : ولا يتصرف بأحد .
(٣) فى الحديثة : أن هذا المذموم .

الصانع ، فاعتقدوا فيه قصور الحكمة ، وفعل مالا يصح ، كما اعتقده إبليس في تفضيل آدم .

وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا الزيغ اعتقاد إسلام ، ولا فعل صلاة .

بل هم شر من الكفار ، لا أصلح الله لهم شأنا ، ولا هداهم إلى رشاد .

٣٠٠ – فصل : العمر قصير

من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما في أيدينا مع العلم بقصر العمر ، وأن زيادة الثواب هناك بقدر العمل ههنا .

فيا قصير العمر اغتنم يومي منى ، وانتظر ساعة النفر ، وإياك أن تشغل قلبك بغير ما خلق له .

واحمل نفسك على المرّ ، واقمعها إذا أبت ، ولا تسرح لها في الطوّل ، فما أنت إلا في مرعى .

وقبيح بمن كان بين الصفين أن يتشاغل بغير ما هو فيه .

٣٠١ – فصل : لا تغتر بمن يظهر التدين

قد كررت[١] هذا المعنى في هذا الكتاب ، وهو الأمر بحفظ السر ، والحذر من الانبساط فيما لا يصلح بين يدي الناس .

فرب منبسط – بين يدي من يظنه صديقاً – يقول في صديق أو في سلطان لا يهتم[٢] في ذلك ، فيكون سبب هلاك ذاك[٣] .

---

(١) في الحديثة : قررت .

(٢) في الحديثة : يحسب أنه لا يهتم .

(٣) في الحديثة : هلاكه ذاك .

فأوصى السليم الصدر الذى يظن فى الناس الخير أن يحترز من الناس ، وألا يقول فى الخلق كلمة لا تصلح للخلق .

ولا يغتر بمن يظهر الصداقة أو التدين ، فقد عمّ الخبث .

٣٠٢ - فصل : عادات أهل اليقظة عبادة

تأملت على أكثر الناس عباداتهم ، فإذا هى عادات .

فأما أرباب اليقظة ، فعاداتهم عبادة حقيقية .

فإن الغافل يقول سبحان الله عادة ، والمتيقظ لا يزال فكره فى عجائب المخلوقات أو فى عظمة الخالق ، فيحركه الفكر فى ذلك فيقول : سبحان الله .

ولو أن إنساناً تفكر فى رُمانة ، فنظر فى تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل ، وإقامة الماء على عظم الحجم ، وجعل الغشاء عليه يحفظه ، وتصوير الفرخ فى بطن البيضة ، والآدمى فى حشا الأم ، إلى غير ذلك من المخلوقات ، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق ، فقال : سبحان الله ، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر ؛ فهذا تسبيح المتيقظين .

وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة ، وكذلك يتفكرون فى قبائح ذنوب قد تقدمت فيوجب ذلك الفكر وقلق القلب وندم النفس ، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم : أستغفر الله .

فهذا هو التسبيح والاستغفار .

فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة ، وشتان ما بين الفريقين .

٣٠٣ ـ فصل : الأسواق تلهى وتلغى

لا يصفو التعبد والتزهد والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلى عن الخلق ، بحيث لا يبصرهم ولا يسمع كلامهم إلا فى وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة ، ويحترز فى تلك الساعات منهم .

وإن كان عالما يريد نفعهم، وعدهم وقتاً معروفاً واحترز فى الكلام معهم.

وأما من يمشى فى الأسواق اليوم ، ويبيع ويشترى مع هذا العالم المظلم ، ويرى المنكرات والمستهجنات ، فما يعود إلى البيت إلا وقد أظلم القلب .

فلا ينبغى للمريد أن يكون خروجه إلا إلى الصحراء والمقابر .

وقد كان جماعة من السلف يبيعون ويشترون ويحترزون ، ومع هذا ما صفا لصافيهم وقت حتى قاطع الخلق .

قال أبو الدرداء : زاولت العبادة والتجارة فلم يجتمعا فاخترت العبادة .

وقد جاء فى الحديث : « الأسواق تلهى وتلغى » .

فمن قدر على الحمية النافعة واضطر إلى المخالطة والكسب للعائلة ، فليحترز احتراز الماشى فى الشوك ، وبعيد سلامته .

٣٠٤ - فصل : تدوم الحال بالتقوى

من رزق قلباً طيباً ، ولذة مناجاة ، فليراع حاله ، وليحترز من التغيير .

وإنما تدوم له حاله بدوام التقوى .

وكنت قد رزقت قلباً طيباً ومناجاة خلوة[1] فأحضرنى بعض أرباب

(١) فى الحديثة : حلوة .

المناصب إلى طعامه ، فما أمكن خلافه . فتناولت وأكلت منه فلقيت الشدائد، ورأيت العقوبة فى الحال ، واستمرت مدة ، وغضبت على قلبى ، وفقدت كل ما كنت أجده .

فقلت : واعجباً لقد كنت فى هذا كالمكره ، فتفكرت وإذا به قد يمكن مداراة الأمر بلقيمات يسيرة ، إنما[1] التأويل جعل تناول هذا الطعام بشهوة أكثر مما يدفع بالمداراة .

فقالت النفس : ومن أين لى أن عين هذا الطعام حرام ؟ .

فقالت اليقظة : وأين الورع عن الشبهات ؟ .

فلما تناولت بالتأويل لقمة واستجلبتها[2] بالطبع لقيت الأمرين بفقد القلب فاعتبروا يا أولى الأبصار .

٣٠٥ - فصل : اليقظة الدائمة

همة المؤمن متعلقة بالآخرة ، فكل ما فى الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة ، وكل من شغله شىء فهمَّته شغله .

ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة ، رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته ، والنجار إلى السقف ، والبناء إلى الحيطان ، والحائك إلى النسيج المخيط .

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر ، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب ، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور ، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى فى

---

(١) فى الحديثة : ولكن .
(٢) فى الحديثة : واستحليتها .

القبور ، وإن رأى لذة الجنة ، فهمته متعلقة بما ثم ، وذلك يشغله عن كل ما ثم .

وأعظم ما عنده أنه يتخايل دوام البقا فى الجنة ، وأن بقاءه لا ينقطع ولا يزول ولا يعتريه منغص ، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلباً فى تلك اللذات الدائمة التى لاتفنى يطيش فرحا ويسهل عليه ما فى الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه .

فإن المشتاق إلى الكعبة يهون عليه رمل زرود ، والتائق إلى العافية لايبالى بمرارة الدواء .

ويعلم أن جودة الثمر ثم على مقدار جودة البذر ههنا ، فهو يتخير الأجود ، ويغتنم الزرع فى تشرين العمر من غير فتور .

ثم يتخايل المؤمن دخول النار والعقوبة ، فيتنغص عيشه ويقوى قلقه ، فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها ، فقلبه هائم فى بيداء الشوق تارة وفى صحراء الخوف أخرى ، فما يرى البنيان .

فإذا نازله الموت قوى ظنه بالسلامة ، ورجا لنفسه النجاة ، فيهون عليه .

فإذا نزل إلى القبر وجاءه من يسألونه ، قال بعضهم لبعض : دعوه فما استراح إلا الساعة . نسأل الله عز وجل يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل ، وتمنعنا من اختيار الرذائل ، فإنه إن وفق ، وإلا فلا نافع .

٣٠٦ ـ فصل : الله لايختار إلا الكامل

لقد اعتبرت على مولاى سبحانه وتعالى أمراً عجيباً ، وهو أنه تعالى لايختار لمحبته والقرب منه إلا الكامل صورة ومعنى .

ولست أعنى حسن التخاطيط ، وإنما كمال الصورة اعتدالها ، والمعتدلة ماتخلو من حسن ، فيتبعها حسن الصورة الباطنة ، وهو كمال الأخلاق ، وزوال الأكدار ، ولا يرى فى باطنه خبثاً ولا كدراً ، بل قد حسن باطنه كما حسن ظاهره .

وقد كان موسى عليه السلام كل من رآه يحبه، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم كالقمر ليلة البدر .

وقد يكون الولى أسود اللون، لكنه حسن الصورة ، لطيف المعانى .

فعلى قدر ما عند الإنسان من التمام فى كمال الخلق والخلق ، يكون عمله ، ويكون تقريبه إلى الحضرة بحسب ذلك .

فمنهم كالخادم على الباب ، ومنهم حاجب ، ومنهم مقرب ، ويندر من يتم له الكمال .

ولعله لا يوجد فى مائة سنة منهم غير واحد .

وهذه حكاية ما تحصل بالاجتهاد ، بل الاجتهاد يحصل منها، لأنه إذا وقع تماما حث على الجد على قدر نقصانه .

وهذا لا حيلة فى أصله . إنما هو جبلة ، وإذا أرادك لأمر هيأك له .

٣٠٧ ـ فصل : العقل منحة من الله

تأملت على قوم يدّعون العقول ويعترضون على حكمة الخالق .

فيلبغى أن يقال لهم : هذا الفهم الذى دلكم على رد حكمته أليس هو من منحه ؟

أفأعطاكم الكمال ورضى لنفسه بالنقص ! هذا هو الكفر المحض ، الذى يزيد فى القبح على الجحد .

فأول القوم إبليس ، فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين ، فرد حكمة الخالق .

ومر على هذا خلق كثير من المعترضين ، مثل ابن الراوندى ، والبقرى [1] ، وهذا المعرى اللعين يقول : كيف يعاب (ابن) [2] الحجاج بالسخف والدهر أقبح فعلاً منه .

أترى يعنى به الزمان ! كلا . فإن مر الأوقات لا يفعل شيئاً ، وإنما هو تعريض بالله جل شأنه . وكان يستعجل الموت ظناً منه أنه يستريح .

وكان يوصى بترك النكاح والنسل ، ولا يرى فى الإيجاد حكمة إلا العناء والتعب ومصير الأبدان إلى البلى .

وهذا لو كان كما ظن كان الايجاد عبثاً ، والحق منزه عن العبث .

قال تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً [3] » .

فإذا كان ما خلق لنا لم يخلق عبثاً ، أفنكون نحن ، ونحن مواطن معرفته ، ومجال تكليفه ، قد وجدنا عبثاً ؟

ومثل هذا الجهل إنما يصدر ممن ينظر فى قضايا العقول التى يحكم بها على الظواهر ، مثل أن يرى مبدياً ينقض .

---

(١) فى الحديثة : البصرى . وهو عجيب .
(٢) ساقطة من الحديثة .
(٣) جزء من الآية ٢٧ من سورة ص .

والعقل بمجرده لا يرى ذلك حكمة . ولو كشفت له حكمة ذلك لعلم أنه صواب .

كما كشف لموسى مراد الخضر فى خرق السفينة وقتل الغلام .

ومعلوم أن ذبح الحيوان ، وتقطيع الرغيف ، ومضغ الطعام ، لايظهر له فائدة على الإطلاق .

فإذا علم أنه غذاء لبدن من هو أشرف بدناً من المذبوح ، حسن ذلك الفعل .

واعجباً أو ماتقضى العقول بوجوب طاعة الحكيم الذى تعجز عن معرفة حكمه مخلوقاته .

فكيف تعارضه فى أفعاله ؟ نعوذ بالله من الخذلان .

٣٠٨ - فصل : وعظ السلطان ومراعاة الأحوال

ينبغى لمن وعظ سلطاناً أن يبالغ فى التلطف ، ولا يواجهه بما يقتضى أنه ظالم .

فإن السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة ، فإذا جرى نوع توبيخ لهم كان إذلالا ، وهم لا يحتملون ذلك .

وإنما ينبغى أن يمزج وعظه بذكر شرف الولاية ، وحصول الثواب فى رعاية الرعايا ، وذكر سير العادلين من أسلافهم .

ثم لينظر الواعظ فى حال الموعوظ قبل وعظه .

فإن كانت[1] سيرته حميدة كما كان منصور بن عمار وغيره يعظون الرشيد وهو يبكى ، وقصده الخير ، زاد فى وعظه ووصيته .

وإن رآه ظالماً لا يلتفت إلى الخير ، وقد غلب عليه الجهل ، اجتهد فى ألا يراه ، ولا يعظه .

لأنه إن وعظه خاطر بنفسه ، وإن مدحه كان مداهنا .

فإن اضطر إلى موعظته كانت كالإشارة ، وقد كان أقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة ، ويحتملون الواعظين .

حتى أنه قد كان المنصور يواجه بأنك ظالم فيصبر .

وقد تغير الزمان ، وفسد أكثر الولاة ، وداهنهم العلماء ، ومن لا يداهن لا يجد قبولا للصواب ، فيسكت .

وقد كانت الولايات لا يسألها إلا من أحكمته العلوم ، وثقفته التجارب ، فصار أكثر الولاة يتساوون فى الجهل ، فتأتى الولاية على من ليس من أهلها .

ومثل هؤلاء ينبغى الحذر منهم ، والبعد عنهم .

فمن ابتلى بوعظهم فليكن على غاية التحرز فيما يقول ، ولا ينبغى أن يغتر بقولهم : عظنا[2] فإنه لو قال كلمة لا توافق أغراضهم ثارت حراراتهم .

وليحذر مذكر السلطان أن يعرض له بأرباب الولايات ، فإنهم إذا سمعوا

---

(١) فى الحديثة : فإن رأى .

(٢) فى الحديثة : بقولهم منه بحسن القبول لما يقول ، ظناً .

بذلك صار الواعظ مقصوداً لهم بالإهلاك ، خوفاً من أن يعتبر السلطان أحوالهم فتفسد أمورهم .

والبعد فى هذا الزمان عنهم أصلح ، والسكوت عن المواعظ لهم أسلم .

فمن اضطر تلطف غاية التلطف ، وجعل وعظه للعوام وهم يسمعون ولا يعنيهم منه بشىء . والله الموفق .

٣٠٩ - فصل : فيمن ادعوا النبوة ومن ادعوا الكرامات

الحق لا يشتبه بباطل ، إنما يموه الباطل[1] عند من لا فهم له .

وهذا فى حق من يدعى النبوات ، وفى حق من يدعى الكرامات .

أما النبوات فإنه قد ادعاها خلق كثير ظهرت قبائحهم ، وبانت فضائحهم ، ومنها ما أوجبته خسة الهمة والتهتك فى الشهوات ، والتهافت فى الأقوال والأفعال ، حتى افتضحوا .

فمنهم الأسود العنسى ، ادعى النبوة ولقب نفسه ذا الحمارة لأنه كان يقول يأتينى ذو الحمار ، وكان أول أمره كاهناً يشعوذ فيظهر الأعاجيب . فخرج فى أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم فكاتبته مذحج ونجران[2] وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفا له اليمن ، وقاتل شهر بن باذان[3] فقتله وتزوج بنته فأعانت على قتله فهلك فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبان للعقلاء أنه كان يشعبذ .

ومنهم مسيلمة ، ادعى النبوة وتسمى رحمن اليمامة ، لأنه كان يقول : الذى

---

(١) فى الحديثة : بالباطل .
(٢) فى الحديثة : وواعدته نجران .
(٣) فى الدمشقية : باذام .

يأتيني رحمان . فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وادعى أنه قد أشرك معه ، فالعجب أنه يؤمن برسول ويقول إنه كذاب . ثم جاء بقرآن يضحك الناس ، مثل قوله : ياضفدع بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، ومن العجائب شاة سوداء تحلب لبنا أبيض . فانهتك ستره فى الفصاحة .

ثم مسح بيده على رأس صبي فذهب شعره . وبصق فى بئر فيبست .

وتزوج سجاح التى ادعت النبوة فقالوا : لابدّ لها من مهر ، فقال : مهرها أنى قد أسقطت عنكم صلاة الفجر والعتمة .

وكانت سجاح هذه قد ادعت النبوة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب لها جماعة فقالت : أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم اعبروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب ، فقاتلوهم .

ثم قصدت اليمامة فهابها مسيلمة فراسلها وأهدى لها فحضرت عنده فقالت اقرأ علىّ ما يأتيك به جبريل .

فقال : إنكن معشر النساء خلقتن أفواجا ، وجعلتن لنا أزواجا ، نولجه فيكن إيلاجا . فقالت : صدقت أنت نبي .

فقال لها : قومى إلى المخدع ، فقد هيء لك المضجع ، فإن شئت مستلقاة ، وإن شئت على أربع ، وإن شئت بثلثيه ، وإن شئت به أجمع ، فقالت : بل به أجمع ، فهو للشمل أجمع .

فافتضحت عند العقلاء من أصحابها ، فقال منهم عطارد بن حاجب :

أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَى يُطَافُ بِهَا
وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا

فلَعنَةُ الله ربّ النّاس كلّهم
على سَجاحٍ ومَنْ بالإفك أغوانا
أعني مُسَيلمَةَ الكذّابَ لا سُقِيَتْ
أصداؤُهُ مِنْ رعيث حيثما كانا

ثم إنها رجعت عن غيها وأسلمت ، وما زالت تبين فضائح مسيلمة حتى قتل .

ومنهم طليحة بن خويلد ، خرج بعد دعوى مسيلمة النبوة وتبعه عوام ونزل سميرا ، فتسمى بذى النون ، يقول : إن الذى يأتيه يقال له ذو النون .

وكان من كلامه : إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ولا قبح أدباركم شيئاً فاذكروا الله أعفة قياما .

ومن قرآنه : والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام .

وتبعه عيينة بن حصين ، فقاتله خالد بن الوليد .

فجاء عيينة إلى طليحة فقال : ويحك أجاءك الملك ؟ قال : لا ، فارجع فقاتِل ، فقاتل .

ثم عاد ، فقال : أجاءك ؟ فقال : لا ، فعاد فقاتل .

ثم عاد فقال : أجاءك ؟ قال : نعم .

قال : ما قال لك ؟ قال : قال إن لك جيشا لاتنساه .

فصاح عيينة : الرجل — والله — كذاب .

فانصرف الناس منهزمين ، وهرب طليحة إلى الشام ، ثم أسلم وصح إسلامه وقتل بنهاوند .

وذكر الواقدى : أن رجلا من بنى يربوع يقال له جندب بن كلثوم ، كان يلقب كردانا ، ادعى النبوة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يزعم أن دليله على نبوته أنه يسرج مسامير الحديد والطين . وهذا لأنه كان يطلى ذلك بدهن البيلسان فتعمل فيه النار .

وقد تنبأ رجل يقال له كهمش الكلابى ، وكان يزعم أن الله تعالى أوحى إليه : « يا أيها الجائع ، اشرب لبنآ تشبع ، ولا تضرب الذى لا ينفع ، فإنه ليس بمقنع » .

وزعم أن دليله على نبوته أنه يطرح بين السباع الضارية فلا تأكله ، وحيلته فى ذلك أنه يأخذ دهن الغار وحجر البرسان وقنفدا محرقا وزبد البحر وصدفا محرقا مسحوقا وشيئا من الصبر والحبط فيطلى به جسمه ، فإذا قربت منه السباع فشمت تلك الأرياح وزفورتها نفرت .

وتنبأ بالطائف رجل يقال له أبو جعوانة العامرى ، وزعم أن دليله أنه يطرح النار فى القطن فلا يحترق . وهذا لأنه يدهنه بدهن معروف .

ومنهم هذيل بن يعفور من بنى سعد بن زهير ، حكى عنه الأصمعى أنه عارض سورة الإخلاص فقال: قل هو الله أحد إله كالأسد جالس على الرصد لايفوته أحد .

ومنهم هذيل بن واسع كان يزعم أنه من ولد النابغة الذبيانى ، عارض سورة الكوثر، فقال له رجل ماقلت؟ فقال : إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر ، فما يردنك إلا كل فاجر .

فظهر عليه السنورى فقتله وصلبه على العمود ، فعبر عليه الرجل فقال : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك من قعود ، بلا ركوع ولا سجود ، فما أراك تعود .

وممن ظهر فادعى أنه يوحى إليه ، المختار بن أبي عبيد ، وكان متخبطا في دعواه ، وقتل خلقا كثيراً ، وكان يزعم أنه ينصر الحسين رضوان الله عليه ، ثم قتل .

ومنهم حنظلة بن يزيد الكوفي ، كان يزعم أن دليله أنه يدخل البيضة في القنينة ويخرجها منها صحيحة ، وذلك أنه كان ينقع البيضة في الخل الحامض فيلين قشرها ثم يصب ماء في قنينة ، ثم يدس البيضة فيها ، فإذا لقيت الماء صلبت

وقد تنبأ أقوام قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، كزرادشت و « ماني » ، وافتضحوا .

وما من المدعين إلا من خذل .

وقد جاءت القرامطة بحيل عجيبة ، وقد ذكرت جمهور هؤلاء وحيلهم في كتابي التاريخ المسمى « بالمنتظم » ، وما فيهم من يتم له أمر إلا ويفتضح .

ودليل صحة نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم أجلى من الشمس .

فإنه ظهر فقيراً والخلق أعداؤه فوعد بالملك فملك . وأخبر بما سيكون فكان ، وصين من زمن النبوة عن الشره وخساسة الهمة والكذب والكبر .

وأيد بالثقة والأمانة والنزاهة والعفة ، وظهرت معجزاته للبعيد والقريب

وأنزل عليه الكتاب العزيز الذى حارت فيه عقول الفصحاء ، ولم يقدروا على الإتيان بآية تشبهه فضلا عن سورة .

وقد قال قائلهم وافتضح ، ثم أخبر أنه لا يعارض فيه كما قال . وذلك قوله تعالى : « فأْتوا بسُورَةٍ[1] » . ثم قال : « فإنْ لَمْ تفْعَلوا وَلَنْ تفعلوا[2] »

---

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة البقرة ، ٣٨ من سورة يونس .

(٢) جزء من الآية ٢٤ من سورة البقرة .

وكذلك قوله : « فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ »[1] ، « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ »[2] . فما تمناه أحد .

إذ لو قال قائل قد تمنيته لبطلت دعواه .

وكان يقول ليلة غزاة بدر : غداً مصرع فلان ههنا فلا يتعداه .

وقال : إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، فما ملك بعدهما من كان له كبير قدر . ولا من استتب له حال .

ومن أعظم دليل على صدقه أنه لم يرد الدنيا ، فكان يبيت جائعاً ، ويؤثر إذا وجد ، ويلبس الصوف ، ويقوم الليل .

وإنما تطلب النواميس لاجتلاب الشهوات ، فلما لم يردها دل على أنه يدل على الآخرة التي هي حق .

ثم لم يزل دينه يعلو حتى عم الدنيا ، وإن كان الكفر في زوايا الأرض ، إلا أنه مخذول .

وصار في تابعيه من أمته الفقهاء الذين لو سمع كلامهم الأنبياء القدماء تحيروا في حسن استخراجهم ، والزهاد الذين لو رآهم الرهبان تحيروا في صدق زهدهم ، والفطناء الذين لا نظير لهم في القدماء .

أو ليس قوم موسى يعبدون بقرة ، ويتوقفون في ذبح بقرة ؛ ويعبرون البحر ، ثم يقولون : اجعل لنا إلـهاً ؟

وقوم عيسى يدخرون من المائدة وقد نهوا .

---

(١) جزء من الآية ٩٤ من سورة البقرة .
(٢) جزء من الآية ٩٥ من سورة البقرة .

والمعتدون فى السبت يعصون الله لأجل الحيتان .

وأمتنا بحمد الله تعالى سليمة من هذه الأشياء ، وإنما فى بعضها ميل إلى الشهوات المنهى عنها ، وذلك من الفروع لامن الأصول .

فإذا ذكروا بكوا وندموا على تفريطهم .

فنحمد الله على هذا الدين ، وعلى أننا من أمة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد كان جماعة من المتصنعين بالزهد مالوا إلى طلب الدنيا والرياسة ، فاستغواهم الهوى نخرقوا [1] بإظهار مايشبه الكرامات ، كالحلاج [2] ، وابن الشاش ، وغيرهما ممن ذكرت حال تلبيسه فى كتاب تلبيس إبليس .

وإنما فعلوا ذلك لاختلاف أغراضهم ، ولم يزل الله ينشىء فى هذا الدين من الفقهاء من يظهر ما أخفاه القاصرون .

كما ينشىء من علماء الحديث من يهتك ما أشاعه الواضعون ، حفظا لهذا الدين ، ودفعاً للشبهات عنه .

فلا يزال الفقيه والمحدث يظهران عوار كل ملبس بوضع حديث أو بإظهار دعوى تزهد وتنميس فلا يؤثر ما ادعياه إلا عند جاهل بعيد من العلم والعمل .

« لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [3]

---

(١) فى الحديثة : نخرفوا . بالفاء . والصواب بالقاف من المخرقة وهى التدجيل .

(٢) معلومات المؤلف عن الحلاج قاصرة . والأصح التسليم فليس فى التسليم أذى . وإنما هو فى الاعتراض دون علم .

(٣) الآية ٨ من سورة الأنفال .

٣١٠ ـ فصل الاشتغال بخدمة الخالق

واعجباً من موجود لا يفهم معنى الوجود ، فإن فهم لم يعمل بمقتضى فهمه

يعلم أن العمر قصير ، وهو يضيعه بالنوم والبطالة ، والحديث الفارغ ، وطلب اللذات ، وإنما أيامه أيام عمل لازمان فراغ .

وقد كلف ببذل المال بمخالفة الطبع (من الشرع)[1] فبخل به إلى أن يتضايق الخناق ، فيقول حينئذ : فرقوا عنى بعد موتى وافعلوا كذا .

فأين يقع هذا لو فعل ، وبعيد أن يفعل ، وإنما يراد بإنفاقك فى صحتك مخالفة الطبع فى تكلف مشاق الإخراج فى زمن السلامة .

فافرق بين الحالتين إن كان لك فهم .

فالسعيد من انتبه لنفسه وعمل بمقتضى عقله ، واغتنم زمناً نهايته الزمن[2] وانتهب عمرا ياقرب انقطاعه .

ويحك ما تصنع بادخار مال لايؤثر حسنة فى صحيفة ولا مكرمة فى تاريخ ؟

أما سمعت بإنفاق أبى بكر وبخل ثعلبة ؟

أما رأيت تأثير مدح حاتم وبخل الحباحب ؟

ويحك لو ابتلاك فى مالك لاستغثت ، أو فى بدنك ليلة بمرض لشكوت .

---

(١) ساقطة من الحديثة وفيها : ومخالفة الطبع .

(٢) فى الحديثة : الخلود . والمراد بالزمن : المرض المزمن .

فأنت تستوفى مطلوباتك منه ، ولا تستوفى حقه عليك « وَيلٌ لِلْمُطففِين[1] » .

ولتعلم أن هذا القدر المفرّط فيه يحل الخلود الدائم فى ثواب العمل فيه .

فسبحان مَنْ مَنّ على أقوام فهموا المراد فأتعبوا الأجساد ، وغطى على قلوب آخرين فوجودهم كالعدم .

وكيف لا يتعب العاقل بدنه إتعاب البُدْنِ والمقصود منىً .

أترى ما بال الحق متجلياً فى إيجادك أيها العبد!

بلى ، والله إن وجودك دليل وجوده .

وإن نعمه عليك دليل جوده .

فكما قدمك على سائر الحيوانات ، فقدمه فى قلبك على كل المطلوبات .

واخيبة من جهله ، وَا افتقرَ من أعرض منه ، وَاذُلّ من اعتز بغيره ، واحسرة من اشتغل بغير خدمته .

٣١١ - فصل : العاقل من ينظر الى نفسه

إنى أعجب من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه وجيرانه كيف يطيب عيشه ، خصوصاً إذا علت سنه .

واعجباً لمن يرى الأفاعى تدب إليه وهو لاينزعج . أما يرى الشيخ دبيب الموت فى أعضائه ، قد أخرج سكين القوى وأنزل متخشرم[2] الضعف ،

---

(١) الآيه ١ من سورة المطففين .

(٢) كذا فى الأصول ولا ندرى لها معنى .

وقلب السواد بياضاً ، ثم فى كل يوم يزيد الناقص .

ففى نظر العاقل إلى نفسه ما يشغله عن النظر إلى خراب الدنيا وفراق الإخوان ، وإن كان ذلك مزعجا .

ولكن شغل من احترق بيته بنقل متاعه يلهيه عن ذكر بيوت الجيران .

وإنه لما يُسلى عن الدنيا ويهون فراقها استبدال المعارف بمن تنكره[1] .

فقد رأينا أغنياء كانوا يؤثرون ، وفقراء كانوا يصبرون ، ومحاسبين لأنفسهم يتورعون ، فاستبدل السفهاء عن العقلاء ، والبخلاء عن الكرماء .

فيا سهولة الرحيل ، لعل النفس تلقى من فقدت ، فتلحق بمن أحبت .

٣١٢ ـ فصل : فى جحود الانسان

نظرت فى قول الله تعالى «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوات وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ والنجومُ وَالجبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ[2] » ، ثم قال : « وَكَثِيرٌ مِن النَّاس[3] » فرأيت الجمادات كلها قد وصفت بالسجود ، واستثنى من العقلاء ، فذكرت قول بعضهم :

مَا جَحَدَ الصَّامِتُ مَنْ أَنْشأْ
وَمِنْ ذَوِى النُّطقِ أَتَى الجُحُودْ

---

(١) فى الحديثة : ثم تنكره . لمن حوله أى تنكرهم له .

(٢) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٣) جزء من الآية ١٨ من سورة الحج

فقلت : إن هذه لقدرة عظيمة ، يوهب عقل الشخص ثم يسلب فائدته ، وإن هذا لأقوى دليل على قادر قاهر .

وإلا فكيف يحسن من عاقل ألا يعرف بوجوده وجود من أوجده ؟ وكيف ينحت صنما بيده ثم يعبده ؟

غير أن الحق سبحانه وتعالى وهب لأقوام من العقل ما يثبت عليهم الحجة ، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحجة .

٣١٣ ـ فصل : أكثر الزاد فان السفر طويل

ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح ، فإن الطبع يسرق .

فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله .

فإن[1] رؤية الدنيا تحث على طلبها ، وقد رأى رسول الله ﷺ ستراً على بابه فهتكه وقال : مالى وللدنيا . ولبس ثوباً له طراز فرماه وقال : شغلتنى أعلامه . ولبس خاتماً ثم رماه وقال : نظرت إليكم ونظرت إليه .

وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم وأحوالهم ، خصوصاً لمن له نفس تطلب الرفعة .

وكذا سماع الأغانى ومخالطة الصوفية الذين لانظر لهم اليوم إلا فى الرزق الحاصل .

لو كان من أى مكان قبلوه ، ولا يتورعون أن يأخذوا من ظالم ، وليس عندهم خوف كما كان أوائلهم[2] .

---

(١) فى الحديثة : وإن .

(٢) ومع هذا فالتعميم فى الحكم هكذا تعصب لامبرر له ، وحياد عن نهج العلماء الصحيح .

فقد كان سرى السقطى يبكى طول الليل ، وكان يبالغ فى الورع ، وهم ليس لهم ورع سرى ، ولا لهم تعبد الجنيد .

وإنما ثم أكل ورقص وبطالة وسماع أغانى من المردان ، حتى قال بعض من يعتبر قوله : حضرت مع رجل كبير يوماً إليه من مشايخ الربط ومغنيهم أمرد . فقام الشيخ ونقطه بدينار على خده .

وادعاؤهم أن سماع هذه الأشياء يدعو إلى الآخرة فوق الكذب[1] .

وليس العجب منهم ، إنما العجب من جهال ينفـُقون عليهم فينفِقون عليهم .

ولقد كان جماعة من القدماء يرون أوائل الصوفية يتعبدون ويتورعون فيعجبهم حالهم ، وهم معذورون فى إعجابهم بهم .

وإن كان أكثر القوم فى تعبدهم على غير الجادة ، كما ذكرت فى كتابى المسمى بتلبيس إبليس .

فأما اليوم فقد برح الخفاء ، أحدهم يتردد إلى الظلمة ، ويأكل أموالهم ، ويصافحهم بقميص ليس فيه طراز ، وهذا هو التصوف فحسب .

أوَلا يستحيي من الله من زهد فى رفيع الأثواب لأجل الخلائق لا لأجل الحق .

ولا يزهد فى مطعم ولا شبهة .

---

(١) انظر تفاصيل رأيهم فى السماع فى بابه من (اللمع) للطوسى .

فالبعد عن هؤلاء لازم .

ويبغى للمنفرد لطاعة الله تعالى عن الخلق ألا يخرج إلى سوق جهدَه ، فإن خرج ضرورة غض بصره ، وألا يزور صاحب منصب ولا يلقاه ، فإن اضطر دارى الأمر .

ولا يخالط عامياً إلا لضرورة مع التحرز .

ولا يفتح على نفسه باب التزوج ، بل يقنع بامرأة فيها دين .

فقد قال الشاعر :

وَالمرْءُ مَادَامَ ذَا عَينٍ يُقَلِّبُها
فى أعْينِ العِينِ مَوْقُوفٌ عَلَى الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَاضَرَّ مُهْجَتَهُ
لا مَرْحباً بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

فإن كان يغلب عليه العلم انفرد بدراسته ، واحترز من الأتباع المتعلمين ، وإن غلبت عليه العبادة ، زاد فى احترازه .

وليجعل خلوته أنيسه ، والنظر فى سير السلف جليسه .

وليكن له وظيفة من زيارة قبور الصالحين والخلوة بها .

ولا ينبغى أن يفوته ورد قيام الليل ، وليكن بعد النصف الأول،فليطل مهما قدر ، فإنه زمان بعيد المثل .

وليمثل رحيله عن قرب ليقصر أمله ، وَليتزَوَّد فى الطريق على قدر طول السفر .

نسأل الله عز وجل يقظة من فضله ، وإقبالا على خدمته ، وألا يخذلنا بالالتفات عنه ، إنه قريب مجيب .

٣١٤ – فصل : شكر النعم نعمة من الله

كلما نظرت فى تواصل النعم علىّ تحيرت فى شكرها ، وأعلمُ أن الشكر من النعم فكيف أشكر .

لكنى معترف بالتقصير ، وأرجو أن يكون اعترافى قائماً ببعض الحقوق .

وعندى خلة أرجو بها كل خير ، وهى أن من يصوم أو يصلى يرى أنه تَعبَّدَ ويخدم كأنه يقضى حق المخدوم .

وأنا أرى أنى إذا صليت ركعتين فإنما قمت أكدى فلنفسى أعمل ، إذ المخدوم غنى عن طاعتى .

وكان بعض المشايخ يقول : جاء فى الحديث : الدعاء عبادة ، وأنا أقول: العبادة دعاء .

فالعجب ممن يقف للخدمة يسأل حظ نفسه .

كيف يرى أنه قد فعل شيئاً .

إنما أنت فى حاجتك ، ومنه من أيقظك لانقاومها خدمتك .

فأنا أقول كما قال الأول :

يَا مُنْتَهَى الآمَالِ أنْـتَ كفَلْتَنِى وَحَفِظتَنِى
وَعَدا الزّمانُ علىّ كىْ يجْتاحَنِى فَمَنَعتَنِى
فَانقَادَ لِى مُتَخَشِّعاً لمّا رَآكَ نَصَرتَنِى
وَكَسَوتَنِى ثوبَ الغِنَى وَمنَ المغَالِبِ صُنتَنِى

فإذا سكتُّ بدأتنى وإذا سألتُ أجبتنى
فإذا شكرتك زدتنى فنحتسنى وبهرتنى
أو إن أُجدْ بالمال فا لأموال أنتَ أفدتنى

٣١٥٠ ـ فصل : من اشتغل بخدمة الخلق أعرض عن الحق

رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم ، فهمّ الفقيه التدريس ، وهم الواعظ الوعظ .

فهذا يرعى درسه فيفرح بكثرة من يسمعه ، ويقدح فى كلام من يخالفه ويمضى زمانه فى التفكر فى المناقضات ، ليقهر من يجادله ، وعينه إلى التصدر والارتفاع فى المجالس .

وربما كانت همته جمع الحطام ، ومخالطة السلاطين .

والواعظ همته ما يزوق به كلامه ، ويكثر جمعه ، ويجاب به قلوب الناس إلى تعظيمه ، فإن كان له نظير فى شغله أخذ يطعن فيه .

وهذه قلوب غافلة عن الله عز وجل ، إذ لو كانت لها به معرفة لاشتغلت به ، وكان أنسها بمناجاته ، وإيثارها لطاعاته ، وإقبالها على الخلوة به .

لكنها لما خلت من هذا تشاغلت بالدنيا وذاك دنيا مثلها .

فإذا خلت بخدمة الله تعالى لم تجد لها طعماً ، وكان جمع الناس أحب إليها ، وزيارة الخلق لها آثر عندها ، وهذه علامة الخذلان .

وعلى ضد هذا متى كان العالم مقبلا على الله سبحانه مشغولا بطاعته ، كان أصعب الأشياء عنده لقاء الخلق ومحادثتهم ، وأحب الأشياء إليه الخلوة.

وكان عنده شغل من القدح فى النظراء ، أو عن طلب الرياسة .

فإن ما علق به همته من الآخرة أعلى من ذلك .

والنفس لابد لها مما تشاغل به. فمن اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن الحق، فإنما يربى رياسته .

وذلك يوجب الإعراض عن الحق ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

٣٠٦ — فصل : رؤية حقيقة الأشياء

قد جاء فى الأثر : اللهم أرنا الأشياء كما هى ، وهذا كلام حسن غاية [1] . وأكثر الناس لايرون [2] الأشياء بعينها ، فإنهم يرون الفانى كأنه باق ، ولا يكادون يتخايلون زوال ماهم فيه وإن علموا ذلك .

إلا أن عين الحس مشغولة بالنظر إلى الحاضر .

ترى [3] زوال اللذة وبقاء إثمها ، ولو رأى اللص قطع يده هان عنده المسروق . فمن جمع الأموال ولم ينفقها فما رآها بعينها ، إذ هى آلة لتحصيل الأغراض ، لا تراد لذاتها .

ومن رأى المعصية بعينى الشهوة فما رآها ، إذ فيها من العيوب ما شئت ، ثم ثمرتها عقوبة آجلة ، وفضيحة عاجلة .

---

(١) فى الحديثة : غاية الحسن .
(٢) فى الحديثة : مايرون .
(٣) فى الحديثة : ألا ترى .

وانظر إلى أكبر شهوات الحس ، وهو الوطء ، فإن الماء لا يحصل إلا بعد مطعم ومشرب .

ومن تفكر فى المطعم نظر إلى حرث الأرض ، وأنها تفتقر إلى بقر للحراثة عليهن المحراث ، وهو حديد ومعه خشب ويتعلق به حبال .

فمن تفكر فى عمل الحبال نظر فى زرع القنب ، وتسريحه وفتله ، والحديد وجلبه وضربه ؛ والخشب ونباته ونجارته ، ودوران الدولاب وعمله ؛ ثم استحصاد الزرع وحصده ، وتذريته وطحنه ؛ وعجنه وخبزه ، ومن عمل التنور وجلب الشوك .

ومن (هذا)[1] الجنس إذا نظر فيه كثر جداً حتى قالوا لا تنال لقمة إلا وقد عمل فيها ثلاثمائة نفس أو نحوهم .

فإذا أكل تلك اللقمة فليفكر فى خلق الأسنان لقطعها ، والأضراس لطحنها ، وعذوبة ماء الفم لخلطها ، واللسان ليقلبها ؛ وعضلات الفم يصعد منها شىء ويبقى شىء حتى يصلح البلع .

ثم يتناولها المعى فيوصلها إلى الكبد فيقوم طابخاً لها ، فإذا صارت دماً نفت رسوبها إلى الطحال ؛ ومائيتها إلى المثانة ، واستخلصت من أخلص الدم وأصفاه للكبد والدماغ والقلب .

وأخذت أجود ذلك لحدرته إلى الأنثيين معداً لخلق آدمى .

فإذا تحركت نيران الشهوة تدفقت تلك النطفة ، وقد حكم الشرع بطهارتها ، وحكم لها بطهارة الرحم والمحل الذى يباشره الذكر ؛ فيخلق منها الآدمى الموحد .

(١) ساقطة من الحديثة .

فما جاء هذا الشخص إلا بأغلى الغلاء ، وبعد عجائب أشرنا إليها ، لا أنا عددناها .

أفمن فهم هذا يحسن منه أن يبدد تلك النطفة فى حرام ، أو أن يطأ فى محل نجس فتضيع ؟

فكم يتعلق بالزنا من لايفى معشار عشرها بلذة لحظة ، منها هتك العرض بين الناس ، وكشف العورات المحرمة ، وخيانة الأخ المسلم فى زوجته ، إن كانت متزوجة ، وفضيحة المزنى بها وهى كأخت له أو بنت .

فإن علقت منه ولها زوج ألحقته بذلك الزوج ، وكان هذا الزانى سبباً فى ميراث من لا يستحق ، ومنع من يستحق .

ثم يتسلسل ذلك من ولد إلى ولد .

وأما سخط الحق سبحانه فمعلوم قال تعالى « وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا[1] » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب — بعد الشرك — أعظم عند الله تعالى من نطفة وضعها رجل فى رَحِمٍ لا تحلّ له » .

فهم فهو يعلم أن المراد من النطفة إيجاد الموحدين .

ولولا تركيب الشهوة لم يقع الوطء ، لأنه التقاء عضوين مستحسنين ولا صورتهما حسنة ولا ريحهما طيب .

وإنما الشهوة تغطى عين الناظر ليحصل الولد أصلا ، فهى عارض .
فمن طلب الشهوة ونسى جنايته بالزنا فما رأى الأشياء على ماهى ..

(١) جزء من الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

وقس على هذا المطعم والمشرب وجمع المال وغير ذلك.

٣١٧ - فصل : إذا خفيت الحكمة وجب التسليم

إن قال قائل : أى فائدة فى خلق ما يؤذى ؟ فالجواب أنه قد ثبتت حكمة الخالق ، فإذ خفيت فى بعض الأمور وجب التسليم .

ثم إن المستحسنات فى الجملة أنموذج ما أعد من الثواب. والمؤذيات أنموذج ما أعد من العقاب .

وما خلق شىء يضر إلا وفيه منفعة .

قيل لبعض الأطباء : إن فلانا يقول : أنا كالعقرب أضر ولا أنفع .

فقال : ما أقل علمه . إنها لتنفع إذا شق بطنها ثم شد على موضع اللسعة.

وقد تجعل فى جوف فخار مسدود الرأس مطبق الجوانب ، ثم يوضع الفخار فى تنور فإذا صارت رماداً سقى من ذلك الرماد مقدار نصف دانق أو أكثر من به الحصاة فيفتها من غير أن يضر بشىء من سائر الأعضاء.

وقد تلسع العقرب من به حمى عتيقة فتزول .

ولسعت رجلا مفلوجاً فزال عنه الفالج .

وقد تلقى فى الدهن حتى يجتذب قواها ، فيزيل ذلك الدهن الأورام الغليظة ، ومثل هذا كثير .

فالجاهل عدو لما جهله ، وأكبر الحماقة رد الجاهل على العالم .

٣١٨ - فصل : جلال العبادة وجمال العابدين

كلما أوغلت الفهوم فى معرفة الخالق فشاهدت عظمته ولطفه ورفعته ، تاهت فى محبته ، فخرجت عن حد الثبوت .

وقد كان خلق من الناس غلبت عليهم محبته ، فلم يقدروا على مخالطة الخلق .

ومنهم من لم يقدر على السكوت عن الذكر .

وفيهم من لم ينم إلا غلبة ، وفيهم من هام فى البرارى ، وفيهم من احترق فى بدنه .

ويا حسن مخمورهم ما ألذ سكره ، ويا عيش قلقهم ما أحسن وجده . . !!

كان أبو عبيدة الخواص قد غلبه الوجد فكان يمشى فى الأسواق يقول: واشوقاه إلى من يرانى ولا أراه .

وكان فتح بن سخرف يقول : قد طال شوقى إليك ، فعجل قدومى عليك .

وكان قيس بن الربيع كأنه مخمور من غير شراب .

وكان ابن عقيل يقول (إن)[1] التبذل فيه سبحانه أحسن من التجمل فى غيره .

هل رأيت قط عراة أحسن من المحرمين ؟

هل رأيت للمتزينين برياش الدنيا سمتاً كأثواب الصالحين ؟

هل رأيت خماراً أحسن من نعاس المتهجدين ؟

هل رأيت سكراً أحسن من صعق الواجدين ؟

هل شاهدت ماء صافياً أصفى من دموع المتأسفين ؟

---

(١) ساقطة من الحديثة .

هل رأيت رءوساً مائلة كرءوس المنكسرين ؟

هل لصق بالأرض شيء أحسن من جباه المصلين ؟

هل حرك نسيم الأسحار أوراق الأشجار فبلغ مبلغ تحريكه أذيال المتهجدين ؟

هل ارتفعت أكف وانبسطت أيد فضاهت أكف الراغبين ؟

هل حرك القلوب صوت ترجيع لحن أورنة وتركما حرك حنين المشتاقين ؟

وإنما يحسن التبذل فى تحصيل أوفى الأغراض .

فلذلك حسن التبذل فى خدمة المنعم .

٣١٩ ـ فصل : تغطية العقل وتدبيره

أكثرهم لا يعرف الدين ، ولا يتأدب بآدابه (بمرة يتفق له قلة العقل فى أصل الوضع ، ثم ذلك القليل لا يعاون ، بل يعان عليه ، وذاك أن الجارحة إذا دام تعطلها عن عملها الذى هيئت له تعطلت وخمدت ، ولهذا تنقص أبصار النساخ والرفائين وتحتد أبصار أهل البوادى ، لأنه لا صاد لأبصارهم)[1]

وشغل العقل التفكر ، والنظر فى عواقب الأحوال ، والاستدلال بالشاهد على الغائب ، وهم يمتلئون من الطعام دائماً ، وذلك يؤذى العقل .

ثم يطيلون النوم ، فإذا انتبهوا شربوا المسكر ، فاتفق للعقل تعطيل وتغطية ، فساء التدبير .

---

(١) مابين الحاصرتين سقط من الحديثة . وجاء محققها بسطور من عنده لا ندرى من أين أتى بها . انظر ص ٤١٩ من الحديثة .

٣٢٠ - فصل : التلطف فى محادثة العوام

من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم ، أو بما قد رسخ فى نفوسهم ضده .

مثاله أن قوماً قد رسخ فى قلوبهم التشبيه ، وأن ذات الخالق سبحانه ملاصقة للعرش ، وهى بقدر العرش ، ويفضل من العرش أربعة أصابع[1] .

وسمعوا مثل هذا من أشياخهم ، وثبت عندهم أنه إذا نزل وانتقل إلى السماء الدنيا تخلت[2] منه ست سموات .

فإذا دعى أحدهم إلى التنزيه وقيل له ليس كما خطر لك ، إنما ينبغى أن تمر الأحاديث كما جاءت من غير مساكنة ماتوهمته ، صعب هذا عليه لوجهين :

أحدهما : لغلبة الحس عليه ، والحس على العوام أغلب .

والثانى : لما قد سمعه من ذلك من الأشياخ الذين كانوا أجهل منه .

فالمخاطب لهذا مخاطر بنفسه ، ولقد بلغنى عن بعض من كان يتدين ممن قد رسخ فى قلبه التشبيه أنه سمع من بعض العلماء شيئاً من التنزيه ، فقال : والله لو قدرت عليه لقتلته .

فالله الله أن تحَدِّثَ مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله دون احتيال وتلطف ، فإنه لا يزول ما فى نفسه ، ويخاطر المحدث له بنفسه .

---

(١) فى الحديثة : قدر أربع أصابع .

(٢) فى الحديثة : خلت .

فكذلك كل ما يتعلق بالأصول .

٣٢١ ـ فصل : الرجل هو من يراعي حفظ الحدود وإخلاص العمل

لايغرك من الرجل طنطنته وماتراه يفعل من صلاة وصوم وصدقة وعزلة عن الخلق .

إنما الرجل هو الذى يراعى شيئين : حفظ الحدود ، وإخلاص العمل .

فكم قد رأينا متعبداً يخرق الحدود بالغيبة ، وفعل مالا يجوز مما يوافق هواه !

وكم قد اعتبرنا على صاحب دين أنه يقصد بفعله غير الله تعالى .

وهذه الآفة تزيد وتنقص فى الخلق .

فالرجل كل الرجل هو الذى يراعى حدود الله ، وهى مافرض عليه وألزم به .

والذى يحسن القصد ، فيكون عمله وقوله خالصاً لله تعالى ، لايريد به الخلق ولا تعظيمهم له

فرب خاشع ليقال ناسك ، وصامت ليقال خائف ، وتارك للدنيا ليقال زاهد .

وعلامة المخلص أن يكون فى جلوته كخلوته ، وربما تكلف بين الناس التبسم والانبساط لينمحى عنه اسم زاهد .

فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار ، فإذا جن الليل فكأنه قتل أهل القرية .

واعلم أن المعمول معه لايريد الشركاء ، فالمخلص مفرد له بالقصد ، والمرائى قد أشرك ليحصل له مدح الناس .

وذلك ينقلب ، لأن قلوبهم بيد من أشرك معه ، فهو يقلبها عليه لا إليه .

فالموفق من كانت معاملته باطنة وأعماله خالصة .

وذاك الذى تحبه الناس وإن لم يبالهم ، كما يمقتون المرائى وإن زاد تعبده .

ثم إن الرجل الموصوف بهذه الخصال لايتناهى عن كمال العلوم ولا يقصر عن طلب الفضائل .

فملأ[1] الزمان أكثر[2] ما يسعه من الخير ، وقلبه لا يفتر عن العمل القلبى[3] إلى أن يصير شغله[4] بالحق سبحانه وتعالى .

٣٢٣ ـ فصل : مساعد الظالم ظالم مثله

رأيت خلقاً يفرّطون فى أديانهم ثم يقولون : احملونا إذا متنا إلى مقبرة أحمد .

أتراهم ما سمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم امتنع من الصلاة على من عليه دَين وعلى الغالّ ، وقال: «ماينفعه صلاتى عليه» .

---

(١) فى الحديثة : فهو يملأ .

(٢) فى الحديثة : بأكثر .

(٣) فى الحديثة : المحسوب له .

(٤) فى الحديثة : لأن شغله بالحق .

ولقد رأيت أقواماً من العلماء حملهم حب الصيت على أن استخرجوا إذناً من السلطان ، فدفنوا فى دكة أحمد بن حنبل ، وهم يعلمون أن هناك خلقاً رفات بعضهم على بعض .

وما فيهم إلا من يعلم أنه ما يستحق القرب من مثل ذلك .

فأين احتقار النفوس ؟ أما سمعوا أن عمر بن عبد العزيز ، قيل له : تدفن فى الحجرة ؟ فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب ماخلا الشرك أحب إلىّ من أن أرى نفسى أهلا لذلك .

لكن العادات ، وحب الرياسة غلبت على هؤلاء ، فبقى العلم يجرى على الألسن عادة لا للعمل به .

ثم آل الأمر إلى جماعة خالطوا السلاطين وباشروا الظلم ، يزاحمون على الدفن بمقبرة أحمد ويوصون بذلك .

فليتهم أوصوا بالدفن فى موضع فارغ ، إنما يدفنون على موتى .

ويخرج عظام أولئك فيحشرون على ما ألفوا من الظلم حتى فى موتهم ، وينسون أنهم كانوا من أعوان الظلمة .

أترى ما علموا أن مساعد الظالم ظالم ، وفى الحديث : كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة .

قال السجان لأحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟ فقال : لا ، أنت من الظلمة ، إنما أعوان الظلمة من أعانك فى أمر .

٤٢٣ - فصل : الحسد طبيعة فى الانسان فتومها

رأيت الناس يذمون الحاسد ويبالغون ويقولون: لا يحسد إلا شرير يعادى نعمة الله ، ولا يرضى بقضائه ، ويبخل على أخيه المسلم .

فنظرت فى هذا فما رأيته كما يقولون ، وذاك أن الإنسان لا يحب أن يرتفع عليه أحد ، فإذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو ولم يحب أن يرتفع عليه ، وودلو لم ينل صديقه ما ينال ، أو أن ينال هو ما نال ذاك لئلا يرتفع عليه وهذا معجون فى الطين ، ولا لوم على ذلك .

إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل . وكنت أظن أن هذا قد وقع لى عن سرى[1] وفحصى ، فرأيت الحديث عن الحسن البصرى قد سبقنى إليه.

قال: أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد قال : أخبرنا ابن النقود قال : أخبرنا المخلص قال : حدثنا البغوى قال : حدثنا أبو روح قال : حدثنا مخلد ابن الحسين عن هشام عن الحسن قال : ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خلق معه الحسد . . . !!

فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء !!

٤٢٤ - فصل : اظفر بذات الدين تربت يداك

من أعظم الضرر الداخل على الإنسان كثرة النساء .

إنه أولا يتشتت همه فى محبتهن ، ومداراتهن وغيرتهن ، والإنفاق

---

(١) فى الحديثة : عن درسى .

عليهن ، ولا يأمن إحداهن أن تكرهه وتريد غيره ، فلا تتخلص إلا بقتله .

ولو سلم من جميع ذلك لم يسلم فى الكسب لهن ، فإن سلم لم ينج من السآمة لهن أو لبعضهن .

ثم يطلب مالا يقدر عليه من غيرهن ، حتى أنه لو قدر على نساء بغداد كلهن فقدمت امرأة مستترة من غير البلد ظن أنه يجد عندها ما ليس عندهن .

ولعمرى إن فى الجدة لذة ، ولكن رُبَّ مستور إذا انكشف افتضح .

ولو أنه سلم من كل أذى يتعلق بهن أنهك بدنه فى الجماع ، فيكون طلبه للالتذاذ مانعاً من دوام الالتذاذ .

ورب لقمة منعت لقمات ، ورب لذة كانت سبباً فى انقطاع لذّات .

والعاقل من يقتصر على الواحدة إذا وافقت غرضه ، ولا بد أن يكون فيها شيء لا يوافق ، إنما العمل على الغالب ، فتوهب الخلة الرّديّة للجيدة .

وينبغى أن يكون النظر إلى باب الدين قبل النظر إلى الحسن .

فإنه إذ قَلَّ الدين لم ينتفع ذو مروءه بتلك المرأة . ومما يهلك الشيخ سريعاً الجماع ، فلا يغترّ بما يرى من انبساط الآلة وحصول الشهوة .

وذلك مستخرج من قوته مالا يعود مثله ، فلا ينبغى أن يغتر بحركة وسهرة ، ولا يقرب من النساء إن كان له رأى فى البقاء .

٣٢٥ ـ فصل : العاقل المغلوب بالهوى ترجى هدايته

إذا رأيت قليل العقل فى أصل الوضع فلا ترْجُ خيره .

فأما إن كان وافر العقل لكنه يغلب عليه الهوى فارْجُـهْ .

وعلامة ذلك أنه يدبر أمره فى جهله ، فيستتر من الناس إذا أتى فاحشة ، ويراقب فى بعض الأحوال ، ويبكى عند الموعظة ، ويحترم أهل الدين : فهذا عاقل مغلوب بالهوى .

فإذا انتبه بالندم انقبض شيطان الهوى ، وجاء ملك العقل .

فأما إذا كان قليل العقل فى الوضع ، وعلامته ألا ينظر فى عاقبة عاجلة ولا آجلة ، ولا يستحى من الناس أن يروه على فاحشة ، ولا يُـدَبر أمر دنياه . فذاك بعيد الرجاء .

وقد يندر من هؤلاء من يفلح ، ويكون السبب فيه خميرة من العقل غطى عليها الهوى ثم تـكشف قليلا ليعود ، فمثلهم كمثل مصروع أفاق .

٣٢٦ ـ فصل : العاقل من تبصر فى عواقبه

ينبغى الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون ، ولا ينبغى أن يقال : الغالب السلامة .

وقد رأينا من نزل مع الخيل فى سفينة فاضطربت ، فغرق من فى السفينة وإن كان الغالب فى هذه الحالة السلامة .

وكذا ينبغى أن يقدر الإنسان فى نفقته وإن رأى الدنيا مقبلة ، لجواز أن تنقطع تلك الدنيا ،

وحاجة النفس لابد من قضائها ، فإذا بذر وقت السعة فجاء وقت الضيق لم يأمن أن يدخل فى مداخل سوء ، وأن يتعرض بالطلب من الناس .

وكذلك ينبغى للمعافى أن يُعِدّ للمرض، وللقوىّ أن يتهيأ للهرم.

وفى الجملة فالنظر فى العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن العقلاء.

فأما النظر فى الحالة الراهنة فحسب، فحالة الجهلة الحمقى، مثل أن يرى نفسه مُعَافى وينسى المرض، أو غنياً وينسى الفقر، أو يرى لذة عاجلة وينسى ما تجنى عواقبها.

وليس للعقل شغل إلا النظر فى العواقب، وهو يشير بالصواب من أين يقبل؟..

٢٢٧ ـ فصل: لا تيأس من روح الله

يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ فى الدعاء ولا يرى أثراً للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح.

أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان، فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء.

فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل، فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقاً فى الإجابة، وكأنه يتقاضى أجرة عمله.

أما سمعت قصة يعقوب عليه السلام: بقى ثمانين سنة فى البلاء[1] ورجاؤه لا يتغير، فلما ضم إلى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله وقال: «عَسَى اللهُ أنْ يَأتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً[2]».

---

(١) لم تثبت هذه المدة تاريخياً.

(٢) جزء من الآية ٨٣ من سورة يوسف.

وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ[1] » .

ومعلوم أن هذا لا يَصْدُر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج .

ومن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال العبد بخير مالم يستعجل ، قيل له : وما يستعجل ؟ قال : يقول : دعوت فلم يستجب لى .

فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء ، وتضجر من كثرة الدعاء ، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبّد بالصبر والدعاء ، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء

٣٢٨ - فصل : المعاصى سببها طلب اللذات

تذكرت فى سبب دخول جهنم ، فإذا هو المعاصى .

فنظرت فى المعاصى ، فإذا هى حاصلة من طلب اللذات.

فنظرت فى اللذات، فرأيتها خدعاً ليست بشىء ، وفى ضمنها من الأكدار ما يصيّرها نغصاً فتخرج عن كونها لذات .

فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار ؟

فمن اللذات الزنا ، فإن كان المراد إراقة الماء فقد يراق فى حلال .

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .

وإن كان فى معشوق فمرادُ النفس دوام البقاء مع المعشوق ، فإذا هى ملكته فالمملوك مملول .

وإن هو قاربه ساعة ثم فارقه ، لحسرة الفراق تربو على لذة القرب .

وإن كان ولد له من الزنا فالفضيحة الدائمة ، والعقوبة التامة ، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق .

وأما الجاهل فيرى لذته فى بلوغ ذلك الغرض ، وينسى ما يجنى مما يكدّر عيش الدنيا والآخرة .

ومن ذلك شرب الخمر ، فإنه تنجيس للفم والثوب ، وإبعاد للعقل ، وتأثيراته معلومة عند الخالق والمخلوق .

فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة تجنى عقاباً وذهاب جاه ، وربما خرج بالعربدة إلى القتل .

وعلى هذا فقس جميع المذوقات ، فإن لذاتها إذا وزنت بميزان العقل لا تفى بمعشار عشير عواقبها القِباح فى الدنيا والآخرة .

ثم هى نفسها ليست بكثير شىء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا ؟

سبحان مَنْ أنعم على أقوام ، كلما لاحَتْ لهم لذة نصبوا ميزان العقل ونظروا فيما يجنى ، وتلمحوا ما يؤثر تركها فرجحوا الأصلح .

وطمس على قلوب فهى ترى صورة الشىء وتنسى جناياته .

ثم العجب أنا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليعدو فى الطريق فيقال ساعى .

فيغلب هواه لطلب ما هو أعلى وهو المدح . كيف لا يترك محرماً ليمدح في الدنيا والأخرى ؟

ثم قدّر حصول ماطلبتَ من اللذات وذهابها واحسب أنها قد كانت وقد هانت وتخلصت من محنها . أين أنت من غيرك ؟ أين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة ؟ ذهب التعب وحصل العلم ، وأين لذة البطال ؟ ذهبت الراحة وأعقبت الندم .

٣٢٩ ـ فصل : من تبع العقل سلم

من وقف على موجب الحس هلك . ومن تبع العقل سلم ، لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا . وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات ، فيعلم وجود خالق[1] منح وأباح ، وأطلق وحَظَر . وأخبر : أني سائلكم ومبتليكم ليظهرَ دليل وجودي عندكم بترك ما تشتهون طاعة لي .

وإني قد بنيت لكم داراً غير هذه ، لإثابة من يطيع ، وعقوبة من يخالف .

ثم لو ترك الحس وما يشتهي مع أغراضه قرب الأمر ، إنما يزني فيجلد ، ويشرب الخمر فيعاقب ، ويسرق فيقطع ، ويفعل زلة فيفتضح بين الخلق .

ويعرض عن العلم إلى البطالة فيقع الندم عند حصول الجهل .

ثم إنا نرى الكثير ممن عمل بمقتضى عقله ، قد سلمت دنياه وآخرته ، وميز بين الخلق بالتعظيم ، وكان عيشه في لذاته غالباً خيراً من عيش موافق للهوى .

---

(١) في الحديثة : الخالق . ثم زاد بعدها : ويعلم أنه قد منح .

فليعتبر ذو الفهم بما قلت ، وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم .

٣٢٠ ـ فصل : احفظ دينك ومروءتك بترك الحرام

العجب لمؤثر شهوات الدنيا . ألا يتدبر أمرها بالعقل قبل أن يصير إلى منقولات الشرع ؟

إن أعظم لذات الحس الوطء ، فالمرأة المستحسنة إنما يكون حال كمالها من وقت بلوغها إلى الثلاثين ، فإذا بلغتها أثر فيها[1] .

وربما ابْيَضَّتْ شعرات من رأسها فينفر الإنسان منها . وقد يقع الملل قبل ذلك ، وطول الصحبة يكشف العيوب .

وما عيب نساء الدنيا بأبلغَ من قوله : « وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ[2] » .

فلو تفكر الإنسان فى جسد مملوء بالنجاسة ماطاب له ضمه ، غير أن الشهوة تغطى عين الفكر .

فالعاقل من حفظ دينه ومروءته بترك الحرام ، وحفظ قوّته فى الحلال فأنفقها فى طلب الفضائل ، من علم أو عمل .

ولم يسْعَ فى إفناء عمره وتشتيت قلبه فى شىء لا تحسن عاقبته :

مَا فِى هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِى عِوَضٌ
إنْ مِتُّ شَوقاً وَلا فِيهَا لهَا ثَمَنُ

---

(١) زاد فى الحديثة دون تنبيه : ما مضى من عمرها فى الولادة وغيرها .

(٢) جزء من الآية ٢٥ من سورة البقرة .

وعموم من رأينا من الكبار غلبت عليهم شهوة الوطء فانهدمت أعمارهم ، ورحلوا سريعا .

وقد رأينا من العقلاء من زجر نفسه عن هذه المحنة ، ولم يستعملها إلا وقت الحاجة ، فبقى لهم سواد شعورهم وقوتهم ، حتى تمتعوا بها فى الحياة وحصلوا المناقب ، وعرفت منهم النفوس قوة العزيمة ، فلم تطالبهم بما يؤذى .

٢٣١- فصل : رؤية النبى مناما مثال لا مثل

قد أشكل على الناس رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وقوله : من رآنى فى المنام فقد رآنى . فقال : ظاهر الحديث أنه يراه حقيقة .

وفى الناس من يراه شيخاً وشاباً ومريضاً ومعافى .

فالجواب أنه من ظن أن جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم المودع فى المدينة خرج من القبر ، وحضر فى المكان الذى رآه فيه ، فهذا جَهْلٌ لا جَهْلَ يشبهه .

فقد يراه فى وقت واحد ألف شخص ، فى ألف مكان ، على صور مختلفة .

فكيف يتصور هذا فى شخص واحد ؟ وإنما الذى يرى مثاله لاشخصه .

فيبقى من رآنى فقد رآنى معناه : قد رأى مثالى الذى يعرفه الصواب ، وتحصل به الفائده المطلوبة .

فإن قيل : فما تقولون فى رؤية الحق سبحانه ؟ .

فنقول : يرى مثالا لا مثلا ، والمثال لا يفتقر إلى المساواة والمشابهة ، كما قال تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا[1] » .

فضربه مثالا للقرآن وانتفاع الخلق به .

---

(١) جزء من الآية ١٧ من سورة الرعد .

ويوضح هذا أنه إنما يرى من رأى الحق سبحانه وتعالى على هيئة مخصوصة، والحق سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ ، قد توحَّد ، فوضح ما قلنا[١] .

٢٣٢ - فصل : يجب أن يكون المحدث فقيها

(هذا فصل غزير الفائدة)[٢] .

اعلم أنه لو اتَّسَعَ العمر لم أمنع من الإيغال فى كل علم إلى منتهاه ، غير أن العمر قصير . والعلم كثير .

فينبغى للإنسان أن يقتصر من القراءات إذا حفظ القرآن على العشر[٣] .

ومن الحديث على الصِّحَاح ، والسنن والمسانيد المصنفة . فإن علوم الحديث قد انبسطت زائدة فى الحد وما فى هذا الجزء[٤] وإنما الطرق تختلف.

وعلم الحديث يتعلق بعضه ببعض ، وهو مشتهى ، والفقهاء يسمونه علم الكُسالى ، لأنهم يتشاغلون بكتابته وسماعه ، ولا يكادون يعانون حفظه ، ويفوتهم المهم وهو الفقه .

وقد كان المحدثون قديماً هم الفقهاء ، ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث ، والمحدثون لا يعرفون الفقه .

فمن كان ذا هِمَّة ونَصَحَ نفسه تشاغل بالمهم من كل علم ، وجعل جُلَّ شُغله الفقه ، فهو أعظم العلوم وأهمها .

وقد قال أبو زرعة : كتب إلىّ أبو ثور : فإن هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى صح منه طرق يسيرة .

---

(١) فى الحديثة : ما قلناه .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

(٣) فى الحديثة : على العشرة .

(٤) فى الحديثة : والمتون محصورة .

فالتشاغل بغير ما صح يمنع التشاغل بما هو أهم .

ولو اتسع العمر كان استيفاء كل الطرق فى كل الأحاديث غاية فى الجودة ، ولكن العمر قصير .

ولما تشاغل بالطرق مثل يحى بن معين فاته من الفقه كثير ، حتى أنه سئل عن الحائض أيجوز أن تغسل الموتى ! فلم يعلم ، حتى جاء أبو ثور فقال : يجوز ، لأن عائشة رضى الله عنها قالت : كنتُ أُرَجِّل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا حائض .

فيحى أعلم بالحديث منه ، ولكن لم يتشاغل بفهمه .

فأنا أنهى أهل الحديث أن تشغلهم كثرة الطرق .

ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها .

وكذلك أنهى من يتشاغل بالتزهد والانقطاع عن الناس أن يعرض عن العلم ، بل ينبغى أن يجعل لنفسه منه حظا ليعلم إن زل كيف يتخلص .

٤٣٣ - فصل : العقل السليم فى الجسم السليم

معرفة الله سبحانه لا تحصل إلا لكامل العقل ، صحيح المزاج ، والترقى إلى محبته بذلك يكون .

وإن أقواماً قلّتْ عقولهم ، وفسدت أمزجتهم ، فساءت مطاعمهم ، وقلّتْ ، فتخايلت لهم الخيالات الفاسدة ، فادّعوا معرفة الحق ومحبته ، ولم يكن عندهم من العلم ما يصدهم عما ادعوا فهلكوا (١) .

---

(١) فى الحديثة زيادة : وعلى المؤمن أن يرعى حق بدنه ، وليتخير له الأغذية .

وليعلم أن فى المأكولات [مايسبب] إفساد العقل وفيها مايزيد فى السوداء فيوجب الماليخوليا ، فترى صاحبها يحب الخلوة ، ويهرب من الناس ، وقد يقلل المطعم ، فيقوى مرضه فيتخايل خيالات يظنها حقاً .

فمنهم من يقول : إنى رأيت الملائكة ، وفيهم من يخرجه الأمر إلى دعوى محبة الحق والوله فيه ، ولا يكون ذلك عن أصل معتمد عليه[1] .

وإنما العاقل العالم يسير فى الطريق بين الرفيقين : العلم والعقل .

فإن تقلل من الطعام فبعقل ، وحدّ التقلل ترك فضول المطعم وما يخاف شره من شبهة أو شهوة يحذر تعودها .

وأما زيادة التقلل مع القدرة فليس لعقل ولا شرع ، إلا أن يكون الفقر عم ، فيتقلل ضرورة .

ومن تأمل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجدهم يأخذون بمقدار ولا يتركون حظوظ النفس التى تصلحها .

وما أحسن الأمر وأعدله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفس » .

وقد قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وهو مريض : « أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا » .

وكان صلى الله عليه وسلم يشاور الأطباء ، ويحتجم ، ويحث على التداوى ويقول : ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء فتداوَوْا .

فجاء أقوام جهلوا العلم والحكمة فى بنيان الأبدان .

---

(١) لا نعلم طعاما يبعث الحب . فما هذا ؟

فمنهم من أقام فى الجبال يأكل البلوط ، فأصابه القولنج ، ومنهم من قلل المطعم إلى أن ضعفت قواه[1] ، ومنهم من اقتصر على نبات الصحراء ، ومنهم من كان لا يقوت إلا الباقلاء والشعير . فأوجبت هذه الأفعال أمراضاً فى البدن، وترقت إلى إفساد العقل .

واتفق لهم قلة العلم ، إذ لو علموا لفهموا أن الحكمة تنهى عن مثل هذا ، فإن البدن مبنى على أخلاط إذا اعتدلت وقعت السلامة ، وإذا زاد بعضها وقع المرض .

وأكثر هؤلاء مرضوا وتعجل لهم الموت ، وفيهم من خرج إلى التسودن[2] ، وفيهم من لاحت له لوائح ، فادعى رؤية الملائكة إلى غير ذلك .

فأما أهل العلم والعقل فهربهم من الخلق لخوف المعاصى ورؤية المنكر .

وفيهم من قويت معرفته فشغلته معرفة الحق ومحبته على ملاقاة الخلق .

فهذه هى الخلوات الصافية ، لأنها تصدر عن علم وعقل فتحفظ البدن ، لأنه ناقة توصل .

ولا ينبغى أن يتهاون بالمأكولات ، خصوصاً من لم يعتد التقشف ، ولا يلبس الصوف على البدن من لم يعتده[3]

---

(١) فى الحديثة : قواهم .
(٢) أى إلى غلبة المزاج السوداوى .
(٣) فى الحديثة : من لم يعتد .

ولينظر فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، فإنهم القدوة.
ولا يلتفت إلى بُنيات الطريق ، فيقال : فلان الزاهد قد أكل الطين[1]،
وفلان كان يمشى حافياً ، وفلان بقى شهراً ما أكل .

فإن المحققين من هؤلاء المخلصين لله تعالى على غير الجادة ، لأن الجادة
اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا يفعلون .

هذا ولعمرى أنه قد كان فيهم من يقنع بالمذقة من اللبن ، ويصبر الأيام
عن الطعام . ولكن إما لضرورة ، أو لأنه معتاد لذلك كما يعتاد البدوىّ شرب
اللبن وحده ولا يؤذيه ذلك .

وفى الحديث : « عوّدوا كل بدن ما اعتاد » وفى المتزهدين من أخرج ماله
كله عن يده زهداً ، ومعلوم أن الحاجات لا تنقضى ، فلما احتاج تعرّض
للطلب ، وافتقر إلى أخذ مال من يد من يعلم أنه ظالم وبذل وجهه .

وقد كانت الصحابة تتجر وتحفظ المال ، وجهال المتزهدين يرون جمع
المال ينافى الزهد .

فمخضة هذا الفصل أن أقول : ينبغى لمن رزق فهماً أن يسعى فى صلاح
بدنه ولا يحمل عليه ما يؤذيه ، ولا يناوله من القوت ما لا يوافقه ، ولا
يُضَيِّعُ ماله ، وليجتهد فى استثماره لئلا يحتاج ، فإنه ما نافق زاهد إلا
لأهل الدنيا .

ولينظر فى سير الكاملين من السلف . وليتشاغل بالعلم ، فإنه الدليل —

---

(١) من أين جاء بهذا ؟ لم نسمع أن زاهداً أكل الطين أبداً .

فحينئذ يحمله الأمر على الخلوة بربه ، والاشتغال بحبه ، فيكون ما ظهر منه ثمرة نضجة لا فجة ، والله الموفق .

٣٣٤ـ فصل : استقامة الأمور باستقامة الباطن

ما رأيت أظرف من لعب الدنيا بالعقول ، وقد سمعنا ورأينا جماعة من الفطناء الكاملى العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالمجانين . فولوا الولايات فخرجوا إلى القتل والضرب والحبس والشتم وذهاب الدين ، والمباشرة للظلم كله[1] لأجل دنيا تذهب سريعا .

وهى فى مدة إقامتها معجونة[2] بالنغص .

فيا أيها المرزوق عقلا لا تبخسه حقه ، ولا تطفىء نوره ، واسمع ما نشير به ، ولا تلتفت إلى بكاء طفل الطبع لفوات غرضه .

فإنك إن رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه ، ولم يمكنك تأديبه ، فيبلغ جاهلا فقيراً :

لا تَنْهَ عَنْ أَدَبِ الصَّغِيرِ وَلَوْ شَكَا أَلَمَ التَّعَبْ
وَدَعِ الكَبِيرَ لِشَأْنِهِ كَبُرَ الكَبِيرُ عَنِ الأَدَبْ

واعلم أن زمان الابتلاء ضيف قِراهُ الصبر ، كما قال أحمد بن حنبل : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل ، فلا تنظر

---

(١) فى الحديثة : وذلك كله .
(٢) فى الحديثة : وفى مدة إقامتها هى معجونة .

إلى لذة المترفين ، وتلمح عواقبهم ، ولا تضق صدراً بضيق المعاش ، وعلل الناقة بالحدو تسير :

طاوِلْ بِهَا الليْلَ مَالَ النَّجْمُ أمْ جَنَحاً
وَمَاطِلِ النَّوْمَ ضَنَّ الجَفْنُ أمْ سَمَحاً
فإنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْها المَجَرَّةَ مِنْ
ضَوْءِ الصَّبَاحِ وَعِدْها بِالرَّوَاحِ ضُحَى

وقد كان أهدى إلى أحمد بن حنبل هدية فردها ، ثم قال بعد سنة لأولاده : لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت[1] .

ومر بشر على بئر ، فقال له صاحبه : أنا عطشان ، فقال : البئر الأخرى ، فمر عليها فقال له : الأخرى ، ثم قال : كذا تقطع الدنيا .

ودخلوا إلى بشر الحافى وليس فى داره حصير ، فقيل له : ألا بذا تؤذى ؟ فقال : هذا أمر ينقضى .

وكان لداود الطائى دار يأوى إليها ، فوقع سقف ، فانتقل إلى سقف ، إلى أن مات فى الدهليز .

فهؤلاء الذين نظروا فى عواقب الأمور ، وبعد هذا فلا أطالبك بهذه الرتبة ، بل أقول لك : إن حصل لك شىء من المباح لا منّ فيه ولا أذى ولا نلته بسؤال ولا من يد ظالم تعلم أن ماله حرام أو فيه شبهة ، فافسح لنفسك فى مباحاتها بمقدار ما تحتاج إليه ، وكن مقدراً للنفقة غير مبذر .

---

(١) هى هدية المنصور .

فإن الحلال لا يحتمل السرف ، ومتى أسرفت احتجت إلى التعرض للخلق .

والتناول من الأكدار .

وإن ضاق بك أمر فاصبر ، فإن ضعف الصبر فسل فاتح الأبواب .

فهو الكريم وعنده مفاتح الغيب .

وإياك أن تبذل دينك بتصنع للخلق أو يتقرب إلى الأمراء وتستعطى[1] أموالهم .

واذكر طريق السلف : كان ابن سمعون له ثياب يجلس فيها للناس ثم يطويها إلى المجلس الآخر ورثها عن أبيه بقيت أربعين سنة .

وكانت ميمونة بنت شاقولة تعظ الناس ولها ثياب قد بقيت أربعين سنة .

ومن صفا نظره وتهذب لفظه ، نفع وعظه ، ومن كدر كدّر عليه .

والحالة العالية فى هذا إقبال القلب على الله عز وجل ، والتوكل عليه ، والنظر إليه ، والتفات القلب عن الخلق .

فإن احتجت فاسأله ، وإن ضعفت فارغب إليه .

ومتى ساكنت الأسباب انقطعت عنه ، ومتى استقام باطنك استقامت لك الأمور .

٣٣٥ ـ فصل : فلينظر أحدكم من يخالل

رأيت نفسى تأنس بخلطاء نسميهم أصدقاء ، فبحثت بالتجارب عنهم ،

---

(١) فى الحديثة : تستعطى .

فإذا أكثرهم حساد على النعم ، وأعداء لا يسترون زلة ، ولا يعرفون لجليس حقاً ، ولا يواسون من مالهم صديقاً .

فتأملت الأمر ، فإذا الحق سبحانه يغار على قلب المؤمن أن يجعل له شيئاً يأنس به ، فهو يكدر عليه الدنيا وأهلها ليكون أنسه به .

فينبغي أن يعد الخلق كلهم معارف ، ليس فيهم صديق ، بل تحسبهم أعداء .

ولا تظهر سرك لمخلوق منهم ، ولا تعدّن من يصلح[1] لشدة لا ولداً ولا أخاً ولا صديقاً .

بل عاملهم بالظاهر ، ولا تخالطهم إلا حالة الضرورة بالتّوَقي لحظة .

ثم انفر عنهم ، وأقبل على شأنك ، متوكلا على خالقك .

فإنه لا يجلب الخير سواه ، ولا يصرف السوء إلا إياه .

فليكن جليسك وأنيسك ، وموضع توكلك وشكواك .

فإن ضعف بصرك فاستغث به ، وإن قلّ يقينك فسله القوة .

وإياك أن تميل إلى غيره ، فإنه غيور ، وأن تشكو من أقداره ، فربما غضب ولم يُعتب .

أوحى الله عز وجل إلى يوسف عليه السلام : « من خلصك من الجب ؟ من فعل ؟ من فعل ؟ قال : أنت » .

قال : فلم ذكرت غيري ؟ فلأطيلن حبسك ، أو كما قال .

---

(١) في الحديثة : من لا يصلح . وهو عكس المعنى المراد .

هذا وإنما تعرض يوسف عليه السلام بسبب مباح « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ[١] » ، « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ[٢] » .

وما أعرف العيش إلا لمن يعرفه ويعيش معه ، ويتأدب بين يديه فى حركاته وكلماته كأنه يراه .

ويقف على باب طرفه حارساً من نظرة لا تصلح ، وعلى باب لسانه حافظا له من كلمة لا تحسن ، وعلى باب قلبه حماية لمسكنه من دخول الأغيار .

ويستوحش من الخلق شغلا به ، وهذا يكون على سيرة الروحانيين .

فأما المخلط فالكدر غالب عليه ، والمحق[٣] لا يطلب إلا الأرفع

قال القائل :

أَلاَ لا أُحِبُّ السَّيْرَ إلاَّ مُصَاعِداً
وَلاَ الْبَرْقَ إلاَّ أَنْ يَكُونَ يَمَانِياً

٢٢٦ ـ فصل : ليس المراد من العلم فهم الألفاظ

رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده .

فالقارىء مشغول بالروايات ، عاكف على الشواذ ، يرى أن المقصود نفس التلاوة ، ولا يتلمح عظمة المتكلم ، ولا زجر القرآن ووعده .

وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه . فتراه يترخص فى الذنوب ، ولو فهم لعلم أن الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ .

---

(١) جزء من الآية ٤٢ من سورة يوسف .
(٢) جزء من الآية ٢٥ من سورة التوبة .
(٣) فى الحاشية : والمحض ولا معنى لها .

والمحدث يجمع الطرق ، ويحفظ الأسانيد ؛ ولا يتأمل مقصود المنقول ، ويرى أنه قد حفظ على الناس الأحاديث ، فهو يرجو بذلك السلامة .

وربما ترخّص فى الخطايا ظناً منه أن مافعل فى الشريعة[1] يدفع عنه .

والفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدال الذى يقوى به خصامه ، والمسائل (التى قد عرف فيها المذهب قد حصل بما)[2] يفتى به[3] الناس مايرفع قدره ، ويمحو ذنبه .

فربما هجم على الخطايا ظناً منه أن ذلك يدفع عنه .

وربما لم يحفظ القرآن ولم يعرف الحديث ، وأنهما[4] ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق .

وينضاف إليه مع الجهل بهما حب الرياسة ، وإيثار الغلبة فى الجدل ، فتزيد قسوة قلبه .

وعلى هذا أكثر الناس ، صور العلم عندهم صناعة ، فهى تكسبهم الكبر والحماقة .

وقد حكى بعض المعتبرين عن شيخ أفنى عمره فى علوم كثيرة ، أنه فتن فى آخر عمره بفسق أصر عليه ، وبارز الله به .

وكانت حاله تعطى بمضمونها أن علمى يدفع عنى شر ما أنا فيه ولا يبقى له أثر .

---

(١) فى الحديثة : فى خدمة الشريعة .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .
(٣) فى الحديثة : يفتى بها .
(٤) فى الحديثة : ولم يدر انهما .

وكان كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة ، فلا يرى عنده أثر لخوف ولا ندم على ذنب .

قال : فتغير فى آخر عمره ولازمه الفقر ، فكان يلقى الشدائد ولا يلتهى عن قبح حاله .

إلى أن جمعت له يوماً قراريط على وجه الكدية[1] فاستحي من ذلك وقال : يارب إلى هذا الحد ؟

قال الحاكى : فتعجبت من غفلته كيف نسى الله عز وجل ، وأراد منه حسن التدبير له والصيانة وسعة الرزق ، وكأنه ماسمع قوله تعالى « وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا[2] »

ولا علم أن المعاصى تسد أبواب الرزق ، وأن من ضيع أمر الله ضيعه الله .

فما رأيت علماً ما أفاد كعلم هذا ، لأن العالم إذا زل انكسر ، وهذا مصر لاتؤلمه معصيته .

وكأنه يجوّز له مايفعل ، أو كأن له التصرف فى الدين تحليلا وتحريماً .

فمرض عاجلا ، ومات على أقبح حال .

قال الحاكى : ورأيت شيخاً آخر حصّل صور علم ، فما أفادته

كان أى فسق أمكنه لم يتحاش منه ، وأى أمر لم يعجبه من القدر عارضه بالاعتراض على المقدر واللوم .

---

(١) أى : السؤال .

(٢) الآية ١٦ من سورة الجن .

فعاش أكدر عيش ، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج .

وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم ، وليس العلم صور الألفاظ ، إنما المقصود فهم المراد منه ، وذاك يورث الخشية والخوف ، ويرى المنة للمنعم بالعلم ، وقوة الحجة له على المتعلم .

نسأل الله عز وجل يقظة تفهمنا المقصود ، وتعرفنا المعبود .

ونعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمون بالعلماء ، لا ينهاهم ما يحملون ، ويعلمون ولا يعملون ، ويتكبرون على الناس بما لا يعملون .

ويأخذون عرَض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون .

غلبتهم طباعهم ، وما راضتهم علومهم ، التي يدرسون .

فهم أخس حالا من العوام الذين يجهلون « يَعْلمون ظَاهِراً منَ الحَيَاةِ الدُّنيا وَهمْ عَنِ الآخِرَةِ همْ غَافِلون»[1] .

٣٣٧ — فصل : الفقه يحتاج إلى جميع العلوم

للفقيه أن يطالع من كل فن طرفاً ، من تاريخ وحديث ولغة وغير ذلك ، فإن الفقه يحتاج إلى جميع العلوم ، فليأخذ من كل شيء منها مهماً .

ولقد رأيت بعض الفقهاء يقول : اجتمع الشبلى ، وشريك القاضى ، فاستعجبت له كيف لا يدرى بُعد ما بينهما .

وقال آخر فى مناظرة : كانت الزوجية بين فاطمة وعلى رضى الله عنهما غير منقطعة الحكم ، فلهذا غسلها .

---

(١) الآية ٧ من سورة الروم .

فقلت له : ويحك فقد تزوج أمامة بنت زينب ، وهى بنت أختها فانقطع

ورأيت فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى من هذا مايدهش من التخليط فى الأحاديث والتواريخ ، فجمعت من أغاليطه فى كتاب .

وقد ذكر فى كتاب له سماه المستظهرى[1] وعرضه على المستظهر بالله ، أن سليمان بن عبد الملك بعث إلى أبى حازم فقال له : ابعث لى من فطورك ، فبعث إليه نخالة مقلوّة فأفطر عليها ، ثم جامع زوجته فجاءت بعبد العزيز ، ثم ولد له عمر .

وهذا تخليط قبيح ، فإنه جعل عمر بن عبد العزيز ابن سليمان بن عبدالملك فجعل سليمان جده ، وإنما هو ابن عمه .

وقد ذكر أبو المعالى الجوينى فى أواخر كتاب الشامل فى الأصول ، قال : قد ذكرت طائفة من الثقات المعتنين بالبحث عن البواطن أن الحلاج ، والجبائى القرمطى ، وابن المقفع[2] تواصوا على قلب الدول وإفساد المملكة واستعطاف القلوب ، وارتاد كل منهم قطراً ، فقطن الجبائى فى الإحساء ، وتوغل ابن المقفع فى أطراف بلاد الترك ، وقطن الحلاج ببغداد ، فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن بلوغ الأمنية لبعد أهل بغداد عن الانخداع ، وتوفر فطنتهم ، وصدق فراستهم

قلت : ولو أن هذا الرجل أو مَن حكى عنه عرف التاريخ لعلم أن الحلاج

---

(١) الذى نعلمه أن المستظهرى هو للقفال الشاشى وليس للغزالى ، واسمه (حلية العلماء فى مذاهب الفقهاء) ومازال مخطوطا .

(٢) فى الدمشقية : ابن المقنع .

لم يدرك ابن المقفع ، فإن ابن المقفع أمر بقتله المنصور ، فقتل فى سنة أربع وأربعين ومائة .

وأبو سعيد الجبائى القرمطى ظهر فى سنة ست وثمانين ومائتين .

والحلاج قتل سنة تسع وثلاثمائة .

فزمان القرمطى والحلاج متقاربان ؛ فأما ابن المقفع فكلا .

فينبغى لكل ذى علم أن يُلِمّ[1] بباقى العلوم ، فيطالع منها طرفاً ؛ إذ لكل علم بعلم تعلق .

وأقبح بمحدّث يُسأل عن حادثة فلا يدرى ، وقد شغله منها جمع طرق الأحاديث .

وقبيح بالفقيه أن يقال له : ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ؛ فلا يدرى صحة الحديث ولا معناه .

نسأل الله عز وجل همة عالية لا ترضى بالنقائص بمنه ولطفه .

٣٣٨ ـ فصل : قدماء العلماء وهمتهم العالية

كانت همم القدماء من العلماء علية ، تدل عليها تصانيفهم التى هى زبدة أعمارهم.

إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت ، لأن همم الطلاب ضعفت ، فصاروا يطلبون المختصرات ، ولا ينشطون للمطوّلات .

ثم اقتصروا على ما يدرسون (به)[2] من بعضها ، فدثرت الكتب ولم تنسخ .

فسبيل طالب الكمال فى طلب العلم الاطلاع على الكتب التى قد تخلفت

(١) فى الدمشقية و ت : يسلم .

(٢) ساقطة من الحديثة .

من المصنفات ، فليكثر من المطالعة ، فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم مايشحذ خاطره ، ويحرك عزيمته للجد ، وما يخلو كتاب من فائدة .

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم ، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدى بها المبتدى ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد .

فالله اللهَ وعليكم بملاحظة سير السلف ، ومطالعة تصانيفهم ، وأخبارهم ، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم ، كما قال :

فَاتَنِى أنْ أرَى الدِّيارَ بِطَرْفِى
فَلَعَلِّى أرَى الدِّيارَ بِسَمْعِى

وإنى أخبر عن حالى ، ما أشبع من مطالعة الكتب ، وإذا رأيت كتاباً لم أره ، فكأنى وقعت على كنز .

ولقد نظرت فى ثبت الكتب الموقوفة فى المدرسة النظامية، فإذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد، وفى ثبت كتب أبى حنيفة ، وكتب الحميدى، وكتب شيخنا عبد الوهاب وابن ناصر ، وكتب أبى محمد بن الخشاب وكانت أحمالا ، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه .

ولو قلت إنى طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعدُ فى الطلب .

فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم ، وقدر هممهم ، وحفظهم ، وعباداتهم ، وغرائب علومهم ، مالا يعرفه من لم يطالع .

فصرت أستزرى ما الناس فيه ، وأحتقر هِمَمَ الطلاب ولله الحمد .

٢٣٩ ـ فصل : ترك اعمال العقل فى النظر والاستدلال إهمال وحمق

ليس للآدمى أعز من نفسه ، وقد عجبت ممن يخاطر بها ويعرضها للهلاك .

والسبب فى ذلك : قلة العقل ، وسوء النظر ، فمنهم من يعرضها للتلف

ليمدح بزعمه ، مثل قوم يخرجون إلى قتل السبع ، ومنهم من يصعد إلى إيوان كسرى ، ليقال شاطر ، وساع يمشى ثلاثين فرسخا ، وهؤلاء إذا تلفوا حملوا إلى النار .

فإن هلك ذهبت النفس التى يراد المال لأجلها .

وأعجب من الكل من يخاطر بنفسه فى الهلاك ولا يدرى ، مثل أن يغضب فيقتل المسلم فيشفى غيظه بالتعذيب فى جهنم .

وأظرف من هذا اليهود والنصارى ، فإن أحدهم يبلغ فيجب عليه أن ينظر فى نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإذا فرط (فمات) [1] فله الخلود فى جهنم .

ولقد قلت لبعضهم : ويحك تخاطر بنفسك فى عذاب الأبد ، نحن نؤمن بنبيكم فنقول : لو أن مسلماً آمن بنبينا وكذب بنبيكم أو بالتوراة خلد فى النار ، فما بيننا وبينكم خلاف ، إذ نحن مؤمنون بصدقه وكتابه ، فلو لقيناه لم نخجل ، ولو عاتبنا مثلا وقال . هل قمتم (بسبت) [2] بالسبت ، والسبت من الفروع ، والفروع لا يعاقب عليها بالخلود .

فقال لى رئيس القوم : ما نطالبكم بهذا ، لأن السبت إنما يلزم بنى إسرائيل .

فقلت : فقد سلمنا بإجماعكم وأنتم هالكون ، لأنكم تخاطرون بأرواحكم فى العذاب الدائم .

والعجب بمن يهمل النظر فيما إذا توانى فيه أوجب الخلود فى العقاب الدائم .

وأعجب من الكل جاحد الخالق ، وهو يرى إحكام الصنعة ، ويقول : لا صانع .

والسبب فى هذه الأشياء كلها قلة العقل ، وترك إعماله فى النظر والاستدلال .

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) ساقطة من الحديثة .

٣٤٠ - فصل : خطر إفشاء السر

لا ينبغى للعاقل أن يظهر سراً حتى يعلم أنه إذا ظهر لا يتأذى بظهوره .

ومعلوم أن السبب فى بث السر طلب الاستراحة ببثه ، وذلك ألم قريب فليصبر عليه .

فرب مظهر سراً لزوجته ، فإذا طلقت بثته ، وهلك .

أو لصديقه فيظهره عليه حسداً له إذا كان مماثلا ، وإن كان عامياً فالعامى أحمق . ورب سر أظهر فكان سبب الهلاك .

٣٤١ - فصل : يغوص البحر من طلب اللآلى

مايتناهى فى طلب العلم إلا عاشق العلم . والعاشق ينبغى أن يصبر على المكاره.

ومن ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب ، ومذ فقد التفقد لهم من الأمراء ومن الإخوان لازمهم [١] الفقر ضرورة .

والفضائل تنادى « هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً [٢] » .

فكلما خافت من ابتلاء [٣] قالت :

لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْراً أَنْتَ آكِلُهُ
لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

ولما آثر أحمد بن حنبل رضى الله عنه طلب العلم وكان فقيراً ، بقى أربعين سنة يتشاغل به ولا يتزوج ، فينبغى للفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد .

---

(١) فى الحديثة : انقطعوا فلازمهم

(٢) « جزء من الآية ١١ » من سورة الأحزاب .

(٣) فى الحديثة : من ابتلى .

ومن يطيق ما أطاق ؟ فقد رد من المال خمسين ألفاً وكان يأكل الكامخ ويتأدم بالملح .

فما شاع له الذكر الجميل جزافا ، ولا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب .

فياله ثناء ملأ الآفاق ، وجمالا زين الوجود ، وعزاً نسخ كل ذل .

هذا فى العاجل ، وثواب الآجل لا يوصف .

وتلمح قبور أكثر العلماء لا تعرف ولا تزار . ترخصوا وتأولوا وخالطوا السلاطين ، فذهبت بركة العلم ، ومحى الجاه ، ووردوا عند الموت حياض الندم .

فيالها حسرات لا تتلافى ، وخسراناً لا ينجبر ، وكانت صحبة اللذات طرفة عين ، ولازم الأسف دائماً .

فالصبرَ الصبرَ أيها الطالب للفضائل ، فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة ، تذهب ويبقى الأسى ، وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه :

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إلاَّ صَبْرُ أيَّامِ
كَأنَّ مُدَّتَهَا أضْغَاثُ أحْلاَمِ

يَا نَفْسُ جُوزِى عَنِ الدُّنْيَا مبادِرَةً
وَخَلِّ عَنْهَا فَإنَّ العَيْشَ قُدَّامِى

ثم أيها العالم الفقير ، أيسرك ملك سلطان من السلاطين ، وأن ما تعلمه من العلم لا تعلمه ؟

كلا ، ما أظن بالمتيقظ أن يؤثر هذا .

ثم أنت إذا وقع لك خاطر مستحسن ، أو معنى عجيب ، تجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية .

فقد حرم من رزق الشهوات ما قد رزقت ، وقد شاركتهم فى قوام العيش ، ولم يبق إلا الفضول الذى إذا أخذ لم يكد يضر .

ثم هم على المخاطرة فى باب الآخرة غالباً ، وأنت على السلامة فى الأغلب.

فتلمح ياأخى عواقب الأحوال ، واقمع الكسل المثبط عن الفضائل .

فإن كثيراً من العلماء الذين ماتوا مفرطين يتقلبون فى حسرات وأسف .

رأى رجل شيخنا ابن الزغوانى[1] فى المنام، فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة ، وأكثر ما عندنا الندامة .

فاهرب وفقك الله قبل الحبس ، وافسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش .

واعلم أن الفضائل لا تنال بالهوينا ، وأنّ يسير التفريط يشين وجه المحاسن .

فالبدارَ البدارَ ونفس النفس يتردد ، وملك الموت غائب ما قدم بعد ، وانهض بعزيمة عازم .

إذَا همَّ ألـقَى بَيْنَ عَينَـيْـهِ عَزمَهُ
وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِى أمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِه
وَلَمْ يَرْضَ إلاَّ قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

وارفض فى هذه العزيمة الدنيا وأربابها ، فبارك الله لأهل الدنيا فى دنياهم، فنحن الأغنياء ، وهم الفقراء .

كما قال إبراهيم بن أدهم : ولو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حراماً أو شبهة .

وهو وإن لم يؤثر ذلك فوكيله يفعله ، ولا يبالى هو بقلة دين وكيله .

وإن عمروا داراً سخروا الفعلة ، وإن جمعوا مالاً فمن وجوه لا تصلح .

ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يشتم ، فعيبهم نقص .

(١) فى الدمشقية : ابن الزاغونى .

ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة ، ولا نخاف من عدو ، ولا ولايتنا تقبل العزل .

والعز فى الدنيا لنا لا لهم ، وإقبال الخلق علينا ، وتقبيل أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير .

وفى الآخرة بيننا وبينهم تفاوت إن شاء الله تعالى .

فإن لفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مزيتنا .

وإن غلت أيديهم عن إعطائنا فلذة العفاف أطيب ، ومرارة المنن لا تفى بالمأخوذ ، وإنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

والعجب لمن شرفت نفسه حتى طلب العلم إذ لا يطلبه إلا (ذو) [1] نفس شريفة ، كيف يذل لبذل من لا عزه [2] إلا بالدنانير ، ولا مفخرة له [3] إلا بالمكنة ، ولقد أنشدنى أبو يعلى العلوى :

رُبَّ قَوْمٍ فِى خَلاَئِقِهِمْ عَرَرٌ قَدْ صُيِّرُوا غُرَرَا
سَتَرَ المَالُ القَبِيحَ لَهُمْ سَتَرى إِنْ زَالَ مَا سَتَرَا

أيقظنا الله من رقدة الغافلين ، ورزقنا فكر المتيقظين .

ووفقنا للعمل بمقتضى العلم والعقل ، إنه قريب مجيب .

٤٤٢ ـ فصل : عودوا كل بدن ما اعتاد

لا ينبغى للإنسان أن يحمل على بدنه مالا يطيق ، فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب .

فترى فى الناس من يتزهد وقد ربى جسده على الترف ، فيعرض عما ألفه ، فتتجدد له الأمراض ، فتقطعه عن كثير من العبادات .

(١) ساقطة من الحديثة .

(٢) فى الحديثة : لبذل امرىء ماعزه .

(٣) فى الحديثة : ولا فخر إلا بالمكنة .

وقد قيل : عَوِّدُوا كل بدن ما اعتاده ، وقد قرّب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضب فقال : أجدنى أعافه ، لأنه ليس بأرض قومى .

وفى حديث الهجرة : أن أبا بكر رضى الله عنه طلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الظل ، وفرش له فروة ، وصب على القدح الذى فيه اللبن ماء حتى برد .

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم فقال : « إن كان عندكم ماء بات فى شِنٍّ وإلا كرعنا » .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل لحم الدجاج . وفى الصحيح : أنه كان يحب الحلوى والعسل ، وكان إذا لم يقدر أكل ماحضر .

ولعمرى إن فى العرب وأهل السواد من لا يؤثر عنده التخشن فى المطعم والملبس ، وذاك إذا جرى بعد نوبته على عادته لم يستضر .

فأما من قد ألف اللطف ، فإنه إذا غير حالته تغير بدنه ، وقلت عبادته .

وقد كان الحسن[1] يديم أكل اللحم ويقول: لا رغيفى مالك، ولا صحنى فرقد.

وكان ابن سيرين لا يخلى منزله من حلوى .

وكان سفيان الثورى يسافر وفى سفرته الحمل المشوى ، والفالوذج

وقالت رابعة : ماأرى لبدن يراد به العمل لله إذا أكل الفالوذج عيبا .

فمن ألف الترف فينبغى أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه .

وقد عرفتُ هذا من نفسى ، فإنى رُبِّيتُ فى ترف فلما ابتدأت فى التقلل وهجر المشتهى ، أثر معى مرضاً قطعنى عن كثير من التعبد .

حتى أنى قرأت فى أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن ، فتناولت يوما مالا يصلح ، فلم أقدر فى ذلك اليوم على قراءتها .

---

(١) الحسن البصرى .

فقلت : إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات ، إن تناولها لطاعة عظيمة .

وإن مطعماً يؤذى البدن فيفوته فعل خير ، ينبغى أن يهجر .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التقشف فقال له : « من أمرك بهذا » . !

فالعاقل يعطى بدنه من الغذاء ما يوافقه كما ينقى الغازى شعير الدابة .

ولا تظنن أنى آمر بأكل الشهوات ، ولا بالإكثار من الملذوذ ، إنما آمر بتناول ما يحفظ النفس ، وأنهى عما يؤذى البدن .

فأما التوسع فى المطاعم ، فإنه سبب النوم ، والشبع يعمى القلب ، ويهزل البدن ويضعفه .

فافهم ما أشرت إليه ، فالطريق هى الوسطى .

٤٤٣ - فصل : المغفل يجر على نفسه المحن

إذا تكامل العقل قوى الذكاء والفطنة .

والذكى يتخلص إذا وقع فى آفة كما قال الحسن : إذا كان اللص ظريفاً لم يقطع ، فأما المغفل فيجنى على نفسه المحن .

هؤلاء إخوة يوسف عليهم السلام ، أبعدوه عن أبيه ليتقدموا عنده ؛ وماعلموا أن حزنه عليه يشغله عنهم ، وتهمته إياهم تُبَغِّضهم إليه ، ثم رموه فى الجب فقالوا : « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ[1] » ، وليس بطفل إنما هو صبى كبير .

وما علموا أنه إذا التقط يحدث بحاله ، فيبلغ الخبر إلى أبيه ، وهذا تغفيل .

---

(١) جزء من الآية ١٠ من سورة يوسف .

ثم إنهم قالوا : أكله الذئب ، وجاؤا بقميصه صحيحاً ؛ ولو خرقوه احتمل الأمر .

ثم لما مضوا إليه يمتارون قال « ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ[1] » فلو فطنوا علموا أن ملك مصر لا غرض له فى أخيهم .

ثم حبسه بحجة ، ثم قال : هذا الصواع يخبرنى أنه كان كذا وكذا ، هذا كله وما يفطنون .

فلما أحسّ بهذه الأشياء يعقوب عليه السلام قال « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ[2] » ، وكان يوسف عليه السلام قد نُهِى بالوحى أن يعلم أباه بوجوده .

ولهذا لما التقيا قال له : هلا كتبت إلى؟ فقال : إن جبريل عليه السلام منعنى .

فلما نهى أن يعرفه خبره لينفذ البلاء كان مافعل بأخيه تنبيهاً ، فصار كأنه يعرّض بخطبة المعتدة .

وعلى فهم يوسف والله بكى يعقوب لا على مجرد صورته .

٤٤٤ ـ فصل : أذل الذل التعرض للبخلاء والأمراء

الآدمى موضوع على مطلوبات تشتت الهم ، العين تطلب المنظور ، واللسان يطلب الكلام ، والبطن يطلب المأكول ، والفرج المنكوح ، والطبع يحب جمع المال .

وقد أمرنا بجمع الهم لذكر الآخرة ، والهوى يشتته .

---

(١) جزء من الآية ٥٩ من سورة يوسف .
(٢) جزء من الآية ٨٧ من سورة يوسف

فكيف إذا اجتمعت إليه حاجات لازمة من طلب قوت البدن وقوت العيال .

وهذا يبكر إلى دكانه ويتفكر فى التحصيل ، ويستعمل آلة الفهم فى نيل مالا بد منه .

فأىّ همٍّ يجتمع منه خصوصاً إن أخذه الشره فى صورة فيمضى العمر ، فينهض من الدكان إلى القبر .

فكيف يحصل العلم أو العمل أو إخلاص القصد أو طلب الفضائل .

فمن رزق يقظة ، فيلبغى أن يصابر لنيل الفضائل .

فإن كان متزهداً بغير عائلة اكتفى بسعى قليل ، فقد كان السَّبْتِىُّ يعمل يوم السبت فيكتفى به طول الأسبوع .

فإن كان له مال باضع به من يكفيه بدينه ، وثقته من أن يهتم هو .

وإن كان له عائلة جمع همه فى نية الكسب عليهم فيكون متعبداً .

أو أن يكون قنية مال كعقار ناصفه فى نفقته ليكفيه دخله .

وليقلل الهمّ على مقدار ما يمكنه من حذف العلائق جهده ليجمع الهم فى ذكر الآخرة .

فإن لم يفعل أخذ فى غفلته وندم فى حضرته .

وأقبح الأحوال حال عالم فقيه كلما جمع همه لذكر الآخرة شَتَّتَهُ طَلَبُ القوت للعائلة .

وربما احتاج إلى التعرض للظلمة وأخذ الشبهات وبذل الوجه ،فيلزم هذا التقدير فى النفقة .

وإذا حصل له شىء من وجه دبر فيه .

ولا ينبغى أن يحمله قصر الأمل على إخراج ما فى يده ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركها عالة يتكففون الناس » .

وأذل من كل ذل التعرض للبخلاء والأمراء .

فليدبر أمره ، ويقلل العلائق ، ويحفظ جاهه . فالأيام قلائل .

وقد بعث إلى أحمد بن حنبل مال فسأله ابنه قبوله فقال : ياصالح صنى ، ثم قال أستخير الله ، فأصبح فقال : يابنى قد عزم لى ألا أقبله .

هذا وكان العطاء هنيأ ، وجاءه من وجوه . فانعكس الأمر اليوم .

٣٤٥ ـ فصل : فى العزلة طيب العيش

العزلة عن الخلق سبب طيب العيش .

ولابد من مخالطة بمقدار ، فدارِ العدوّ واستحله ، فربما كادك فأهلكك .

وأحسنِ إلى من أساء إليك . واستعن على أمورك بالكتمان ، ولتكن الناس عندك معارف ، فأما أصدقاء فلا .

لأن أعز الأشياء وجود صديق ، ذاك أن الصديق يجب[1] أن يكون فى مرتبة مماثل .

---

(١) فى الحديثة : ينبغى .

فإن صادفته عامياً لم تنتفع به لسوء أخلاقه ، وقلة علمه وأدبه ، وإن صادفت مماثلا أو مقارباً حسدك .

وإذا كان لك يقظة تلمحت من أفعاله وأقواله ما يدل على حسدك «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ»[1] .

وإذا أردت تأكيد ذلك فضع عليه من يضعك عنده ، فلا يخرج إليه إلا بما فى قلبه .

فإن أردت العيش فابعد عن الحسود لأنه يرى نعمتك ، فربما أصابها بالعين .

فإن اضطررت إلى مخالطته فلا تفش له[2] سرك ولا تشاوره ، ولا يغرنك تملقه لك ، ولا ما يظهره من الدين والتعبد ، فإن الحسد يغلب الدين .

وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد إلى القتل .

وأن إخوة يوسف باعوه بثمن بخس .

وكان أبو عامر الراهب من المتعبدين العقلاء ، وعبد الله بن أبىّ من الرؤساء ، أخرجهما حسد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النفاق وترك الصواب .

ولا ينبغى أن تطلب لحاسدك عقوبة أكثر مما هو فيه ، فإنه فى أمر عظيم متصل لا يرضيه إلا زوال نعمتك .

وكلما امتدت امتد عذابه ، فلا عيش له .

وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نزع الحسد والغل من صدورهم .

---

(١) جزء من الآية ٢٠ من سورة محمد .

(٢) فى الحديثة : إليه .

ولولا أنه نزع تحاسدوا وتنغص عيشهم .

٣٤٦ ـ فصل: من تكاسل عن العلم لم يحصل له المراد

من سار مع العقل ، وخالف طريق الهوى ، ونظر إلى العواقب ، أمكنه أن يتمتع من الدنيا(١) والذكر الجميل ، ويكون ذلك سبباً لفوات مراده من اللذات .

وبيان هذا من وجهين :

أحدهما : إن مال إلى شهوات النكاح ، وأكثر منها قلّ التذاذه وفنيت حرارته ، وكان ذلك سبباً فى عدم مطلوبه منها .

ومن استعمل ذلك بمقدار ما يجيزه العقل ، ويحتمله ، كان التذاذه أكثر ، لبعد ما بين الجماعين ، وأمكنه التردد لبقاء الحرارة .

وكذلك من غش فى معاملته أو خان ، فإنه لا يعامل فيفوته ربح المعاملة الدائمة لخيانته مرة .

ولو عرف بالثقة دامت معاملة الناس له فزاد ربحه .

والثانى : أنه من اتقى الله ، وتشاغل بالعلم ، أو تحقيق الزهد ، فتح له من المباحات ما يلتذ به كثيراً .

ومن تقاعد به الكسل عن العلم أو الهوى عن تحقيق الزهد لم يحصل له إلا اليسير من مراده .

---

(١) فى الحديثة زيادة : أضعاف ما تمتع من استعمل الشهوات. فأما المستعجل فيفوت نفسه حظ الدنيا .

قال عز وجل :

« وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا »[1] .

٣٤٧ ـ فصل : عيش الصديقين

ينبغى أن يكون العمل كله لله ، ومعه ، ومن أجله .

وقد كفاك كل مخلوق ، وجلب لك كل خير .

وإياك أن تميل عنه بموافقة هوى وإرضاء مخلوق ، فإنه يعكس عليك الحال ، ويفوتك المقصود .

وفى الحديث: من أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً .

وأطيب العيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه .

فإن قيل : كيف يعيش معه ؟

قلت : بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، ومراعاة حدوده ، والرضى بقضائه ، وحسن الأدب فى الخلوة ، وكثرة ذكره ، وسلامة القلب من الاعتراض فى أقداره .

فإن احتجت سألته ، فإن أعطى وإلا رضيت بالمنع ، وعلمت أنه لم يمنع بخلا ، وإنما نظراً لك .

ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به ، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته وصدق التوكل عليه ، فصارت المحبة تدلك على المقصود ، وأثمرت لك محبته إياك ، فحينئذ تعيش[2] عيشة الصديقين .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الجن .

(٢) فى الحديثة : فتعيش عيشة الصديقين .

ولا خير فى عيش إن لم يكن كذا ، فإن أكثر الناس مخبّط فى عيشه ، يدارى الأسباب ، ويميل إليها بقلبه ، ويتعب فى تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد ، ويرغبه إلى الخلق ، ويعترض عند انكسار الأغراض .

والقدر يجرى ولا يبالى بسخط ، ولا يحصل له إلا ما قدر .

وقد فاته القرب من الحق والمحبة له ، والتأدب معه ، فذلك العيش عيش البهائم .

٣٤٨ ـ فصل : من أعمل عقله سلم

نظرت فى حكمة المطعم والمشرب والملبس والمنكح ، فرأيت أن الآدمىّ لما خلق من أصول تتحلل ، وهى الماء ، والتراب ، والنار ، والهواء . وبقاؤه إنما يكون بالحرارة والرطوبة (والحرارة تحلل الرطوبة دائماً)[1] فلم يكن له بد من شىء يخلف ما بطل .

ولما كان اللحم لا ينوب عنه إلا اللحم ، أباح الشرع ذبح الحيوان ، ليتقوى به من هو أشرف منه .

ولما كان بدنه يحتاج إلى كسوة ، وله قدرة تمييز ، وقدرة يصنع بها مايقيه الأذى من القطن والصوف ، لم يجعل على جلده ما يقيه خلقة ، بخلاف الحيوان البهيم ، فإنه لما لم يكن له قدرة على ما يغطى جلده ، عوضه بالريش والشعر والوبر .

ولما لم يكن بد من فناء الآدمىّ والحيوان ، هيّج شهوة الجماع لتُخلف النسل .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

فمقتضى العقل الذى حرك على طلب هذه المصالح أن يكون التناول للمطعم والمشرب مقدار الحاجة والمصلحة ، ليقع الالتذاذ بالعافية .

ومن البلية طلب الالتذاذ بالمطعم وإن كان غير صالح والشره فى تناوله ، وكذلك الكسوة والنكاح .

ومن الحزم جمع المال وادخاره لعارض حاجة من ذلك .

ومن التغفيل إنفاق الحاصل ، فربما عرضت حاجة فلم يقدر عليها فأثّر عدمها فى البدن أو فى العرض بطلبها من الأنذال .

ومن أقبح الأمور الانهماك فى النكاح طلباً لصورة اللذة ، ناسياً مايجنى ذلك من انحلال القوة ، ويزيد فى الحرام بالعقوبة .

فمن مال إلى تدبير العقل سلم فى دنياه وآخرته .

ومن أعرض عن مشاورته أو عن القبول منه تعجل عطبه .

فليفهم مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها ، فمن لم يفهم ولم يعمل بمقتضى ما فهم كان كأجهل العوام ، وإن كان عالماً .

٣٤٩ - فصل : فى مخالطة الأمراء

العجب ممن له مسكة من عقل ، أو عنده قليل من دين ، كيف يؤثر مخالطتهم .

فإنه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون قطعاً خائفاً من عزل أو قتل أو سم ، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم .

فإن أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع ، فقد باع دينه قطعاً بدنياه فمنعه بالخوف من القيام بأمر الله وضاعت عليه آخرته .

ولم يبق بيده إلا عاجل التعظيم وأن يقال بين يديه « بسم الله » وأن ينفذ أوامره .

وذلك بعيد من السلامة فى باب الدين وما يلتذ به منه فى الدنيا ممزوج بخوف العزل والقتل .

٢٥٠ ـ فصل : العاقل من تأمل الامور ورعاها

من الغلط العظيم أن يتكلم فى حق معزول بما لا يصلح ، فإنه لا يُؤمن أن يلى فينتقم .

وفى الجملة لا ينبغى أن يظهر العداوة لأحد أصلا ، فقد يرفع المحتقر ، وقد يتمكن من لا يُعدّ .

بل ينبغى أن يكتم ما فى النفوس من ضغن على الأعداء .

فإن أمكن الانتقام منهم كان العفو انتقاما لأنه يذلهم .

وينبغى أن يحسن إلى كل أحد ، خصوصاً من يجوز أن يكون له ولاية ، وأن يخدم المعزول ، فربما نفع فى ولايته .

وقد روينا أن رجلا استأذن على قاضى القضاة ابن أبى دؤاد[1] وقال : قولوا له أبو جعفر بالباب .

فلما سمع هشّ لذلك وقال : ائذنوا له .

فدخل ، فقام ، وتلقاه وأكرمه وأعطاه خمسة آلاف ، وودعه .

فقيل له : رجل من العوام فعلت به هذا ؟

---

(١) فى الحديثة : داود . خطأ .

قال : إنى كنت فقيراً ، وكان هذا صديقاً ، فجئته يوماً فقلت له : أنا جائع .

فقال : اجلس ، وخرج ، فجاء بشواء وحلوى وخبز فقال : كل .

فقلت : كل معى . قال: لا . قلت : والله لا آكل حتى تأكل معى ، فأكل فجعل الدم يجرى من فمه .

فقلت : ما هذا ؟ فقال : مرض .

فقلت : والله لابد أن تخبرنى .

فقال : إنك لما جئتنى لم أكن أملك شيئاً .

وكانت أسنانى مضببة بشريط من ذهب ، فنزعته واشتريت به .

فهلا أكافىء مثل هذا ؟

وعلى عكس هذه الأشياء كان ابن الزيات وزير الواثق ، وكان يضع من المتوكل ، فلما ولى عذبه بأنواع العذاب .

وكذلك ابن الجزرى كان لايوقر المسترشد قبل الولاية ، فجرت عليه الآفات لما ولى .

فالعاقل من تأمل العواقب ورعاها .

وصور[1] كل ما يجوز أن يقع فعمل بمقتضى الحزم .

وأبلغ من هذا تصوير وجود الموت عاجلا ، لأنه يجوز أن يأتى بغتة من غير مرض .

---

(١) فى الحديثة : وتصور .

فالحازم من استعدّ له وعمل عمل من لا يندم إذا جاءه .

وحذر من الذنوب فإنها كعدو مراصد بالجزاء .

وادخر لنفسه صالح الأعمال ، فإنها كصديق صدّيق ينفع وقت الشدة.

وأبلغ من كل شيء أن يعلم المؤمن أنه كلما زاد عمله فى الفضائل علت مرتبته فى الجنة ، وإن نقص نقصت .

فهو وإن دخل الجنة فى نقص بالإضافة إلى كمال غيره ، غير أنه قد رضى به ولا يشعر بذلك .

فرحم الله من تلمح العواقب ، وعمل بمقتضى التلمح ، والله تعالى الموفق .

٣٥١ ـ فصل : فى عدم الصبر عن المشتهى الهلاك

لما جمعت كتابى المسمى بالمنتظم ، فى تاريخ الملوك والأمم ، اطلعت على سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزّهاد وغيرهم ، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعباً أذهب أديانهم ، حتى كانوا لا يؤمنون بالعقاب .

فمن الأمراء من يقتل ويصادر ، ويقطع ويحبس ، بغير حق ، ثم ينخرط فى سلك المعاصى ، كأن الأمر إليه . أو قد جاءه الأمن من العقاب .

فربما تخايل أن حفظى الرعايا يرد عنى ، وينسى أنه قد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[1] » .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزمر .

وقد انخرط جماعة[1] ممن يتسم بالعلم فى سلك المعاصى، لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم .

ورأينا خلقاً من المتزهدين (خالفوا)[2] لنيل أغراضهم ، وهذا لأن الدنيا فخ والناس كعصافير ، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق .

قد نسى أكثر الخلق مآلهم ميلا إلى عاجل لذاتهم ، فأقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل .

فلقد باعوا بلذة يسيرة خيراً كثيراً ، واستحقوا[3] بشهوات مرذولة عذاباً عظيما .

فإذا نزل بأحدهم الموت قال : ليتنى لم أكن ، ليتنى كنت تراباً ، فيقال له : الآن ؟

فوا أسفى لفائت لا يمكن استدراكه ، ولمرتهن لا يصح فكاكه ، ولندم لا ينقطع زمانه ، ولمعذب عز عليه إيمانه بالله[4]

ما نفعت العقول إلا لمن يلتفت إليها ويعول عليها .

ولا يمكن قبول مشاورها[5] إلا بعزيمة الصبر عما يشتهى .

---

(١) فى الحديثة : جمع .

(٢) ساقطة من الحديثة .

(٣) فى الحديثة : واستبدلوا بشهوات .

(٤) فى الحديثة : عز عليه أمانه.

(٥) فى الحديثة : مشاورتها .

فتأمل فى الأمراء عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز رضى الله عنهما، وفى العلماء أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، وفى الزهاد أُوَيسُ القَرَنى .

لقد أعطوا الجد[1] حقه وفهموا مقصود الوجود .

وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المشتهى .

وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث والعقاب .

وليس العجب من ذاك، إنما العجب من مؤمن يوقن، ولا ينفعه يقينه، ويعقل العواقب ولا ينفعه عقله .

٣٥٢ ـ فصل : الجمع بين العمل والعلم صعب

من رزق همة عالية يُعَذَّب بمقدار علوها، كما قال الشاعر :

وَإِذَا كَانَت النفوسُ كِباراً
تَعِبَتْ فِى مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وقال الآخر :

وَلِكلّ جِسْمٍ فِى النُّحولِ بَلِيَّةٌ
وَبَلاءُ جِسْمِى مِنْ تَفاوُتِ هِمّتِى

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها، ولم يقتصر على بعضها، وطلب من كل علم نهايته، وهذا لا يحتمله البدن .

ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد فى قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب .

ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لا بد منه .

---

(١) فى الحديثة : الحزم .

ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل ، ويتقاضاه الكرم البذل ، ويمنعه عز النفس عن الكسب من وجوه التبذل .

فإن هو جرى على طبعه من الكرم ، احتاج وافتقر وتأثر بدنه وعائلته. وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك .

وفى الجملة يحتاج إلى معاناة وجمع بين أضداد ، فهو أبداً فى نصب لا ينقضى ، وتعب لا يفرغ .

ثم إذا حقق الإخلاص فى الأعمال زاد تعبه ، وقوى وصبه ، فأين هو ومن دنت همته ؟ إن كان فقيهاً فسئل عن حديث قال : ما أعرفه ، وإن كان محدثاً فسئل عن مسئلة فقهية قال : ما أدرى ، ولا يبالى إن قيل عنه مقصر .

والعالى الهمة يرى التقصير فى بعض العلوم فضيحة ، قد كشفت عيبه ، وقد أرت الناس عورته .

والقصير الهمة لا يبالى بمنن الناس ، ولا يستقبح سؤالهم ، ولا يأنف من رد ، والعالى الهمة لا يحمل ذلك .

ولكن تعب العالى الهمة راحة فى المعنى ، وراحة القصير الهمة تعب وشين إن كان ثم فهم .

والدنيا دار سباق إلى أعالى المعالى ، فينبغى لذى الهمة ألا يقصر فى شوطه .

فإن سبق فهو المقصود ، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يلم .

٢٥٣ - فصل : ثقة الانسان بعلم نفسة آفة كبرى

المصيبة العظمى رضى الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه ، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق .

فترى اليهودى أو النصرانى يرى أنه على الصواب ، ولا يبحث ولا ينظر فى دليل نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم .

وإذا سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع .

وكذلك كل ذى هوى يثبت عليه ، إما لأنه مذهب أبيه وأهله ، أو لأنه نظر نظراً أول فرآه صواباً ، ولم ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه .

ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه ، فإنهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا إلى من يعلم .

ولما لقيهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم ألفان .

وممن لم يرجع عن هواه ابن ملجم ، فرأى مذهبه هو الحق فاستحل قتل أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه ، ورآه ديناً حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع .

فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال : كيف أبقى ساعة فى الدنيا لا أذكر الله .

ومثل هذا ماله دواء .

وكذلك كان الحجاج يقول : والله ما أرجو الخير إلا بعد الموت .

هذا قوله وكم قد قتل من لا يحل قتله ، منهم سعيد بن جبير .

وقد أخبرنا عبدالوهاب وابن ناصر الحافظ قالا أخبرنا المبارك بن عبدالجبار قال أخبرنا الحسين بن محمد النصيبى قال أخبرنا إسماعيل بن سعيد قال حدثنا أبو بكر بن الأنبارى قال حدثنا أبو عيسى الختلى قال حدثنا أبو يعلى قال :

حدثنا الأصمعى قال حدثنا أبو عاصم ، عن عباد بن كثير ، عن قحدم ، قال : وجد فى سجن الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفاً ، ما يجب على واحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب .

قلت: وعموم السلاطين يقتلون ويقطعون ظناً منهم جواز ذلك،ولو سألوا العلماء بينوا لهم .

وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتماداً على العفو وينسون العقاب .

ومنهم من يعتمد أنى من أهل السنة ، أو أن لى حسنات قد تنفع ، وكل هذا لقوة الجهل

فينبغى للإنسان أن يبالغ فى معرفة الدليل ولا يساكن شبهته ، ولا يثق بعلم نفسه . نسأل الله السلامة من جميع الآفات ... !

٣٥٤ ـ فصل : ويل لمن عرف مرارة الجزاء ثم آثر لذة المعصية

اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كانت حسنة أو كانت سيئة .

ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح ، وربما جاءت العقوبة بعد مدة .

وقلّ من فعل ذنباً إلا وقوبل عليه ، قال عز وجل « مَنْ يعملْ سُوءاً يُجزَ بِهِ »(1) .

هذا آدم عليه السلام أكل لقمة فقد عرفتم ما جرى عليه .

قال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إليه ألم أصطنعك لنفسى ، وأحللتك دارى ، وأسجدت لك ملائكتى ، فعصيت أمرى ، ونسيت عهدى ؟

---

(1) جزء من الآية ١٢٣ من سورة النساء .

وعزتى لوملأت الأرض كلهم مثلك ، يعبدون ويسبحون فى الليل والنهار ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين .

فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وجذب بناصيته فأهبط .

فبكى آدم ثلاث مائة عام على جبل الهند تجرى دموعه فى أودية جبالها ، فنبتت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا .

وكذلك داود عليه السلام ، نظر نظرة فأوجبت عتابه وبكاءه الدائم ، حتى نبت العشب من دموعه .

وأما سليمان عليه السلام فإن قوماً اختصموا إليه فكان هواه مع أحد الخصمين، فعوقب وتغير فى أعين الناس ، وكان يقول : أطعمونى فلا يطعم .

وأما يعقوب عليه السلام ، فإنه يقال إنه ذبح عجلا بين يدى أمه ، فعوقب بفراق يوسف .

وأما يوسف عليه السلام فأخذ بالهمّ ، وكل واحد من إخوته ولِد له إثنا عشر ولداً ، ونقص هو ولداً لتلك الهمة .

وأما أيوب عليه السلام فإنه قصر فى الإنكار على ملك ظالم، لأجل خيل كانت فى ناحيته ، فابتلى .

وأما يونس عليه السلام فخرج عن قومه بغير إذن فالتقمه الحوت .

وأوحى الله عز وجل إلى أرميا : إن قومك تركوا الأمر الذى أكرمت به آباءهم ، وعزتى لأهيجن عليهم جنوداً لا يرحمون بكاءهم .

فقال : يارب هم ولد خليلك إبراهيم ، وأمة صفيك موسى ، وقوم نبيك داود ، فأوحى الله تعالى إليه : إنما أكرمت إبراهيم وموسى وداود بطاعتى ، ولو عصونى لأنزلتهم منازل العاصين .

ونظر بعض العباد شخصاً مستحسناً ، فقال له شيخه : ما هذا النظر ؟ ستجد غبه ، فنسى القرآن بعد أربعين سنة .

وقال آخر : قد عبت شخصاً قد ذهب بعض أسنانه ، فانتثرت أسنانى .

ونظرت إلى امرأة لا تحل ، فنظر إلى زوجتى من لا أريد .

وكان بعض العاقين ضرب أباه وسحبه إلى مكان ، فقال له الأب : حسبك إلى ههنا سحبت أبى .

وقال ابن سيرين : عيرت رجلا بالإفلاس فأفلست . ومثل هذا كثير .

ومن أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام أن المقتفى غضب عليه وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار .

فدخل عليه أهله محزونين وقالوا له : من أين لك عشرة آلاف دينار ؟

فقال : ما يؤخذ منى عشرة ولا خمسة ولا أربعة .

قالوا : من أين لك ؟ قال : إنى ظلمت رجلا فألزمته ثلاثة آلاف فما يؤخذ منى أكثر منها .

فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة بإطلاقه ومسامحته فى الباقى .

وأنا أقول عن نفسى : ما نزلت بى آفة أو غم أو ضيق صدر إلا بزلل أعرفه حتى يمكننى أن أقول : هذا بالشىء الفلانى .

وربما تأولت فيه بعد ، فأرى العقوبة .

فينبغى للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب ، فقلّ أن يسلم منه .

وليجتهد فى التوبة ، فقد روى فى الحديث : ما من شىء أسرع لحاقا بشىء من حسنة حديثة لذنب قديم .

ومع التوبة يكون خائفاً من المؤاخذة متوقعاً لها ، فإن الله تعالى قد تاب على الأنبياء عليهم السلام .

وفى حديث الشفاعة يقول آدم : ذنبى ، ويقول إبراهيم وموسى : ذنبى .

فإن قال قائل : قوله تعالى « مَنْ يَعملْ سُوءاً يجْز به »[1] خبر ، فهو يقتضى ألا يجاوز عن مذنب ، وقد عرفنا قبول التوبة والصفح عن الخاطئين .

فالجواب من وجهين : أحدهما : أن يحمل على من مات مصراً ولم يتب ، فإن التوبة تجُب ما قبلها .

والثانى: أنه على إطلاقه ، وهو الذى أختاره أنا وأستدل بالنقل والمعنى .

أما النقل ، فإنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : يارسول الله أو نجازى بكل ما نعمل؟ فقال : ألست تمرض ؟ ألست تحزن ؟ أليس يصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به .

وأما المعنى فإن المؤمن إذا تاب وندم ، كان أسفه على ذنبه فى كل وقت أقوى من كل عقوبة .

فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم ، ثم آثر لذة المعصية لحظة .

٣٥٥ - فصل : وزن الأعمال فى الدنيا قبل موازين الآخرة

تفكرت فى نفسى يوماً تفكر محقق ، فحاسبتها قبل أن تحاسب ، ووزنتها قبل أن توزن ، فرأيت اللطف الربانى فمنذ[2] الطفولة وإلى الآن

---

(١) جزء من الآية ١٢٣ من سورة النساء .
(٢) فى الحديثه : من بدأ الطفولة

أرى لطفاً بعد لطف ، وستراً على قبيح ، وعفواً عما يوجب عقوبة .

وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان .

ولقد تفكرت فى خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً .

ولو كشف للناس بعضها لاستحييت .

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب ، حتى يظن فىّ ما يظن فى الفساق .

بل هى ذنوب قبيحة فى حق مثلى ، وقعت بتأويلات فاسدة .

فصرت إذا دعوت أقول : اللهم بحمدك وسترك علىّ اغفر لى .

ثم طالبت نفسى بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغى .

ثم أنا أتقاضى القدر[1] مراداتى ولا أتقاضى نفسى بصبر على مكروه ، ولا بشكر على نعمة .

فأخذت أنوح على تقصيرى فى شكر المنعم ، وكونى أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به .

وقد كنت أرجو مقامات الكبار ، فذهب العمر وما حصل المقصود .

فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نحت فأعجبتنى نياحته ، فكتبتها هنا .

---

(١) فى الحديثة : أتقاضى منه .

قال لنفسه : يارعناء تقومين الألفاظ ليقال مناظر . وثمرة هذا أن يقال : يامناظر .

كما يقال للمصارع الفاره .

ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء ، وهى أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر .

ثم ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب .

هذا إن تأخر الأمر إلى موتك ، بل ربما نشأ شاب أفره منك فنوّهوا له وصار الاسم له .

والعقلاء عن الله تشاغلوا بما — إذا انطووا — نشرهم ، وهو العمل بالعلم ، والنظر الخالص لنفوسهم .

أف لنفسى وقد سطرت عدة مجلدات فى فنون العلوم ، وما عبق بها فضيلة .

إن نوظرت شمخت ، وإن نوصحت تعجرفت ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم ، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف .

فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة .

توفر فى المخالطة عيوباً تبلى ولا تحتشم نظر الحق إليها .

وإن انكسر لها غرض تضجرت ، فإن أمدت[1] لك بالنعم اشتغلت عن المنعم .

---

(١) فى الحديثة : امتدت .

إنى والله منى اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها .

والله إن نتن جسدى بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقى وأنا بين الأصحاب .

والله إنى قد بهرنى حلم هذا الكريم عنى كيف يسترنى[1] وأنا أتهتك ، ويجمعنى وأنا أتشتت .

وغداً يقال : مات الحبر العالم الصالح ، ولو عرفونى حق معرفتى بنفسى مادفنونى .

والله لأنادين على نفسى نداء المكشفين[2] معائب الأعداء .

ولأنوحن نوح الثاكلين (للأبناء)[3] إذ لا نائح لى ينوح على لهذه المصائب المكتومة ، والخلال المغطاة التى قد سترها من خبرها ، وغطاها من علمها .

والله ما أجد لنفسى خلة أستحسن أن أقول متوسلا بها : اللهم اغفر لى كذا بكذا .

والله ما ألتفت قط إلا وجدت منه سبحانه براً يكفينى ، ووقاية تحمينى ، مع تسلط الأعداء .

ولا عرضت حاجة فمددت يدى إلا قضاها . هذا فعله معى ، وهو رب غنى عنى ، وهذا فعلى وأنا عبد فقير إليه .

ولا عذر لى فأقول : مادريت أو سهوت .

---

(١) فى الحديثة : كيف سترنى .
(٢) فى الحديثة : المتكشفين .
(٣) ساقطة من الحديثة .

والله لقد خلقنى خلقاً صحيحاً سليما ، ونور قلبى بالفطنة ، حتى أن الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمى .

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضى .

واحرمانى لمقامات الرجال الفطناء . ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله ، وشماتة العدو بى .

واخيبة من أحسن الظن بى إذا شهدت الجوراح علىّ .

واخذلانى عند إقامة الحجة ، سخر والله منى الشيطان وأنا الفطن .

اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار ، ونهضة صادقة لتصفية ما بقى من الأكدار .

وقد جئتك بعد الخمسين وأنا من خلق المتاع .

وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدى إلى معدن الكرم ، وليس لى وسيلة إلا التأسف والندم .

فوالله ما عصيتك جاهلا بمقدار نعمك ، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك ، فاغفر لى سالف فعلى . .

٣٥٦ ـ فصل : عداء الأقارب صعب

عداوة الأقارب صعبة ، وربما دامت كحرب بكر وتغلب ابنى وائل ، وعبس وذبيان ابنى بغيض ، والأوس والخزرج ابنى قيلة .

قال الجاحظ : ركدت هذه الحرب أربعين عاما .

والسبب فى هذا أن كل واحد من الأقارب يكره أن يفوقه قريبه ، فيقع التحاسد .

فينبغى لمن فضل على أقاربه أن يتواضع لهم، ويرفعهم جهده، ويرفق بهم، لعله يسلم.

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لى أقارب أصِلهم فيقطعونى؟ فقال: «فكأنما تسفّهم الملّ، ولن يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك[1]».

٣٥٧ ـ فصل: الآدب يتبع لطافة البدن وصفاء الروح

رأيت كلاب الصيد إذا مرت بكلاب المحلة نبحتها هذه، وبالغت وأسرعت خلفها، وكأنها تراها مكرمة مجللة فتحسدها على ذلك.

ورأيت كلاب الصيد حينئذ لا تلتفت إليها ولا تعيرها الطرف ولا تعد نباحها شيئاً، فرأيت أن كلاب الصيد كأنها ليست من جنس تلك الكلاب.

لأن تلك غليظة البدن كثيفة الأعضاء لا أمانة لها، وهذه لطيفة دقيقة الخلقة ومعها آداب قد ناسبت خلقتها اللطيفة.

وأنها تحبس الصيد على مالكها خوفا من عقابه، أو مراعاة لشكر[2] نعمته عليها.

فرأيت أن الأدب وحسن العشرة يتبع لطافة البدن وصفاء الروح.

---

(١) قوله «ولن يزال الخ» هذا جزء من حديث رواه مسلم ولفظه «قال رجل: يارسول الله: إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى، وأحسن إليهم ويسيئون إلى، وأحلم عليهم ويجهلون على. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك».

(٢) فى الحديثة: شكر.

وهكذا المؤمن العاقل لا يلتفت إلى حاسده ولا يعده شيئاً ، إذ هو فى واد وذاك فى واد .

ذاك يحسده على الدنيا ، وهذا همته الآخرة ، فيابعد ما بين الواديين .

٣٦٨ ـ فصل : متى جرى ما لا تعرف حكمته فانسبه إلى قصور علمك

(هذا فصل[1]) ملاحظته من أهم الأشياء .

ينبغى لمن آمن بالله تعالى أن يسلم له فى أفعاله . ويعلم أنه حكيم ومالك ، وأنه لا يعبث .

فإن خفيت عليه حكمة فعله نسب الجهل إلى نفسه ، وسلم للحكيم المالك . فإذا طالبه العقل بحكمة الفعل قال : ما بانت لى ، فيجب علىّ تسليم الأمر لمالكه .

وإن أقواماً نظروا بمجرد العقل إلى كثير من أفعال الحق سبحانه فرأوها لو صدرت من مخلوق نسب فيها[2] إلى ضد الحكمة ، فنسبوا الخالق إلى ذلك.

وهذا الكفر المحض ، والجنون البارد .

والواجب نسبة الجهل إلى النفوس ، فإن العقول قاصرة عن مطالعة حكمته

وأول من فعل ذلك إبليس فإنه قد رآه قد فضل طيناً على نار ، والعقل يرى النار أفضل ، فعاب حكمته .

وعمت هذه المحنة خلقاً ممن ينسب إلى العلم وكثير من العوام .

فكم قد رأينا عالماً يعترض وعامياً يرد فيكفر ، وهذه محنة قد شملت أكثر الخلق .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الحديثة .

(٢) فى الحديثة : نسبت إلى ضد الحكمة .

يرون عالما يضيق عليه، وفاسقاً وسع عليه، فيقولون هذا لا يليق بالحكمة.

وقد علم العلماء أن الله تعالى قد فرض الزكوات والخراج والجزية والغنائم والكفارات ليستغنى بها الفقراء، فاختص بذلك الظلمة.

وصانع من تجب عليه الزكاة بإخراج بعضها، فجاع الفقير.

فينبغى أن نذم هؤلاء الظلمة ولا نعترض على من قدر الكفاية للفقراء.

وقد حصل فى ضمن هذا عقوبة الظالمين فى[1] حبسهم الحقوق، وابتلاء الفقراء بصبرهم عن حظوظهم.

وأكثر هؤلاء المعترضين لا يكادون يسلمون وقت خروج الروح من اعتراض يخرج إلى الكفر فتخرج النفس كافرة.

فكم عامى يقول: فلان قد ابتلى وما يستحق.

ومعناه أنه قد فعل به مالا يليق بالصواب. وقد قال بعض الخلعاء:

أيارَبِّ تَخْلُقُ أقمارَ ليْلٍ
وَأغْصَانَ بانٍ وَكُثْبَانَ رَمْلِ
وتَنْهَى عِبَادَكَ أنْ يَعْشَقُوا
أيَاحَاكِمَ العَدْلِ ذاحُكْمُ عَدلِ ؟؟

ومثل هذا ينشده جماعة من العلماء ويستحسنونه، وهو كفر محض.

وما فهم هؤلاء سر النهى ولا معناه، لأنه ما نهى عن العشق، وإنما نهى عن العمل بمقتضى العشق من الأشياء المحرمة كالنظر واللمس والفعل القبيح.

---

(١) فى الحديثة: من حبسهم.

وفى الامتناع عن المشتهى دليل على الإيمان بوجود الناهى كصبر العطشان فى رمضان عن الماء ، فإنه دليل على الإيمان بوجود من أمر بالصوم .

وتسليم النفوس إلى القتل والجهاد دليل على اليقين بالجزاء .

ثم المستحسن أنموذج ماقد أعد فأين العقل المتأمل .

كلا . لو تأمل وصبر قليلا لربح كثيراً .

ولو ذهبت أذكر ما قد عرفت من اعتراض العلماء والعوام لطال .

ومن أحسن الناس حالا فى ذلك ، ما يحكى عن ابن الراوندى أنه جاع يوماً واشتد جوعه فجلس على الجسر وقد أمضه الجوع .

فمرت خيل مزينة بالحرير والديباج فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لعلى بن بلتق غلام الخليفة .

فمرت جوار مستحسنات فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لعلى بن بلتق .

فمر به رجل فرآه وعليه أثر الضر فرمى إليه رغيفين فأخذهما ورمى بهما، وقال : هذه لعلىّ بن بلتق وهذان لى ؟

نسى الجاهل الأحمق أنه بما يقول ويعترض ويفعل أهـــل هذه المجاعة .

فيامعترضين وهم فى غاية النقص على من لا عيب فى فعله . أنتم فى البداية من ماء وطين ، وفى الثانى من ماء مهين ، ثم تحملون الأنجاس على الدوام ، ولو حبس عنكم الهواء لصرتم جيفا .

وكم من رأى يراه حازمكم فإذا عرضه على غيره تبين له قبح رأيه .

ثم المعاصى منـكم زائدة فى الحد .

فما فيكم[1] إلا الاعتراض على المالك الحكيم ؟

ولو لم يكن فى هذه البلاوى إلا أن يراد منا التسليم لكفى .

ولو أنه أنشأ الخلق ليدلوا على وجوده ثم أهلكهم ولم يعدهم كان ذلك له، لأنه مالك ، لكنه بفضله وعد بالإعادة والجزاء والبقاء الدائم فى النعيم .

فمتى ما جرى أمر لا تعرف علته فانسب ذلك إلى قصور علمك .

وقد ترى مقتولا ظلماً ، وكم قد قتل وظلم حتى قوبل ببعضه .

وقلّ أن يجرى لأحد آفة إلا ويستحقها غير أن تلك الآفات المجازى بها غائبة عنا ورأينا الجزاء وحده .

فسلم تسلم ، واحذر كلمة اعتراض أو إضمار ، فربما أخرجتك من دائرة الإسلام .

٣٥٩ ـ فصل : الشبه بين يوم العيد ويوم القيامة

رأيت الناس يوم العيد فشبهت الحال بالقيامة . فإنهم لما انتبهوا من نومهم خرجوا إلى عيدهم كخروج الموتى من قبورهم إلى حشرهم ، فمنهم من زينته الغاية ومركبه النهاية ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المرذول. وعلى هذا أحوال الناس يوم القيامة .

قال تعالى : « يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً »[2] ، أى ركبانا « وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً »[3] أى عطاشا .

---

(١) فى الحديثة : فما فيكم بعد .

(٢) الآية ٨٥ من سورة مريم .

(٣) الآية ٨٦ من سورة مريم .

وقال عليه الصلاة والسلام : يحشرون ركباناً ومشاة وعلى وجوههم.

ومن الناس من يداس فى زحمة العيد ، وكذلك الظلمة يطأهم الناس بأقدامهم فى القيامة .

ومن الناس يوم العيد الغنى المتصدق . كذلك يوم القيامة أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة .

ومنهم الفقير السائل الذى يطلب أن يعطى . كذلك يوم الجزاء أعددت شفاعتى لأهل الكبائر .

ومنهم من لا يعطف عليه « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١) » .

والأعلام منشورة فى العيد . كذلك أعلام المتقين فى القيامة ، والبوق يضرب .

كذلك يخبر بحال العبد فيقال : يا أهل الموقف ، إن فلاناً قد سعد سعادة لا شقاوة بعدها ، وإن فلاناً قد شقى شقاوة لا سعادة بعدها .

ثم يرجعون من العيد بالخواص إلى باب الحجرة يخبرون بامتثال الأوامر « أولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (٢) » فيخرج التوقيع إليهم « كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (٣) » .

ومن هو دونهم يختلف حاله . فمنهم من يرجع إلى بيت عامر « بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٤) » .

---

(١) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ١١ من سورة الواقعة .
(٣) جزء من الآية ٢٢ من سورة الإنسان .
(٤) جزء من الآية ٢٤ من سورة الحاقة .

ومنهم متوسط ، ومنهم من يعود إلى بيت قفر « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبصار[1] » .

٣٦٠ ـ فصل : نصيحة للعلماء والزهاد

يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد . ياقوم قد علمتم : أن الأعمال بالنيات ، وقد فهمتم قوله تعالى : « أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ[2] » ، وقد سمعتم عن السلف أنهم كانوا لا يعملون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح .

أيذهب زمانكم يافقهاء فى الجدل والصياح؟ وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة .

أو ماسمعتم « من طلب العلم ليباهى به العلماء ، أو ليمارى به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه ، لم يرح رائحة الجنة » .

ثم يقدم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها ، وقد كان السلف يتدافعونها .

ويامعشر المتزهدين إنه يعلم السر وأخفى. أتظهرون الفقر فى لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس .

وتظهرون التخاشع والبكاء فى الجلوات دون الخلوات .

كان ابن سيرين يضحك ويقهقه فإذا خلا بكى أكثر الليل .

وقال سفيان لصاحبه : ما أوقحك تصلى والناس يرونك ؟

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا
مَضْغَ الْكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ الْحَوَاجِبِ

---

(١) جزء من الآية ٢ من سورة الحشر .

(٢) جزء من الآية ٣ من سورة الزمر .

آه للمراقى من يوم « وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُور (١) » ، وهى النيات .

فأفيقوا من سكركم ، وتوبوا من زللكم ، واستقيموا على الجادة « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ (٢) » .

٤٦١ ـ فصل : شبهة فى الزهد وبيانها

رأيت جمهور الناس حائدين عن الشريعة ، جارين (٣) على ما ألفوا من العادة .

وقد يخلص منهم فريقان : علماء وعبَّاد .

فتأملت جمهور العلماء فرأيتهم فى تخليط ، منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا ويعرض عن معاملات الآخرة .

إما لجهله بها ، أو لثقل أمرها عليه ، فهو لا يجرى على ما يثقل عليه ممـا يوجبه العلم ، ويتبع فى الباقى العادات .

وربما تخايل أنه يسامح فى الخطايا لكونه عالمـا ، وقد نسى أن العلم حجة عليه .

ومنهم من هو واقف مع صورة العلم ، غافل عن المقصود بالعلم (٤) ، وفيهم من يخالط السلطان ، فيتأذى المخالط بما يرى من الذنوب والظلم ولا يمكنه الإنكار .

---

(١) الآية ١٠ من سورة العاديات .
(٢) جزء من الآية ٦٥ من سورة الزمر .
(٣) فى الحديثة : جائرين .
(٤) فى الحديثة : وهو العمل .

وربما مدح هو ، ويتأذى السلطان بصحبته فيقول : لولا أنى على صواب ماجالسنى هذا .

ويتأذى العوام فيقولون : لولا أن أمر السلطان قريب ما خالطه هذا العالم .

ورأيت الأشراف يثقون بشفاعة آبائهم ، و ينسون أن اليهود من بنى إسرائيل .

وأما الفريق الثانى وهم العبّاد فرأيت أكثرهم فى تخليط . أما الصحيحو القصد منهم فعلى غير الجادة فى أكثر عملهم، قد وضع لهم جماعة من المتقدمين كتباً فيها دفائن قبيحة ، وأحاديث غير صحيحة ، ويأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة .

مثل كتب الحارث المحاسبى[1] ، وأبى عبد الله الترمذى ، وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، وكتاب الإحياء لأبى حامد الطوسى .

فإذا فتح المبتدىء عينه ، وهمّ بسلوك الطريق بهذه الكتب ، حملته إلى الخطايا ، لأنهم قد بنوا على أحاديث محالة .

ويذمون الدنيا ، ولا يدرون ما المذموم منها ؟

فيتصور المبتدى ذم ذات الدنيا ، فيهرب المنقطع إلى الجبل ، وربما فاتته الجماعة والجمعة ، ويقتصر على البلوط والكمثرى فيورثه القولنج .

---

(١) ليس فى كتب المحاسبى دفائن قبيحة ؛ ولكن ابن الجوزى قلد غيره فى هذا الحكم الذى لا يستند إلى دليل . ولو كان محقاً فى هذا الحكم ماعنى بالإحياء ولا اختصره فى منهاج القاصدين .

ويقنع بعضهم بشرب اللبن فينحل الطبع ، أو يأكل الباقلاء والعدس فيحدث له قراقر .

وإنما ينبغى لقاصد الحج أن يرفق أولا بالناقة ليصل .

ألا ترى للفطن من الأتراك يهتم بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه .

وربما تصدى القاص لشرح أحوال قوم من السلف والمتزهدين فيتبعهم المريد فيتأذى بذلك .

ومتى رددنا ذلك المنقول وبينا خطأ فاعله قال الجهال : أترد على الزهاد ؟

وإنما ينبغى اتباع الصواب ولا ينظر إلى أسماء المعظمين فى النفوس .

فإنا نقول : قال أبو حنيفة ثم يخالفه الشافعى، وإنما ينبغى أن يتبع الدليل .

قال المروذى [١] : مدح أحمد بن حنبل النكاح، فقلت له : قد قال إبراهيم ابن أدهم، فصاح وقال: وقعنا فى بنيات الطريق ، عليك بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وتكلم أحمد فى الحارث المحاسبى [٢] ورد على سرىّ السقطى حين قال : لما خلق الله الحروف وقف الألف وسجدت الباء ؛ فقال : نفّروا الناس عنه ، فالحق لا ينبغى أن يحابى ، فإنه جد .

وإنى أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة ، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم .

---

(١) المروذى (بالذال) ووهم من رواه بالراى .

(٢) انظر بحثنا لما حدث بين الإمام أحمد والإمام المحاسبى فى مقدمة كتاب (أعمال القلوب والجوارح) للمحاسبى .

فيقال : قال أبو طالب المكى : كان من السلف من يزن قوته بكربة فينقص كل يوم !!!

وهذا شيء ماعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه وإنما كانوا يأكلون دون الشبع .

فأما الحمل على النفس بالجوع فنهى عنه .

ويقول : قال داود الطائى لسفيان : إذا كنت تشرب الماء البارد متى تحب الموت ؟ وكان ماؤه فى دن .

وما علم أن للنفس حظاً ، وأن شرب الماء الحار يرهل المعدة ويؤذى ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبرد الماء .

ويقول آخر منهم : منذ خمسين سنة أشتهى الشواء ما صفا لى درهمه .

ويقول آخر : أشتهى أن أغمس جزرة فى دبس فما صح لى .

أتراهم أرادوا حبة منذ خرجت من المعدن ما دخلت فى شبهة ؟

هذا شيء ما نظر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وإن كان الورع حسناً ، ولكن لا على حمل المشاق الشديدة .

وهذا بشر الحافى يقول : لا أحدث لأنى أشتهى أن أحدث ، وهذا تعليل لا يصلح ، لأن الإنسان مأمور بالنكاح ، وهو من أكبر المشتهى[2] .

---

(١) عجيب . ومن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحرى الحلال الخالص ـ أليس كان يمنع عن الصدقة لأنها من أوساخ الناس . ومن قال إنهم أرادوا الحبة مذ خرجت من المعدن . بل أرادوا مالا شبهة فيه . وكفى .

(٢) فرق بين الحالين . فالنكاح للصد عن الحرام . أما الحديث ففيه شهوة ، وفرق بين الغريزة والشهوة يجتلبها الإنسان . وهكذا نجد ابن الجوزى متعصباً دون دليل .

وكان بشر حافياً حتى قيل له الحافى ، ولو ستر أمره بنعلين كان أصلح .

والحفاء يؤذى العين ، وليس من أمر الدنيا فى شىء . فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم نعلان .

وما كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويمزح ويختار المستحسنات ويسابق عائشة رضى الله عنها ، وكان يأكل اللحم ، ويحب الحلوى ، ويستعذب له الماء .

وعلى هذا كان طريقة أصحابه ، فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة ، وكلها على غير الجادة .

ويحتجون بقول المحاسبى والمكى(١) ، ولا يحتج أحد منهم بصحابى ولا تابعى ولا بإمام من أئمة الإسلام .

فإن رأوا عالماً لبس ثوباً جميلا ، أو تزوج مستحسنة ، أو أفطر بالنهار ، أوضحك ، عابوه .

فينبغى أن يعلم أن أكثر من صح قصده منهم على غير الجادة لقلة علمهم.

حتى أن بعضهم يقول : منذ ثمانين سنة ما اضطجعت .

ويقول آخر : حلفت لا أشرب الماء سنة .

---

(١) لا . بل هى سنة الصحابة رضى الله عنهم . وأحاديث زهدهم وجوعهم يعرفها غير ابن الجوزى .

وهؤلاء على غير الصواب ، فإن للنفس حقاً .

فأما من ساء قصده ممن نافق وراءى لاجتلاب الدنيا وتقبيل الأيدى فلا كلام معه ، وهم جمهور المتصوفة ، فإنهم رفعوا الثياب الملونة ليراهم الناس بعين الترك للزينة ، وما معهم أحسن من السفلاطون . وإنما رقع القدماء للفقر .

فهم فى اللذات وجمع المال وأخذ الشبهات واستعمال الراحة واللعب ومخالطة السلاطين .

وهؤلاء قد كشفوا القناع ، وباينوا زهد أوائلهم .

بلى : أعجب منهم من ينفق عليهم !!

٣٦٢ ـ فصل : من أدلة البعث

إن الله عز وجل جعل لأحوال الآدمى أمثلة ليعتبر بها .

فمن أمثلة أحواله القمر الذى يبتدىء صغيراً ، ثم يتكامل بدراً ، ثم يتناقص بانمحاق . وقد يطرأ عليه ما يفسده كالكسوف .

فكذلك الآدمى أوله نطفة ، ثم يترقى من الفساد إلى الصلاح ، فإذا تم كان بمنزلة البدر الكامل :

ثم تتناقص أحواله بالضعف ، فربما هجم الموت قبل ذلك هجوم الكسوف على القمر . قال الشاعر :

وَالمَرْءُ مِثلُ هِلالٍ عِندَ طَلْعَتِهِ
يَبْدُو ضَئِيلا لطِيفاً ثُمَّ يَتَّسِقُ
يَزْدَادُ حَتَّى إذا مَا تَمَّ أعْقَبَهُ
كرُّ الجَدِيدَيْنِ نقصاً ثمَّ يَنْمَحِقُ

ومن أمثلة حاله ، دود القز فإنه يكون حياً إلى أن يبتدىء نبات قوته وهو ورق الفرصاد .

فإذا اخضر الورق دبت الروح فيه .

ثم ينتقل من حال إلى حال كانتقال الطفل .

ثم يرقد كغفلة الآدمى عن النظر فى العواقب ثم ينتبه فيحرص على الأكل كحرص الشره على تحصيل الدنيا .

ثم يسدى على نفسه كما يخطب الآدمى الأوزار على دينه ، فيرتهن فى ذلك الحبس كما يرتهن الميت فى قبره .

ثم يقرض فيخرج خلقاً آخر كما تنشر الموتى غرلا بهماً .

وقد دله على البعث تكون النطفة كالميت . ثم تصير آدمياً .

وإلقاء الحب تحت الأرض فيفسد ثم يهتز خضراً .

إذا المرءُ كانتْ لهُ فِكرَةٌ
فَفى كلِّ شَىءٍ لهُ عِبرةٌ

٣٦٣ ـ فصل : إيثار اللذة يفوت الخير الكثير

إنما فضل العقل بتأمل العواقب ، فأما القليل العقل فإنه يرى الحال الحاضرة ، ولا ينظر إلى عاقبتها .

فإن اللص يرى أخذ المال وينسى قطع اليد . والبطال يرى لذة الراحة وينسى ما تجنى من فوات العلم وكسب المال .

فإذا كبر فسئل عن علم لم يدر ، وإذا احتاج سأل فذل ، فقد أربى ما حصل له من التأسف على لذة البطالة .

ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل فى الدنيا .

وكذلك شارب الخمر ، يلتذ تلك الساعة وينسى ما يجنى من الآفات فى الدنيا والآخرة .

وكذلك الزنا ، فإن الإنسان يرى قضاء الشهوة ، وينسى ما يجنى منه من فضيحة الدنيا والحد .

وربما كان للمرأة زوج فألحقت الحمل من هذا به وتسلسل الأمر .

فقس على هذه وانتبه للعواقب ، ولا تؤثر لذة تفوت خيراً كثيراً ، وصابر المشقة تحصل ربحاً وافراً

٣٦٤ - فصل : لا يصح الدين مع تحصيل الملذات

ليس فى الدنيا عيش إلا لعالم أو زاهد .

بلى ، قد يقع فى صفاء حالها كدر . وهو أن العالم يشتغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكسب ، وقد يكون له عائلة ، فربما تعرض بالسلطان ففسد حاله . وكذلك الزاهد .

فينبغى للعالم والعابد أن يتحركا فى معاش ، كالنسخ بأجرة أو عمل الخوص ، وإن فتح له بشىء اقتنع باليسير ، فلا يستعبده أحد .

كما كان أحمد بن حنبل له أجرة لعلها لا تبلغ ديناراً يتقوّت بها .

ومتى لم يقنع أفسدت مخالطة السلاطين والعوام دينه .

وفى الناس من يريد التوسع فى المطاعم ، ومنهم من لا يوافقه خشن العيش ، وهيهات أن يصح الدين مع تحصيل اللذات .

وإذا قنع العالم والزاهد بما يكفى ، لم يتبذل أحدهما للسلطان ، ولم يستخدم بالتردد إلى بابه ، ولم يحتج الزاهد إلى تصنع .

والعيش اللذيذ المنقطع الذى لا يتبذل به ولا يحمل منه .

٣٦٥ ـ فصل : التفاوت بين العلماء فى الأصول والفروع

ما أكثر تفاوت الناس فى الفهوم ، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير فى الأصول والفروع .

فترى أقواماً يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحس كقول قائلهم : ينزل بذاته إلى السماء وينتقل .

وهذا فهم ردىء ، لأن المنتقل يكون من مكان إلى مكان ، ويوجب ذلك كون المكان أكثر منه ويلزم منه الحركة وكل ذلك محال على الحق عز وجل .

وأما فى الفروع فكما يروى عن داود[1] أنه فى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه » . فقال : إن بال غيره جاز .

فما يفهم المراد من التنجيس بل يأخذ بمجرد اللفظ .

وكذلك يقول : لحم الخنزير حرام لا جلده . نعوذ بالله من سوء الفهم .

وكذلك يتفاوت الشعراء الذين شغلهم التفطن لدقائق الأحوال كقول قائلهم :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

---

(١) ومنهم ابن حزم صاحب المحلى وقد تسمى بعضهم فى عصرنا بأهل الحديث ، وهم أضيق الناس نظرا ، وأبعدهم عن فهم حقيقة التشريع ، حتى وضع ابن حزم كتابا فى إبطال القياس ، وكأنه يريد أن يبطل أغلب أحكام الشريعة بهذا .

والجفنات عدد يسير . فلو قال : الجفان لكان أبلغ ، ولو قال : بالدجى لكان أحسن ، ويقطرن دليل على القلة . وكذلك قول القائل :

كَمِثْلِهَا الْعِطْرُ وَالْفِرَاشُ وَيَعْلُو
هَا لُجَيْنٌ مُنظمٌ وَلآلِي

وهذا قاصر ، فإنه لو فعلت هذا سوداء لحسنها . إنما المادح هو القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كلما جِئْتُ طَارِقاً
وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وكذا قول القائل :

أَدْعُو إِلَى هَجْرِهَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي
حَتَّى إِذَا قُلْتُ هَذَا صَادِقٌ نَزَعاَ

ولو كان صادقاً فى المحبة لما كان له قلب يخاطبه . وإذا خاطبه فى الهجر لم يوافقه . إنما المحب الصادق هو القائل :

يقولون لوْ عاتبْتَ قلبَكَ لارْعَوى
فقُلْتُ وهَلْ لِلْعاشِقِينَ قُلوبُ

ومثل هذا إذا نوقش كثير .

فأقل موجود فى الناس الفهم والغوص على دقائق المعانى .

٣٦٦ ـ فصل : اللذات مشوبة بالمنغصات

من تأمل الدنيا علم أنه ليس فيها لذة أصلا ، فإن وجدت لذة شيبت بالنغص التى تزيد على اللذة أضعافا .

فمن اللذات النساء . فربما تثبت المستحسنة ، وربما لم تحب الزوج ، فمتى علم ذلك ، يعزل عنها ، وربما خانت ، وذلك الهلاك .

فإن تمت المرادات فَذِكرُ الفراق زائد فى التألم على الالتذاذ .

ومن اللذات الولد ومقاساة البنت إلى أن تتزوج ، وما تلقى من زوجها وخوف عارها محن قبيحة .

والابن إن مرض ذاب الفؤاد ، وإن خرج عن حد الصلاح زاد الأسف ، وإن كان عدواً فمراده هلاك الأب ، ثم إن تم المراد فذكر فراقه يذيب القلوب .

ولو أن فاسقاً أحب بعض المردان(١) انهتك عرضه فى الدنيا ، وذهب دينه .

ثم لا يلبث أن تتغير حليته ، فيصير مبغوضاً مع ما سبق من الهتكة والإثم .

وكم قد غلبت شهوة رجل وطىء الجوارى السود فجاء الولد أسود ، فبقى عاراً عليه(٢) .

ومن هذا الجنس الالتذاذ بالمال ، وفى تحصيله آثام ، وفراقه حسرة ، وذهاب العمر فيه غبن .

وهذا أنموذج لما لم يذكر فينبغى لمن وفقه الله سبحانه أن يأخذ الضرورى

(١) فى الدمشقية : المراد .

(٢) كيف يكون السواد عاراً عند رجل يقوم سلوك العلماء ، ويدعى عرفان الشريعة أكثر منهم .

الذى يميل إلى سلامة الدين والبدن والعافية ، ويهجر الهوى الذى نغصه تتضاعف على لذته .

ومن صبر على ما يكره قصد النفع فى العاقبة التذّ أضعافاً ، كطالب العلم فإنه يتعب يسيراً وينال خير الدارين مع سلامة العاقبة .

ولذة البطالة تعقب عدم العلم والعمل ، فيزيد الأسى على اللذة أضعافا .

فالله الله أن يغلبك هواك العاجل ، ومتى همّ الهوى بالتوثب فامنعه وزن عاجله بآجله . وما يتذكر إلا أولو الألباب .

٣٦٧ ـ فصل : عليكم بالكتاب والسنة ترشدوا

رأيت إبليس قد احتال بفنون الحيل على الخلق ، وأمال أكثرهم عن العلم الذى هو مصباح السالك ، فتركهم يتخبطون فى ظلمات الجهل ،وشغلهم بأمور الحس ، ولا يلتفتون إلى مشورة العقل .

فإذا ضاق بأحدهم عيشه أو نكب ، اعترض فكفر .

فنهم من ينسب ذلك إلى الدهر . ومنهم من يسب الدنيا .

وهذا إسفاف ، لأن الدهر والدنيا لايفعلان ، وإنما هو عيب المقدّر .

ومنهم من يخرجه الأمر إلى جحد الحكمة ، فيقول : أى فائدة فى نقض المبنى ؟

وزعم بعضهم أنه لا يتصور عود المنقوض ، وأنكروا البعث ، ويقولون : ماجاء من ثَمّ أحد[1] .

---

(١) أى من عالم الآخرة .

ونسوا أن الوجود ما انتهى بعد ، ولو خلفنا لصار الإيمان بالغيب عياناً. ولا يصلح أن يستدل[1] على الأحياء بالأحياء .

ثم نظر إبليس فرأى فى المسلمين قوماً فيهم فطنة فأراهم أن الوقوف على ظواهر الشريعة حالة يشاركهم فيها العوام . فحسن لهم علوم الكلام وصاروا يحتجون بقول بقراط وجالينوس وفيثاغورس .

وهؤلاء ليسوا بمتشرعين ولا تبعوا نبينا صلى الله عليه وسلم ، إنما قالوا بمقتضى ما سوّلت لهم أنفسهم .

وقد كان السلف إذا نشأ لأحدهم ولد شغلوه بحفظ القرآن وسماع الحديث، فيثبت الإيمان فى قلبه .

فقد توانى الناس عن هذا فصار الولد الفطن يتشاغل بعلوم الأوائل ، وينبذ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول : أخبار آحاد .

وأصحاب الحديث عندهم يسمون حشوية .

ويعتقد هؤلاء أن العلم الدقيق علم الطفرة والهيولى والجزء الذى لا يتجزأ .

ثم يتصاعدون إلى الكلام فى صفات الخالق ، فيدفعون ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بواقعاتهم .

فيقول المعتزلة إن الله لا يُرَى لأن المرئىّ يكون فى جهة ، ويخالفون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم ترَوْنَ ربكم كما ترون القمر لا تضامون

---

(١) فى الحديثة : يدل .

فى رؤيته ، فأوجب هذا الحديث إيثار رؤيته ، وإن عجزنا عن فهم كيفيتها[١] .

وقد عزل هؤلاء الأغبياء عن التشاغل بالقرآن ، وقالوا مخلوق ، فزالت حرمته من القلوب .

وعن السنة وقالوا أخبار آحاد . وإنما مذاهبهم السرقة من بقراط وجالينوس .

وقد استفاد من تبع الفلاسفة أنه يرفه نفسه عن تعب الصلاة والصوم ، وقد كان كبار العلماء يذمون علم الكلام ، حتى قال الشافعى : حكمى فيهم أن يركبوا على البغال ويشهروا[٢] ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بالكلام[٣] .

وقد آل بهم الأمر إلى أن اعتقدوا أن من لم يعرف تحرير دليل التوحيد فليس بمسلم .

فالله الله من مخالطة المبتدعة . وعليكم بالكتاب والسنة ترشدوا .

٣٦٨ - فصل : الوقت كالسيف

رأيت العادات قد غلبت الناس فى تضييع الزمان ، وكان القدماء يحذرون من ذلك .

---

(١) انظر أوضح ما كتب فى هذا الموضوع فى كتاب (منهاج العوارف فى شرح مشكل الحديث) المنسوب للقاضى عياض فى الحديث الرابع . مخطوط . فهرس الحديث بدار الكتب المصرية .

(٢) رواية الشعرانى فى الطبقات : ويضربوا بالجريد .

(٣) نقل ابن مفلح عن ابن عقيل جواز الاشتغال بالكلام بقدر الضرورة . انظر الآداب الشرعية ١/١٩٥ .

قال الفضيل : أعرف من يعدّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة .

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا : لعلنا شغلناك ، فقال : أصدقكم كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم .

وجاء رجل من المتعبدين إلى سريّ السقطي ؛ فرأى عنده جماعة ، فقال : صرت مناخ البطالين ، ثم مضى ولم يجلس .

ومتى لان المزور طمع فيه الزائر ، فأطال الجلوس ، فلم يسلم من أذى .

وقد كان جماعة قعوداً عند معروف فأطالوا فقال : إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها أفما تريدون القيام ؟ .

وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس ،قال له رجل : قف أكلمك ، قال : فأمسك الشمس .

وقيل لكرز بن وبرة : لو خرجت إلى الصحراء ، فقال : يبطل الزوجار[1] .

وكان داود الطائي يستف الفتيت[2] ويقول : بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية .

وكان عثمان الباقلاني[3] دائم الذكر لله تعالى ، فقال : إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر .

---

(١) هكذا في جميع الأصول .
(٢) الخبز المهروس .
(٣) في الحديثة : الباقلاوي .

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال : إذا خرجتم من عندى فتفرقوا ، لعل أحدكم يقرأ القرآن فى طريقه . ومتى اجتمعتم تحدثتم .

واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيّع منه لحظة ، فإن فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له بها نخلة فى الجنة »

فكم يُضيّع الآدمى من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل ، وهذه الأيام مثل المزرعة ، فكأنه قيل للإنسان . كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر ، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف فى البذر ويتوانى .

والذى يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما أمكن ، والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقى .

وقلة الأكل ، فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل .

ومن نظر فى سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته .

٢٦٩ ـ فصل : المعاشرة الزوجية أساسها المحبة

ينبغى للعاقل أن يتخير امرأة صالحة ، من بيت صالح ، يغلب عليها[1] الفقر لترى ما يأتيها به كثيراً ، وليتزوج من يقاربه فى السن .

فأما الشيخ فإنه إذا تزوج صبية آذاها ، وربما فجرت ، أو قتلته ، أو طلبت الطلاق وهو يحبها فيتأذى .

وليتمم نقصه بحسن الأخلاق وكثرة النفقة[2] .

---

(١) فى الحديثة : عليه ، وهو عكس المعنى المقصود .

(٢) كرر المؤلف هذا العلاج وهو غير صحيح كما دلت عليه تجارب الناس .

ولا ينبغى للمرأة أن تَقرَبَ من زوجها كثيراً فتُمَلّ ، ولا تبعُد عنه فينساها .

ولتكن وقت قربها إليه كاملة النظافة متحسنة ، ولتحذر أن يرى فرجها أو جسمها كله ، فإن جسم الإنسان ليس بمستحسن .

وكذلك ينبغى ألا يريها جسمه ، وإنما الجماع فى الفراش .

ورأى كسرى يوما كيف يسلخ الحيوان ويطبخ ، فتقلبت نفسه ، ونفى اللحم ، فذكر ذلك لوزيره ، فقال : أيها الملك ، الطبيخ على المائدة ، والمرأة فى الفراش ، ومعناه لا تفتش على ذلك .

قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رآه منى ، وقام ليلة عرياناً فما رأيت جسمه قبلها .

وهذا الحزم ، وبذلك لا يعيب الرجل المرأة لأنه لم يرعيوبها .

وليكن للمرأة فراش وله فراش ، فلا يجتمعان إلا فى حال الكمال .

ومن الناس من يستهين بهذه الأشياء فيرى المرأة متبذلة تقول : هذا أبو أولادى ، ويتبذل هو ، فيرى كل واحد من الآخر مالا يشتهى ، فينفر القلب وتبقى المعاشرة بغير المحبة .

وهذا فصل ينبغى تأمله والعمل به فإنه أصل عظيم .

٢٧٠ ـ فصل : من أذل نفسه خسر الدنيا والآخرة

لا عيش فى الدنيا إلا للقنوع باليسير ، فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهم ، وتشتت القلب ، واستعبد العبد .

وأما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه ، ولا يبالى بمن هو مثله ، إذ عنده ما عنده .

وإن أقواماً لم يقنعوا وطلبوا لذيذ العيش فأزروا بدينهم ، وذلوا لغـــيرهم .

وخصوصاً أرباب العلم فإنهم ترددوا إلى الأمراء فاستعبدوهم ، ورأوا المنكرات ، فلم يقدروا على إنكارها ، وربما مدحوا الظالم اتقاء لشره[1] .

فالذى نالهم من الذل وقلة الدين أضعاف ما نالوا من الدنيا .

ومن أقبح الناس حالا من تعرض للقضاء والشهادة ، ولقد كانتا مرتبتين حسنتين .

وكان عبد الحميد القاضى لا يحابى ، فبعث إلى المعتضد وقال له : قد استأجرتَ وقوفا فأد أجرتها ، ففعل .

وقال له المعتضد : قد مات فلان ولنا عليه مال ، فقال : أنت تذكر لمَّا وَليتنى قلت لى : قد أخرجتُ هذا الأمرَ من عنقى ، ووضعتهُ فى عنقك ، ولا أقبل هذا الذى تقول إلا بشاهدين .

وكذلك كان الشهود ، دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال الخادم : اشهدوا على مولانا بكذا ، فشهدوا ، فتقدم المجزوعى إلى الستر ،فقال : ياأمير المؤمنين ، أشهد عليك بما فى هذا الكتاب ، فقال : أشهد .

قال : إنه لا يكفى فى ذلك ، لا أشهد حتى تقول نعم ، قال : نعم .

---

(١) انظر الفصل ٢٧ من الوصايا للمحاسبى .

فأما فى زماننا فتغيرت تلك القواعد من الكل ، خصوصاً من يتقرب إليه بالمال ليستشهد فتراه يُسحب ليشهد على ما لا يرى .

قال لى أبو المعالى بن شافع : كنت أحمل إلى بعض أهل السواد ، وهو محبوس وأشهد عليه .

وأنا أستغفر الله من ذلك .

وليس للشهود جراية فيحملون ذلك لأجلها ، وإنما الذى يحصل جر الطيلسان ، وطرق الباب ، وقول المعرّف : حرس الله نعمتك ، شهادة .

ولما قيل لإبراهيم النخعى : تكون قاضياً . ليس قميصاً أحمر وجلس فى السوق . فقالوا : هذا لا يصلح .

ودخل بعض الكبار على الرشيد — وقد أحضره ليوليه القضاء — فسلم وقال له : كيف أنت وكيف الصبيان ؟

فقيل : هذا مجنون ، فيالله جنون هو العقل .

وما أظن الإيمان بالآخرة إلا متزلزلا فى أكثر القلوب (١) .

نسأل الله سبحانه سلامة للدين فإنه قادر .

٣٧١ ـ فصل : العبث على الله محال

قد تكرر معناه فى هذا الكتاب ، إلا أن إعادته على النفوس مهمة لئلا يُغفل عن مثله .

---

(١) والإمام الأعظم أبو حنيفة ومحنته الطويلة بسبب القضاء . انظرها فى كتاب (تنوير بصائر المقلدين) للشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى فى مناقب الإمام الأعظم .

ينبغى للمؤمن أن يعلم أن الله سبحانه مالك حكيم لا يعبث ، وهذا العلم يوجب نفى الاعتراض على القدر .

وقد لهج خلقٌ بالاعتراض قدحاً فى الحكمة ، وذلك كفر .

وأولهم إبليس فى قوله : « خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١) » .

ومعنى قوله : أن تفضيلك الطين على النار ليس بحكمة .

وقد رأيت من كان فقيهاً دأبه الاعتراض .

وهذا لأن المعترض ينظر إلى صورة الفعل ، ولو أن صورة الفعل صدرت من مخلوق مثلنا حسن أن يعترض عليه .

فأما من نقصت الأفهام عن مطالعة حكمته ، فاعتراض الناقص الجاهل عليه جنون .

فأما اعتراض الخلعاء فدائم ، لأنهم يريدون جريان الأمور على أغراضهم ، فمتى انكسر لأحدهم غرض اعترض .

وفيهم من يتعدى إلى ذكر الموت فيقول : بنى ونقض .

وكان لنا رفيق قرأ القرآن والقراءات وسمع الحديث الكثير ، ثم وقع فى الذنوب وعاش أكثر من سبعين سنة ، فلما نزل به الموت ذُكر لى أنه قال : لا ضاقت الدنيا إلا من روحى .

ومن هذا الجنس سمعت شخصاً يقول عند الموت : ربى يظلمنى . وهذا كثير .

---

(٢) جزء من الآية ١٢ من سورة الأعراف ، ٢٦ من سورة ص .

ويكره أن يحكى كلام الخلعاء فى جنونهم واعتراضاتهم الباردة .

ولو فهموا أن الدنيا ميدان مسابقة ومارستان صبر ليبين بذلك أثر الخالق، لما اعترضوا .

والذى طلبوه من السلامة وبلوغ الأغراض أمامهم لو فَهِمُوا .

فَهُمْ (كالزورجارى) يتلوث بالطين ، فإذا فرغ لبس ثياب النظافة .

ولما أريد نقض هذا البدن الذى لا يصلح للبقاء نحيت عنه النفس الشريفة وُبنِىَ بناء يقبل الدوام

وبعد هذا فقل للمعترض : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ »(١) .

قل له : إن اعترض لم يمنع ذلك جريان القدر ، وإن سلم جرى القدر .

فلأن يجرى وهو مأجور ، خير من أن يجرى وهو مأزور .

وما أحسن سكوت وضاح اليمن لما اختبأ فى صندوق ، فقال السلطان أيها الصندوق ، إن كان فيك ما نظن فقد محونا أثرك .

وإن لم يكن فليس بدفن خشب من جناح .

فلو أنه صاح ما انتفع بشىء ، ولربما أخرج فقتل أقبح قتلة ،

٣٧٢ - فصل : اجتماع الهمة فى خدمة الحق

من تلمح أحوال الدنيا ، علم أن مراد الحق سبحانه اجتنابها .

---

(١) جزء من الآية ١٥ من سورة الحج .

فمن مال إلى مباحها ليلتذ وجد مع كل فرحة ترحة ، وإلى جانب كل راحة تعباً ، وآخر كل لذة نقصاً يزيد عليها .

وما رفع شيء من الدنيا إلا ووضع .

أحب الرسول صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها ، فجاء حديث الإفك .

ومال إلى زينب ، فجاء : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً[1] »

ثم يكفى أنه إذا حصل محبوبه فعين العقل ترى فراقه فيتنغص عند وجوده، كما قال الشاعر :

أَشَدُّ الْحُزْنِ عِنْدِي فِي سُرُورٍ
تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالا

فيعلم العاقل أن مراد الحق بهذا التكدير التنفير عن الدنيا ، فيبقى أخذ البلغة منها ضرورة ، وترك الشواغل ، فيجتمع الهم فى خدمة الحق .

ومن عدل عن ذلك ندم على الفوات .

٢٧٣ ـ فصل : نصائح شتى

العاقل يدبر بعقله عيشته فى الدنيا .

فإن كان فقيراً اجتهد فى كسب وصناعة تكفه عن الذل للخلق ، وقلل العلائق ، واستعمل القناعة ، فعاش سليما من منن الناس عزيزاً بينهم .

---

(١) جزء من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب

وإن كان غنياً فينبغى له أن يدبر فى نفقته خوف أن يفتقر فيحتاج إلى الذل للخلق .

ومن البلية أن يبذر فى النفقة ويباهى بها ليكمد الأعداء .

كأنه يتعرض بذلك — إن أكثر — لإصابته بالعين .

وينبغى التوسط فى الأحوال ، وكتمان ما يصلح كتمانه .

ولقد وجد بعض الغسالين مالا فأكثر النفقة ، فعُلم به ، فأخذ منه المال ، وعاد إلى الفقر .

وإنما التدبير حفظ المال ، والتوسط فى الإنفاق ، وكتمان مالا يصلح إظهاره .

ومن الغلط إطلاع الزوجة على قدر المال ، فإنه إن كان قليلا هان عندها الزوج ، وإن كان كثيراً طلبت زيادة الكسوة والحلى .

قال الله عز وجل : «وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ »[1] وكذلك الولد .

وكذلك الأسرار ، ينبغى أن تحفظ وأن يحذر منها ، ومن الصديق ، فربما انقلب ، فقد قال الشاعر :

إِحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ

فَلَرُبَّمَا انقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالمَضَرَّهْ

* * *

(١) جزء من الآية ٥ من سورة النساء .

بحمد الله تعالى قد نجز ماتوخاه الفكر الفاتر من تقييد ماجمعه القلم من صيد الخاطر ، مقتصراً فيه على مابه التخلى من الأمراض النفسية ، والتحلى بالآداب الشرعية ، والأخلاق المرضية .

جعله لله تعالى خير هاد على منبر الوعظ والإرشاد ، وأنفع كتاب تجلى فى مرايا الظهور لهداية العباد .

والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صححه وراجعه

محمود غانم غيث

فهرست

كتاب صيد الخاطر

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
فصل : على العامى الإيمان بالأصول	٤٢٧
« المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل	٤٢٨
« رجاء الرحمة	٤٢٩
« ذل النفس للخالق	٤٣١
« الزم خلوتك	٤٣٢
« إنما يتمشى من لم يخاص	٤٣٤
« الروح لا الجسد	٤٣٦
« البعد عمن كان همه الدنيا	٤٣٧
« زيارة الصالحين تجلو القلب	٤٣٩
« أولياء الله	٤٤٠
« ذلك مبلغهم من العلم	٤٤٢
« الله لا يقبل إلا الطيب	٤٤٣
« القلوب تشهد للصالح بالصلاح	٤٤٦
« سيرة السلف الصالح	٤٤٧
« سلم لما لا تعلم	٤٤٨
« الخروج للمقابر للعظة	٤٥٠
« لا غفلة لكامل العقل	٤٥١
« هل البعث للروح أم للجسد ؟	٤٥١
« الصنعة دليل على وجود الصانع	٤٥٢
« الاجتهاد فى معرفة الحق	٤٥٤
« التقوى خير ذخيرة للنفس	٤٥٥
« الزهد الكاذب	٤٥٦
« التشاغل بالمعاش	٤٥٧
« لا يغنى حذر عن قدر	٤٥٨
« اللذات الحسية	٤٥٩
« فضل الاعادة والحفظ	٤٦١
« التثبت والنظر فى العواقب	٤٦١

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ٧٩/٢٨١٦
الترقيم الدولى ٨ — ٤٥ — ٧٩١٦

دار الشباب للطباعة
١٥ شارع العباسية بالقاهرة
ت: ٨٣٩٧٣٠

